

جان پون اوليفيه



9.3.2016

مِت يطلع الفجر يارفيق؟

قصة الثورة الروسية



دار الآداب

متى يطلع الفجر بارسيف؟

قصة الثورة الروسية

بقلم هان بول أوليفيه
ترجمة جوبرج طرابيشي

دار الآداب - بيروت

منى بطلع الصجر يار فيق ؟

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٧٠

تشرين الاول = تشرين الثاني

بهدف المقابلة بين الحوادث التي جرت في الشرق وفي الغرب في آن واحد ، اتبعت في سردها التقويم الغريغوري المتبع في الغرب ، والمتقدم بثلاثة عشر يوماً على تقويم روسيا القديمة . وقد جاء قرار الجمهورية الاشتراكية السوفياتية الفتية بتبني النظام الغربي اعتباراً من كانون الثاني ١٩١٨ ليحل محل ٧ تشرين الثاني بدلاً من ٢٥ تشرين الأول يوم الاحتفال الرسمي بذكرى الثورة البلشفية . لكن اليوم العظيم الذي هز العالم سيبقى في ميثولوجيا التاريخ يوم ثورة أكتوبر .

(١)

فجر السوفيات

(١)

في الساعات الاولى من الصباح ، في باريس المنكمشة على نفسها بفعل رياح الخريف الباردة الاولى ، تعلى من زوايا الشوارع قرع طبول غير منتظر . ذلك ان الحكومة قد قررت ، بعد أن أمسى شتاء الحرب الرابع على الابواب ، أن تستبدل الصافرات التي يسهل على الطائرات العدو سماع زئيرها بطبول مكسوة باللباد ، مخنوقة الصوت . انه نبأ جديد من انباء الحرب التي ترى يوماً منذ ثلاثة اعوام وأربعة أشهر ، والتي تبدو وكأن لا هدف لها غير ان تمنح اوروبا وهنم الاستمرار في الحياة على ارض تدور بلا تاريخ .

بيد ان القارئ لم يكن يعير اهتماماً من كل الصحافة اليومية إلا للبلاغات الخاصة بالحرب الضروس . فهو يفكر اليوم في حماية نفسه من أخطار الغارات الجوية ، كما كان يتفكر بالأمس بتنفيذ حكم الاعدام في ماتا - هاري او يتأمل معجباً في ساحة الأنفاليد « شارل العجوز » ، الطائرة المظفرة التي أسقط غينيمير من على متنها تسع عشرة طائرة ألمانية .

في ذلك اليوم ، ٧ تشرين ١٩١٧ ، في ساعة تجربة الطبول ، كان وليم مارتان ، مدير المراسم في وزارة الخارجية الفرنسية ، ينتظر وصول دبلوماسيين حليفين جديدين . وفي الساعة الثامنة والنصف إلا خمس دقائق استقبل في محطة الشمال باسيل ماكلاكوف ، سفير روسيا الجديد في باريس المسمى

من قبل حكومة ألكسندر كيرنسكي المؤقتة . وبعد بضعة دقائق ، اي في تمام التاسعة ، كان عليه أن يستقبل في محطة اورسي الكونت بونان – لونغار ، سفير ايطاليا الجديد .

لم يكن باسيل ماكلاكوف ، الطويل القامة ، الضخم الجثة ، المنحني الظهر ، الملتحي الوجه ، بسفير محترف . فهو محام مشهور ، وعلامة جهنم ، ونائب في الدوما منذ ثلاث دورات تشريعية ، وعضو في الحزب الدستوري – الديمقراطى المتطلع الى نظام نيابي حقيقي ، وقد اجتاز بحار الشمال الباردة ليدور حول برميل البارود الذي كانه اوروبا قاصداً باريس عن طريق لندن . ولقد داعب بأصابعه عدة مرات طوال هذه الرحلة الطويلة التي دامت خمسة عشر يوماً شيتين سريين في حقيبته اليدوية : مطرقة وقارورة سم استخدمتا في عملية اغتيال تاريخية ارتكبت مؤخراً .

وقد ادلى الممثل الجديد للجمهورية الروسية الفتية بتصريحه الاول الى صحيفة « اكسيلسيور » :

– ان الوضع الداخلى في روسيا لا يدعو الى القلق الى الحد الذي يمكن تخيله عن بعد . وأنا أقدر ان الحكومة المؤقتة ستتغلب بسرعة على المتطرفين .

وفي صباح اليوم التالي ، في وزارة الخارجية ، وضع لوي بارتو على نحو مباغت حداً لاستقبال ماكلاكوف الدبلوماسي :

– لقد اضطررت الى إلغاء مقابلتكم مع الرئيس ريمون بوانكاريه . لقد اطاح لينين بكيرنسكي هذه الليلة . ان خطاب اعتمادكم لم يعد مقبولاً .

بلبل النبأ السفير . فروسيا التي يجب ، روسيا وطنه ، أضحت في أيدي البلاشفة . ومصير أهله غامض ، او لعله يُقرر في هذه اللحظة بالذات . لقد ترك ماكلاكوف شقيقين في موسكو . ألكسيس ، وهو أخصائي في العيون مشهور ، ورجل بهي الطلعة مشغوف بالفتوحات الغرامية اكثر منه بالأبجاد السياسية ، وحظه كبير في الإفلات من الانتقام الأحمر . لكن الاخ

الأكبر ، نيقولا ماكلاكوف ، التصير العنيد للنظام الملكي المطلق ، ووزير داخلية نيقولا الثاني سابقاً ، مسجون منذ ستة أشهر بانتظار محاكمة يريد لها سادة البلاد الجدد ان تكون مضرب الأمثال .

وايطاليا ، بعد روسيا ، هي ثاني ما يثير قلق الحلفاء الكبير . والكونت بونان - كونغار يعرف وضع بلاده معرفة افضل من معرفة زميله الشرقي . ووضعها هو الآخر دراماتيكي . ففيكتور - عمانوئيل يحاول ان يحل أزمة وزارية أثارها كوارث فريول وكابوريتو . والمملكة هيلين تخفف من قسوة مصير يتامى الهزيمة مقدمة لهم شقق الأمراء الاطفال في قصر الكبيرنال .

وفي روما يعمل بول بانلوفيه ، رئيس الوزراء الفرنسي ، على إرساء أسس مؤتمر فرنسي - انكليزي - ايطالي بهدف توزيع قوات التحالف الجديد . ولم يكن في الافق الايطالي الكالغ سوى بصيص واحد يطمئن بانلوفيه ، بصيص اضاءته يد صحفي اشتركي طليعي شاب ، بينيتو موسوليني عندما صدرت صحيفته « شعب ايطاليا » وهي تحمل العنوان البارز التالي : « ويل لمن يضع الوقت في مناقشات باطلة في اللحظة التي ينادي فيها الوطن ابناؤه جميعاً الى صراع حياة أو موت » .

ان الاشتراكية ، التي تفتح الباب امام الروح الانهزامية في ايام الحرب العنصية تلك وتزرع الشك في قلوب الجنود في الخنادق وتجعل الشعوب تحلم بالخبز والسلم والحرية ، لن تزيد الوضع في مملكة ايطاليا طيناً على بلة . لكن استيلاء البلاشفة على السلطة في روسيا يوجد مبرراً للتخوف من صلح منفرد تكون نتيجته القذف بفرق ألمانية جديدة الى الجبهات الغربية . وها هوذا النائب جورج كليمنصو يصرح علناً اثناء جولة له على القوات المسلحة بثقة عارمة وقد اتملته أنباء انتصار جديد على نهر الموز :

— ان حكومة البلاشفة لن تدوم ثلاثة ايام ...

في الوقت الذي تدين فيه السويد جنون البشر بإلغائها توزيع جوائز نوبل ،

والذي تؤكد فيه سويسرا حيادها بإجرائها انتخابات تشريعية ، تعرف اميركا بدورها استعدادات الحرب . فبلاد العم سام ، الثرية اليوم كما لم تكن قط بفضل شتى انواع شحناتها الى الحلفاء ، لا يمكن أن تغفر للألمان شلهم تجارتها بحرب غواصات لا تعرف الرحمة او الشفقة . ومنذ ٦ نيسان ١٩١٧ دفع الرئيس ويلسون بالآلة الحربية الاميركية العظيمة الى ميدان القتال في اوروبا . وفي ذلك اليوم ، ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ، اختارت نيويورك عمدة ديمقراطياً لها ، هيلان ، واقامت له استعراضاً رائعاً في برودواي ، في الوقت الذي حظرت فيه الحكومة الاتحادية بيع الكحول . وبذلك يكون الاميركان قد دعموا المجهود الحربي ضد أواخر المسالين الذين وجد احد زعمائهم مربوطاً الى شجرة في غابة قريبة من سنيناتي .

اما انكلترا فأعباء الحرب تسحق اقتصادها سحقاً . ولويد جورج يدير دفعة الحكم منذ عام من الزمن ، خلفاً لأسكيث . وقد انتخبت لندن ، مثل نيويورك ، عمدتها الجديد في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ . لكن الموكب الذي حمل المنتخب عبر المدينة كان موسوماً بميمس العصر : مصفحتان تسبقانه ، وتتبعهما دبابة تمتطيها عاملات مصنع للذخيرة ، وشاحنات تحمل بقايا طائرتين عدوتين تم إسقاطهما ... وقد ادى التقنين وانخفاض القوة الشرائية الى انخفاض معنويات الانكليز . فكل أسرة لا يحق لها سوى ستة عيدان من الكبريت في اليوم . وقد عهد الى وزير في الثالثة والاربعين من العمر ومسؤول عن الذخيرة بتلافي مظاهر الضعف في حسّ المواطنين بواجباتهم المدنية : ونستون تشرشل . وها هوذا يحطم نذر الاضرابات باقتراحه إرسال المحرضين عليها الى الخطوط الامامية . ثم انه يشرف بنفسه على كل شيء . ان التعب لا يعرف اليه سبيلاً ، وفي وسع المرء ان يراه صباحاً في الجهة الفرنسية في جولة تفتيشية ومساءً في مكتبه اللندني . وعندما كان يقترب من المخافر الامامية بصحبة قائد القوات الانكليزية دوكلاس هيغ ، كانت بضعة كيلومترات فقط تفصله في منطقة الإبير عن عريف ألماني قضى فترة

الحرب كلها في شمال شرقي فرنسا : ادولف هتلر .

كان الالمان ما يزالون يحتلون بلجيكا وشمال فرنسا وبولونيا وبلدان البلطيق وجزءاً من روسيا البيضاء . ولكن حصار « التفاهم » يفرض على القوى المعادية اقتصاداً انحسارياً . وفي بلجيكا كان المحتلون يمزقون الفرش والوسائد ليستولوا على الصوف . وقد اندلعت فتن وتظاهرات عصيان على متن بعض الوحدات الالمانية الراسية في وللمشافن ، في خليج جاد ، حيث ألقى البحارة بالأميرال شميدت الى البحر .

وفي بافاريا ، في معسكر الأسرى في انغولشتاد ، المعقل رقم ٩ ، حيث سجن الكابتن شارل ديغول الذي اصيب بجرح بالغ في ٢ آذار ١٩١٦ ، نجح ضابط روسي شاب في الثالثة والعشرين من العمر ، في ثالث محاولة له ، في تنفيذ عملية هرب كانت تعتبر بحكم المستحيلة ، بعد ان تنبأ بنجاح الثورة السوفياتية . فقد قال ميشيل توخاتشيفسكي ، الضابط في الحرس الامبراطوري ، المثقف ، المهذب ، النبيل المحتد ، قبل ان يهزأ بالحراس الالمان :

— سوف ننفض روسيا كما لو انها سجادة ، ثم ننفض العالم .
فرد عليه رفاقه في الأسر :

— ولكنك ستعدم رمياً بالرصاص عند وصولك لدى السوفياتيين .

— أعدم رمياً بالرصاص ؟ أنتظقون بالجد ؟ لن أبلغ الخامسة والعشرين حتى اكون قد اصبحت جنرالاً ...

(٢)

كان السفير باسيل ماكلاكوف يجهل لحظة وصوله الى باريس أن نظام بلاده قد تغير في الليلة الفائتة . وعلى بعد آلاف الكيلومترات من هنا ، في الجانب الآخر من الأورال ، على حدود سيبيريا ، كان رجل آخر يجهل

ما حدث . كان ، في البرد والصقيع ، ينشر الخشب ويصور زوجته وأولاده : إنه آخر سليل لآل رومانوف ، نيقولا الثاني ، المنفي في طوبولسك . فمند شهر آذار كانت السلالة التي سادت على روسيا ثلاثة قرون متتالية قد باتت لا تملك سوى بستان لا تزيد مساحته على بضعة دونمات ، مسور بالحواجز لتحجب عنه آفاق الامبراطورية . وقد استبدلت الألقاب الماجدة السالفة ببطاقات هوية عادية لمواطنين عاديين . والأسرة المخلوعة مفصولة عن العالم ، وحتى كنيسة طوبولسك كان يجب ان تكون خاوية قفراء عندما يأتي إليها الامبراطور واهله ليصلوا من اجل خلاص أرواحهم وخلاص روسيا .

في ذلك اليوم ، ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ، كان نيقولا الثاني يعطي ، كما هي عادته صباح كل يوم ، درساً لابنه ، القيصر الصغير الكسيس . كان يحدثه عن روسيا التي كانت ، في اللحظة عينها ، تكتب في التمرد المسلح فصلاً جديداً في تاريخ الشعوب . ففيما وراء حواجز البستان الصغير كان مئة وخمسون مليون انسان يقفزون في المجهول ، طوعاً أو كرهاً ، قفزة لم يعرفها العالم قط من قبل لإعادة بناء بلد جديد على مساحة تمتد اثنين وعشرين مليون كيلومتر مربع من سهوب الامبراطورية القديمة .

بروغراد ، العاصمة ، فريسة الحمى . فقد شرع البلاشفة منذ بضع ساعات في الاستيلاء على السلطة لتسليمها الى الشعب . ولكن مصير المعركة ما يزال غير مؤكد . وفي فجر ٧ تشرين الثاني كان المتمردون يستردون أنفاسهم استعداداً للنصر النهائي .

الحافلات تجري مكتظة بالركاب . المخازن مفتوحة ، البضائع نادرة . ولكن في كل مكان يتأخى جنود وبحارة مع مدنيين خرجوا من المصانع شاهرين البنادق : الحرس الأحمر .

في قصر الشتاء ، احد مخلفات العهد الملكي الباذخ ، تقبع حكومة

كيرنسكي المؤقتة صامدة ، رافضة الاستسلام . وتحت نوافذه انتشرت قوات موالية ، مستعدة للموت . ومن الجبهة كانت تُنتظر قوات أخرى . عند مفارق الطرق أشعلت النيران لاتقاء البرد والرطوبة المخيمين على المدينة . المصفحات تقوم بأعمال الدورية ، من غير ان يعرف أحد هل هي موالية للسلطة المهتدة او في خدمة الانقلاب المتقدم . باعة الصحف مطوقون . الجرائد تُقرأ وتعاد قراءتها ثم يعاد بيعها في السوق السوداء . وإبان الليل أصصت على الجدران عشرات من البيانات المتناقضة . بتروغراد ما عادت تعرف لمن تسلم عصا الطاعة . السكان اعتادوا على الحركات غير المألوفة بعد ان هزتهم احداث ثورة آذار ثم احداث الثورة المضادة . وها هم يعيشون مطلع تشرين الثاني هذا وكلهم أمل في ان الثلج والصقيع سيظهران الجو عما قريب ، ويطردان الزكام ، ويجمدان الوحل . فبندية الشمال بحاجة الى البرد ، وانها للحظة رائعة تلك التي تصبح فيها الزلاجات وسيلة التنقل الوحيدة في بتروغراد ، بينما يمد العمال على جليد نهر النيفا العريض سكك الحافلات التي تجرها الأحصنة ، حتى ترتبط الجزر السبع التي تغمرها عادة مياهها فيما بينها .

بتروغراد؟ ان الهجوم يشن عليها اليوم من قلبها ، مع ان بطرس الأكبر ارادها حصينة منيعة . وقد شادها المهندسون بصورة يسهل معها قمع الفتن ، عند عكفة النهر الأخيرة ، في غور خليج فنلندا . فشوارعها الفسيحة (الجادات) ، وضاف النيفا الباذخة لا تقدم ملجأ للمتمردين ، كما لا تقدمه الأنهر والقنوات الستة والستون التي تمخرها . وجادة نفسكي ، التي يبلغ طولها خمسة كيلومترات وعرضها خمسة وثلاثين متراً ، والمبلطة بالخشب ، هي المحور الذي يدور حوله كل شيء . ومن نهايتها الجنوبية يبدأ طريق موسكو بين العزبات المعزولة . وفي الشمال تتصل بالنيفا عبر الأحياء المترفة ، مركز السلطة والمصارف ، حيث تتجمع القصور الخاصة الباذخة . ومن جانبي هذا المحور بزغت أحياء فيبورغ وبوتيلوف العمالية

مثل فكي الكماشة لتطوق المدينة . وقد اقام القباصرة ، لاتقاء الثورات التي كانت نذرها تلوح في الأفق ، جسوراً متحركة بلغ عددها اربعمئة جسر . وعلى مرمى رشاشات قصر الشتاء ، على الضفة الأخرى من النيفا ، بنوا قلعة حصينة هي قلعة « بطرس وبولس » ، وترسانة ، وثكنة منيعة ، وضريحاً للأباطرة ، وسجناً وحشياً كان اول ضحاياه ابن بطرس الاكبر ، القيصر الكسيس ، الذي عذب حتى الموت . ولاستكمال تدابير الدفاع ، سدّت الاوتوقراطية خليج فنلندا بتحويلها جزيرة كرونشتاد الى حصن منيع .

في فجر ٧ تشرين الثاني تدفقت امواج العمال من الضواحي نحو الشمال ، تحت وابل ناعم وبارد ، لتحاصر قلب المدينة . واذا بقلعة بطرس وبولس ، المنيعة من الخارج ، تسقط من الداخل . ومدافعها لن تطلق قنابلها الى ما وراء قصر الشتاء على الشعب . وفي النيفا ، رست ليلاً المدرعة « اورورا » راسمة ظلاً قائماً .

على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً ، في عرض البحر ، ادارت كرونشتاد ، المجهزة لاتقاء الأخطار الخارجية ، فوهات مدافعها ١٨٠ درجة نحو بتروغراد ، ضد تلك السلطة التي ما عاد البحارة يريدون ان يطيعوها .

في المدينة كان الهدوء مخيماً كما لو ان العاصمة الثائرة ما تزال تتردد في إكمال هجومها . وقد اعتاد المارة منذ شهر آذار على النزوات الشعبية .

جنود انضموا الى صفوف الثورة ، بوجوازيون يتدثرون بمعاطف من الفرو ، مدنيون مدججون بالسلاح ، ربات بيوت واقفات أرتالاً امام المخازن : انه ليس بالمشهد الجديد . أفلا تعلن اللافتات في ساحة قازان ، في نقطة المركز : « هذا المساء ، سيغني شاليابين « دون كارلوس » ، اوبرا فردي ، في بيت الشعب » ؟

ساحة قازان ، مهد الماركسية الروسية . ففي أكثر من ذاكرة واحدة تختلط صورة هذا الشعب المسلح في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ بصورة تقادم عليها الزمن واحداً واربعين عاماً . ولم تكن الساحة آنذاك سوى فسحة عارية ، بلا حديقة ، مبيضة بالثلج . وكانت الحركة الثورية « الأرض والحرية » قد اختارت يوم ٦ كانون الأول ١٨٧٦ لترفع العلم الأحمر الأول في أحياء سان - بيترسبورغ البورجوازية . وكان طالب شاب له من العمر تسعة عشر عاماً ، متدرب هلى حمل السلاح ومعجون بمؤلفات الفلاسفة الالمان ، جورج فالنتينوفيتش بليخانوف ، قد ترك مدينة طامبوف ، مسقط رأسه ، وأسرته النبيلة ، ليأتي مبشراً كيفما اتفق بالكلمة الثورية الطيبة .

وها هوذا يخطب في حفنة من العمال المتلفحين بمعاطفهم :

— إن الرأسمال المتمركز في عدد قليل من الأيدي لن يستطيع ان يقاوم هجوم الشغيلة المتجمعين والمنظمين .

لكن ادارة الشرطة الثالثة ، الاوكرانر الرهيبة ، ساهرة وعلى استعداد للتدخل بكل الصرامة التي أنشأها عليها مؤسسها ، القيصر نيقولا الاول (نيقولا - الهراوة) ، بعد تمرد الكانونيين^(١) .

وقد اوقفت فصيلة فرسان العامل بوتابوف ، احد زعماء الحركة ، الذي سينفى فيما بعد الى سيبيريا حيث ينتظره الموت . كما اقتيد طالب في

(١) حركة أسسها ضباط نبله تشربوا افكار الموسوعيين الفرنسيين بعد الحرب ضد نابليون الاول . وقد تجمهروا في ساحة مجلس الشيوخ في سان - بيترسبورغ ومعهم ثلاثة آلاف من الجنود الذين لقنهم افكارهم ، ورفضوا في ٢٦ كانون الاول ١٨٢٥ ان يؤدوا القسم لنيقولا الاول . وقد تم قمع التمرد بوحشية بالغة اثناء معركة دامية ، بالرغم من العون الذي قدمه العمال الذين كانوا يبنون كاتدرائية القديس اسحق والذين ألقوا بالحطب المشتعل على القوات الموالية .

الثامنة عشرة ، بوغو ليوبوف ، الى قلعة بطرس وبولس ، بينما نجحت امرأة في الرابعة والعشرين ، فيرا نيقولا يفنا فغنز ، ابنة حارس غابات في قازان مغرم بغاربيالدي ، وزوجة قاضي تحقيق مطلقة ومشهورة في كلية الطب بذكائها وجمالها الخارق ، نجحت في الافلات والهرب . ويدين بليخانوف بإفلاته من رجال الشرطة الى برودة اعصاب احد العمال الذي ألبسه قبعته . ولكن اسمه بات من الآن فصاعداً مشهوراً . وصحيح ان بليخانوف الطريد ليس سوى متأمر جديد آخر في لإضبارات الاوكرانا ، ولكنه بات في نظر الشعب وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة أبا الماركسية الروسية . وقد أعارت الانتلجانسيا ، ابنة بوشكين ، الوليدة عن بورجوازية ليست أهلاً بعد للديمقراطية ، اهتمامها نظريات النظام الجديد . وقد اكتشفت العناصر الشابة من طبقة المثقفين هذه ، من خلال الثقافة ، الآفاق الاجتماعية التي يخفيها سور الاوتوقراطية الروسية الوسيطي . والشرطة نخشاها اكثر مما تخشى البروليتاريا .

في « بطرس وبولس » ، الزنانات تعج بالمعتقلين السياسيين الذين ينتظر ١٣٩ منهم ان يحاكموا منذ اربع سنين . وقد اقتيد بوغو ليوبوف الى زنانة إفرادية ضيقة مظلمة . وفي طريقه اليها التقى بالجنرال فيدرو فييدو روفيتش ترييوف ، قائد شرطة بيترسبورغ ، الذي كان في جولة تفتيش على القلعة . وقد أمر ترييوف السجين :

– ارفع قبعتك عن رأسك .

ولكن الطالب رفض جهازاً تنفيذ الأمر ، بل اصلىح على العكس من وضع قبعته على رأسه . فضربه ترييوف وجلده بالسوط مئة جلدة مخالفاً بذلك القوانين الحديثة التي تحظر العقوبات الجسدية . وقد أثار مسلكه هذا استنكار المعتقلين السياسيين والثوريين الطليقيين .

وارادت امرأة في التاسعة والعشرين من العمر ، شاحبة الوجه ، صقيلة

الشعر ، فيرا ايفانوف زاسوليتش ، ابنة فلاحين ميسورين من منطقة سمولينسك ، سبق لها ان اقامت سنتين في المعتقلات الامبراطورية ، ارادت ان تثار لبوغو ليوبوف . وفي ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٨ مثلت في مكتب الجنرال ترييوف مزملة بيرنس ذي شراشر ، متنكرة تحت اسم كوزلوف ، حاملة عريضة توسل . وما كادت تلج المكتب حتى أخرجت من جيبها مسدساً وجرحت قائد الشرطة . ثم ألقّت بالمسدس وتركت رجاله يقيدونها بلا مقاومة . ولم يكن جرح ترييوف مميتاً . ولكن الرصاصة التي نفذت الى الخاصرة اليسرى لن تخرج منها ، وهذا ما سيجعل الهازلين يقولون : « حذار ، ان ترييوف سيطلق النار ! » .

وذاع نبأ محاولة الاغتيال في السجون بمثل لمع البرق . والمعتقلون يعرفون ان المذبذبة هي الشجاعة فيرا زاسوليتش التي كانت قد نجحت قبل ايام في دخول السجن والكشف عن خطتها ، مستخدمة بطاقة الصليب الأحمر . وقد تبنت منظمة « الارض والحرية » خطة الاغتيال لحسابها ، مضيفة الى قائمة أبطالها الطويلة بطلة جديدة .

وافتححت محاكمة ال١٩٣١ ، وهي محاكمة شبان ، في ايلول ١٨٧٨ . وكانت النساء بينهم كثيرات . وكانت عميدتهن كاترين بريشكو - بريشكوفسكايا العاملة في الدعاية في كييف والمحبوسة منذ خمسة اعوام . والى جانبها لفتت الانظار صببية من أسرة عريفة ، عليها سيماء الطالبة ، ناعمة الوجه تحت شعر اصهب : صوفي بيروفسكايا ، اربعة وعشرون عاماً ، صغيرة مثل قطعة من الذهب ولكنها ثمينة مثلها . انها ابنة حاكم بيترسبورغ العام بالذات وابنة أخت وزير التعليم العام . وقد قادتها وحشية والدها الى الشعب ، شأن الكثيرات من الجامعات اللواتي لم يتوانين عن عقد زيجات وهمية لينعتقن من الوصاية العائلية . وقد وجدت هذه الشببية ، المحرومة من الصحافة والاجتماعات الحرة ، رومانيتها في المنشور السري والقنبلة . وطال أمد محاكمة ال١٩٣١ . وافتححت محاكمة فيرا زاسوليتش بسرعة اكبر في قاعة

مجاورة لقصر ليتوفسكي ، وتتبعها بيترسبورغ بحماسة . وكانت المحكمة تغص بجمهور مناصر للمذبحة عندما حدثت المفاجأة المسرحية : فقد حصل الدفاع ، الذي حاكم بمهارة الضحية ترييوف ، على إخلاء سبيلها . واستشاط الحاكم غيظاً من استقلال القضاة . وحاول عدد من رجال الدرك توقيف فيرا زاسوليتش عند خروجها من القاعة ، لكن كانت في انتظارها عربة قادتها الى مكان أمين . وقد سمع المتهمون في الدعوى الكبيرة الهتافات تتعالى حول القصر . وأصبحت فيرا معبودة كل من يتألم في روسيا ، ولكن لم تعد امامها سوى وسيلة واحدة لتبقى طليقة : الهرب الى البلدان الاجنبية . وهكذا رحلت الى سويسرا .

ان النجاح الذي احرزته « الارض والحرية » جعل افواج المتمنين الجدد تنهال عليها . وارادت بلحتها المركزية الحصينة المنيعه ان تدعم شهرتها بالاستمرار في عمل إرهابي عنيف . وبعد خمسة ايام من إخلاء سبيل فيرا ، انهال طلبة جامعة كييف على عميدها ضرباً . وبعد اقل من اسبوع اغتيل مفوض الشرطة في المدينة نفسها طعنأ بالخنجر . وفي ٢١ شباط ١٨٧٩ جاء دور الأمير كروبوتكين ، ابن عم الفوضوي المشهور ، ليسقط صريعاً تحت ضربات « الارض والحرية » . وفي بيترسبورغ سقط الجنرال ميزنستيف قائد الدرك ، صريعاً برصاص إرهابي ولى الأذبار على ظهر حصان . وفي ٧ آذار ١٨٧٩ اغتيل قائد الدرك في اوديسا برصاص غدارة . وفي ٢٣ آذار اطلقت النار على الجنرال درينتين ، خلف الجنرال ميزنستيف . ومن البلطيق الى البحر الأسود تساقط الحكام ورجال الشرطة والدرك صرعى كالذباب . وكان رد العدالة بمستوى الهجمة : فقد شنت سبعة عشر ثورياً في مدى بضعة أشهر . وحلت « الارض والحرية » محل الحركة « الشعبية » الواسعة التي كانت قد حاولت ان تؤلب الفلاحين على الحكومة القيصرية . وكانت الاوكرانا قد نجحت في تفكيك شبكات اولئك المثقفين الشباب الذين كانوا يرتدون زي الفلاحين ليذهبوا الى الشعب ويحرضوه على التمرد .

وكان « الشعبيون » قد حاولوا ، لجهلهم بالقوى العمالية الفتية ولصد الأرياف لهم ، ان يعملوا بدون الشعب ، فأصبحوا أبطالاً لا مجددين لجمهور سلمي . و ارادت « الارض والحرية » ان توغل الى أبعد والى اعلى بهجومها مباشرة على شخص نيقولا الثاني الذي كان تسنمه العرش قد حُتبي على انه ربيع الحرية الأول . والواقع ان إلغاء الرق الذي توج قبل ثمانية عشر عاماً عصر ألكسندر بأجمل مجد في العالم ، وانشاء الزيمستفويات ، التي هي نوع من المجالس العامة ، لم يعتقا الفلاحين من ربقة العصر الوسيط .

ماذا تبقى من بصيص الأمل الذي أضاءه القيصر – المحرر بعبارته المشهورة « إن إلغاء الرق من الأعلى أفضل من انتظار اللحظة التي سيحرر فيها الفلاحون انفسهم بأنفسهم من الأسفل » ؟ .

ان روسيا الزراعية ما تزال تنوء تحت نير طبقة نبيلة قوية وغنية ، مصممة على عرقلة الإصلاحات الزراعية .

وفي ١٤ نيسان ١٨٧٩ جرت اولى المحاولات المنظمة لاغتيال القيصر . فقد اطلق عليه سولوفييف ، وهو محرض قدم خصيصاً من سمارى ، خمس رصاصات من مسدس ، لكنه لم ينجح إلا في بليلة النزهة الامبراطورية ؛ وقد اعتقل على الفور وشنق بعد شهرين . ووجد عدد معين من المتتمين الى « الارض والحرية » في إخفاق محاولة الاغتيال الذريعة التي كانوا ينتظرونها لتغيير تكتيك الحرب . وبناء على مقتضيات الضرورة ، تم تنظيم مشار سري في ٢٩ حزيران ١٨٧٩ في مدينة المياه في لبيتزك ، على احد روافد نهر الدون . ولم يترك جورج بليخانوف ، المتشبع بالفلسفة الماركسية ، حجة إلا واستخدمها لإقناع الارهابيين بأن شجاعتهم ستذهب هباء منثوراً وستبقى بلا غد في ليل التاريخ :

— ... سوف تقتلون الكسندر الثاني . وسوف يأتي غيره . ويكفي ان يقال الثالث بدلاً من الثاني ليس الأبطال هم الذين يصنعون التاريخ ،

لكن التاريخ هو الذي يصنع الابطال . لقد دخلت روسيا في الطريق الرأسمالي . وعلى الثورين ألا يعرقلوها ، وانما عليهم ان يعتمدوا على القوة التي تولدها . ان مجهودنا كله يجب ان ينصب على العمال ، على الجماهير ، لا على الفلاحين . ان هذه الطبقة البروليتارية التي تصعد كل سنة هي الشكل الاكثر تقدماً للاقتصاد ، في حين ان طبقة الفلاحين تنحل .

ولكن أنصار العمل يرتأون غير الرأي الذي يرتثيه ابو الماركسية الروسية . فالرأسمالية لا وجود لها في روسيا في نظرهم إلا بصفة عارضة ، والقوة الثورية الحقيقية تظل طبقة الفلاحين ، والاشتراكية لن تولد إلا بفضل فرديات نخبوية . وبذلك اصبح الانشقاق محتماً . وولدت من المؤتمر السري منظمتان : «التقسيم الأسود» (تقسيم الثروات كافة) التي سيرأسها بليخانوف ، و«إرادة الشعب» المؤلفة من اربعين شاباً بينهم فيرا فغز ، والتي ستتابع النضال المسلح بأي ثمن مهما كان .

واضطر بليخانوف - النظري الى المهاجرة تحت وطأة مطاردة الاوكرانا المستمرة له . وأعد له اصدقاؤه اوراقاً مزيفة وحقيبة لم يكتشف محتواها إلا عند الحدود ؛ قميصاً أحمر وخبزاً أسود !

وبينما كان يفتش في القطار عن مقصورة للمدخين ، اقترح عليه رجال الدرك ان يأتي لينضم اليهم في قاطرتهم . وبذلك غادر الوطن الأم بدون مشاكل . وفي جنيف التقى بفيرا زاسوليتش ، تلك المرأة المشهورة المخلى سبيلها ، والتي انضمت الى مذهبه . وقد احتذى العديدون حذوه ، وهربوا نحو بحيرة لي مان . وكان بينهم بول اكسلرود ، وهو رجل طيب القلب ، اشتراكي صاف ، سليل أسرة رعوية متماسكة ، رفيق في الكفاح في كييف لكاترين بريشكو بريشكوفسكايا ، وعضو فعال في الانتلجانسيا اصبح مؤقتاً لباناً بيتياً ؛ وليون دويتش ، الملقب بأوجين ، الحذر قولاً والجسور فعلاً ؛ وفيكتور ايليتش غورفيش ، الملقب بدان ، الثرثار ،

الدموي الوجه ، الطبيب العسكري ، الأصلع والقليل الأناقة . وفي غضون بضعة أشهر كفت « التقسيم الأسود » عن ان تكون حركة لتصبح حزباً حقيقياً : الحزب الاشتراكي الديمقراطي .

وغادرت روزاري بوغراد ، طالبة الطب الشابة والجميلة ، التي كانت قد اصبحت زوجة لبلبخانوف قبل عام واحد ، الوطن الأم بدورها لتقيم في سويسرا .

في روسيا استمر الفرع الارهابي من « الارض والحرية » ، « ارادة الشعب » ، الذي عقد اجتماعاً في شارع لشتوكوف ، لدى فيرا فغنز ، في حبك مؤامرات الاغتيال . وقد ترأسه اندريه ايفانوفيتش جيليايوف ، الشعبي السابق ، وصديق قطعة الذهب بيروفسكايا التي يعيش معها في اتحاد حرّ ، وكان هو الذي يصنع القنابل في مؤخرة احد ذكاكين العطاراة . وقد أقام مخبراً في نفق تحت الارض حيث كان يساعده شاب في العشرين من العمر : او كلا دسكي . وكان لإعداد قنابل الموت يتم وفق المبدأ التالي : إن ابسط اصطدام بجسم صلب يحطم انبوباً من الزجاج يحتوي على حمض الكبريت ، مما يؤدي الى اشتعال مزيج من كلورات البوتاسيوم ومسحوق السكر ، وتؤدي الحرارة بدورها الى انفجار كبسولة من فلمينات الزئبق فينفجر بالتالي الجسم المتفجر الحقيقي : الديناميت .

ان ألكسندر الثاني هو الذي اقسمت « ارادة الشعب » ان تنفذ فيه حكم الاعدام اثناء رحلة رسمية له الى القرم . وفي الأول من كانون الاول ١٨٧٩ كلفت مجموعات من الارهابيين بلغم سكة الحديد في ضواحي موسكو لنسف القطار الامبراطوري عند عودته باتجاه سان - بيترسبورغ . وكان قائدهم بطلة محاكمة ١٩٣١ التي كان سراحها قد أطلق : صوفي بيروفسكايا ، ابنة حاكم العاصمة العام التي قامت بنفسها بوضع احدى القنابل التي صنعها جيليايوف . ووقفت من بعيد ترصد مرور القطار وشاهدت تدهور عدة

عربات في ضجة عظيمة . لكن القيصر كان قد استقل القافلة السابقة ...

ولم يتسرب اليأس الى اللجنة المركزية لـ «إرادة الشعب» بالرغم من هذا الفشل الثاني . وفكرت في توجيه ضرباتها من داخل مقام ألكسندر بالذات ، أي قصر الشتاء الباذخ حيث قبل نجار يدعى ستيفان خالتورين بأن ينسف قاعة الطعام الامبراطورية ساعة الغداء . وفي مدى بضعة ايام خزن خالتورين عشرين كيلوغراماً من المتفجرات خبأها في فراشه . وفي ١٧ شباط ١٨٨٠ وضع الشحنة الهائلة في احد المقاليد ، وأشعل الفتيل ، وخرج ليتأمل المشهد . وفي الساعة ١٣ انهار قسم من القصر ، ولكن القيصر الذي أخره ضيفه ، الأمير ألكسندر دي باتنبورغ ، مدة نصف ساعة ، أفلت للمرة الثانية من المذبحة التي أودت بأحد عشر جندياً وجرحت ستة وثلاثين آخرين . ولم تحم الشكوك حول خالتورين ، لكن الاوكرانا اعتقلت ، من بين من اعتقلت اوجيني فاغنر ، اخت الجميلة فيرا التي شاركت في ٦ كانون الاول ١٨٧٦ في أول مهرجان ماركسي في ساحة قازان . وكانت ليديا فغنر ، ثالثة الأخوات ، موجودة في سيبيريا الشرقية لنشاطها «التخريبي» ، بينما كان اخوه نيقولا فغنر ، صاحب الصوت الصداح ، يحتل مكانه في بطاقة البلاط .

أما ألكسندر الثاني ، الذي دب في نفسه القلق من استماتة الارهابيين في وضع حد لحياته ، فقد قرر ان يمنح شعبه ما كان ينتظره على أحر من الجمر : دستوراً يتيح له المشاركة في تسيير شؤون الدولة . وفي الأول من آذار ١٨٨١ وبعد عشرين عاماً من إلغاء الرق ، كانت البراءة الامبراطورية موقعة وفي انتظار الإعلان . وقد ابلغ الكسندر بذلك الدوّقة الكبار ووزراءه قبل ان يذهب الى عرض عسكري . وعند عودته ، في الساعة الرابعة عشرة والنصف ، بمحاذاة قناة كاترين ، اصابت عربته المقفلة قبلة مغلّفة في منشفة ، وقتلت بعض فرسان القوزاق المواكبين له . وطاش صواب القيصر ، لكنه لم يمس

بأذى . ومان تبدد دخان الانفجار ، حتى توجه نحو الجرحى . عندئذ انفجرت قبلة ثانية بين ساقيه . وكانت إصابته مميتة ، ونقل الى إحدى حجرات القصر حيث تدفقت الجماهير رافعة الايقونات . وقدم القيصر الكسندر الذي كان له من العمر ست وثلاثون سنة ، وزوجته ماريا فيودوروفنا الدانمركية التي ما تزال تمسك في يدها زلاحتها الجلدية ، وابنهما نيقولا البالغ من العمر اثني عشر عاماً ، لتقبل وداع القيصر . ولسوف يموت تسعة من آل رومانوف الحاضرين في الحجرة المأتمية موتاً عنيفاً .

كان قاتل الاسكندر الثاني قد قتل بشظايا قبلته . لكن الاوكرانا تريد الشبكة كلها . ومنح الامبراطور الحديد ، نيقولا الثالث ، سلطات دكتاتورية لرئيس البوليس العديم الشفقة ، فياشسلاف .ك.بليخني ، وكيل والده السابق ، وعلق مشروع الدستور .

والتجأت صوفي بيروفسكايا ، التي بقيت على رأس مؤامرات « لإرادة الشعب » ، لدى فيرا فغفر . وبعد بضعة ايام ، تم اعتقالها . ثم اعتقل الفتى اوكلادسكي ، المساعد الكيميائي ، صانع القنابل . وسرعان ما تبينت الشرطة أن هذا الأخير واهي الإرادة : « ثوري ضعيف الشكيمة ، يمكن استخدامه » وعرضت عليه بنجاح اقتراح افتداء نفسه بخيانتة اصدقاءه . وعندما اطلق سراحه ، عاد الى مكانه لدى جيليايوف ، ووشى به بعد ثمانية ايام . واثناء ذلك كانت فيرا فغفر قد أخفت الديناميت والوثائق ، فلم تعثر الشرطة عندما قدمت لتفتيش منزلها إلا على حقيبة فارغة وسماور نصف منطفيء .

في المحاكمة كان المدعي العام نيقولا.ف.مورايف ، صديق طفولة صوفي بيروفسكايا . وقد حصل على رأس رفيقة حدائته في اللعب ، وعلى رؤوس جيليايوف وثلاثة متآمرين آخرين . وفي العربة التي قادتها الى المشنقة ، في ٣ نيسان ١٨٨٢ ، جلست صوفي مديرة ظهرها للخيل ، وعلى صدرها تتأرجح لافتة صغيرة : « قاتلة الامبراطور » . وكانت يداها موثوقتين بشدة .

فقالت : « إنني أتوجع » . وكانت هذه شكواها الوحيدة . وكان ترتيب صوفي في الشنق الثالثة ، في ساحة سيمونوفسكي ، قبل عشيقها جيليايوف الذي قبلته لحظة الموت .

واصبح اوكلادسكي المشرف الاول على صناعة القنابل . لكن الشرطة باتت مطلعة من الآن فصاعداً على كل مشاريع الاغتيالات .

ورحلت فيرا فغز ، التي بقيت هي وحدها الطليقة من كل اللجنة المركزية ، الى اوديسا ، محملة بالديناميت ، عاقدة العزم على قتل وزير الدولة بانيوتين . وعندما وشى بها عميل مزدوج ، سيرج ديغاييف ، نجحت في الفرار حتى خاربوف حيث اعتقلتها الشرطة . وبذلك تم حرمان الأخوات فغز الثلاث من الحرية . وحكم على فيرا بالموت ، ثم جاءها العفو ، وارتدت اللباس الصوفي الخشن الرمادي ، المرسوم على ظهره الآس الديناري ، وانتعلت الجزمة النظامية الغليظة . وقد حبستها الشرطة في واحد من أرباب السجون ، سلوسر بورغ ، قرب العاصمة ، حيث كان زعيم الأممية ، ميشيل باكونين ، قد شبه من قبلها الزنانات بقبور . ولم يأذن لفيرا الجميلة بأن تراسل اهلها سوى مرتين في السنة ، وكانت في كل مرة ترجوهم ألا يتدخلوا لصالحها . وعندما رفضت السلطات ذات يوم ان ترسل رسالة لها تفضح فيها لا انسانية المعاملة ، ألقى بنفسها على حارسها ونزعت رتبته من على كتفه .

وهتف ألكسندر الثالث وقد انفرجت نفسه ، وكل ظنه انه قضى على « ارادة الشعب » بعد ان تتبع شخصياً التحقيقات في قضية فغز :

— حمداً لله ، فهذه المرأة الرهيبة هي في السجن الآن !

(٤)

أعادت سياسة الكسندر الثالث روسيا الى أظلم أيام الاوتوقراطية . وسرعان ما أطفأ هذا الامبراطور البسيط ، الطويل القامة ، الضخم الجثة ، المتسئم

للعرش في زهرة العمر ، بصيص الأمل الذي كان والده قد سلطه على دياجير القرون الوسطى ، ليعود الى ممارسة السلطة الالهية المطلقة . وهو يشبه من كل الجوانب الصورة التي رسمها انجلز لنيقولا الأول : وضاعة تامة ، رضى عن النفس ، ضيق في الأفق ، يحسب القسوة قسوة شكيمة والعناد التعسفي قوة ارادة ، عاقد العزم على كل شيء للحفاظ على هيئته .

ان الليبرالية في نظر الكسندر الثالث مقرفة ، والصحافة جرباء ، والمحاكم ثورية . اما الفلاح الموجيه فعليه ألا يحاول زج نفسه في المدارس . وقد رفعت اقساط التعليم « لإقصاء أولاد سائقي العربات والخدم والطباخين والغسالين عن المعاهد والمدارس الثانوية » . وقد قلصت الى الصفر سلطة الزيمستفويات المنبثقة عن إلغاء الرق .

والكسندر الثالث مولع بكل ما هو حديث . وقد كان مقامه في تساركوي - سيلو ، على بعد عشرين كيلومتراً من سان - بيترسبورغ ، اول مدينة اوروبية تضاء في عام ١٨٨٣ بالكهرباء ، بينما انطفأت في الغرب ، في لندن حياة شيخ مبجل ، كارل ماركس ، الذي تشبعت الانتلجانسيا والبروليتاريا بأفكاره .

وبفضل سيرج ويت ، المستخدم البسيط في سكك حديد تفليس الذي اصبح وزيراً للمالية ، نجح القيصر في اجتذاب رساميل اجنبية ضخمة الى امبراطوريته لبناء صناعات حقيقية : نسيج في موسكو ، ميكانيك في بيترسبورغ ، تعدين في الدونز . وقد أفرغ المدخر الفرنسي جوربه الصوفي اكتئاباً في القروض الروسية لأن « إقراض روسيا معناها إقراض فرنسا » . وسوف يكون رمز الاقتصاد من الآن فصاعداً بالنسبة الى كلا البلدين لحيه الكسندر الصهباء وحيه كارنو السوداء .

وعجل الامبراطور ، بكلفة باهظة ، ببناء الخط الحديدي الجبار عبر سيبيريا . والزراعة ، التي يعمل فيها ٨٠٪ من السكان ، هي وحدها التي تُركت على حالها .

وحطمت «ارادة الشعب» نهائياً ، ولكن التهاب الروح الثورية هنا وهناك كان بمثابة تذكير دائم بأن النضال قابل لأن يُستأنف . وقد قامت بعض الاضطرابات في جامعات موسكو وقازان وسان - بيترسبورغ .

وبينما كانت الدول الكبرى في الغرب تبحث عن مجالات حيوية بعيداً عن المتروبولات ، كانت روسيا تمارس هيمنتها داخل حدودها . فقد شرع الكسندر الثالث ، مستغلاً هدنة الازهايين ، في ترويس شعوب امبراطوريته . وتضاعفت المجازر وأعمال النهب والسلب . واضطهدت الأقليات .

وقامت التجمعات العمالية الاولى بفضل ازدهار الصناعة السريع . وبزغت بؤر جديدة في ضواحي المدن الكبيرة ، لا تطلب فيها البذرة الثورية إلا ان تفتح . وأسس خالتورين ، ناسف قاعة الطعام الامبراطورية ، اول اتحاد للعمال ، اتحاد عمال الشمال . ولكنه اعتقل وشنق في عام ١٨٨٢ .

وراح العمال ، المكسدون مع أسرهم في حظائر المصانع ، يتعاطون الشراب . وحول التجمعات الصناعية ، رسمت سدادات زجاجات الفودكا الشمعية خطوطاً حمراء على الجدران . ولكن البروليتاريا كانت تعي مدى قوتها . وفي عام ١٨٨٥ قرر عمال المليونير المشهور موروسوف ، هاوي الرسم الفرنسي ، البالغ تعدادهم ثمانية آلاف ، والعاملون في المجمع النسيجي اورينخوفو زويغو ، قرب موسكو ، قرروا ان ينظموا للمرة الأولى ما يعتبره القانون جرماً : الإضراب . وخاض القوزاق ، المساعدون الموالون والتقليديون للشرطة ، المارك الأولى مع العمال .

« هذا المساء ، ١٢ كانون الاول ١٨٨٧ ، في الساعة ٢٠ ، عثر على رجل منبطح على ضفة نهر قازانكا في قازان ، وقد اخترقت صدره رصاصة مسدس » . هكذا سجل مفوض الشرطة في سجلاته محاولة انتحار شاب مجهول : الكسيس مكسيموفيتش بشكوف . وقد عثر البوليس في جيوب الياثس على ورقة : « انني اعتبر المسؤول عن موتي الشاعر الألماني هايني « يا حرية ،

ما أردأك من حلم ! « الذي اخترع وجع الأسنان في القلب » .

وعندما استرد وعيه بعد بضعة ايام صرح بشكوف بأنه يشكو من الألم الكوني . فقد قال : - انني اشتراكي وشاعر . وأوقع كتاباتي : مكسيم غوركي^(١) .

وبعد أن أدانت الكنيسة الاورثوذكسية بشكوف - غوركي وحرمته من المناولة لمدة سبع سنوات وحكمت عليه بأن يحيا ، راح يحلم بلقاء مرآة الثورة الروسية ، ليون تولستوي . وغادر مدينة نيني - نوفغورود ، مسقط رأسه وليس في جيبه فلس واحد ، ليقطع على قدميه الاربعمئة كيلومتر التي تفصله عن موسكو . واستقبلته الكونتييسة تولستوي في ملكها ، لكن المعلم كان غائباً . اذ لم يستطع غوركي ان يقابله إلا بعد أن اشتهر هو بدوره .

لم يلتق المثقفون سلاحهم . فالحكم المتزايد الرجعية للأبله المتوج او المعظم الأحمق اعاد الثوريين الى درب العنف . وراح سبعة من انصار « ارادة الشعب » يخططون ، يوماً فيوماً طيلة سنوات ست بعد اغتيال الكسندر الثاني ، لقتل ابنه بالطريقة نفسها وفي المكان نفسه . وقد سلمهم اوكلادسكي ، الكيمائي الواهي الإرادة ، القنابل ، وأبلغ ، حسب عاداته ، الاوكرانا . وقد تم اعتقال حاملي المتفجرات ، الذين ظلت الاوكرانا تتبعهم اسبوعاً كاملاً ، في جادة نفسكي في ١ آذار ١٨٨٧ في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، قبل ان ينجزوا مهمتهم . وفي المحاكمة التي تمت بسرعة ، اصدر الرئيس حكم الموت سبع مرات . وكان بين المتأمرين طالب في العلوم الطبيعية لم يتجاوز الحادية والعشرين صاح في وجه المحكمة : « لقد فهمت ان تغيير النظام الاجتماعي ليس ممكناً فحسب ، بل هو ايضاً محتم » . وكان يدعى الكسندر اوليانوف . وقد أعلمته أمه ، التي حضرت من ضفاف الفولغا لتشهد المحاكمة ، انه من الممكن ان

(١) معنى غوركي : مر .

ينقذ اذا قبل باستئناف الحكم لدى الامبراطور بالذات . ولكن الكسندر اوليانوف لا يريد أن يعرض نفسه لهذا الإذلال . وقد اقتيد هو ورفاقه الستة الى بعد واحد وستين كيلومتراً من سان – بيتر سبورغ ، الى سجن شلوسلبورغ اللعين حيث يموت المعتقلون السياسيون من التعذيب ومن وخامة المكان او يصبحون مجانين . وفي صباح ٨ ايار ١٨٨٧ شق الكسندر اوليانوف وشركاؤه ، الذين ازدروا جميعاً عفو الطاغية ، في باحة الحصن . ومن خلال قضبان الزنزانة رقم ٢٦ شاهدت صبية ذاوية الجمال بسبب سوء المعاملة عملية شق رفاقها في الكفاح : فيرا فغنر . وقد قاد شق الكسندر اوليانوف روسيا والعالم نحو مستقبل كان ما يزال في قيد الغيب آنذاك . وقد عادت والدة القتاتل الامبراطوري ، المترملة منذ ستين ، وابنة طبيب عسكري اوكراني ، الى بيتها في سيمبرسك على الفولغا حيث ينتظرها اولادها الخمسة الآخرون في صالة الاستقبال ذات النافذتين العريضتين والمفروشة فرشاً مريحاً بأرائك جلدية وبيبانو ذي ذنب مزين بنباتات خضراء . ان بكر ابنتها هو الآن فلاديمير ايليتش ، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً ، المتمتع بذاكرة معجزة ، والحامل في قلبه رغبة سرية في الثأر لأخيه . الوجه أمرد . الشعر أصهب متمواج منسدل على الجبين ، الأنف أفطس بعض الشيء ، الشفة العليا نائثة ، الحنك قاس : هكذا كان يبدو فلاديمير الذي ما عاد يجرؤ على النزول الى الشارع حيث يدير اصدقاؤه له ظهورهم . وآنذاك ، في عام ١٨٨٧ عينه ، أقسم بأن يجعل من الثورة الكبرى قضيته . وسوف يعرفه العالم بعد بضع سنوات باسمه النضالي : لينين . في سيمبرسك ، مدينة نبلاء الريف التي يبلغ تعداد سكانها ثلاثين ألفاً ، على ارتفاع مئة وخمسين متراً ، وعلى بعد ألف وخمسمئة كيلومتر من سان – بيترسبورغ وتسعمئة كيلومتر من موسكو ، يقطن آل اوليانوف في عزبة تخفيها أشجار باسقة في أعالي المدينة ، في اقصى الحي الأرستقراطي . وقد قضى زعيم العائلة ، ايليا نيقولايفيتش ، نجه منذ عامين بنزيف في الدماغ ، في سن السادسة والخمسين . وقد أتاحت له ألقابه الجامعية

وخدماته المؤداة ان يلج الى «التشين» ، وهي منزلة نبيلة متواضعة خلقها بطرس الأكبر ، وأن ينهي حياته بمرتبة مفتش ثم مدير في التعليم الابتدائي . ولم يعارض ايليا اوليانوف ، النبيل لكن الليبرالي ، افكار ابنائه المتقدمة . وفي البيت العائلي ، في الطابق الاول ، كانت مملكة فلاديمير ايليتش حجرته التي تحتوي على طاولة مدرسية من الخشب الابيض ، وسرير حديدي ضيق ، وخريطة جغرافية معلقة على الحائط ، ورفوف طافحة بالكتب . انه يختلي فيها ساعات طوالاً ويطالع مؤلفات الفلاسفة الاشتراكيين المحرمة . وفي الصف ، كان يُعرف بأنه تلميذ مجدّ ، موهوب ، مواظب على التعليم الديني . اما أستاذه ومدير الثانوية ، تيودور ميخائيلوفيتش كيرنسكي ، فيعطيه في جميع المواد تقريباً الدرجة القصوى : خمس من عشر ، بالاضافة الى تقييظ يأخذ شكل علامة جمع ، ويكتب على الجلال المدرسي تقييماً تنبؤياً : تلميذ كبير الاستحقاق ، ينتظره اعظم مستقبل .

إن آل كيرنسكي وآل اوليانوف ، الاعضاء البارزين في الانتلجانسيا في سيمبرسك ، أسرتان صديقتان . ولم تتأثر علاقتهما من جراء إعدام الكسندر . ومنذ موت الأب اوليانوف اصبح كيرنسكي ولي أمر الأطفال . وفي عيد الفصح وفي عيد الميلاد وفي جميع مناسبات التقيم ، تتبادل الأسرتان الزيارات . وهكذا التقى فلاديمير ايليتش بابن استاذة ، الكسندر فيودو روفيتش كيرنسكي وتعرف إليه . وقد تبادل الصبيان المودة ولكن علاقتهما بقيت محدودة بسبب فارق العمر بينهما : فلاديمير في السابعة عشرة والكسندر في السادسة .

ان فلاديمير ايليتش ما زال تلميذاً سليباً للثورة . لكنه اخو قاتل امبراطور . وكل أفعاله وكل أقواله مشبوهة بعد أن زاد قائد الشرطة ، بليخفي ، من صرامة قوانين القمع . وبعد بضعة أشهر من تنفيذ حكم الاعدام في شلوسلبورغ اعتقل فلاديمير في ٥ كانون الأول ١٨٨٧ . بعد ان فتحت له منحة دراسية ابواب جامعة قازان ، اثناء اجتماع سري للطلاب . وقد اطلق سراحه بعد

يومين ، لكنه طرد من الجامعة ، فانزوى بنفسه لمدة عام من الزمن في كوكو شكينو ، في أملاك جده لأمه ، بالقرب من اخته حنة التي كان البوليس يراقبها . وسرعان ما انضمت اليهما والدتهما مع سائر اولادها . وراح اوليانوف ، الذي كان يقضي جل وقته خارجاً ، يكتشف الطبيعة حيث يجب أن يطالع ويتأمل وهو يسير . وقد انضم ذلك الذي سيصبح « لينين » الى حلقة يرأسها الثوري فيدوسييف ، بعد ان قبلته جامعة قازان من جديد بعد المدة التي قضها في مطهر كوكوشكينو . وتوسلت اليه أمه التي كانت تريد ان تجنّبهُ مصير الكسندر ، أن يأتي ليتابع دراسته في سمارى حيث اقامت في شقة من سبع غرف . ولم يكن فلاديمير بقادر على ان يرضن بأي شيء تطلبه منه والدته المتألمة . وهكذا ابتعد عن فيدوسييف الذي كان قد اعتقل حتى قبل ان يتاح له ان يتعرف اليه شخصياً ، وقدم الى سمارى ، المدينة التي يتوقف فيها المعتقلون السياسيون في طريقهم الى المنفى . وهناك التقى ببعض منهم وهم في طريقهم سيراً على الاقدام الى سيبيريا في رحلة منهكة تدوم شهوراً ، او في طريق عودتهم الى أسرهم بعد انتهاء مدة نفيهم . وقد أذن للينين بأن يقدم امتحان إجازة الحقوق في بيترسبورغ في عام ١٨٨٩ ، بعد ان تقدمت أمه بالطلب شخصياً الى وزارة التربية . وفي مدى بضعة اسابيع راجع اربع سنوات من الدروس ونال دبلومه بدرجة جيد جداً .

في سويسرا كان رجل اعمال متواضع قد استخدم مهاجراً روسياً لنسخ العناوين . وعندما أتته على بطاء عمله ، أمسك المهاجر الشاب بحفنة من المغلفات ورماها في وجهه . وخسر جورج بليخانوف ، ابو الماركسية الروسية ، عمله غير متأسف . ولقد حان بالأصل موعد انعقاد مؤتمر الألفية الثانية في باريس ، وعليه ان يمثل فيه روسيا الثورة .

والتهب بليخانوف فوق المنبر :

— لن تنتصر الثورة في روسيا إلا عن طريق الطبقة العاملة .

ولكن أقواله أثارت الشكوك : فالبروليتاريا الروسية متأخرة كثيراً عن بروليتاريات الغرب بحيث يستحيل تعليق الرجاء عليها لتقوم بثورة حقيقية منظمة .

وعندما عاد بليخانوف الى سويسرا ، طردته منها الحكومة الاتحادية . ومذ ذلك بات يعيش إما بالقرب من آنيماس تحت رقابة مفوض بوليس فرنسي ، وإما في جنيف حسبما تنص القوانين الوطنية .

غادر آل كيرنسكي بدورهم سيمبرسك . فقد عين تيودور ميخائيلو فيتش مفتشاً للتعليم في اوزبكستان ، في طشقند . ولم يكن الكسندر كيرنسكي قد تجاوز الثامنة ، لكنه سيتذكر طوال حياته احد ضباط الحماية ، ملازماً قصير القامة من النمط المغولي ، كله حماسة وانطلاق ، لا يستقبله احد في المنطقة غير آل كيرنسكي وحدهم تقريباً ، لأن هذا الرجل العسكري ، لافر جورجيفتش كورنيلوف ، من اصل وضع . وغالباً ما كان يأتي الى مكتب كيرنسكي الأب ليغازل ابنة أمين سر الثانوية التي سيتزوجها فيما بعد .

في بيترسبورغ اراد فلاديمير ايليتش اوليانوف ان يلتقي بأصدقاء أخيه الشهيد . وهو يعرف عن ظهر قلب التاريخ ما قبل الثوري لوطنه وأبطاله : صوفي بيروفسكايا ، خالتورين النساف بالدينايت ، فيرافغر ، فيرازاسوليتش ولكنه لا يوافق على حمية « ارادة الشعب » الارهابية .

وفي عام ١٨٩٤ ، لدى احد الثوريين ، أ.بوتريسوف ، تكلم لأول مرة في جلسة عامة لينتقد كتاباً ماركسياً جديداً ومؤلفه بيير ستروفي ، حفيد عالم فلكي ألماني مشهور وابن حاكم اقليم استراكان . وفي اجتماع سري آخر احتج على تكتيك الاغتيال الفردي :

• هل نكون قد تقدمنا اذا ما حل حاكم محل حاكم آخر ، او نسم قيصر عرش والده؟ إن ما يجب ان نهتم به هو عمل الجماهير ، وعلينا أن نعد العدة للتمرد كما يقول ماركس كما لو أنه فن قائم بذاته .

وفي شهر كانون الاول من العام نفسه أصدر اوليانوف منشوره الأول .
وقد وقعه باسم مستعار ، تولين ، مستوحى من اسم مدينة تولا . ولقد تولى
توزيع المنشور بين المجموعات العمالية منازل مسن ، ايفان بابوشكين ،
العامل في مناجم الملح .

(٦)

في الأوساط العمالية من حي فيبورغ تناضل منذ خمسة أعوام من الزمن
طالبة قادمة من بيثة الانتلجانسيا الثورية . أنها في الخامسة والعشرين من العمر .
كستنائية الشعر ، عميقة النظرة صافيتها تحت حاجبين كثين ، لَحِمة الشفتين ،
وهي لا تحلم منذ أن قرأت منشور تولين الصادر في عام ١٨٩٤ إلا بلقاء
مؤلفه . وإنما عن طريق صديق مشترك ، المهندس الماركسي كلاسون ، التقت
ناديا كونستانتينوفا كروبسكايا للمرة الأولى بفلاديمير ايليتش اوليانوف الذي
بصغرها بعام واحد . وقد سحرت ناديا بهذا المحامي الشاب الذي اختار
قضية الانقلاب الاجتماعي ، والمصنع والمزرعة معسكراً . واخذ اوليانوف
ناديا الى احتفال ثلاثاء المرفع ، وبعد ان اكلا من معجنات القرم واحتسبا
خمره ، أقنعها بسهولة بأن تعاونه في عمله بأن تصبح سكرتيرته . والواقع ،
أنها قصة حب تولد في ليل العمل السري .

في العام نفسه قدمت الى روسيا امرأة اخرى لترسي فيها مصيرها العاطفي .
أنها حفيدة الملكة فكتوريا ، الأميرة الالمانية آليكس دي هيس - دارمشتاد ،
التي تعرف جميع بلاطات اوروبا جمالها وبرودتها . وهي تحب القيصر نيقولا ،
لكن هذا رفضها مرتين على التوالي ، مفضلاً ان يعيش حياة كتيبته المنفلتة
قبل ان يتسلم مقاليد الحكم المطلق . ونيقولا ضابط يحب الدعابة ، تجذبه
الصالونات والحياة السهلة . وصلته براقصة الباليه المشهورة ماتيلدا كشيسنسكايا
التي أقامها في قلب العاصمة في فندق خصوصي يلح بنوافذه من غرفته في
قصر الشتاء ، معروفة من الامبراطورية كلها . وكانت أسرة هيس قد وطدت

صلات متينة مع روسيا . فاليزابيث ، أخت أليكس ، قد تزوجت من الدوق الكبير سيرج ، عم نيقولا . وكان الأمير هيس – دارمشتاد ، الذي كان موجوداً في روسيا يوم اغتيال الكسندر الثاني ، يندره قلبه بمصير آل رومانوف المشؤوم . وعندما صارحته ابنته أليكس برغبتها في الزواج من وريث عموم روسيا ، صاح بها : « يكفي ان تكون واحدة من بناتي في هذا البلد المأساوي ، ولن أترك الثانية تذهب اليه » .

ودعا الكسندر الثالث ، الذي كان خائفاً على حياته ، أليكس شخصياً الى القرم ، وحاول ان يقنع ابنه بقبول هذا الاتحاد . وعندما وصلت الى ليفاديا بجمارة المرأة المرفوضة ، كان الامبراطور مسمراً الى سريره بالتهاب في الكلية عجز النطاسيون عن شفائه . وفي الاول من تشرين الثاني ١٨٩٤ قضى الكسندر الثالث نجه .

ارتقى نيقولا الثاني العرش في سن السادسة والعشرين ، وبعد ثلاثة أسابيع جعل من أليكس الامبراطورة الكسندرا فيودوروفنا التي قال عنها الشعب متطيراً انها جاءت خلف تابوت .

وكتب نيقولا في رسالة اخيرة الى ماتيلدا كشيسنسكايا : « ان الايام المنصرمة بجانبك ستظل الى الأبد أزهى ذكريات شبابي » .

ان القيصرية لا تعرف لغماً مملكتها ، وتتكلم مع الامبراطور بالألمانية . والامبراطور ، الحريص على تنمية شبهه الخارق بنسيبه جورج الخامس ملك انكلترا المقبل ، رجل شهيم ، لكن ضعيف الشكيمة ، متقلب المزاج ، موسوم ببحر عميق أصيب به اثناء رحلة له الى الشرق الاقصى مع نسيبه جورج أمير اليونان . ففي اثناء زيارة لمعهد ياباني شج رأسه بضربة سيف شرطي لا يجب لا الأمراء ولا روسيا . وقد تقدم جورج ، أمير اليونان ، بشخصه ليحول دون ضربة ثانية تحطم جمجمة القيصر . وقد اصيب نيقولا الثاني بنتيجة هذا الحادث بتبيس في الأنسجة العظمية جعله عرضة لأوجاع رأس شديدة وشبه مزمنة .

ان الامبراطورية التي خلفها الكسندر الثالث لابنه ما تزال تزرح تحت نير المشكلات الاجتماعية . وبينما كانت تمد الفراسخ الأخيرة من السكة الحديدية عبر سيبيريا ، وفي الوقت الذي حصل فيه ويت من فرنسا على قروض يتجاوز مبلغها خمسة مليارات فرنك ذهبي ، كان الاستياء يتعالى من الأعماق الشعبية . وبقي يوم العمل محدداً بإحدى عشرة ساعة ونصف للعمال . وقد أقنعت الدعاية الثورية الفلاحين بأن الأرض يجب أن تكون لهم . واستقل ممثلو الزيمستفويات الحكم الجديد ليطالبوا ، مرة أخرى ، بدستور يعترفهم من القدرة الكلية لطبقة النبلاء .

وانتهج نيقولا الثاني نفس سياسة أبيه ليقاوم غضب رعاياه . وبقي بليخفي على رأس الشرطة رمزاً فظاً للقمع . وأعلن نيقولا أمام أكابر الدولة الذين قدموا بالزلاجات فوق نهر النيفا المتجمد حتى قصر الشتاء احتفالاً بصعوده :
- ينبغي لمثلي جميع الطبقات ان يعرفوا اني سأحتفظ بالسلطة المطلقة بنفس الخزم الذي أبداه أبي ضد حلم الليبراليين السفیه .

لكن الحكم ما يزال في بداية حبه . والابتهالات الصاعدة من أعماق قرون ما تزال تعمر النفوس : ليحفظ الله القيصر ! ليحفظ الله روسيا ! وأمام قسوة الأيام ، ما يزال الشعب يحلم ببادرة كريمة من السلطة العليا . وفي حفل تنويع نيقولا الثاني في ٢٦ ايار ١٨٩٥ في موسكو ، عاصمته الثانية ، تدفق خضم بشري حقيقي نحو عربته الذهبية التي تجرها ستة أحصنة بيضاء مزينة بالأحمر ، وحوافرها مصفحة بالفضة . ولقد بدا باسمأ ، ساحراً ، الى جانب امبراطورة منقبضة ، مترفعة ، جافة . وكانت المواكب التي شكلها الفلاحون في سهل خودينكا الفسيح ، عند ابواب المدينة ، ترفع تماثيل القيصر مع الايقونات . وفي اليوم التالي دعي الناس الى توزيع العطايا . وتدافع ثلاثمئة الف شخص لتلقي الفناجين الخزفية المرسوم عليها شعار الامبراطوري . وعند المنصات أفلت الأمر من أيدي القوزاق : فالهدايا ليست كثيرة بما فيه الكفاية

ومزقت الاقمشة لتوزيعها كقطع من برقع عروس . وتدافع الشعب نحو الهدايا . واذا هي الفاجعة . فقد انهارت المنصات . وتساقط معها الآلاف من الاشخاص وديسوا بالأرجل . وكانت الحصيلة مفعجة حقاً : ألفي قتيل وخمسة آلاف جريح . وأرادت الحكومة ان تلغي الحفلة الراقصة الكبرى المقررة في مساء اليوم نفسه ، لكن الامبراطورة الشابة التي لم تتجاوز الثانية والعشرين ، الكسندرا فيودوروفنا ، لم تشأ أن تلغي الحفلة التي ينص البروتوكول على إقامتها على شرفها . وبينما كانت موسكو تبكي موتى حفلة التكريس ، كانت القيصرة ترقص تحت قباب الكرملين .

قبل مئة وخمسة وعشرين عاماً أحست ماري - انطوانيت هي الأخرى ، وان بطريقة مغايرة ، بنذر المصير الأسود الذي ينتظر ملكها . فعندما اقتربت بعربتها من ساحة لويس الخامس عشر لتحضر حفلة الأسهم النارية المقامة بمناسبة زواجها من ولي العهد ، لمحت ناراً هائلة تشق حجب السماء . فقد اندلع حريق كبير في الساحة التي ستسمى فيما بعد بساحة الكونكورد ، محدثاً ذعراً رهيباً . وقضى مئة واثنان وثلاثون متفرجاً نحبهم ، وجرح تسعمئة آخرون . وقد استدارت ماري - انطوانيت على عقبها باتجاه فرساي وانحجبت الليل كله .

واستقرت في الأذهان أسطورة الأمباطورة « المتأبطة شراً » . وفي يوم جنازة ضحايا خودينكا الألفين ولد أرب شعور يمكن لسيدة البلاد الاولى ان تخشاه : اللاشعبية .

(٧)

من سويسرا قامت مجموعة جورج بليخانوف الاشتراكية - الديموقراطية بإدخال كتابات سرية عديدة الى روسيا ، وأدرك فلاديمير ايليتش اوليانوف أن أبا الماركسية الروسية قد استخلص من الاشتراكية ، في جوجنيف الهادىء ، التحليل العلمي القادر على مساعدة الجماهير على الثورة حتى النصر . وطلب

ماركسيو سلان - بيترسبورغ من اوليانوف أن يذهب الى المعلم حتى ينسق العمل ضمن اطار حزب قوي وموحد . وفي ٢٥ نيسان ١٨٩٥ استقل فلاديمير ايليتش القطار إلى جنيف تاركاً على رصيف المحطة سكرتيرته الوفية كروبسكايا .

ويكتشف لينين في بليخانوف رجلاً شامخ الجبين ، مثلث الوجه ، ناثيء اللحية ، يخفي شفتيه شارب كث ، ناضجاً قبل الأوان بفعل مرض صدري وحنين المنفى . وبليخانوف يعيش الآن من كتاباته ، باسم فولغين ، وهو اسم مستعار من اسم نهر الفولغا الكبير . ويقوم بكل راحة في شقة مؤلفة من تسع غرف ، على البحيرة ، في الطابق الأول من ٦ شارع كاندول . ولم يشك اوليانوف عندما قابله بأنه لاقى معلمه . وقد خصه منذ اللحظات الاولى بإعجاب لا حدود له وبج عميق . والرجلان يتقاسمان القناعة بأن من الواجب إلغاء الاغتيال الفردي . وقال بليخانوف :

- الدعاية تعطي عدداً محدوداً من الاشخاص افكاراً كثيرة . والعنف يعطي الجماهير فكرة واحدة .

وقد وجد المسافر في شخص اكسلورد ودويتش وفيرا زاسوليتش ودانا أصدقاء جدداً له .

وبعد سويسرا قدم فلاديمير ايليتش الى باريس لملاقاة بول لافارغ ، صهر كارل ماركس . وفي أواخر تموز كان مبعوث الماركسيين الروسي في برلين حيث أمل بعرض افكاره على فريدريك انجلز ، المعلم الاكبر . ولكن معاون ماركس ، المصاب بمرض عضال ، موجود في المنفى في لندن حيث توفي في ٥ آب ١٨٩٥ .

ولم يقاوم اوليانوف ، الذي اطلع على أحوال البروليتاريا الغربية طيلة رحلته الى اوروبا ، الرغبة في جلب مجلات ممنوعة الى روسيا . وقد دسها في قاع حقيبته المزدوج المخصص لهذا الغرض ، وقطع الحدود بلا مشاكل وجال في عدة مراكز صناعية في روسيا قبل ان يصل العاصمة . وهناك اجتمع

من جديد بكروبسكايا وبفتى في الثانية والعشرين من العمر خرج حديثاً من السجن ويريد خوض الكفاح الاشتراكي : جول زيدر بوم ، المسمى بمارتوف ، الذي أرسل لحية كثة حتى يوحي بكبر السن . وهو سليل أسرة يهودية بورجوازية متوسطة ، ثرثار ، مثقف وذو ذكاء كبير . واقترح مارتوف على اوليانوف أن يضع تحت تصرفه آلة طباعة كاملة . وتم اتخاذ قرار بإنشاء صحيفة سرية تطبع في بيترسبورغ . وفي ٥ كانون الاول كانت النسخة جاهزة ، بعد ان حرر فلاديمير ايليتش معظم مقالاتها : « افتتاحية الى العمال الروس » ، « بمّ يفكر وزراؤنا ؟ »

وأسس اوليانوف ومارتوف مع كروبسكايا وبوتريسوف وثوريسين آخرين حزباً جديداً : اتحاد النضال في سبيل تحرير العمل . وفي مساء ٨ كانون الاول ١٨٩٥ كان جميع قاداته حاضرين في اجتماع في منزل كروبسكايا عندما طوقت الشرطة المخبأ واعتقلت شاغليه . ولكن لم يسجن في النهاية سوى اوليانوف لمدة أربعة عشر شهراً . ولقد تفتت عبقريته عن مئة حيلة وحيلة ليوصل باستمرار الى اصدقائه الأبناء وليملي عليهم خط الحزب ، مستخدماً الحليب كحبر كيميائي ولب الخبز كمحبرة . وعندما كانت خطى احد السجناءين تقرب من الباب ، كان لينين يخفي جهازه السري ويبلغ محابر لب الخبز المغموسة بالحليب . وتلفت كروبسكايا من السجن كتاباً طبياً مدرسياً غطست كل صفحة من صفحاته في إبريق شاي حتى تبرز الكتابة اللبنية . وبين الخطوط المطبوعة اكتشفت اولى كلمات حب خطتها يد ايليتش .

وقامت ام اوليانوف ، بهدف رؤية ابنها ، بأسفار كثيرة من سمارى الى بيترسبورغ . وبينما كانت ذات يوم في مقر الشرطة تنتظر الأذن بالزيارة قال لها احد المفتشين دونما مراعاة :

— في وسعك ان تكوني فخورة بأولادك . فقد شئت أحدهم ، والآخر في طريقه الى ذلك .

فأجابت الأم :

– اجل انني فخورة بأولادي .

وفي ١٣ شباط ١٨٩٧ صدر الحكم على فلاديمير ايليتش بالنفي ثلاثة اعوام الى سيبيريا ، من دون أن يلزم بالمرور في السجون المرحلية القاسية النظام . ولم يكن عليه ، طوال الرحلة اللامتناهية الطول في القطار السيبيري ، سوى ان يسجل اسمه لدى سلطات الشرطة اثناء مروره . وفي محطة كراسنوأرسك ، على نهر الاينيسي^٩ ، اختلط بالجمهور المحتشد على الرصيف ليخاطب منفيين آخرين ، عندما ناداه رجل جهر الصوت . وتعرف فيه فلاديمير جول مارتوف الذي كان قد اعتقل من جديد وأخذ طريقه الى مناطق المنفى الصحراوية بصحبة فيدوسييف . ورأى اوليانوف بانفعال كبير هذا الثوري المسن ، معبود جامعي قازان ، الذي لم تسنح له الفرصة يومذاك للاقتراب منه . والرحلة التي يقوم بها الآن فيدوسييف ستكون بلا عودة ، إذ انه سينتحر من شدة قسوة النظام في المنفى .

ووصل ايليتش في ايار ١٨٩٧ الى مكان إقامته المعين له ، في قرية شوشنسكاي ، محافظة مينوسنسك ، حيث نُفي الكانونيون في مطلع القرن . وأقام المنفي في تلك القرية الكبيرة ، الوسخة الشوارع ، الغبراء ، في قلب السهوب . وعلى مسافة قريبة كانت هناك غابة مليئة بشجر التوت الافرنجي (الفريز) . وقطن اوليانوف لدى فلاحين ميسورين في الوادي : جناح من الخشب له خمس نوافذ تطل على الشارع ، مقابل ثمانية وربلات في اليوم تدفعها الحكومة التي تتولى إسكان المنفيين السياسيين وإطعامهم وغسيلهم . وغرفة اوليانوف عريضة ، نظيفة ، مزدانة بسجاد مضمفور على الطريقة السيبيرية . والطعام بسيط ولكن وفير . وفي كل اسبوع يذبح خروف ، اما الحليب والخبز فلا تقييد عليهما .

وكسب فلاديمير ايليتش الكثير من الأصدقاء بين الفلاحين المتوسطين

والفقراء . وتراسل لبعض الوقت مع فيدوسييف المقيم في فيرخولنسك ، ثم مع مارتوف المنفي الى توروخانسك . وثابر على الكتابة الى كروبسكايا بحبره الكيمائي ، سائلاً اياها في احدى رسائله ان تصبح زوجته :

– زوجة ، اجل !

بهاتين الكلمتين قررت ناديا كونستانتينوف كروبسكايا ان تصبح السيدة اوليانوفا . وهي نفسها في السجن منذ بضعة اسابيع بسبب نشاطها الثوري . وقد لفظت المحكمة بحقها نفس الحكم الذي لفظته بحق خطيبها : ثلاثة اعوام من النفي في سيبيريا . وبالرغم من أن مدينة أوفا هي التي عينت لها لتقضي فيها مدة الحكم ، لكنها حصلت على الاذن بالحقاق بزوجه المقبل في شوشنسكايا . وقد وصلت اليها في شهر ايار ١٨٩٨ . وفي ١٠ تموز طلب فلاديمير ايليتش اوليانوف وناديا كروبسكايا من كاهن القرية ان يجمع بينهما على السراء والضراء .

وفي عيد الميلاد قررا زيارة مينوسنسك . وبالقرب من هذه المدينة ، في وسط الغابة ، فصلا من قشور الأشجار أحجار شطرنج حتى يتمكن فلاديمير من التبريز في هذه اللعبة التي يتقنها .

في العام نفسه عقد تسعة مندوبين في منسك المؤتمر الاول للمنظمات الاشتراكية بدون حضور القادة المسجونين او المنفيين .

وقد التزم المؤتمر الصمت حول ضرورة الاستيلاء على السلطة السياسية من قبل البروليتاريا ، وحول الحاجة الى تحالف الفلاحين والعمال . وقد عهد الى بيير ستروفي ، الذي كان لينين قد انتقده عندما تكلم للمرة الأولى في جلسة عامة لدى أ. بوتريسوف ، بصياغة البيان الختامي . وقد اعلن ستروفي تأسيس الحزب العمالي الاشتراكي – الديمقراطي الروسي المرتبط بحزب بليخانوف الاشتراكي – الديمقراطي . ولم تحدد وسائل النضال ، لكن الأداة باتت موجودة . وقد انتهى المؤتمر بمداهمة الشرطة لمكان الاجتماع وبعثقال مؤسسي الحزب التسعة .

في الجنوب ، تحت سماء عبر القفقاس الاكثر رحمة ، اخذت زججة الغضب تدوي في المصانع وأوساط الشيبية على حد سواء . وفي مدرسة تفليس الاكليريكية طرد غلام في التاسعة عشرة بعد ان أخذ بالجرم المشهود ثلاث عشرة مرة وهو يطالع كتابات ممنوعة . ووالد هذا الغلام ، وهو إسكافي سكير وفظ ، متوفي منذ بضع سنوات . أما والدته ، الغسالة الأمية ، الجميلة الورعة ، ابنة فلاح قن ، فتريد ان تجعل منه كاهناً . ولكن الافكار الثورية اخذت طريقها الى عقل الغلام من الآن . وتحت اسم مستعار ، سوسيلسو (جوجو الصغير) ، كتب جوزيف فيساريونوفيتش جوغاشفيلي هذه الأشعار :

اغتبطي ، يا جيورجيا
وبعملك ايها الجيورجي
أسعد وطنك

إن رجال الدين الروس يجسدون في نظره الطبقات الحاكمة التي يكن لها البغضاء . وهو يعيش في غرفة مساحتها خمسة امتار مربعة ، ليس لها من فتحة غير كوة صغيرة ، ومن أثاث غير مقعد وسرير مطواء . وسوف يصبح جوغاشفيلي فيما بعد ثورياً مقرباً الى لينين ومعروفاً باسم ستالين (من « ستال » اي الفولاذ) . وقد أرسل جوغا شفيلي - سوسيلسو - ستالين لحيته ، وترك شارباً عريضاً أسود يحجب وجهه . أما شعره فكث أسود ، ووجهته عريضة . وتحت اسم مستعار ، كوبا ، وهو اسم بطل جيورجي شعبي ثار على الروس ، انتسب الطالب الاكليريكي المطرود الى أنشط الجماعات الثورية ، جماعة ميسامي - داسي الثالثة ، المؤسسة في عام ١٨٩٣ ، بعد مجموعتي المثقفين والارستقراطيين الليبراليين الاولى والثانية . وأستاذه الأول في مدرسة الثورة طالب يدعى سيلفستر جيخلادزه ، فُصل من المدرسة

الأكليريكية نفسها لأنه ضرب عميدها الذي تكلم بازدراء عن التراث القومي الجيورجي . واختلط كوبا ، الذي هو من أبناء الشعب ، بالعمال الثوريين . وفي حلقة ورشات سكة الحديد بتفليس تلقى دروسه الأولى في الماركسية ، وعقد أولى صداقاته . وقد التقى فيها بأحد زعماء الحركة السرية ، ليونيد كراسين ، المهندس الكيفي الأصل ، المشرف على الخلية المحلية والمنظم للصحافة غير المشروعة وجامع التبرعات من الليبيريين وصانع القنابل ومهرب رجاله من الحدود . وقد اختبأ جوزيف جوغاشفيلي ، الذي بات مطلوباً من الشرطة ، لدى أحد عمال سكة الحديد ، سيرج آللويف ، أحد عمداء التحريض الماركسي . لكن سرعان ما اتضح ان المنزل السري ضيق بساكنيه : فقد وضعت زوجة آللويف ابنة ثانية ، ناديا . ونصح عامل سكة الحديد ستالين بالتوجه الى طبيب صديق اصبح صحفياً ناذراً نفسه للقضية الاشتراكية ، ليف بوريوسفيتش روزنفيلد ، الملقب بكامينيف . وبالرغم من أن هذا الأخير يعيش في ضيق من أمره ، إلا انه وجد لكوبا غرفة لدى كاترين سفانيدزه . وسعد ستالين بهذا المخبأ الذي يووي ايضاً فتاة في الثامنة عشرة من العمر ، ابنة اخت صاحبة البيت ، تلقب بكيكي ، وجمالها جمال جيورجي حقيقي .

في تفليس ايضاً تعرف ستالين الى واحد من ألمع الوجوه الثورية : ميشيل ايفانوفيتش كالينين ، العامل الخراط ، منظم الإضرابات ، المشهور بعمله الشرس الحازم شهرته بلحيته المتماوجة .

عندما اطلق سراح فلاديمير ايليتش من سيبيريا ، كان القرن قد دارت دورته . ففي فجر ١٩٠٠ عاد وحيداً الى بيترسبورغ ، في حين أرسلت كرويسبكايا الى أوبا لتقضي سنة منفاها الأخير .

وامكن لأوليانوف ان يقدر مدى التقدم الذي أحرزته الافكار الثورية في تغلغلها . وقد ساهم في ذلك أوسع الإسهام كاتبان . وعن تولستوي قال

لينين : « قبل هذا الكونت لم يكن في الأدب فلاح موجيك اصيل . اما غوركي ، قطرس الثورة ، فقد اثار ضده استياء الأوساط اليمينية العام . فقد نشر غوركي - بشكوف في « بشارة العاصفة » قصيدة دوى صداها كجرس الإنذار بالحريق ، نداء حاراً الى العاصفة بأن تزداد عنفاً . وعندما انتخب الكاتب عضواً فخرياً في أكاديمية العلوم ، شطب اسمه بناء على أمر نيقولا الثاني ، واحتج انطون تشيكوف وتنازل عن لقبه الأكاديمي تضامناً .

وبينما كان غوركي يتنزه منفرداً على ضفاف الفولغا ، اقترب منه مجهول وحاول ان يطعنه بخنجر في صدره . ولكن علبة سجاثر معدنية ، احتلت مكانها فيما بعد في المتحف ، اوقفت تقدم النصل . ونجا جوركي وهرب المعتدي .

واراد اوليانوف ان يسهر بنفسه على مصير اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي - الديمقراطي المؤسس في منسك . لكنه تبين بسرعة ان القمع البوليسي يحول دون اي عمل متواصل . فرحل في شباط مع مارتوف وبوتريسوف الى بسكوف لينشئ شبكة قادرة على توزيع الجرائد التي سيطبعتها في المهجر . وبعد بضعة ايام اجتمع بغيرا زاسوليتش التي قدمت سراً من سويسرا لتبلغه موافقة بليخانوف على طبع صحيفة اشتراكية - ديموقراطية كبيرة . وساعد أمير واسع الافكار ، اوبولنسكي ، وصناعي ثري ، لوباتين فلاديمير ، على الحصول على جواز سفر ، وسلماه ألف روبل . وعليه الآن أن يقدم الى بيتربورغ ، المدينة المحظرة على المحرضين . وبرفقة مارتوف الأمين ، استقل اوليانوف القطار وقرر أن ينزل في تساركوي - سيلو حيث بنى الأباطرة قصورهم الفرساوية ، وان يتابع طريقه بالحافلة . وبالرغم من هذا الاحتياط ، أوقف الاشتراكيان لحظة دخولهما الى المدينة . وسارهما مفتش بقوله :

— لقد أخطأتما بنزولكما في تساركوي - سيلو . فخلف كل شجيرة هنا يقف احد رجال الشرطة بالمرصاد .

وبقي اوليانوف في السجن عشرة ايام ، ثم زار أمه في بودولسك بالقرب من موسكو ، ومن ثم سافر ليمضي اسبوعاً مع كروبسكايا في أوفاً . وفي ٢٩ تموز ١٩٠٠ اختار الحرية .

وعند وصوله الى سويسرا تخلى عن اسمائه المستعارة الأولى : تولين ، ايلين

لقد استعار بليخانوف اسمه من نهر الفولغا . أما فلاديمير ايليتش فسيذهب الى اقصى الشرق ليجتاز القوقاز . ففي قلب آسيا الروسية نهر يعرفه المنفيون جميعاً . انه ينبع على بعد ستة عشر كيلومتراً من بحيرة بايكال ، وتنحدر مياهه اللجبة من الجبال على طول ٤٥٩٩ كيلومتراً وتجتاز التوندرا قبل ان تصب في المحيط المتجمد الشمالي . وينقل نهر اللينا جليد الشتاء ولا يجتاز سوى قرى متواضعة ونادرة . ومن قسوة هذا النهر العديم الشفقة استوحى اوليانوف الاسم الذي سيخلده : لينين .

وتعريفه الأول للثوري لا يترك مجالاً للشك حول طبيعة تصميمه :

— اننا بحاجة الى رجال لا يكرسون للثورة أماسيهم الحرة فحسب ، وانما حياتهم كلها .

(٩)

لينين وبليخانوف هما الآن وجهاً لوجه . هدفهما المشترك ان يصدرا بأسرع ما يمكن صحيفة كبيرة للحزب الاشتراكي - الديمقراطي تحمل اسم الإيسكرا (الشرارة) . وقد وقع الاختيار على هذا الاسم من قصيدة الشاعر الكانوني اودوييفسكي الذي كتب رداً على بوشكين : « من الشرارة يتدلح اللهب » . وقامت معركة حقيقية بين بليخانوف ولينين بصدد تصورهما للجريدة . فالأول يريد ان يدعم فيها مشاريع اصلاحية لثورة تضع على رأس السلطة الحاكمة البورجوازية الليبرالية . أما هدف لينين فالثورة البروليتارية

الكبرى التي ستسلم السلطة الحقيقية الى العمال والفلاحين . وتعداد مؤسسي « الايسكرا » ستة : ثلاثة قدامى ، بليخانوف وفيرا زاسوليتش واكسلرور ، وثلاثة جدد ، لينين ومارتوف وبوتريسوف . وتم الوصول بين الفريقين الى تسوية تنص على ان قرارات التحرير تطرح على التصويت . لكن الاقتراع يهدد بأن يوصل الى مأزق مسدود نظراً لتعادل الاصوات : ثلاثة مقابل ثلاثة . وأخرجت فيرا زاسوليتش الحزب من المأزق باقتراحها ان يكون لبليخانوف صوتان نظراً الى تمتعه بامتياز الأقدمية . وبذلك انقذت فيرا ايفانوفنا ، الذكية بقدر ما هي طريفة ، ووحدة الحزب ظاهرياً . وهي المرأة الوحيدة في المجموعة . وقد كسبت بفكاهاتها ومزاجها الطيب تقدير الجميع وصدقتهم . وقد جاءت مرة الى الاجتماع في معطف غريب من نوعه : فقد قصت قطعة كبيرة من القماش على شكل دائرة وقصت في منتصفها دائرة صغيرة لتمرر منها رأسها .

كان الاستعداد لإصدار العدد الاول من « الايسكرا » قائماً على قدم وساق في جو من خصومة القدامى والمحدثين . ورحلت النسخ الاولى من « الشرارة » التي طبعت عشية عيد الميلاد ، في ٢٤ كانون الأول ١٩٠٠ ، الى روسيا عبر اوروبا . لكن الشرطة ، الساهرة على الحدود ، تمكنت من مصادرتها جميعاً . وسلمت نسخ جديدة الى البحرية الحربية العائدة الى البحر الأسود . ولم تخفق عملية « الشرارة » إخفاقاً كاملاً : فقد تسرب عشر الطبعة الى روسيا القيصرية .

وزادت حدة الخلافات في صفوف قيادة الأركان الاشتراكية-الديموقراطية واعتقد لينين انه خدع بالصوت المزدوج الممنوح الى « القديم » . وقد كتب في مذكراته الخاصة :

« لقد دلت بليخانوف على تصلب مسرحي ، وكادت الشرارة ان تنطفئ » .

وقرر فلاديمير ايليتش ، حتى يفلت من هيمنة معلمه القديم ، ان يقيم

مع مارتوف في ميونيخ حيث انضمت اليهما كروبسكايا في ربيع عام ١٩٠١ . وعاش لينين ، الذي خرب ميزانيته بشراء الكتب ، أياماً صعبة . وأرسل اليه اخوه ديمتري ، طالب الطب في جامعة موسكو ، ثمن مبيع بندقية صيده ، اي خمسة وسبعين روبلاً . وكان لينين يحب مارتوف كثيراً ولكنه كان يجده مهذاراً ، ولهذا أخذ يختلي بنفسه بعد وجبات الطعام في احدى الغرف مع كتبه ، تاركاً مارتوف يثرثر ويفسل آنية الطعام مع ناديا كروبسكايا . وفي آذار ١٩٠٢ ، وتحت عنوان « ما العمل ؟ » الذي اقتبسه عن الثوري القديم ن . تشير نيشفسكي ، نشر كتاباً صغيراً مكرساً لتربية الأجيال الشيوعية . وأصبح الكتاب بمثابة ميثاق الحزب الحقيقي : ليس المطلوب التكيف مع الواقع وانما تبديله .

وفي حزيران ١٩٠٢ عرف لينين فترة انفراج . فقد استقبل أمة وأخته حنة لمدة خمسة عشر يوماً في لوجيفي . ولقد وجد أمه امرأة موجهة متألمة . فماريا الكسندروفنا اوليانوفا المترملة منذ سبعة وعشرين عاماً ، الشكلي بابنها البكر ، تبكي ولداً آخر ، اولغا ، التي قضت في التاسعة عشرة بالحمل التيفية . وبعد جنيف وميونيخ قرر لينين وزوجته ان يلقيا الرحال في لندن حيث سيخصان بزيارتهما الاولى ضريح ماركس .

انكلترا : مناخ جديد وجو جديد . لينين يتلقى دروساً في الانكليزية ويعطي بالمقابل دروساً في الروسية . وقد استأجر باسم ريشستر غرفة ومطبخاً في ١٠ شارع هولغورد سكوير ، في بلومسبري .

في صباح احد ايام تشرين الاول ١٩٠٢ توقفت عربة امام المنزل المتواضع حتى قبل ان يتمكن النور من قشع الضباب . ونزل منها شاب عليه مظهر المثقفين لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين ، نائم الأنف ، أسود البدة غزيرها ، برونزي اللون ، خاوي الجيب حتى من قرش واحد يدفع به تعب سائق العربة الذي ينتظره . وارتقى المجهول الدرجات وقرع باب اوليانوف القرعات

الثلاث التي هي بمثابة «فتح يا سمس» . وناديا كونستانتينوفا هي التي فتحت الباب في تلك الساعة المبكرة . وقال الزائر :

– أنا الريشة .

الريشة ؟ ان اوليانوف في انتظاره منذ عدة ايام . فلقد سبقته الى لندن تقاريط حارة . هو ابن ملاك يهودي يملك اربعمئة هكتار في جنوب اوكرانيا ، مولع بالرياضيات ، مثقف ناعم متقد النظرة . انه ثوري قادم من البرد ، سبق له ان نفي الى فيرخولنسك في عام ١٨٩٩ حيث قضى اربعة اعوام ونصف عام ، عدة أشهر منها في زنزانة بلا أثاث وبلا هواء وبلا تدفئة ، وحيث اكتشف كتابات لينين . وذات مساء دس دمية خياطة في فراشه ، وعانق زوجته وابنتيه المولودتين في المنفى ، واختبأ في عربة تبين ذاهبة الى إركوتسك . ومن هناك استقل القطار عابر سيبيريا . ومن محطة سرية الى مخبأ محظور اجتاز روسيا وطار فوق الحدود وحط في زوريخ قبل ان يقرع القرعات الثلاث على باب من يحلم بالتعرف اليه .

ونزلت كروبسكايا لتسد لسائق العربة أجره . وباشر لينين الحديث ، وهو جالس في سريره مع «الريشة» الذي يصغره بتسعة اعوام . انها لحظة تاريخية . والاسم الحقيقي لـ «الريشة» هو دافيد ليونتييفيتش ، ولقبه ليون تروتسكي باسم سجانة الأول في اوديسا .

وقاد لينين تروتسكي الى حي سان – بانكراس حيث يعمل ويعيش فريق «الايسكرا» . وكان مارتوف وبوتريشوف وفيرا زاسوليتش (عين بليخانوف في لندن) وبلومفيلد ، المكلف بالمطبعة ، يقطنون في منزل عمودي ، كل منهم يملك فيه طابقاً ضيقاً ، في حين حوّل الطابق الارضي الى قاعة مشتركة ، العرين ، حيث تصاغ الافكار . وفيرا دائمة الحركة ، تدخن سيجارات تلفها بنفسها ، مألثة قطع الاثاث وحواف النوافذ وحتى المخطوطات بأعقاب السجاير والرماد .

وحظي « الريشة » على الفور بتقدير الفريق لحماسته ولطافته . وكانت أسفار بليخانوف واكسلورد ، المقيمين في جنيف ، الى لندن كثيرة للإسهام في تهيئة اعداد « الايسكرا » . وكانت الهوة تزداد اتساعاً بين القدامى والمحدثين وقد لاحظت فيرا نفسها التي لا سبيل للشك في إخلاصها لبليخانوف :

— إن جورج ككلب الصيد . فهو بعض فريسته ويتركها . أما لينيف فمثل كلب الحراسة ، بعض ولا يترك .

وكانت هالة الزعامة قد اخذت ترتسم حول شخص لينين . ولم يجب لبليخانوف « الريشة » منذ اول لقاء لهما . وانضم تروتسكي الى عصبة الشباب ضد نطاسي الثورة .

(١٠)

يمضي نيقولا الثاني ، الذي يريد ان يعيش بعيداً عن لفظ سان — بيتر سبورغ ، معظم اوقاته في مقامه في تساركوي — سيلو ، قصر الكسندر . ولا يعرف الزوجان المالكان من فرح إلا الى جانب الدوقات الأربع المولودات على فترات متساوية بين ١٨٩٥ و ١٩٠١ ، تفصل الواحدة منهن عن الاخرى ستان كاملتان . وفي بهو الطابق الأرضي ، حولت الأرضية الى « جبال روسية » حتى تتمكن الاميرات من الانزلاق عليها على وسائل في مأمّن من المطر . أما في قصر الشتاء فإن البلاط ما عاد يعرف بذخ ايام بطرس الاكبر .

وقد عهد نيقولا ، العاهل المجدّ تارة والمتخلّي عن سلطاته تارة اخرى ، برقابة الأرياف الى ماريشالات الطبقة النبيلة ، وبالمدن الى حكام صارمين . وبقي ينظر الى تملل الشعب على انه نتيجة مشؤومة لحلم الليبراليين الأحمق .

وقد ادى تطور التجارة ، ومن ثم الصناعة ، الى ولادة طبقة بورجوازية ، بين البروليتاريا والتاج ، أبقتهما الأرستقراطية بعيداً عن العرش تحت اسم محقر ، تجار موسكو . وقد جرّت هذه البورجوازية الواسعة الاق في ركابها

جيشاً من المحامين والحقوقيين والاساتذة والمثقفين الذين تجتذبهم السياسة ولكن الذين تقضي عليهم تقاليد الولادة والألقاب بالبقاء في صف المعارضة .

*

الايمان الاورثوذكسي ما يزال عامراً في أعماق كل روح روسية ، ولكن الكنيسة ، الخاضعة للامبراطور الذي هو رأسها ، غائبة عن المداولة الاجتماعية الكبرى ، ويدير شؤونها ، منذ ان حرمت من البطريكية من أيام بطرس الاكبر ، الوكيل العام الكلي القدرة للمجمع المقدس ، الذي تعينه السلطة .

واذا ما قدم نيقولا الى بيترسبورغ لمواجهة ما ، كان يستقبل في حجرة صغيرة ملاصقة لمكتب الكسندرا التي قلعت حجراً من الجدار المشترك . وهكذا كان في وسع الامبراطورة ، اللامنتورة ، ان تسترق السمع الى الزوار الذين لا تفصلهم عنها سوى كثافة سجادة . وكان في وسعها بالتالي ، باطلاعها هذا على شؤون الدولة ، ان تبذل النصح للقيصر . انها تحب روسيا هذه التي لا تحبها ، بالرغم من أنها اعتنقت دينها برية حديث الايمان . وما اعظم رغبتها في ان تكون امبراطورة عظيمة ، ولكن نوعاً من اللعنة يتبعها اينما حلت منذ ان كلف تكريسها شعب موسكو ألفي قتيل . ولقد منحت البلاد اربع مرات الأمل في ولي عهد . وكان الموالي على التوالي اولغا وتاتيانا وماريا وأنستازيا . ولكن الكسندرا تنتظر طفلاً خامساً .

*

أوهام القيصر السياسية تجد ما يكذبها يوماً . ففي داخل الحدود لا يوافق الاشتراكيون جميعهم على اللاعنف الذي يعظ به المهاجرون الاشتراكيون – الديموقراطيون . وقد اختفى الشعبون بنتيجة القمع ، ولكن منظمة اخرى ، وريثة « ارادة الشعب » ، تؤمن بالحديد اكثر مما تؤمن بالكلام ، اعلنت عن قيامها : الحزب الاشتركي – الثوري ، المؤسس في عام ١٩٠١ . انه يتوجه الى طبقة الفلاحين ويستلهم الروح المشاعية ل « المير » ، وهو تنظيم يعطي الفلاحين حق التمتع بالاراضي التي تعود ملكيتها الى الكومونة . وقد حرر

إلغاء القناة الشغيلة من ملاكهم ، لكنه لم يجعلهم بالمقابل سادة الاراضي التي يزرعونها . وقد غلّ الكثيرون أعناقهم بالديون من مصاريف الدولة حتى يصبحوا ملاكاً ، وباتوا يتقلبون على فراش الشقاء لأنهم ارادوا الارتفاع فوق المستوى الذي تتيحه وسائلهم . وأدت البليلة التي أوجدتها للقوانين الجديدة الى حرمان الملاك العقاريين من اليد العاملة الضرورية لاستثمار المزارع الشاسعة التي يضطرون الى رهنها . وراح المضاربون يستغلون المصاعب ، فيشترّون القصور ويعاودون بيع الأشجار والمساكن والآلات والماشية ، ثم يجزئون الاراضي لبيعوها حصصاً بأمّظ الاثمان للأقنان السابقين . وقد أشعل استياء الطبقة الريفية لهيباً ثورياً حقيقياً . فأحرقت أملاك النبلاء واستبيحت نهباً وسلباً .

وتزعم قيادة الحزب الاشتراكي - الثوري الحديد رجلان في الخامسة والعشرين والثالثة والعشرين ، فلاديمير ميخائيلوفيتش . تشيرنوف ونيقولا ديمتريبيتش أفكسانتييف .

ان تشيرنوف ، الذي أتاحت للينين فرصة التعرف اليه قبل بضع سنوات في بيترسبورغ ، تبدو عليه سيماة معلم مدرسة اكليريكي المنشأ ، افطس الأنف ، بلا شارب ، ساذج الوجه بعض الشيء ، بارز الوجنتين ، يضع نظارات . هكذا يصفه تروتسكي مفسراً له بموهبة خطابية لا جدال فيها . ونظراً الى أنه صاحب مشروع لتوزيع الأملاك الكبيرة على الجماعيات الكادحة ، لذا فهو أبغض الناس الى قلوب نبلاء الارض . والى جانبه يقف افكسانتييف ممثلاً الاتجاه المعتدل ، المصالح ، في الحزب الحديد .

وأدى ظهور الاشتراكيين - الثوريين الى بليلة الزيمستفويات التي تكافح منذ العبيد من الأعوام على ارض مكشوفة لتزود الشعب بدستور . فأسرت توتس ، وقد أحست بأن عمل الاشتراكيين - الثوريين الحازم كفيل بالإساءة الى سمعتها في أوساط الريفيين ، صحيفة سرية ، « التحرير » ، تولى رئاسة

تحريرها بيري ستروفي ، زعيم الماركسيين الشرعيين ، ومؤلف بيان منسك .
وقد وجدت « التحرير » في مونتسكيو ملهما : « الأوطان لا تززع بحسب
خصبها ، وإنما بحسب حربتها » .

ان الاشتراكيين - الثوريين ، مثلهم مثل « ارادة الشعب » ، عاقدون
العزم على النضال ، والسلاح مشهور في ايديهم ضد سياسي رئيس الوزراء
سيرج وايت وأفراد البطانة الملكية المحدقين بالأمبراطور الضعيف . ومأخذهم
على ويت انه كرس كل الطاقة القومية لبناء صناعة واسعة على حساب طبقة
الفلاحين المتروكة لمصيرها التعيس . ولم يؤد التمتع الذي انصب على الاشتراكيين
- الثوريين بعد موجة الارهاب التي أثاروها إلا الى تأجيج حماسهم وحميتهم ،
واصبح عدد المتطوعين كبيراً جداً حتى ان الحزب اضطر الى اختيار واضعي
القنابل بالقرعة . ومن وزارة الداخلية رد الوزير سيباغين وبلخفي ، الحقود
الذي لا يروى له غليل والمشرف على جهاز الشرطة ، الصاع صاعين . وبدأت
المزايدة الدامية . ففي ١٤ شباط ١٩٠١ قام الطالب كاربوفيتش ، المطرود
من الجامعة ، باغتيال بوغوليبيوف ، وزير التعليم العام . وفي ١٥ نيسان
١٩٠٢ أعلم بالماشيف ، ابن نبيل منفي ، وزير الداخلية سيباغين بأنه يحمل
اليه أوراقا هامة من قبل الدوق الكبير سيرج ، حاكم موسكو . وعندما ادخل
الى مكتب الوزير في قصر ماري ، اطلق عليه رصاصتين من مسدس ، فأصابه
إصابة قاتلة في صدره . وبعد ثمانية عشر يوماً شتق بالماشيف في باحة شولسبرغ
مثله مثل الكسندر اوليانوف قبل خمسة عشر عاماً ، ومثله أيضاً تحت انظار
فيرا فغتر التي لم يعد جماها سوى ذكرى من الذكريات .

ووجدت الداخلية ، الوزارة القاتلة ، متطوعاً متفانياً في شخص
الشرطي بليخفي . وقد كلفه نيقولا الثاني بتنظيم وزارة قتال . واذا به هو
البيروقراطي بكل ما في الكلمة من معنى ، ونصير الرقابة وإلغاء الحرية
في الجامعة والمذابح الجماعية والترويس الفظ لشعوب الامبراطورية ، اذا به
يركع بصورة مسرحية امام بقايا اجساد القديسين في سان - سيرج لثمن عليه

السماء بأفضالها . وقد بدل ، هو الوصولي الطموح ، مذهبه الديني مرتين . كما قدم ضروب التبجيل للأمير ابولنسكي ، حاكم خاركوف ، الذي أثار عليه روسيا كلها لقسوته مع فلاحيه ولغة السوط التي يستعملها معهم ، في حين انه خلع الأمير بيير دولغوروكوف ، رئيس بعثة الزيمستفويات الدائمة الليبيرالي اكثر مما ينبغي . وفي مدى ثلاثة أشهر اعتقل ٢٩٥٣ مشوها ، اي أحد عشر ألفاً في السنة . وقد لفتت تقارير بليخفي انتباه الاشتراكيين – الثوريين الى الامير ابولنسكي الذي صرع في الشارع .

*

في طامبوف ، مسقط رأس جورج بليخانوف ، يعيث الحاكم لوجينوفسكي فساداً على هواه . وقد عين الارهابيون فتاة في الثامنة عشرة لاغتيالها : ماريا سيريدونوفا . وقد نجحت ، بعد ان تسكعت ثلاثة ايام في المحطات ، في ركوب قطار لوجينوفسكي نفسه . وكانت تبدو عليها سيماء الطفلة الالهية في مرحها وهذوئها وثوبها الوردية ، وفي بوريسوغليس دخلت الى عربة الحاكم الذي كان يستعد للنزول . ومن مسافة ثلاث عشرة خطوة فتحت النار ، مسددة من فوة كتف جندي مرافق . وركض لوجينوفسكي باتجاه الرصيف وتبعته ماريا سيريدونوفا واطلقت ثلاث رصاصات جديدة جندلت على الفور الموظف الكبير . ولما كانت لا تريد ان تعتقل حية ، فقد رفعت المسدس باتجاه صدغها ، عندما انهال وابل من الضربات عليها ، فترنحت ووقعت . ورفعها احد الضباط من ضفيرة شعرها . وغابت عن الوعي .

وجرها جنود قوزاق من قدميها حتى إحدى العربات . وعندما استعادت رشدها ، كانت عارية في زنزانة مظلمة ، باردة ، رطبة . واثناء التحقيق كان رجال الشرطة يركلونها بأرجلهم فتندرج من طرف الزنزانة الى طرفها الآخر . وما ان أقرت بانتمائها الى الحزب الاشتراكي – الثوري ، حتى هموا بها واقتلعوا شعرها شعرة شعرة ، وأحرقوا جسمها كله بالسجاير . ثم سحقوا « قدميها الصغيرتين اللطيفتين » تحت جزماتهم :

— سوف نتوصل الى إرغامك على الصراخ . أوجاعك ملذة لنا ، وسنسلمك الليلة عارية الى القوزاق .

وزجر قائدهم ، الكابتن أبراموف :
— أنا الأول !

وكانت الليلة سلسلة لامتناهية الطول من الفطائع والإغماءات .

وبعذاب الشهداء الذي ذاقته سبيريدونوفا أصبحت القديسة الجديدة للثورة ، على صورة صوفي بيروفسكايا وفيرا فغز وفيرا زسوليتش .
وأثار سلوك القوزاق سخط فنان رسام في الحادية والعشرين من العمر ، سيرج ماكو ، فأردى أبراموف قتيلاً في كانون الثاني ١٩٠٦ في الشارع وولى الأدبار .

وحكم على ماريا سبيريدونوفا بالموت ، ثم خففت العقوبة بسبب ما قاسته من عذاب الى النفي طويلاً .

(١١)

في مطلع ١٩٠٣ لحق لينين بتروتسكي الى باريس حيث وعد بعرض المسألة الزراعية الروسية امام ندوة لأساتذة طردهم القيصر من الجامعات .
ودعي « الريشة » الى حفلة تمثيلية في الأوبرا الهزلية تحييها مهاجرة فاتنة ، طالبة في السوربون ، مفضولة من مدرسة خاركوف الداخلية الارستقراطية حيث كانت قد ضبطت وهي تخفي في الكتاب المقدس كتابات لتشير نيشفسكي .
وأنست ناتالي سيدوفا تروتسكي زوجته وابنتيه . وبقيت رفيقته طوال حياته .

*

فلاديمير ايليتش يقضي ايامه متعكر المزاج : فباريس ليست سوى مرحلة باتجاه سويسرا حيث تحجج بليخانوف بسهولة الاتصال بروسيا وبأسباب اقتصادية ليعمل على إعادة نقل هيئة تحرير « الايسكرا » الى جنيف . وتطيراً

من اللقاء اليومي بالحرس الماركسي القديم اختار لينين بيتاً ريفياً معزولاً في خيشورون حتى لا يعيش معه في جنيف . وأتاحت العودة الى سويسرا للفلاديمير ايليتش ان يكتشف زعيم الثورين المهاجرين في بيرن ، الطالب في الحقوق ، غريغوار إفريشيفيتش زينوفايف ، البالغ من العمر عشرين عاماً ، الحاد الذكاء ، سليل أسرة بورجوازية متواضعة ، واكتسبه بسهولة الى صف الشباب .

كان من المفروض في الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ان يعقد مؤتمره الثاني في تموز ١٩٠٣ في بلجيكا . وقد عقد لينين العزم على أن يدفع بالغالبية ، من خلال المواجهة المتوقعة بين الجيلين ، الى أن تتبنى موضوعة دكتاتورية البروليتاريا . ومن روسيا استقدم ، دعماً لموقفه ، طبيباً شاباً ، مندوباً عن تولا ، اخاه ديمتري . ورافق تروتسكي شقيق لينين الأصغر من سويسرا الى بروكسل . وقد تلقيا ، شأن جميع مندوبي المؤتمر ، تعليمات محددة بالسفر من دون لفت للأنظار . واتفق ديمتري والريشة على الانطلاق من أول موقف قرب جنيف ، من محطة نيون الصغيرة حيث الرقابة اقل صرامة . ولكنهما أخطأ الرصيف ، وعندما شاهدا قطارهما وقد اخذ بالتحرك ، اندفعا عبر الخطوط الحديدية ووثبا فوق مصدّ احدى العربات . وأوقف رئيس المحطة ، الذي لحظ الحادث ، القطار ليتحقق من هذين المسافرين الغريبين اللذين ظنهما من الصعاليك الذين يتهربون من دفع ثمن التذكرة ، وفي خاتمة المطاف تمت تسوية الموضوع وامكن للمندوبين ان يحتلا مكانهما في المقصورة من غير ان يطلب اليهما دفع الغرامة القانونية التي كانا عاجزين عن سدادها .

*

افتتح المؤتمر في بروكسل في ٣٠ تموز في منزل عضو مخضرم في حزب « تحرير العمل » ، كولتزوف الذي كانت امرأته تقوم بالحراسة في الشارع . ولكن مؤجرة المنزل داهمت الاجتماع بعد حضور رابع مندوب (كان عدد المندوبين المتوقع أربعة وأربعين !) ، وأعلنت لكروبسكايا :

— لا أريد ان أشاهد شخصاً آخر !

ووجد الاشتراكيون - الديموقراطيون ملجأ في فندق يديره اشتراكي .
وامكن في النهاية للمؤتمر أن يبدأ أعماله في ٣١ تموز في سقيفة للطحين نصبت
فيها منصة امام جدار مجلل بالأحمر لاستقبال بليخانوف الذي تم انتخابه
رئيساً ، ولينين نائباً للرئيس . وتعالق حدة النقاش بسرعة في المستودع ،
لافتة انتباه الشرطة التي داهمت المكان وفرقت المتظاهرين . وبالرغم من
المصاعب الفادحة استقل المهاجرون المركب الى لندن . وحمي وطيست المناقشات
حتى أثناء الرحلة .

كانت الفرصة قد أتحت للينين مراراً كثيرة ليصوغ اختياراته الكبرى
في « الايسكرا » : « ينبغي قبل ان نتحد وحتى نتحد ان نحدد مواقعنا بمجزم
ووضوح . وفي سبيل ذلك لا ينبغي ان تكون الصحيفة مجرد اداة دعابة
بل ايضاً منظماً جمعياً . »

واقترح فلاديمير ايليتش ، بهدف تأسيس الحزب وبنائه ، ملاكاً محدوداً
من الثوريين المحترفين وشبكة واسعة من المنظمات الهامشية تضم جمهرة
كبيرة من المنتسبين الذين يناضلون فيها بصورة نشيطة ومنظمة . وأنداك فقط
« سترتفع ذراع ملايين الشغيلة القوية وسيبتدد هباء منثوراً نير الاستبداد
المحمي بحراب الجنود . »

ولم يقدم لينين بصوته الأخاذ المدوي كالمطرقة أي تنازل : على الحزب
ان يستغني عن المناصرين ، وعلى الثوريين ان يكونوا منظمين تنظيمياً مركزياً
صارماً وأن يعملوا على شكل فصائل منظمة للإطاحة بالنظام الامبراطوري
ولإقامة دكتاتورية الشعب بدون مرحلة الحكم البورجوازي الانتقالية . وعلى
الحزب ألا يترك الفلاحين تحت الهيمنة الإرهابية للاشتراكيين - الثوريين ،
اصدقاء الشعب الكذبة .

وقسّم تصلّب لينين المؤتمرين الى عصبتين . وفي اليوم الخامس عشر من
المؤتمر كانت المواقف قد تطورت على نحو غير متوقع . فقد وقف مارتوف ،

الذي كانت نظارته المتسخة ابدأ تنساب دوماً على أنفه ، يهاجم بعنف صديقه الوفي لينين ، ويزعم الاقتصاديين ، زاعماً بإصرار عنيد أن الحزب يجب ان يضم المناصرين وألا يعتمد إلا على البروليتاريا الصناعية التي ستعهد بالسلطة ، فور انتصار الثورة ، الى البورجوازية الليبرالية قبل ان تستولي عليها لحسابها .

وخلافاً لكل ما هو متوقع اصطف بليخانوف المسن الى جانب لينين ، لكن هذا الأخير هزم عند التصويت ، وكانت الغلبة لمارتوف . وأتذكر انفجر خلاف أثاره «البوند»^(١) ، التنظيم الاشتراكي الديمقراطي للعمال اليهود ، الذي يريد الاحتفاظ باستقلاله الذاتي وبلجنته المركزية الخاصة داخل الحزب . وقد رد مارتوف (اليهودي) وتروتسكي (اليهودي) هذه المطالب (اليهودية) وانسحب مندوبو البوند وعدد من الرفاق المتضامنين معهم من المؤتمر عائدن الى روسيا .

وعادت المجموعة اللينينية لتفوز بالغالبية عندما طرح تكوين اللجنة المركزية على التصويت . وانتصر لينين . ولكن الخلافات كانت عميقة الى حد انقسم معه الحزب الى فئتين : بلاشفة لينين (من بولشستفو : الغالبية) ومناشفة مارتوف (من منشستفو : الأقلية) .

ولم يتخذ لينين موقفاً أكثر تسامحاً بصدد تحرير «اليسكرا» . ومنذ ان صدرت الجريدة قبل عامين ، لم يكتب بوتريسوف سوى ثمانية مقالات ، وفيرا زاسوليتش ستة ، واكسلرود اربعة ، مقابل اثنين وثلاثين للينين ، واربعة وعشرين لبليخانوف ، وتسعة وثلاثين لمارتوف . وطلب زعيم البلاشفة فصل الثلاثة الأوائل المنتسبين الى الحرس القديم . والواقع ان المعركة الحاسمة للسيطرة على «اليسكرا» كانت قد جرت قبل المؤتمر بمدة ، بمبادرة من لينين الذي بعث برسالة تكتيكية بارعة الى بليخانوف : «اني أدعو جميع

(١) البوند تعني التحالف .

أعضاء هيئة التحرير الى ان يمنحوا « الريشة » حقوقاً مساوية لحقوق سائر الاعضاء . اننا بأشد الحاجة الى رجل سابع ، سواء من حيث سهولة التصويت (باعتبار ان ستة عدد زوجي) ام من حيث استكمال قوانا . انه رجل ذو طاقات فريدة من نوعها بدون ادنى جدال ، صلب في قناعته ، قوي الشكيمة ، ينتظره في المستقبل المزيد من التقدم . ولإني أرى ان إرجاء اختياره سيكون بادرة خرقاء وغير مبررة . واذا لم نستقبل « الريشة » فوراً ، فإنني مقتنع بأنه سيعتبر ذلك رفضاً قاطعاً بضمته الى التحرير . وبذلك نكون قد تركنا الفرصة تفلت منا ونكون قد خسرناه . »

ورفض بليخانوف ، الحريص على حماية غالبية القدامى ، قبول تروتسكي رفضاً جازماً ، متحججاً بحداثة سن المرشح الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين . وقد استغل لينين ، الذي ألمه هذا الرفض الفظ ، مناسبة المؤتمر ليطالب بتجديد شباب هيئة التحرير . أما تروتسكي ، الذي وجد نفسه رغماً عنه موضع رهان التكتلات المتنافسة ، فقد صدمه اقتراح لينين الداعي الى إقصاء مفكري « الإيسكرا » القدامى . واثارت ثورة مارتوف ايضاً وقدم استقالته . وكتب تروتسكي رسالة يائسة الى ناتالي سيدوفا التي بقيت في سويسرا : لقد ماتت « الإيسكرا »

وتكرس الانشقاق . ولن يلتقي بعد اليوم من جديد التياران اللذان شهدا النور في لندن . وحتى يوم الثورة لن يكفياً عن التباعد اكثر فأكثر .

*

كلفنا ناتالي سيدوفا بأن تدخل الى روسيا تقارير المؤتمر ، المنسوخة بخط بالغ النعومة على ورق توراتي ، والمخبأة في غلاف معجم لاروس .

وعاد بليخانوف الى منزله في جنيف والى زوجته وابنتيه المولودتين في المهجر ، اللواتي يشاطرنه حياته شبه العسكرية . وعندما لامه اكسلرود على تأييده منافسه الشاب في لندن ، قال :

– ماذا تريد؟ من هذه الطينة خلق روبسيير !

ولكن الأمنية الباطنة لأبي الماركسية الروسية هي إنقاذ الإيسكرا والمحربين الثلاثة الذين يريد لينين إقصاءهم . فتقرب من المناقشة وتزعم مجموعتهم مع مارتوف . وتمردت هيئة التحرير بعد تعديلها على لينين الذي اضطر بدوره الى الاستقالة .

لم يكن الانعزال ليخيف لينين الذي يجد في العزلة والتصلب قدره ودعوته . ولا يمكن لأي شيء في الوجود أن ينال اويفل من صحو فكره البارد ، ومن تصميمه المستفرس الذي ولد يوم شتق اخيه ، ومن يقينه بأن النصر معقود لواؤه لأقلية متعصبة منضبطة . ولا شيء يلهي لينين عن الفكرة الثورية . فعندما يمضي مع كروبسكايا ايام أواخر الأسبوع تنزهاً في الغابات ، لا يدور بينهما الكلام طوال ساعات إلا عن الهدف النهائي .

وذات يوم مثل أمام باب البيت الريفي في سيشورون زائر قادم من أرض الوطن . ولينين يعرفه من مؤلفاته التي قرأها في سيبيريا : أ.أ. بوغدانوف ، مؤلف موسوعة موجزة في العلم الاقتصادي ، وطبيب شاب عليه سيماء المتأنق ، ضليع في الفلسفة ، مقاوم نشيط من مقاومي منطقة موسكو . وقد انشرح صدر لينين للغة التي خاطبه بها بوغدانوف :

وليس مارتوف واصدقاؤه سوى ثرثارين عقيمين وعاجزين . وأنا قادم لأقترح عليك صحيفة جديدة . وغوركوي ، الذي يدفع ٧٠٪ من حقوقه كمؤلف الى صندوق الثورين الأسود ، هو من الشركاء الموصين . إن علينا أن نتحرر من نفوذ المناشفة . واذا شئت فإن لوناتشارسكي ، عديلي ، سيهاجر ليساعدكم .

وقبل لينين . وقد داعبه إحساس بمفاجأة سعيدة عندما رأى العديل المنتظر يهبط من العربة : أنا تول فاسيليفيتش لوناتشارسكي ، نموذج المثقف الروسي ، العلامة ، الكاتب والخطيب ، المفتون بالفن بكل أشكاله .

وحرراً معاً العدد الأول من صحيفة « فبيريود » (إلى الأمام)
ووقعت على لوناتشارسكي مهمة إغواء الشبيبة الجامعية وعزلها عن النفوذ
المنشفيكي .

(١٢)

في ودّ الاوكرانا ان تقا تل على جبهتين ثوريتين ، وقد ورد في تقاريرها
عن لينين ما يلي : « من المستحسن إبقاء القبض على هذا السيد . ومن الضروري
العاجل قطع رأس الجسم الثوري . وليس هناك من شخص أخطر منه » .
ولكن الديموقراطيات الغربية لا تريد ان تحرق تصورهما عن الحرية الفردية .
اذن فهي لن تسحب حب اللجوء ، بالرغم من تمنيتها التحالف مع روسيا .
ولما كان « الرأس » عصي المنال ، لذا فلن يكون للشرطة من سبيل إلا
الى الجسم . وعندما لم يعط القمع النتائج المطلوبة ، قبلت الاوكرانا اقتراح
طالب موسكوفي ، سيرج زوباتوف ، بإنشاء « اتحادات عمالية » تتمتع بتأييد
غير مكشوف من السلطة . ورأى خمسة من هذه الاتحادات النور في بيترسبورغ
وموسكو ومراكز صناعية كبرى اخرى . وحتى تكون بوراً للثورة المضادة
ضغظت السلطة على بعض أرباب العمل حتى يلبوا أولاً بأول المطالب الصادرة
عن البروليتاريين المنتمين الى هذه المنظمات الجديدة .

ولكن في طول البلاد وعرضها مدت الشبكات السرية خيوطاً متينة .
وشكل الثوريون ، من حيث العدد والارادة ، قوة هامة . وفي كيف عادت
كاترين بريشكو بريشكوفسكايا ، عميدة محاكمة ال ١٩٢٠ ، الى سابق نشاطها
بعد إطلاق سراحها . وراحت هذه المرأة القصيرة القامة ، القوية البنية ،
الزرقاء العينين ، البيضاء والنادرة الشعر ، العاقدة ربطة عنق حمراء خالدة ،
تناضل في المصانع وتخفي الإرهابين ، ثم ، عندما اعتقلت من جديد ، اخذت
درب المنفى من جديد ايضاً الى سيبيريا .

*

في تفليس اصبح ستالين عضو الحزب الاشتراكي - الديمقراطي في عام ١٩٠١. وفي نهاية ذلك العام عرف مصاعبه الأولى مع الحزب. فقد اتهم بالافتراء على جيكلادزه ، استاذة في الماركسية ، ومثل امام محكمة الحزب ، وفصل من منظمة تفليس ، ورحل الى باكو ليعيد بناء سمعته في ورشات مانتاشيف ، ملك البترول . وهناك ألقى أول خطاب له في الشارع ، واستقبل فيكتور كورناتوفسكي ، رسول لينين ، وأصدر صحيفة سرية . وفي ١ أيار باشر العمل العلني على رأس موكب من المتظاهرين ، ورأى كوكبة من فرسان القوزاق تنقض عليه شاهرة السيوف . واعتقل كورناتوفسكي ، ولكن ستالين الذي استطاع الفرار بدأ حياته الحقيقية كثوري يعمل في الظل .

في باكو كما في باطوم راح يعلن شروط الانتصار : « أولاً أن نتسلح وثانياً أن نتسلح . وثالثاً أن نتسلح ونتسلح » . واعتقل في نيسان ١٩٠٢ ، وعندما أطلق سراحه رجع الى تفليس في كانون الثاني ١٩٠٤ ليلتقي بتلك التي سيقول عنها فيما بعد انها الانسان الوحيد الذي ألان قلبه الصخري ، الجيورجية الجميلة كيكي ، ابنة اخت تلك المضيفة التي أوصاه بها أيلويف وكامينيف . وتزوج ستالين ، العاشق الموله ، الذي ما يزال يرسل لحيته الرومانسية ، من كيكي ، المدعوة كاترين سفانيدزه ، في كنيسة غوري ، حسب أمنية تلك التي ستكون تابعة لله ولزوجها . وكان له من العمر ثلاثة وعشرون حولاً في عام ١٩٠٤ . وكان الثورة قد اصبحت مهنته . ولسوف يكرس لها ، حسب تعاليم لينين ، حياته ، ولزوجته أماسيه الحرة وحدها .

*

أقسم نبيل بولوني ان ينذر هو الآخر حياته للحركة الاشتراكية الكبرى . وقد ورث فيلكس دزرجنسكي ، سليل أسرة نبيلة ريفية وابن أستاذ رياضيات ، ورث عن أمه جمالاً جعل الناس يشبهونه بروفائيل في مراهقته ، وعن والده طبعاً متوثباً . وقد هجر أسرته في السابعة عشرة ليقم في فيلنا تحت اسم «الفلكي» .

وعندما قدم دزرجينسكي الى كوفنو لينظم لإضراباً ، وشى به احدهم مقابل عشرة روبلات . وكتب : « رجال الدرك يضربونني . سوف أنتقم » . وفرضت عليه الإقامة الجبرية ، فهرب ، وعاود ظهوره في تشرين الاول ١٨٩٩ في حلقات وارسو الثورية . فاعتقل من جديد ورحّل الى سيبريا الشرقية في ٢٣ كانون الثاني ١٩٠٠ مع مجموعة من مجرمي الحق العام وتحت حراسة فرسان الدرك . واثناء الرحلة الطويلة والمنهكة سيراً على الأقدام ، أصيب بمرض السل . وفي سجن الكسندروفسك الانتقالي ، حيث طال أمد إقامته ، نظم دزرجينسكي عصياناً . فقد طرد السجناء الحراس ، وحولوا السجن الى حصن ، وأعلنوا أنفسهم جمهورية مستقلة بذاتها ، ونشروا على النوافذ رايات حمراء . وقطع الحراس ، المرغمون على التفاوض ، على أنفسهم عهداً بأن يتركوا العصاة يتابعون طريقهم بصورة طبيعية الى مستقرهم الأخير . ودزرجينسكي ، المحكوم عليه بالنفي خمس سنوات ، يقضي الليالي البيضاء وهو يحلم بالهرب . وبين الحرية ومنفاه يتدفق النهر السيبري الرهيب الذي استوحى منه فلاديمير ايليتش اسمه الحربي : اللينا . ولما لم يشأ اي متطوع ان يرافقه « الفلكي » في هذه المغامرة المجنونة ، أقسم أن يجتاز وحده آلاف الفراسخ التي تفصله عن الحرية . وفي حزيران ١٩٠٠ سرق زورقاً وترك الأمواج تتقاذفه . ولكن شدة التيار قلبت الزورق . وأغمي على دزرجينسكي عندما أدرك الضفة . وحين استرد وعيه وجد نفسه بين فلاحين متكأكتين عليه سرعان ما عطفوا عليه وساعدوه على الاختباء وزودوه باللازم لرحلته الطويلة .

*

اصبحت مشكلة الارتباط بشبكات الداخل أساسية بالنسبة الى المهاجرين . وعين الشرطة ساهرة لا تنام عند الحدود ، والصحف السرية لا تصل روسيا إلا بعد لأيي وألف مشقة ومشقة . وكانت البحرية الحربية ، البوثة الثورية التقليدية ، والحليفة الفعالة ، تتولى نقل قوالب الطباعة الى موانئ الشمال

والبحر الأسود حيث تتابع طريقها الى المطابع السرية . ولكن الحزب بحاجة الى رجال موثوقين . ووجد أحدهم في شخص مير موسايفيتش فالاش ، الملقب بمكسيم لثنيوف ، والمدعو عادة « بابا » ، والمولود في بياستوك ، على الحدود البولونية ، في عام ١٨٧٦ . رجل قصير القامة ، مربوعها ، دائم الابتسام ، ثاقب النظرة خلف نظارته ، وواحد من ألمع تكنيكيي الحزب . وقد هرب من سجن كييف في عام ١٩٠١ ، وقدم الى لندن للقاء لينين الذي وضعه تحت تصرف اللجنة المركزية . وسرعان ما أنشأ « بابا » الأريب النشيط شبكة هامة مركزها في ريغا . انه يزيف الجوازات والنقود ، ويتلقى ويوزع ما يأتي من سويسرا ، ويؤمن العبور السري للمناضلين في كلا اتجاهي الحدود . ولكن مهمته الرئيسية تدير أسلحة . وقد قال هو نفسه : « انا لست بمفكر حزبي ، وانما رجل عمل » .

لم تستطع اتحادات زوباتوف العمالية أن تطفىء الحريق الثوري الذي كانت ريح الايمان توججه باستمرار ، وأثبتت عجزها التام في الكفاح ضد الدعاية الاشتراكية – الديمقراطية . بل ان روح الثورة شقت طريقها على العكس الى أوساط جديدة .

وازداد القيصر غمًا على غم عندما وصلته عريضة من تلميذ في سلك الضباط ، من أصل ارستقراطي عريق ، الكسندر ايفانوفيتش فيرخوفسكي ، يطالب فيها بدستور لشعب بلاده . ولم يكن هذا الفتى قد تجاوز الثامنة عشرة ، لكنه كان عريف صفة . فكسّر نيقولا الثاني رتبته وطرده من قصره . وتطوع فيرخوفسكي كجندي نهر ، متخلياً عن زيه الجميل الأحمر والأسود الموشى بالذهب وعن خوذته ذات الريش الابيض .

فهم سيرج ويت ، رئيس الوزراء العارف بمزاج امبراطوره ، من اللجاجة التي يبديها نحوه نيقولا ، ان ساعة فقدان الحظوة قد دنت .

وفي عام ١٩٠٣ اصبح رجل العهد القوي بليخني الفظ . فربط سياسته ،

هو الوصولي الواصل ، بمصالح ممثلي البلاط الاكثر نفوذاً . وقام بتغطية الصفقات الواسعة النطاق التي عقدت في الشرق الاقصى على مناجم الحديد والذهب والغابات والفحم الحجري .

وقد واجهت روسيا ، الشرهة الى الثروات ، باستخفاف مطامح اليابان المحرومة من ثمار انتصارها الحديث على الصين . وأصبحت بور - آرثر ومنشوريا وكوريا بوراً للنزاع . وتحدثت روسيا الامبراطورية ، المقتنعة بأن حظوتها وقوتها ستمنعان اليابانيين من تحريك اي ساكن ، مطالبهم وأوغلت قدماً في سياسة التحدي . أفليس نيقولا الثاني ، كما قال امبراطور ألمانيا ، أميرال المحيط الهادىء؟ وأقنع بليخفي الامبراطور بأن نصرأ سهلاً على « القروود اليابانيين الأقرام » سيأتي بالحل للمشكلات الداخلية ، مخفياً تحت غار الظفر الجروح الفاغرة افواهاها .

ومذ ذاك فصاعداً ستبقى جميع المطالب اليابانية بتقاسم النفوذ في الشرق الاقصى بلا جواب ، بحجة صدادع الامبراطور او بحجة هواجس الامبراطورة الوالدة .

(١٣)

في مرفأ بور - آرثر الكبير حيث ترسو وحدات روسية ، ترك الضباط سفنهم بملابسهم الاحتفالية ليلبوا دعوة السيدة ستارك ، زوجة اميرال قائد احدى وحدات الاسطول ، والسيدة اناتول ميخائيلوفيتش شتوسل ، زوجة الجنرال قائد المدينة ، اللتين تحتفلان كلتاهما بعيد ميلادهما . ولما وجد البحارة الفرصة سانحة ، غزا معظمهم الحانات . وبينما كان الضباط يرقصون في الأبهاء المتألثة ، اجتازت البحر الأصفر عشر نساكات يابانية مطفأة الأنوار وشتت في منتصف الليل هجوماً مباغتاً . وقد ظن الناس الموجودون في حفلي السيدتين ستارك وشتوسل بادىء الأمر أن هناك مناورات ليلية ، واستمر الرقص . ولكن القلق انتاب بعض الضباط فهرعوا الى المرفأ . وفي مدى بضع

دقائق استولى الذعر على المدينة ، ولا سيما في حي الثكنة حيث دوى النفير .
وهرع الضباط والبحارة والجنود الى الشوارع من غير ان تكون لهم وجهة
معينة . وقد طالت احدى الفرق بنادقها ولكنها نسيت الخرطوش .

وأبرق الاميرال ستارك الى نيقولا الثاني : « علي أن أعلم جلالتكم انه
في حوالي منتصف الليل ، بين الثامن والتاسع من شباط ١٩٠٤ ، هاجم
اليابانيون سفننا بغتة في بور - آرثر » .

وحصل بليخفي على الحرب التي كان يتمناها . لكن « القروء الاقزام »
هم الذين اخذوا المبادهة ، مدمرين في بضع ساعات طراداً ومدرعيتين . كما
اشتعلت النيران في اربع سفن اخرى من جراء قصف المدفعية في فجر ٩
شباط . واخذت طريقهما الى القاع سفينتان أخريان كانتا تحاولان بيأس
الإفلات من الطوق .

ان روسيا لا تملك في آسيا سوى مئة وعشرين فوجاً ، موزعة على مساحة
شاسعة . وعلى التعزيزات ان تجتاز حوالي ثمانية آلاف كيلومتر بسكة الحديد ،
بالإضافة الى مسافته - على كاسحات الجليد لعبور بحيرة بايكال التي تمتد على
مسافة ستين كيلومتراً .

وهذا بينما كان اليابانيون ، المنظمون على الطريقة الاوروبية ، يملكون
ثلاثمئة فوج جاهز للعمل . ولكنهم يريدون ان يخوضوا معاركهم الاولى في
البحار .

وعين نيقولا الثاني على رأس الاسطول أنبغ أميرالات امبراطوريته :
سيرج اونيسيموفيتش ماكاروف ، قائد كرونشاد البحري .

*

في شهر تموز من العام نفسه كان حمام شاب يقضي شهر العسل منزهاً
في غابات كينكي ، في اقليم قازان . انه الكسندر كيرنسكي ، صديق طفولة
لينين : وعلى الصفحة الاولى من الجريدة التي كان يطالعها وهو يتمشى ،

وبعنوان بارز، احتل عرض الصفحة نبأ حادثة اغتيال . ان بليخفي ، بايخفي الرهيب ، قد سقط سريعاً تحت ضربات الاشتراكيين – الثوريين . فقد كان الوزير ذاهباً الى بيتر هوف ، مقام الامبراطور في ضواحي سان – بيترسبورغ ، وكانت عربته المصفحة ، التي تجرها ثلاثة أحصنة سريعة ، يتقدمها ويتبعها رجال شرطة على الدراجات . وفي تمام الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، ٢٨ تموز ١٩٠٤ ، في جادة اسماعيلوفسكي ، ألقى الثوري سazanوف بقنبلة ، وقتل بليخفي للحال . أما سazanوف ، الذي اصيب بجراح بالغة بشظايا قنبلة ، فقد نقل الى مستشفى الكسندر وأجريت له عملية جراحية تحت أنظار مورافيف ، وزير العدلية ، المدعي العام السابق الذي طلب وحصل على رأس صديقة طفولته صوفي بيروفسكايا . وقد واجه الارهابي الاستجواب من غير ان يكشف شيئاً من أسرار المؤامرة . وقد حكم عليه فيما بعد بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وانتحر في عام ١٩١٠ .

وعبر كيرنسكي لزوجته الشابة ، اولغا بارانوفسكي التي تعرف اليها في صالون أدبي – سياسي في بيترسبورغ ، عن أمله في حدوث تغير كبير في روسيا .

*

في سان – بيترسبورغ تدهورت أسعار الأسهم في البورصة بصورة محسوسة وكلف نيقولا الثاني سفياتوبولك ميرسكي ، وهو رجل مستقيم ونزيه ومعتدل ، بتشكيل وزارة انفراج .

وقد أبدى القيصر استعداداه ، بعد ان طار لبه هلعاً من اغتيال وزير داخلته ، لإجراء بعض إصلاحات ولنح بعض حريات . وجاءت ولادة القيصر الكسيس في ١٢ آب ١٩٠٤ ، بعد اربع بنات ورجاء مقطوع ، لتعيد الى الملكية ثقتها بنفسها .

وجدد ممثلو الزيمستفويات ، الذين دعوا الى إبداء رأيهم ، مطالبتهم

بانتخاب جمعية تأسيسية . ولكن القيصر لا يريد أن يوغل الى مثل هذا البعد . فهو يعتبر النظام التمثيلي ضاراً بالشعب الذي عهد به الله اليه .

وفي ٢٥ كانون الأول ١٩٠٤ أصدر عكازاً (مرسوماً قيصرياً) لم يرض احداً ، مرجئاً الى مستقبل لاحق التحويلات الواقعية : « اذا ما فرضت ضرورة إجراء تغيير ما نفسها ، فإننا نعتقد انه لن يكون هناك مفر من القيام بذلك حتى ولو ادى ذلك الاصلاح الى إدخال تجديد كبير على التشريع » . والحال ان نيقولا الثاني لا يرى ان ضرورة إجراء تغيير ما قد فرضت نفسها منذ زمن .

بينما كان الاشتراكيون – الديموقراطيون المناصرون لبليخانوف او لينين يناضلون متنافسين على صعيد الدعاية ، كان الاشتراكيون – الثوريون التابعون لتشيرنوف وأفكسانتييف مستمرين في استراتيجية الاغتيال ، تحت إمرة شاب في الخامسة والعشرين من العمر ، بوريس سافنكوف . وكان سافنكوف ، القصير القامة ، القليل الحركة ما امكن ، الصموت ، الوسيم الملامح ، الأخضر الرمادي العينين في وجه شاحب شحوب الموت ، يجمع بين مزايا الزعيم وشجاعة البطل وجلد الشهيد . هكذا وصفه ونستون تشرشل .

وقد وضع بوريس سافنكوف ، منظم مؤامرة اغتيال بليخفي ، قائمة بتسعة عشر موظفاً آخر ينبغي الخلاص منهم .

*

في نهاية عام ١٩٠٤ ، كانت أبناء الجبهة سيئة . ففي آذار انفجرت مدرعة القيادة ، بيترو بافلوسك ، فوق لغم حينما كان ماركاوف يحاول ان يفك طوق الحصار الياباني على رأس سفن معومة . وقد قضى الاميرال نجبه مع واحد وثلاثين ضابطاً وخمسمئة رجل . وقد نجا الدوق الكبير سيريل ، ابن خال الامبراطور ، الذي كان مدعواً الى متن بيترو بافلوسك ، بأعجوبة من الغرق .

وفي ايار نشب القتال برأ . وقد عزل « القروود » اليابانيون ، باستيلائهم

على هليونغ - يو ، حامية بور - آرثر المعززة بفرقتي مشاة . وفي آب اخفقت محاولة اخرى لفك طوق الحصار عن الأسطول . وبينما كان القيصر يقيم تمثالا من البرونز في ساحة كاتدرائية كرونشتاد تخليداً للبطل ماكاروف ، لاقى خلفا الأدميرال حتفهما امام العدو ، الواحد تلو الآخر . وقد استدعي أسطول البحر المتوسط ، الذي يقوده الأدميرال روبير نيقولايفيتش فيرن ، تلميذ ماكاروف ، الكبير الهيبة بين جنوده ، وواجه قوة النار اليابانية من لحظة دخوله البحر الأصفر .

واضطرت القوات البرية الروسية ، الملاحقة والمقاتلة ببطولة ، الى الانسحاب باتجاه الشمال ، حول موكدن ، لتحمي المنفذيين الرئيسيين : سكة الحديد عبر سيبيريا والطريق الإداري . وقد عسكر الجيشان العدوان في الخنادق خلف الأسلاك الشائكة بعد أن أنهكتهما الالتحامات والهجمات التي ما كانت تحرز تقدماً .

وعانى الشعب مرير المعاناة من تبعات هذه الحرب الاستعمارية . وقد امتزجت السخرية بالغضب عندما قررت القيادة العليا ان ترسل الى بور - آرثر أسطول البلطيق بإمرة الأدميرال زينوفي بيتروفيتش روجستفنسكي . وكان الطراد « اورورا » من بين قطع هذا الاسطول المؤلف من سفن متفاوتة السرعة والمقضي عليه بأن يطاول خطوط تموينه على مسافة ١٦٤٠٠ ميل عبر محيطات ثلاثة .

وعلى مقربة من دوجربنك ، في بحر الشمال ، في ليل ١٤ تشرين الاول ١٩٠٤ ، فتح اسطول البلطيق نيرانه على زوارق حسبها يابانية . وعند مطلع النور اكتشف الأدميرال روجستفنسكي خطأه وأصدر أمره الى مراكبه بمتابعة طريقها . والواقع ان سفنه قد قصفت زوارق صيادي هول وتعرضت لردّها . وقد اصيب الطراد « اورورا » وأغرق أحد قوارب الصيد ، مما أثار رد فعل عنيفاً لدى الحكومة البريطانية التي حظرت على الاسطول الروسي عبور قناة

السويس ، مضطرة اياه بالتالي الى الدوران حول افريقيا .

*

إن المصاعب التي تلاقيها الاوتوقراطية في آسيا تخدم مآرب المحرضين الذين لا يتركون شائبة إلا ويفضحونها . وقد شنت حملات على الرأسماليين وكبار الموظفين والجنرالات الذين تغنيهم الحرب . وقد استقدم الجنرال ستاكلبرغ الذي يريد قشدة طازجة مع قهوته الصباحية بقرة حلوباً بالقطار عبر سيبريا . وبالمقابل كان تموين القوات المحاربة على أسوأ ما يكون . وفي حين كانت هناك حاجة ماسة الى الذخيرة ، استقبل الجيش قطاراً مليئاً عرباته بالايقونات . فقال الجنود : « اليابانيون يلهوننا بقنابل ، وجماعتنا يلهوننا بصور مقدسة » .

*

في تفليس وفي وسط القفقاس ، يمضي ستالين ، العائد من سيبريا ، من بئر الى بئر ، ماراً بالكهوف التي تطبع فيها الصحف السرية . وهو يعمل جنباً الى جنب مع ليونيد كراسين وآيلوئييف وكامينيف وكالينين في مصانع ماناتشيف وروتشيلد .

وقد اخذت السلطات على حين غرة عندما اندلع في ٢٦ كانون الاول ١٩٠٤ الاضراب العام في باكو . وكان هذا الاضراب « البرق الذي يسبق الرعد في عشية العاصفة الثورية الكبرى » كما سيكتب ستالين نفسه فيما بعد . ونجح الاضراب : فقد انتزع المتظاهرون من أرباب العمل أول تعاهد جماعي :

(١٤)

في احدى ساحات بور - آرثر قام ضباط وبجارة وجنود مجتمعون حول نار بإلقاء الأعلام الروسية في لهبها . وأبرق الجنرال شتوسل^(١) الى الامبراطور : « نسأل جلالتكم عفواً ، فقد فعلنا كل ما يمكن فعله انسانياً . انني أتضرع

(١) سوف يمثل شتوسل امام محكمة حرية ويحكم عليه بالنفي الى سيبريا .

الى جلالتكم بأن يشفق علينا وان يغمرنا بعطفه . إن هذا القتال المتواصل منذ احد عشر شهراً قد أنهك قوانا . ٢ كانون الثاني ١٩٠٥ . »

واستسلمت بور - آرثر . وفرض اليابانيون على المقيمين مذلة لإحراق الأعلام التي بوركت بحضور القيصر . وكان المحاصرون قد بنوا التحصينات ووضعوا القنابل اليدوية بالوسائل المتاحة لهم وجردوا السفن الغارقة من المدافع القابلة للاستعمال ، وذلك طوال الأحد عشر شهراً التي دامها الحصار .

ويوم استسلام بور - آرثر بالذات أطلق طالب فتى ، بولتورازكي (١) ، رصاصتين من مسدس على قائد شرطة موسكو . ولم يصب الشرطي ، ولكن اسمه ، الذي برز ، رن على نحو غريب في أسماع الشعب : ديمتري فيودوروفيتش ترييوف ، ابن قائد الشرطة الذي كانت فيرا زاسوليتش قد جرحته في مكتبه في سان - بيترسبورغ . وترييوف يبذل جهداً مضاداً للثورة كبيراً . وعلى إخلاصه اللامتناهي للإمبراطور ، يريد أيضاً ان يثأر لأبيه كما يريد لينين ان يثأر لأخيه . وتحت ظاهر من ثقة مصطنعة بالذات ، ووجه جميل فأن ونظرة مباشرة ، يخفي طبيعة ضعيفة . ومهمته في موسكو حماية الحاكم العام ، الدوق الكبير سيرج الكسندر روفيتش الذي اصبح بزواجه من اليزابيث دي هيس عم نيقولا الثاني وعديله في آن واحد .

*

في موسكو اندفع رجل جديد يغزو قلوب الجماهير الثورية . فقد نظم الكاهن ج.أ. غابوني ، الخطيب المفوه ، المتقد النظرة في وجه ضامر ، اتحادات عمالية شبيهة باتحادات الطالب الموسكوفي زوباتوف . غابوني ، الكاهن الخالع ثوب الكهنوت ، صديق الشعب لحساب السلطة ، عميل الحكومة المحبوب من الجماهير ، واخيراً لا آخرأ موضع ثقة المعسكرين العدوين . ومركزه المتوازن

(١) حكم عليه بالسجن خمس سنوات وقتل عام ١٩٠٨ في محاولة هرب دراماتيكية .

هو في الحقيقة مركز رجل شغب . فهو يكثر من المهرجانات الخطائية ، ويفضح انانية الاغنياء ، ويحامي عن العمال المسرّحين ، ويريد ان يقرب الامبراطور ، الذي لا يهاجمه البتة ، من المجتمع . وقد أقنع منظماته بأن تسير في موكب سلمى الى قصر الشتاء لتسلم نيقولا الثاني عريضة تطالب بمعاملة اكثر انسانية وبدعوة جمعية تأسيسية .

وفي يوم ٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ زحفت طواير الشعب من الجادات المتلاقية على شكل نجمة نحو قصر الشتاء . وكانت طبقة كثيفة من الثلج تغطي الارض . وأصدر الدوق الكبير فلاديمير ، عم القيصر ، وحاكم العاصمة العسكري ، أوامره الى القوات المسلحة باحتلال الساحات والشرايين المجاورة ، بعد ان قدر ان غابوني قد تجاوز الحد . وتقدم مكسيم غوركي على رأس وفد من الأوساط السياسية والأدبية الى خليفة بليخفي الوجل ليقول له ان طابع التظاهرة السلمى يجب ان يقابل بانسحاب القوات .

ان كل الدلائل تشير الى ان الموكب هو بالأحرى موكب ديني : فغابوني يحمل صليباً ، والايقونات والرايات المقدسة ، المتناوبة مع صور القيصر ، تحفق فوق الطابور الأسود ، والجموع تصدح بالأناشيد الدينية . ومع ذلك فإن كتيبة بريوبراجنسكي ، الوحدة التي كان نيقولا الثاني منتسباً اليها ، وفرسان القوزاق قد حاصروا قلب المدينة حصاراً شديداً وسدوا المنافذ . وعندما انتصف النهار شن الفرسان هجوماً حائقاً بالسيوف ، عند باب نارفا ، مشتتين الصفوف مجابهة . وذعرت الجموع ، لكن الصفوف عادت فراعصت . وتقدم العمال يداً الى يد منشدين . وعند جادة نفسكي أطلق رجال الشرطة وجنود بسكوف النار على الاشجار . فتساقط غلمان ارتقوها ليشاهدوا الأب غابوني قتلي .

في الساعة ١٤ ، وامام القصر الذي تحميه قوات مشاة ضخمة ، وقف المتظاهرون ينتظرون ظهور القيصر من الشرفة . ولكن التوافذ بقيت مغلقة في

يأس . فنيقولا ، الشاب المسكين النائه كما يصفه تولستوي ، قد فر خلسة الى تساركوي - سيلو .

وفجأة دوى بوق النفير . وبسرعة اخذ الجنود وضعية الرمي ، وصدرت الاوامر ، وانهمر وابل الرصاص . وكان غابوني أول من سقط مصاباً بجرح طفيف . وهرع اشتراكي - ثوري يكنّ له اعجابا كبيراً ، ب . روتنبرغ ، وأخرج مقصاً من جيبه ، وجز لحيته وشعره ، وسرق له معطف احد الفارين : - بهذه الصورة لن يتعرفك احد . لنولِ الأدبار الى بيت غوركي .

لقد سقط عشرات من الضحايا على ثلج ساحة الكسندر . وفي مساء ذلك « الأحد الدامي » نصبت المتاريس في الشوارع . ووجه غابوني نداء الى الشعب : « ايها العمال الروس ، لم يعد لنا من قيصر . ان نهراً من الدم يفصله عنا من الآن فصاعداً . لقد آن أوان بدء الكفاح ، من دونه ، في سبيل حرية الشعب ! » والتقى لدى غوركي جمع غفير من الثوريين . وجلس الكاتب الى مكتبه ليحرر نداء الى الرأي العام يتهم فيه القيصر بجرائم القتل : « اننا ندعو جميع مواطني روسيا الى النضال الفوري والجماعي والعنيد ضد الاوتوقراطية » . وانقضت الاوكرانا في إثر المحرضين . وعقد غابوني ، وهو يرتدي سترة عمالية رمادية ، اجتماعاً اخيراً الى جانب روتنبرغ ، امام « الجمعية الحرة للعلوم الاقتصادية » . ثم فر خارج البلاد . والتجأ غوركي الى ريغا ، لكن أمره افتضح فاعتقل واقتيد الى « بطرس وبولس » ليقضي فيها شهراً .

لقد أخدمت الفتنة . وكانت حصيلتها ألف قتيل . وحظرت المواكب الجنائزية العامة ، ولكن لأول مرة حدثت الظاهرة التالية في روسيا: لقد نزل الشعب بجموع غفيرة الى الشارع . وهذا الحدث ، في تلك البلاد التي انتقلت من الصناعة اليدوية الى الصناعة الحديثة بدون أن تمر بمرحلة المانيفاكتورة ، شحن المستقبل الاجتماعي بنذر ثقيلة . واكتشفت الاشتراكية في روسيا سريرها الطبيعي . ولن ترفع الجموع الشعبية بعد الآن الصلبان والايقونات .

كان سيرج ويت يتابع من شرفته فاجعة الأحد الأحمر ، وقد قال لأصدقائه معنى مضمي : - ان عاهلنا عاجز عن قيادة سفينة الدولة . انه لا يستطيع ، هو الواهي العزيمة ، ان يكون عاهلاً مطلقاً للشعب الروسي .

وبالقرب من سور قصر الشتاء ، انتاب الكسندر كيرنسكي ، الذي كان قد قدم بقصد الفرجة ، اشمزاز عميق من مرأى المجزرة . وقد كتب رسالة ساخطة الى ضباط الحرس الامبراطوري وساهم في اجتماع المحامين المشتمزين من الصورة التي تم بها القمع ، ذلك الاجتماع الذي حضرته السلطة . وقد أنهى كلمته بقوله :

- لقد جئت بوصفي لبيبرالياً وشخصاً فضولياً . وبعد المجزرة غادرت المكان وقد أصبحت ثورياً .

وكما في كل مساء سجل نيقولا انطباعاته في مذكراته الشخصية :

« يوم صعب . حدثت اضطرابات جدية في بيترسبورغ ... واضطرت القوات الى إطلاق النار . يا إلهي ، ألا ما أشق هذا كله على النفس ! »

*

هرع لينين وكروبسكايا ، بعد ان وافاهما لوناتشارسكي وزوجته بأبناء المجزرة المفجعة ، الى مطعم لبيشنسكي حيث يجتمع عادة مهاجرو جنيف . وتوقلت الصحف من مائدة الى مائدة في جو محموم . ونوه فلاديمير ايليتش بالدور التاريخي للأحد الدامي : « انه يكمن في يقظة جماهير شعبية غفيرة على الوعي السياسي والنضال الثوري » . وفي ساعة متأخرة من الليل وقف المنفيون ينشدون نشيدي الثورة : المارسيينر والمسيرة الجنائزية .

وفي صباح اليوم التالي وصل تروتسكي الى جنيف عائداً من جولة محاضرات وممسكاً في يده بصحيفة بائنة فيها نبأ مظاهرة غابوني ، وهرع الى مقر « الايسكرا » حيث وجد مارتوف في حالة من الهياج الشديد . وسأله :

– ألم تحدث ؟

فأجابه مارتوف ملقياً بنفسه عليه :

– كيف لم تحدث ؟ لقد أمضينا الليل كله في المقهى نقرأ آخر البرقيات :
ألا تعرف اذن شيئاً ! خذ ، اقرأ .

وقرأ تروتسكي بنهم وشراهة على الصفحة الاولى من الجريدة التي ناوله
اياها مارتوف ، وبعناوين بارزة : « اندلعت الثورة في روسيا ! »

وفي تساركوي – سيلو اقتيد الى الامبراطور اربعة وثلاثون عاملاً تم
انتقاؤهم بعناية ... فقال لهم :

– اني أسأحكم وسوف أتخذ تدابير

وخيب اول هذه التدابير فأل فيرازا سوليتش عندما سمعت به في جنيف :
لقد سمي ديمتري ترييوف ، الذي نجا من محاولة الاغتيال الاخيرة في موسكو ،
حاكماً عاماً لسان – بيترسبورغ .

ألن يتغير اذن ابدأ شيء ما في روسيا ؟

(١٥)

« بدأت عملي في الساعة ٧ . كان علي أن أتعب « الجسيم » . وفي
الساعة الثامنة خرج وتقدم وهو يكثر من الالتفات الى الورا . واختبأت تحت
احدى البوابات حتى لا يلحظني . وتوقف « الجسيم » امام ٢٥ من شارع
سيربوخوف ، ثم دخل الى المبنى ، الى الطابق الثاني على اغلب الظن ، حسبما
بدا لي من وقع الأقدام . ودق الجرس ثلاث دقائق طويلة ودقتين قصيرتين .
وخرج من جديد برفقة شخص مجهول . واستدعيا عربة (رقمها ٨٦٧) .
وفعلت مثلهما واقتفيت أثرهما حتى محطة بريانسك . وحتى لا يتعرفاني
وضعت شارباً ولحية مستعارين . ودخلا الى المستودع وخرجا منه حاملاً كل
منهما رزمة . وافترقا . واستقل « الجسيم » عربة (رقمها ٤٣١) وذهب الى

مقهى فيلييوف ، وهو مكان مشبوه . كانت درجة الحرارة ٢٥ تحت الصفر .
ان الشرطي الذي نلخص على هذا النحو يومه هو واحد من عملاء الاوكرانيا
المتقنين المنتشرين بالآلاف في طول البلاد وعرضها . و « الجسم » هو بوريس
سافنكوف الذي اقسام أن يصرع ، بعد بليخني ، تسعة عشر من كبار موظفي
العهد . والمشهد الموصوف قد دار في موسكو . و « الجسم » ، الملقب ايضاً
بسان - جوست ، يعرف انه ملاحق . ولكن العملاء المتقنين ملاحقون
بدورهم . فلاشتر اكيون - الثوريون يلاحقون المتقنين لا ليكتبوا تقارير
طويلة عنهم ، بل ليزيلوهم من الوجود . وقد صرع برصاص المسدس ثمانية
عملاء متقنين في اسبوع واحد في موسكو ، وثلاثة وعشرون في شهر واحد .
ان بوريس سافنكوف لم يأت الى موسكو ليهتم برجال الشرطة . والرزمة
التي سحبها من مستودع محطة بريانسك ، كما سيتضح ذلك فيما بعد ،
تحتوي على شحنة ديناميت مقرر استعمالها في ١٦ شباط ١٩٠٥ . والضحية
المختارة هذه المرة هي الدوق الكبير سيرج الذي درست بدقة تحركاته ومواعيدها
من قبل ثورين عملوا لفترة من الزمن سائقي عربات . وسوف يحضر عم
الامبراطور وعديله في المساء في مسرح البولشوي حفلة يقيمها الصليب الأحمر .
وقد أخذ المتآمران ، ايفان كالايف ، ٢٨ سنة ، وكوليكوفسكي ، مواقعهما
بالقرب من سور حديقة الكسندر المجاورة للكرملين ، مدججين بالقنابل :
الارض متجمدة ، والثلج يهطل في الساعة العشرين ، شقت خجب الظلام
مصايح العربية . وألقى كالايف بنفسه الى الأمام ورفع يده ليقتذف بالقنبلة .
لكنه تبين من خلال نوافذ العربية ان الأمير ليس بمفرده . فزوجته ، الدوقة
الكبيرة اليزابيث ، اخت القيصرية ، وثلاثة أطفال يرافقونه الى البولشوي .
وبينهم الدوق الكبير ديمتري البالغ من العمر اربعة عشر عاماً ، ابن أخت
سيرج الكسندروفيتش وربييه . وأوقف كالايف حركته وولى الأدبار .
ووافق سافنكوف على موقفه ، لكنه طلب اليه أن يعاود في الغد^(١) .

(١) حول هذه الحادثة بنى الير كامومسرحيته المشهورة « الغادلون » . « العرب »

في ١٧ شباط ، في حوالي الساعة الخامسة عشرة ، احتل كالايف موقعه بمفرده ، بعد أن ترك كوليكوفسكي شجاعته كلها في المحاولة الاولى . وابتعدت عن الكرملين عربة أنيقة يجرها حصانان مطهمان . وعلى بعد عدة خطوات من باب نيكولسكي ، ركض كالايف ، المتنكر في إهاب فلاح ، نحو العربة ورمى الى داخلها بالقنبلة المغلقة بمندبل هندي . وتناثرت العربة إرباً إرباً في الفضاء تحت مفعول الانفجار . وذعرت الدوقة الكبيرة التي كانت تستقل عربة ثانية ذعراً شديداً ، وصرخت :

— اغربوا من هنا ! إلامَ تنظرون ؟ ألا تتجملون

ان الدوق الكبير ، المقطوع الرأس ، الممزق الأوصال ، مجندل عارياً على الثلج : صورة لذلك البلد المأساوي الذي تكلم عنه الأمير هيس—دارمشتاد متنبئاً بمصير ابنتيه اللتين ذهبتا تبحثان عن سعادتهما في روسيا . وقد تطايرت شظايا زجاج النوافذ على مسافة كيلومترين دائرياً . وقد اغمي على كالايف الذي أطاحت به شدة الانفجار ارضاً . وبعد بضعة ايام حكم عليه بالموت ، فسار الى المشنقة رابط الحأش ، بلا معطف ، مجللاً بالسواد ، رافضاً ان يقبل الصليب الذي قرّبه منه أحد الكهنة ، في نفس باحة شلوسلبرغ التي شق فيها قبل ثمانية عشر عاماً الكسندر اوليانوف . وقد مرر الجلاد فيلييوف الحبل حول عنقه ، وركل السدة ، وقدم الى الادارة فاتورة الحساب : حبل ، مشنقة ، فحص طبي ، حفرة خلف الحصن ، مساعدان : ستة وسبعون روبلاً .

وقد كتب كالايف الى أمه قبل نصف ساعة من إعدامه :

« والدتي العزيزة التي لا يمكن ان أسلوها ،

« اذن ساموت . اني سعيد باستقبال نهائيّ ببرودة دم . حزنتك غال علي . ألا فلتغمركم جميعاً ، أمي ، إخوتي ، أخواتي ، أشعة ذلك النور البازغ من انتصار روحي . وداعاً . سلامي إلى كل من عرفني او يذكرني . أسألك ان تبقي أبداً على نقاء اسم والدي . لا تغتني حزناً . لا تبكي . مرة اخرى ،

وداعاً. اني ابدأ معك

*

في جنيف ، استمر بليخانوف في تنظيم حياته تكيفاً مع نوبات الحمى التي تتناوبه بفعل مرضه الصدري . وقد قال لابنتيه ، ليديا ، ٢٤ سنة ، وواجيني ، ٢٢ سنة :

– عندما تبلغ حرارة المرء بين ٣٩ و ٤٠ درجة لا يعود في وسعه ان يهتم بغير الفن والأدب ، وبين ٣٨ و ٣٩ درجة يهتم بعلم الاجتماع ، وحتى الدرجة ٣٨ يستطيع ان يفعل كل شيء .

وفي ربيع عام ١٩٠٥ رأت البنتان شبح رجل يجتاز عتبة البيت متخفياً . فالزائر جاء ليلاقي سراً أبا الماركسية الروسية . وقد استبدل الثوب الكهنوتي باللباس المدني . انه الأب غابوني . واستقبله بليخانوف ، الذي كان قلبه يتحدث بأنه عميل مزدوج ، بجفاء . وقال له صارفاً اياه :

– انت رجل يوم واحد .

وكان حظ غابوني مع لينين ، الذي كان يهتم بهذا المحرض الجماهيري ، اكبر . وقد تمت مواجهتهما الاولى في مقهى لاندولت . واقترح عليه فلاديمير ايليتش ان يكون دليلاً له ، وعرض عليه منبراً في صحيفته « إلى الأمام » ولم يكن غابوني يتكلم إلا عن التمرد المسلح ويمضي وقته في التدرّب على استعمال المسدس وركوب الخيل . واراد الكاهن السابق ، الذي تلتهمه نار الطموح ، ان يخلق جبهة موحدة للثورة ودعا الى اجتماع رفض بليخانوف حضوره . ولم يدم المؤتمر طويلاً . فقد رفض غابوني قبول ممثل عن الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الليتوني فغادر لينين وممثلو البند والأرمن قاعة الاجتماع . وسامو غابوني ، بعد ان احترق ، مع أحد الناشرين على مذكراته ، ورحل ليقضي حياة منحلة على الكوت دازور .

*

صب لينين اهتمامه على عقاً مؤتمر بلشفي ، وبلبخانوف على عقد مؤتمر منشفي . وبينهما وجد تروتسكي نفسه مرتطماً بمصاعب جمّة . وعقد «الريشة» المعارض للينين منذ مؤتمر لندن ، والمطروود من «الايسكرا» بفضل بلبخانوف ، والمصمم على ان يكون رجل عمل بقدر ما هو رجل فكر ، عقد العزم على العودة الى روسيا . وفي فيينا ، حيث علم بمصرع الدوق الكبير سيرج ، قص لحيته وشاربه وكلف رفيقته ناتالي بأن تسبقه الى كييف لتجد لهما مسكناً وتؤمن الارتباط . ومن اوكرانيا امكن لتروتسكي ان يصل الى بيترسبورغ بفضل مساعدة المهندس ليونيد كراسين ، عضو اللجنة المركزية البلشفية الذي يدبر مطبعة سرية كبيرة .

*

بعد أربعة أشهر ونصف من حرب الخنادق حول موكدن ، قرر اليابانيون ان يطردوا الروس من مواقعهم استكمالاً لانتصاراتهم البحرية . وكانت الامدادات قد وصلت الى كلا الطرفين . والقوى المتعادلة متعادلة تقريباً : ثلاثمائة ألف حربة في كل معسكر . وأحرز الفرسان الروس في البداية بعض الانتصارات . ولكن المشاة اليابانيين سرعان ما هددوا الجيش الروسي الرئيسي المدافع عن موكدن . وبعد سبعة عشر يوماً من قتال مرير اصدر كبير الجنرالات كوروباتكين ، وزير الحربية ، اوامره بالانسحاب . واثناء التفهقر ضيق اليابانيون الخناق على القوات الروسية المضطربة التي دلت مع ذلك على شجاعة مرموقة . وترك الروس في الميدان ٢٧٠٠٠ قتيل و ١١١٠٠٠ جريح . وصحيح ان موكدن كانت هزيمة بطولية ، لكنها كانت هزيمة تامة . إلا انها كشفت الثقاب عن الرجال الذين سيكونون قادة الحرب الكبرى ، ومن بينهم لافر كورنيلوف ، الضابط الأسود العينين ، الضيق الحدقتين ، الذي كان في طشقند صديق آل كيرنسكي ، والذي منح على جبهة منشوريا صليب القديس جورج . وقد جعل منه از دراوّه بالموت معبود رجاله وإله ضباطه .

كما ان شجاعة التابع الشاب الكسندر ايفانوفيتش فيرخوفسكي ، الذي كان القيصر قد كسر رتبته في الماضي ، قد ردت اليه اعتباره ورتبته .

ومع كورنيلوف وفيرخوفسكي اللذين لن يكف نجماهما المتعارضان عن الصعود حتى الثورة الكبرى أثبتت احدى وحدات الجيش جدارتها وبسالتها في أتون المعركة . فقد قدمت قبيلة التشتشين القفقاسية فرقة فرسان قاتلت بالسيوف ضد البنادق ، في هجمات اسطورية في جرأتها وكذلك في وحشيتها . وقد أولى كورنيلوف الذي بقي ملحقاً عسكرياً في منغوليا هذه الفرقة المبرزة اهتمامه . وسوف يجعل منها ، بعد بضع سنوات ، « الفرقة الوحشية » المشهورة .

(١٦)

على تاتيانا ليونتييف ان تخفي بين بواكير أزهار ربيع ١٩٠٥ مسدساً وان تقتل الامبراطور عندما ستقدم له باقة زهور في حفلة البلاط الراقصة القادمة . وتاتيانا هي نسيبة الحاكم العام ترييوف وابنة موظف كبير . وقد تلقت تربيتها في معهد سمولني ، مدرسة البنات النبيلات ، وسوف ترقى عما قريب الى مقام سيدة شرف مرافقة للقيصرة . وعندما وشى بها عميل مزدوج ، اكتشفت لديها ترسانة حقيقية . وقد اعتقلت تاتيانا وألغى البلاط الحفلة الراقصة بسبب الصعوبات الداخلية والهزائم الخارجية . وصحيح أن نيقولا قد نجح ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي تحاك فيها مؤامرة اغتيال ضده . وقد تولى تنظيم هذه المؤامرة « الجسيم » ، بوريس سافنكوف ، وتشكيلاته المقاتلة من الاشراكيين - الثوريين .

حظ كراسين ، القائد البلشفي الذي استقبل تروتسكي في روسيا ، وكامينيف ، الصحفي القفقاسي ، في لندن حيث الطقس ربيع . وكان لينين قد استدعاها الى المؤتمر الثالث للمجموعة البلشفية من الحزب الاشتراكي - الديمقراطي بحضور اربعة وعشرين - مندوباً . وفي اليوم نفسه ، وفي الساعة نفسها ، افتتح بليخانوف في جنيف مؤتمر المجموعة المنشفية من الحزب

الاشتراكي - الديمقراطي نفسه .

وحدد لينين الموقف : مؤتمران ، صحافتان ، هذا معناه حزبان .

في لندن وجنيف نوقشت مشاكل واحدة واقترحت حلول متعارضة .
وانبجست من المؤتمر الأهداف التاريخية التي حددها لينين والتي ترسم معالم مستقبل الاشتراكية : ان الثورة لا يمكن ان تقوم إلا عن طريق التمرد المسلح ، وأراضي النبلاء يجب ان تصادر وتوزع على الفلاحين ، والطبقة الفلاحية هي الحليفة الطبيعية للبروليتاريا ، ومن الواجب عزلها عن البورجوازية الليبرالية ، ويوم العمل ينبغي ان يحدد بثماني ساعات ، وعلى الحزب البلشفي ان يتسلح ، وسوف تكون الحكومة الثورية المؤقتة اداة دكتاتورية البروليتاريا فور انتصار الثورة .

وارتأى كراسين ، المتأثر مباشرة بأطروحات تروتسكي ، ان الحكومة المؤقتة يجب ، على العكس ، ان تسبق التمرد حتى تكون أدواته . وشكل السلطة الحديدية يجب ان يبرز على وجه التحديد في مجرى التمرد لا بعده .

وقال لينين : « طبعي اني وجهت اهتمامي ، بوصفي نظرياً ، الى الجانب النظري من المسألة . وقد أشار الرفيق كراسين بسداد كبير الى اهمية هدف النضال ، وأنا أنضم الى رأيه كلياً . فالقتال مستحيل اذا لم ن فكر باحتلال النقطة التي هي هدف النضال » .

وفي جنيف تشبث بليخانوف كل التشبث بمواقف معاكسة : « ان الثورة الديمقراطية بورجوازية ، والبورجوازية الليبرالية هي وحدها التي يمكن ان تكون قائدها ، وعلى البروليتاريا ان تتقرب منها لا من الطبقة الفلاحية ، ومن الواجب دعوة جمعية تأسيسية ، والماركسية تعلم البروليتاريا ان تساهم في الثورة البورجوازية بأقوى شكل ممكن » .

والنقطة المشتركة بين لينين وبليخانوف هي استلها الماركسية : « ليست الاشتراكية اختراعاً طبوئياً وانما هي النتيجة المحتمة لتطور المجتمع الرأسمالي

الحديث . فالنظام الرأسمالي ينهار والرأسمالية تخلق بنفسها حفار قبرها في شخص البروليتاريا . ونضال البروليتاريا الطبقي هو وحده الذي سيحرر الانسانية من الرأسمالية ، وللإطاحة بالعالم القديم وخلق مجتمع جديد بلا طبقات ، يجب ان يكون للبروليتاريا حزبها العمالي الخاص الذي يسميه ماركس وانجلز بالحزب الشيوعي . ويتشاطر النظرليون البلاشفة والمناشفة الشعور بأن النصر لن يعقد للثورة إلا عن طريق الجماهير . ولكن عند هذه النقطة تفرق مواقفهما المشتركة . فليخانوف ، الماركسي اللامشروط ، لا يسعه ان يوافق على الماركسية – اللينينية التي ولدت في لندن على أسس أكثر طرافة وأصالة .

اختتم مؤتمرا الأشقاء الأعداء في ١ أيار ١٩٠٥ . وقد سحر لينين بذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين ، ذي الوجه العريض والحلي والحركات العنيفة تحت ظاهره الهادىء ، الحجول والمجد ، ليون كامينيف . وقد اخذه معه الى جنيف ، بينما كانت فرقة فرسان مهاجم وتعتقل ، في غابة بالقرب من سان بيترسبورغ ، عدداً من الثوريين الذين كانوا يقيمون مهرجاناً خطائياً ، وبينهم ناتالي سيدوفا التي أرسلت الى « تغير » تحت رقابة الشرطة .

علم اسطول البلطيق ، اثناء رحلته اللامتناهية الطول حول افريقيا بعد حادثة دوجربنك ، باستسلام بور – آرثر وبتدمير اسطول المحيط الهادىء . وقد أصدر الأميرال روجستفنسكي أوامره الى سفنه بالاتجاه الى فلاديفوستوك . وبعد سبعة أشهر في عرض البحر ، دخل الأسطول في ٢٧ ايار ١٩٠٥ الى مضيق تسو – شيما ، بين كوريا واليابان ، حيث تسهر بحرية امبراطورية الشمس الشارقة . وفي ٢٨ ايار هاجم اليابانيون السفن الروسية ورموها بوابل من نار وقنابل . وفي مدى بضع ساعات ، حطم الأسطول شر تحطيم باستثناء طرادين احدهما « اورورا » ونسافتين مضادتين تمكنت من شق طريقها الى عرض البحر .

وعلق لينين على ذلك في صحيفته « الى الامام » بلهجة متشفية : « ان

الاسطول الحربي الكبير ، الذي لا يقل ضخامة وشناعة ولا معقولية وعجزاً وثقلاً عن امبراطورية روسيا ، قد تحرك ، مبدراً مالاّ طائلاً من اجل الفحم والصيانة ، ومثيراً سخرية اوروبا كلها .

واستسلمت روسيا ، المقهورة برأ ، المقهورة بجرأ ، المدعورة من الحركة الثورية التي اثارها هزائمها ، امام اليابان التي تريد هي الأخرى ان تضع حداً لحرب ضروس . وتولى تيودور روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة منذ موت ماكنلي في عام ١٩٠١ ، المبادرة في عقد مفاوضات صلح بين العسكريين المتناحرين في بورتلاند .

*

لقد انتهت الحرب التي كان يتمناها بليخفي بلا أكابيل غار ، والجروح الفاعرة أفواهاها لم تزدد إلا اتساعاً . وقد لعبت المذلة التي أحست بها روسيا امام المطالب اليابانية دور خميرة حقيقية في نهوض الثورة . ففي مدينة ايفانوفو- فوزينسك ، غير بعيد عن موسكو ، اعلن سبعون ألف عامل الإضراب بتحريض من ثوري لم يتجاوز العشرين من العمر ، الرفيق أرسين ، المعروف باسم ميشيل فاسيليفيتش فرونز ، الذي يساعده في عمله غلام آخر في نفس العمر بدأ حياته النضالية قبل عامين : اندريه سيرجيفيتش بوبنوف ذو العينين الواسعتين في وجه مستدير والشعر القصير الأشعث كشعر القرشاة . وقد اقنع فرونز وبوبنوف المضربين ، المجتمعين على ضفة نهر تالكا ، بتشكيل لجنة دائمة للمصانع والمعامل بنسبة البروليتاريين العاملين فيها . وقد اخذت هذه اللجنة اسم « السوفييت » (المجلس) . وعلى طول التالكا كان القوزاق يشنون هجمات يومية لتشتيت شمل المضربين . وسقط القتلى بال عشرات . بيد أن المتظاهرين لم تثبط عزيمتهم ولم يرجعوا عن الاضراب إلا يوم فتكت المجاعة بالمدينة . وفي كل مصنع وكل معمل انتخب العمال نوابهم . واصبح لإيفانوفو سوفييتها ، وكان اول سوفييت في روسيا . وسوف ينتشر كبقعة الزيت في طول البلاد وعرضها .

ان البور الثورية تنير الآفاق قاطبة . وفيما وراء حدود البلدان المختلفة القوميات بدأ المثل الأعلى الاشرافي يحفر حناده و يربط الجماهير فيما بينها . واصبح شعار التسليح ثم التسليح ، كما كان قد دعا الى ذلك ستالين ، الحاجة اليومية للثوريين السريين .

ووجد المتمردون في لتفينوف ، مزيف النقود الثوري ، الانسان الذي يستطيع ان يمدهم بالسلاح الضروري . وقد نجح « بابا » ، الذي كان صلة الوصل منذ عدة شهور بين المهاجرين ومقاومي الداخل ، في استئجار مركب أسلحة كامل بمساعدة غابوني . وقد امسكت البحرية الروسية بالسفينة السرية ، لكن المراوغ لتفينوف تمكن من استرداد الشحنة وإيصالها الى موسكو التي تطمح في التمرد .

في بولونيا ، عجت الشوارع بالمتاريس . وفي بيلوفوستوك وفي لودز تقدم العمال الى الموت غير هيايين ، رافعين العلم الأحمر . وفي نوافيسا – الكسندريا نظمت اعنف فتنة . وكان وراءها رجلان ربطا صداقتهما ومصيرهما بالنضال . احدهما فيلكس دزرجنسكي الذي كان الناس يشبهونه بحماله برقائق المراهق . وقد اطلق على دزرجنسكي « الفلكي » منذ فراره الجريء والإفرادي بزورق على نهر لينا لقب « فيلكس الحديدي » . وعما قريب سيصبح « فارس الثورة » . وقد ارتبط في معسكر المعتقلين في نوافيا – الكسندريا حيث انتهت مغامرته المجنونة باشرافي – ديموقراطي لا يقل تصميماً عنه : فلاديمير الكسندروفيتش انتونوف – اوفسييكنو ، الملقب بـ « الحربة » . وانتونوف ثوري منذ ربيع السابع عشر ، مقدم ، متحمس ، ارتجالي ، فوضوي ، سليل أسرة عسكرية وضابط هو نفسه . وقد قرر فيلكس الحديدي والحربة ان يثرا المعركة . ودزرجنسكي يتمتع بتأييد جميع المعذنين في الارض ، وانتونوف بتأييد قسم من القوات . وقد استتبت فنتتهما قمعاً دامياً . وهرب دزرجنسكي ، ولكنه اعتقل في وارسو . اما انتونوف فقد نجح في الوصول الى سيياستوبول .

سيا ستوبول ، البحر الأسود ، اوديسا . فمع صيف ١٩٠٥ انتقلت ربح الثورة الى الجنوب . وخطط عمال لنسف خط اوديسا - كييف الحديدي ، لكن المخربين اعتقلوا بعد ان وشى بهم احدهم . وغزا ألفا متظاهر مراكز توجيه القطارات احتجاجاً . فهاجمهم رجال الشرطة والقوزاق وقتلوا منهم ثائرين . وفي ٢٧ حزيران نصبت المتاريس في كل مكان من اوديسا المضربة . وتلقت القوة الحكومية ، التي لم تكن بالضعيفة ، أوامر صريحة جازمة من ترييوف :

— في حالة الإخلال بالنظام ، لا تطلقوا في الهواء . لا توفرنا الخراطوش . وتحول عصيان اوديسا الى مجزرة وعملية سلب ونهب . وفي الساعة الثامنة عشرة رست مدرعة في المرفأ ووجهت مدافعها الى المدينة . وحط عند الرصيف زورق غاص بالبحارة المسلحين الذين أنزلوا منه نعشاً مفتوحاً فيه جثمان البحار غريغوار فاكولينتسك الذي قتله قبطان المدرعة لأنه احتج على نوعية الطعام الرديئة . وتدفقت الجموع لتلقي النظرة الأخيرة على النعش الذي وقف بجانبه بحاران مستعدان لإرسال الإشارات الاصطلاحية طلباً لمساعدة المدرعة في حالة الهجوم . وقد رفعت المدرعة ، التي كانت قد تمردت في الليل ، العلم الأحمر راية لها . وقد بدأ كل شيء عندما رفض بحارة السفينة القائدة لأسطول البحر الأسود ان يأكلوا لحماً متفسخاً . وقد ركز رئيس الاطباء وضع نظارته ، وتفحص الصحاف ، ثم اعلن ان الطعام جيد . وتدخل القائد غوليكوف ليحسم الموقف :

— ان البحارة يتظاهرون بعدم الرضى والاشمئزاز . يكفي ان يغسل هذا اللحم !

وأوقف المحرضون ، واقتيدوا الى الجسر ، وأحدثت بهم سرية الحراسة وألقي فوقهم « جادر » حتى يُرموا بالرصاص دونما تمييز . لكن لإخوتهم في السلاح رفضوا أن يطلقوا النار . وعندئذ تعالي الهتاف : « الموت للأندال » ،

ووجه الجنود بنادقهم الى الضباط ورموهم بنيرانها على جسر « بوتمكين » .
وقد قتل القائد غوليكونف الذي كان يحاول الاحتماء في مقصورة الأميرال
وألقيت جثته الى البحر . وقرر بحارة المدرعة بوتمكين البالغ تعدادهم ٩٣٠
رجلاً ان يساعدوا اوديسا بعد أن اصبحوا سادة مركبهم . وهز قصف مدفعية
المدرعة المدينة ، بينما فتح الجيش الموالي النار على الجموع وقمع التمرد بوحشية
بالغة . وعزلت بوتمكين بعلمها الأحمر عن سائر قطع الأسطول التي تلقت
الأمر بأسرها . وأقلعت المدرعة بعد ان قرر بحارتها أن يتقدموا لمواجهة الخطر .
وعندما التقت بالوحدات الاخرى ، لم تقبل اي سفينة اي مهاجمة المدرعة
المتردة التي نخرت عباب البحر الأسود طوال أسبوع رافعة بزهو علمها
الأحمر . ثم اضطرت المدرعة ، بسبب نقص التموين والفحم ، الى الاستسلام .
وألقى زعيم التمرد ، الملاح ماتوشنكو^(١) ، بالعلم الأحمر الى الأمواج ،
وأنهى ملحمة بوتمكين في ميناء كونستانزا الروماني .

وعندما علم نيقولا الثاني بأبناء اضطرابات اوديسا وعصيان المدرعة
بوتمكين ، هتف :

— هذا شيء يكاد لا يصدق !

(١٧)

قال لينين : « لم يعد في القيصرية حيل ، والثورة لم يصبح لها حيل بعد » .
ان الحكومة ما عاد يسهها ان تخنق الفتنة بالقوة . ولم يعد لا الدكتاتور
تريبوف ولا الوزراء بقادرين على تهدئة الاضطرابات . وأجمع الرأي على أن
ثمة رجلاً واحداً يستطيع أن يأخذ الأمور بين يديه : سيرج ويت الذي حصل
على قروض جديدة ووقع معاهدة الصلح مع اليابان في بورتسماوث . وقد
رجع منها ويت رجوع المنتصر مع لقب كونت . رجع حاملاً في جعبته

(١) هاجر ماتوشنكو الى سويسرا واميركا ، ثم عاد الى روسيا فشقق في ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٧ .

مشروع مذكرة تعد بالحريات الفردية وترسي أسس جمعية تشريعية منتخبة،
دوما الامبراطورية^(١). وتردد نيقولا امام مشروع هذا الرجل الجلف ،
الحازم ، الفظ اللغة . ألا ما اصعب لإرضاء الناس جميعاً والشعب ! واستدعى
القيصر عمه ، الدوق الكبير نيقولا ثيفيتش ، الذي لبي الدعوة مذعوراً من
حركة الاضرابات المتعاضمة . وفي قصر بيترهوف أخرج الدوق الكبير مسدساً
وهدد بأن يطلقه على دماغه اذا لم يصدق الامبراطور على سياسة ويت . ووافق
نيقولا الثاني بعد أن صلى صلاة طويلة . وفي ٣٠ تشرين الاول ١٩٠٥ ، نشر
البيان المشهور الذي سيقسم البلاد الى تشرينيين . ولاتشرينيين . وعندما
صدرت نسخ الوثيقة القيصرية ، احتشد الناس في الجامعة احتفالاً بالنصر .
وكان بينهم شاب في السادسة والعشرين شق لنفسه طريقاً وصعد الى الشرفة
ليحرض المتظاهرين ويؤلبهم :

– ايها الرفاق ، بيان القيصر ؟ انظروا هو ذا ... انه ليس إلا قطعة
ورق . لقد أهدونا اياه اليوم ، وسيستردونه منا غداً ، وستطير حريتكم مثل
نثارات الورق هذه .

كان الخطيب الشاب ليون تروتسكي .

ولم يخطيء الجنرال غيراسيموف ، رئيس الاوكرانا ، عندما قال :

– انني اخشى كل الخشية أن يكون هذا اليوم بداية الثورة . اننا نتكلم
هنا عن أحرف ذهبية ، في حين تفصل في الجامعة الأعلام الحمر !
وعلى إيقاع لحن شعبي أنشد الاشتراكيون من جميع الاتجاهات :

أصدر القيصر الخائف بياناً

للموتى الحرية ، وللأحياء السجن .

(١) كلمة الدوما مشتقة من فعل روسي يعني تأمل ، فكر .

هذا هو رأي مناشفة بليخانوف وبلاشفة لينين واشتراكي افكسانتيف وتشيرنوف الثوريين والمحامي كيرنسكي .

ان الثغرة الصغيرة التي فتحت في سور قلعة الحكم المطلق أثارت استياء اليسار وقلق اليمين المتطرف . وشكلت عناصر من الطبقة النبيلة والصناعيين والكسبة ، مغالية في يمينيتها ، حزب « اتحاد الشعب الروسي » القومي ، الذي لقب بـ « المثة السود » ، والذي لن يتراجع لا امام المجاوز الجماعية ولا أمام الإرهاب .

ومن الوسط ولد تجمع موالٍ . فالحزب الدستوري - الديمقراطي (الكاديت)^(١) ، المنبثق عن الزيمستفويات التي حصلت اخيراً على الجمعية التأسيسية التي طالما طالبت بها ، يرى مع استاذ التاريخ الكبير في جامعة موسكو ، بول ميلوكوف ، ان روسيا قد اجتازت المنعطف الخطر والرئيسي من النظام الدستوري . وسوف يتزعّم حزب الكاديت ميلوكوف وباسيل ماكلاكوف .

*

لم تتأخر الحريات التي أقرها « البيان » عن تحويل الصحف التي كانت حتى الآن سرية الى صحف علنية واسعة الانتشار . وصارت تتكسد على مناضد باعة الصحف في جادة نفسكي اكوام ضخمة . وصارت « الايسكرا » و « الى الأمام » متصلان من جنيف بلا صعوبات ، مع صحافة باريس ولندن . وأوصى موروسوف صاحب مصانع النسيج المليونير على صحف معارضة جديدة مع غوركي الذي أصدر « الحياة الجديدة » بالتعاون مع ليونين كراسين . ولما كان الكاتب المصاب بالداء الكوني مشبوهاً لدى السلطات ، فقد تولت رفيقته ، الممثلة المشهورة ماريا اندرييغا ، نجمة مسرح موسكو ، تغطية العمليات المالية .

(١) هذا اللقب مشتق من الأحرف الاولى لاسم الحزب .

ومع الصحافة خرجت الحياة السياسية من الليل الطويل . وبعد ايفانوفو ، انتخبت موسكو سوفيتين ، سوفيت العمال وسوفيت الجنود . كما انتخبت بيترسبورغ سوفيتها في ٢٦ تشرين الأول . وهكذا اصبح لعمال العاصمة البالغ عددهم مئتي ألف نواب يبلغ تعدادهم خمسمئة وستين غالبيتهم من المناشفة . وقد انتخب المحامي جورج نوسار ، المناضل المعروف باسم كروستاليف ، اول رئيس لسوفيت بيترسبورغ الذي أسس في الوقت نفسه صحيفة مدعوة الى حياة طويلة : الازفستيا (الأبناء)

بناء على نصيحة من لينين دخل البلاشفة ، الذين كانوا متحفظين في البداية ، الى نواة السلطة الثورية تلك . وقد ضم مكتب سوفيت بيترسبورغ ثلاثة من المناشفة وثلاثة من البلاشفة وثلاثة من الاشتراكيين – الثوريين ، وكان من أبرز هؤلاء التسعة تروتسكي وبوغدانوف وافكسانتييف .

كانت هزات عام ١٩٠٥ اقوى وأعنف من ان يبقى فلاديمير ايليتش بعيداً عنها . ففي ٢١ تشرين الثاني ١٩٠٥ حط في العاصمة بصحبة كامينيف بعد أن حلق لحيته وركب على أنفه نظارتين زرقاوين وزيف هويته . واختبأ لدى اخته ماريا ، ثم استأجر ، بعد وصول كروبسكايا ، غرفة مفروشة في جادة نفسكي . ولاقاه سراً معاونه الوفي في « إلى الأمام » لوناتشارسكي وبوغدانوف الذي كان قد جمع بينهما في جنيف .

وعن طريق كراسين شق لينين طريقه الى تحرير « الحياة الجديدة » حيث اكتشفه غوركي : « هو قصير القامة ، خبيث النظرة . وأنا طويل ، متخلع البنيان . وفي البداية لم يسر الأمر على ما يرام . ثم نظر كل منا الى الآخر بانبها ، وعلى حين غرة اصبحت المحادثة اكثر سهولة » .

ان لينين يريد تطهير الصحافة من عناصرها البورجوازية ليجعل منها الواجهة الشرعية لنشاط الحزب السري . وفي « الحياة الجديدة » ، الممولة من قبل موروسوف ، راح المهندس كراسين وفلاديمير ايليتش يطالبان

كلاهما بموت الرأسمالية .

وعقد سوفيت بترسبورغ جلسة إثر أخرى . وحل تروتسكي ، الخطيب الناري ، محل المحامي كروستاليف – نوسار الذي اعتقل في رئاسة السوفيت ؛ وقد حضر لينين جلستين اثنتين ، غخبثاً في الأروقة بتدبير من زينوفيف ، الزعيم السابق للمهاجري بيرن . لكن ترييوف أقسم على موت هذا البرلمان العمالي الذي يميل الى إنزال نفسه منزلة مجلس نيابي حقيقي .

وفي ٣ كانون الاول داهمت الشرطة معهد التكنولوجيا ، مقر السوفيت ، اثناء انعقاد احدي جلساته ، وشرع ضابط بقراءة مذكرة توقيف . ومن المنبر قاطعه « الريشة » :

— اذا كان لديك ما تقوله ، فقدم اسمك وسأسال المجلس ما اذا كان يرغب في الاستماع اليك .

واستؤنفت الجلسة بعد طرد الضابط . وأتلف أعضاء المكتب بسرعة الأوراق ذات الأهمية . ثم رفع الرئيس الجلسة . وكانت القوات المسلحة تنتظر عند المخرج . واعتقل تروتسكي ومثنا نائب واقتيدوا الى سجن كريستي (الصلبان) والى قلعة بطرس وبولس . ولم تمض ايام قليلة حتى كانت زنزانة « الريشة » قد تحولت الى مكتبة . وعمل هو وسجين آخر ، الدكتور الكسندر هلفان ، الملقب ببارفوس ونائب السوفيت ، على تعميق الاطروحات الاشتراكية التي حرراها معاً تحت العنوانين التاليين : « نتائج وتوقعات » و « الثورة الدائمة » . وقد اقتبس تروتسكي العنوان الأخير من كتابات ماركس الثرة المعين وتوغل في البحث اكثر من ملهمه . وفي حين كان لينين يفكر بثورة تتخطى المرحلة الديمقراطية البورجوازية ، وبليخانوف بنظام بورجوازي انتقالي قابل لأن يمتد على مدى بضعة عقود ، تميز تروتسكي بموقف فريد : « إن الثورة الدائمة تعني ثورة لا تريد ان تتساهل مع أي شكل من أشكال السيطرة الطبقيّة ، ولا تتوقف عند المرحلة الديمقراطية البورجوازية بل

تنتقل الى التدابير الاشتراكية والى الحرب ضد الرجعية الخارجية ، ثورة تكون بذرة كل مرحلة من مراحلها متضمنة في المرحلة السابقة ، ولا تنتهي الامع التصفية التامة للمجتمع الطبقي . ان الثورة الديموقراطية تتحول مباشرة الى ثورة اشتراكية وتصبح بالتالي ثورة دائمة .

وقد اصطدمت موضوعة الثورة الدائمة بريية لينين الذي نعتها بالثرثة الدائمة .

*

في بترسبورغ كان الكسندر كيرنسكي يهيء مع زوجته شجرة الميلاد لابنهما اوليغ ، عندما دق جرس المدخل . فقد جاءت قوات من الشرطة لتفتش شقة المحامي الاشتراكي . وقد أخذ أحد الحراس مكانه امام غرفة اوليغ تحسباً لكل طارئ ، طوال مدة التفتيش . وكان اكتشاف نداء الى التمرد ، سابق في تاريخه على بيان تشرين الاول ، تحت كومة من الصحف القديمة ، كافياً لتوقيف كيرنسكي الذي اقتيد في عربة صغيرة يجرها حصان واحد الى سجن كريستي حيث بدأ لإضراباً عن الطعام .

*

في تامر سفورس ، في فنلندا ، افتتح في كانون الاول ١٩٠٥ مؤتمر للثوريين الروس هدفه تحديد موقف الاحزاب الاشتراكية نظراً الى اقتراب موعد انتخابات دوما الامبراطورية الاولى كما نص على ذلك بيان تشرين الأول . وقد انتخب لينين لرئاسة المؤتمر السري ، وأتى من الجلسة الاولى على ذكر اقتراح منسفي يدعو الى مساهمة فعلية في البرلمان الجديد . وتعالى صوت مرنان ذو لهجة جيورجية ليقاطع الخطيب :

— لماذا؟ ان تكتيكننا هو المقاطعة . وهو تكتيك جيد جداً . فلم نغيره؟

انها المرة الاولى التي يواجه فيها لينين ستالين . وهو معجب برجال الففاس الأقوياء الملقبين بالأحصنة . لكن ستالين ، الحصان الفولاذي ،

يتفرس في فلاديمير ايليتش ليقمسه : « كنت أنتظر ان أرى نسر الجبال ، أرى مارداً . فإذا بي أمام رجل عادي جداً ، أصغر مني قامه ، انسان كغيره من الناس » .
وانحنى لينين امام مقاومي الداخل . فالبلاشفة لن يشاركوا في الانتخابات ولكنهم سيستخدمون الاجتماعات لأغراض الدعاية .

واثناء الجلسات توالى أنباء دراماتيكية من شتى أرجاء روسيا . وانفجرت سلسلة من الاضرابات الدامية في كرونشتاد وعلى الفولغا وفي موسكو .
واختتم لينين المؤتمر بسرعة :

— ليذهب كل الى مركزه . فالثورة يجب ان تنتصر في كل مكان في آن واحد .

في ساراتوف قمعت حركة العصيان ببراعة من قبل الحاكم بيير أركاد ييفيتش ستوليين ، البالغ من العمر ثلاثة واربعين عاماً ، ماريشال النبلاء السابق في منطقة كوفنو اللتوانية ، المهووس بالمشكلة الزراعية . والواقع ان ستوليين ، المحافظ على النظام بدون سفك دماء تقريباً ، هو عرضة منذ بضعة أشهر لمحاولات الاغتيال . وقد كتب الى زوجته اثناء رحلته له : « لقد أطلقا علي جناء مختبئون خلف الأشجار رصاص غداراتهم » . ولقد عرفت أسرة الحاكم العنف دوماً . فقد كان والده ، الجنرال أركادي ستوليين ، بطلاً من أبطال حرب القرم ، كما اصيب عمه إصابة قاتلة اثناء مبارزة . أما أمه فهي حفيدة الماريشال الكسندر سوفوروف ، المنافس المنحوس الحظ لماسينا^(١) امام زوريج . وبيير ستوليين يقاتل جهاراً وبوجه مكشوف . فكثيراً ما كان يتقدم الى منصبه مهرجان خطابي ثوري ، ويخلع معطفه ، ويقذف به الى ذراعي الخطيب صائحاً به : « إليك ، احتفظ بمعطفي بينما اتكلم الى هؤلاء الناس الطيبين » . وكان الجمهور ، المعادي في البداية ، ينقلب عادة

(١) احد ماريشالات نابليون .

« المترجم »

الى جانبه .

في لوغانسك ثار آلاف العمال ليحرروا من السجن غلاماً في الثامنة عشرة علمهم استعمال البندقية ، كليمان فورشيلوف ، الذي يسمونه بالجنرال الأحمر من دون ان يعرفوا انه سيصبح في يوم من الايام ماريشالاً .

في سيبيريا جرى تنفيذ الإعدام رمياً بالرصاص في عامل مناجم الملح المسن ، ي. بابوشكين ، الذي وزع اولى كتابات لينين - تولين .

ان انتونوف - الحربة ، الذي نظم مع فيلكس الحديدي حركات التمرد البولونية ، يعمل الآن في سياستوبول الثائرة . وقد أعلن بحارة البحر الأسود حالة العصيان . ورفعت بوتمكنين ، التي لا تلين لها قناة ، العلم الأحمر من جديد . وانضم بحارة قلعة سياستوبول الى المتمردين . وقد أسر الملازم شميدت الذي يقود التمرد وأعدم رمياً بالرصاص . والواقع أنه تأخر كثيراً في إعلان حالة العصيان نظراً الى انه كان ما يزال يأمل حتى الساعة الاخيرة في تنازلات من قبل القيصر . وقد أدى عدم الاستعداد الى فشل التمرد . وصرع البحارة الذين حاولوا النجاة سباحة عند الشاطئ . وفي طومسك كان يتولى قيادة العمليات التخريبية فتى في الثامنة عشرة ، سيرج ميرونوفيتش كيروف .

في قازان والأورال يشرف على المنظمات السرية صديق طفولة لغوركي . فقد ولد يعقوب ميخائيلوفيتش سفيردولوف ، البالغ من العمر عشرين عاماً ، في نيني - نوفغورود حيث يملك أبوه ، ميشيل اسراييليفيتش ، المتواضع ورشة صغيرة لفضن الحفر ومسكناً ليس فيه سوى حجرة واحدة يعيش فيها أبناؤه الستة . وقد تدرب يعقوب سفيردولوف منذ نعومة أظفاره على الأعمال السرية . وفي الثالثة عشرة علمته أمّه ان يخفي المنشورات الثورية بابتلاعها . وعندما ماتت السيدة سفيردولوف قبل الاوان في عام ١٩٠٠ ، كان قد أصبح مساعداً صيدلياً في ضواحي المدينة . وهناك اتصل يعقوب بالأوساط

العمالية الثورية . وفي عام ١٩٠٢ اشترك ، ولما يتجاوز بعد الخامسة عشرة في مهرجان خطابي بلشفي نظم احتجاجاً على قرار السلطات المحلية بإبعاد غوركي عن نيني - نوفغورود . وقد تحولت التظاهرة التي كانت تضم آلاف الاشخاص الى فتنة وكان سفيردولوف من بين المتظاهرين الذين اعتقلوا . وكتب مكسيم غوركي الى البلشفي بيانسكي ، مدير منشورات زنانيه ، ليصف له ، بشيء من السخرية ، الأحداث المؤلمة التي جرت في مسقط رأسه : « في نيني - نوفغورود ، تحدث اشياء رهيبه ، أمور استثنائية . انهم يعتقلون ويسجنون مجرمين رهيبين ، محرضين سياسيين ، ثوريين بينهم ابنان لسفيردولوف الحفار . (اخيراً ، سوف يعود الهدوء الآن ! وستنقذ روسيا !) ان كبير ابني سفيردولوف اللذين اعتقلا في الشارع يبلغ الخامسة عشرة ، وصغيرهما الثالثة عشرة ! اما الأخ الثالث ، البالغ من العمر ستة أعوام ، فلم يسجن بعد . أما الرابع (زينوفي) فهو جالس الآن عندي يمازحني ، إن قلبه لشريد ... وهو اكبرهم سنأ - ثمانية عشر عاماً » .

ان زينوفي سفيردولوف ، البكر الشريد القلب ، عدو للعنف . وقد تبناه غوركي منذ سبعة أعوام ، ويحمل اسم زينوفي بشكوف .

ان يعقوب سفيردولوف ، المعروف باسم الرفيق اندريه ، ضامر القامة ، رشيقها ، أسود الشعر ، متماوجه ، عيناه تتألقان حمية وحماسة خلف نظارته . وهو لن يغيب ابداً عن انظار لينين . وسوف يجعل منه في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ساعده الأيمن . أما في الساعة الراهنة ، فإن الرفيق اندريه كان ماراً بموسكو لحظة اندلاع الاضطرابات . وقد وصل فرونزه ، منظم سوفيت ايفانوفو الأول ، على رأس فصيلة من العمال تعزيراً للمتمردين . وقد تاهت في خضم الثورة فرنسية لها من العمر واحد وثلاثون عاماً ، مولودة في شارع شايبيل في باريس ، ووجدت نفسها مأخوذة في انتفاضات موسكو . فلقد اطلق بعد اربعة أشهر من الاعتقال سراح الرفيقة اينيس آرمان التي سجنّت مع ثمانية وعشرين مثقفاً لحيازتها كتباً ممنوعة . والرفيقة اينيس ابنة

بيشو دريبل مغني الأوبرا وزوجته الممثلة الانكليزية الأصل ، وقد احتضنتها خالة لها قدمت الى موسكو لتعمل مربية لدى صناعي غني . وقد تزوجت اينيس من أحد ابناء هذا الصناعي وهي في التاسعة عشرة وأنجبت له خمسة اولاد في عدد قليل من السنين . ثم انفصلت اينيس عن زوجها لتتقرب من أخيه الذي كان يشاطرها افكارها ، وجالت على المراكز العمالية الملهبة وذادت عن قضية المرأة الروسية .

حصل سوفيت موسكو على الأسلحة التي انقذها في اللحظة الاخيرة « بابا » لتفينوف الثعلب . وقد أقسم بعض أفراد الحامية على المشاركة في التمرد . وتحول الإضراب المعلن في ١٨ كانون الاول ١٩٠٥ الى حركة عصيان في ٢٢ ، وأصدرت الحكومة أوامرها الى المدفعية بدك المتاريس الاولى . وطوقت القوات الموالية التي كانت اكبر عدداً فصائل القوزاق المنحازة الى العدو وأرغمتها على التزام ثكناتها من جديد . وبقي العمال لوحدهم ، بعد أن حرّموا من القيادة البلشفية التي اعتقلت دفعة واحدة . ومن بيترسبورغ تحركت كتيبة سيمونوفسكي من الحرس الامبراطوري تحت إمرة الجنرال جورج الكسندروفيتش مين . ودارت المعارك حياً حياً ، وكانت قوات القمع تتصل فيما بينها بالصواريخ . وصمد المتمردون المعزولون تسعة ايام . ووقع الصدام المسلح الكبير في كراسنويا - بريسنيا التي دكتها المدفعية بلا انقطاع ، والتي طوقها رجال مين تطويقاً شديداً ، مما اضطر السوفييت الى ايقاف القتال . وبالرغم من أن قوات مين القيصرية كانت تشرف على السكك الحديدية ، إلا ان الميكانيكي اوختونسكي ركب قطاراً وملاه بقوات صدامية وسيّره باتجاه قازان . بيد ان القوات النظامية اوقفت القطار وأسرت المتمردين واعدمتهم رمياً بالرصاص فوراً ، وكان من بينهم الميكانيكي اوختونسكي . ونجح يعقوب خيردلوف في الفرار باتجاه الأورال .

وفي موسكو ، المعقل الأخير لتلك الأعمال الدامية التي اطلق عليها

التاريخ اسم «ثورة ١٩٠٥» ، انطفأ في ٣١ كانون الاول أمل الاطاحة بالملكية .

واعلن نيقولا الثاني انه سيحمل وحده عبء الحكم الذي سيكون مسؤولاً عنه امام الله وحده . وعبر للمئة السود ، أنصاره من اليمين المتطرف ، عن ثقته : ان شمس الحقيقة ستشرق ذات يوم على روسيا .

وراح لينين يفكر بالمستقبل . لقد كلفت ثورة ١٩٠٥ خمسة عشر ألف قتيل ، وثمانية عشر الف جريح ، وتسعة وسبعين ألف سجين . وقال فلاديمير ايليتش :

— كان يجب ان نكون اعظم قوة وحزماً ، ان التنظيم يجب ان يكون مثالياً ومتوافقاً في كل انحاء البلاد . وهو لم يكن كذلك . ونظراً الى ان الفلاحين لم يمتزجوا بالعمال ، فقد خسر الفلاحون .

لقد اخفقت الثورة . لكن ثورة ١٩٠٥ أنجبت قوى مستقبلها : السوفييتات والدوما . بورتان للفكر والعمل ، بيتتان ، سلطتان كمونيتان مقدر عليهما التواجه .

ان ١٩٠٥ هي المراجعة العامة لـ ١٩١٧ .

(١٨)

حول قصور بيترسبورغ وبيترهوف وتساركوي — سيلو الامبراطورية تجمهرت جموع جديدة . جموع جلها من ابناء الشعب والعامّة الملتحين والوسخين ، المرتدين ثياب الرهبان ، البسطاء النفوس او المتصوفين ، الدجالين أو المخبولين ، حجاج يتجولون حفاة الأقدام في زمهرير الشتاء ، يستندون الى عكاز ضخم قبضته من الفضة الدقيقة الشغل . ان أتباع هذه الشيع الغامضة يطوقون مقام الامبراطورة التي كانت تقدم لهم الهدايا مقابل شعوذتهم . وكانت الشيعه الاكثر انتشاراً شيعة السائطين الذين يداوون الشر بالشر والخطيئة

بالخطيئة . وكان أتباعها يقيمون الصلاة جماعة ، ويبيحون اجسادهم للجلد حتى تأخذهم النشوة الصوفية والحسية ، ثم يتعاطون الخطيئة . وفي احدى قرى مناطق طوبولسك الشاسعة ، في سييريا ، استبدل احد هؤلاء المتشيعين ، ويدعى غريغوري إيفيموفيتش نوفي ، امتحان السوط بامتحان النار . فكانت تنصب المحارق في اماكن نائية عن مناطق السكن ويقفز فوقها أتباع غريغوري حتى يسقطوا ارضاً من الإنهاك . وبعد ان تكون ألسنة النار قد التهمت وقودها ، ينكبون على الفجور في الظلام الدامس . وقد تدخلت الشرطة لتضع حداً لهذه الطقوس ووبخت غريغوري الذي تسمى باسم راسبوتين (الفاسق) واضطر نوفي ، المكره على الفرار من مسقط رأسه في سييريا ، الى ان يعيد بناء صيته وسمعته في العاصمة . كان له من العمر آنذاك اربعون عاماً . وهو رجل طويل القامة ، بارز قسمات الوجه ، عيناه زرقاوان — رماديتان مغناطيسيتان ، شعره طويل مرسل ومعطر ولحيته رمادية وقذرة . قوة من قوى الطبيعة . ولم تمض به أيام معدودة حتى كان قد شق طريقه الى أرفع دوائر الارستقراطية . وعهدت اليه الكسندرا فيودوروفنا ، قيصرة عموم روسيا ، بحياة القيصر القتي الذي ورث عنها مرض آل هيس — دارمشتاد المخيف : كثرة النزيف الدموي . ووجد راسبوتين في البلاط مستقراً ولم يعد له من هم ، هو الراهب الزائف المتملق من كل جانب ، ورجل آل رومانوف العجائبي ، إلا ان يسيطر على الامبراطورة المسيطرة على الامبراطور . وعندما علمت الحكومة والشرطة بدور الفاسق المتصاعد ، حاولتا إيقافه ونفيه . لكن راسبوتين قد بات يتبحر في عربات الأسرة المالكة ، وينظم حفلات مشبوهة تأتي اليها سيدات البلاط المسحورات ليطردن الأرواح الشريرة مقدمات كأضحية بكاره بناتهن كما يأتي اليها الرجال الطامعون في الترقى والمجد . وبذلك ركز بين يديه سلطة فاسدة مفسدة كانت آخر ما تحتاجه روسيا حتى تسرع في سيرها الى هلاكها .

ولم يكن للكنيسة ، المكلفة بالذهب والآلء ، الخاضعة لصولجان السلطة ،

من دخل في ارتقاء غريغوري . ولكنها كانت عاجزة عن تحطيم دائرة الشر التي خنقت بها الامبراطورة العرش ، يبحثها عن معونة فائقة للطبيعة تقهر بها اللعنة التي تطاردها .

وفي كاتدرائية قازان ، في مقر الأسقف اورناتسكي ، اجتمع عدد من الكهنة لتشكيل نقابة . انهم يريدون إخراج الكنيسة من صمتها . وعلم غيراسيموف ، رئيس الاوكرانا ، بنأ الاجتماع وأبلغ المجمع المقدس . وأصدر الوكيل العام أوامره :

— أرسل رجال شرطة وقوزاق ، وليطردوا باسمي كل أولئك الخوارة بالسياط .

لكن غيراسيموف يتمنى حلاً أقل فظاظة . فتوجه المجمع المقدس الى ترييوف وكلفه بأن يحنق في المهد هذه « الفتنة المفسدة » بإغلاقه مقر جمعية الفلسفة الدينية التي هي مصدرها . ولم تشكل النقابة . ولزم المسؤولون الحقيقيون عن الاورثوذكسية الصمت .

*

لم ينجح غابوني ، الكاهن الذي حرض جماهير « الأحد الدامي » ، في التسلسل الى صفوف الثوريين المهاجرين . وبالمقابل نجح عميل مزدوج . واسع السلطة ، آزييف ، بإقناعه بالعودة الى روسيا وبالعمل فيها لحساب الاوكرانا . فقبل الراهب ، وكلفته الشرطة السرية بكشف هوية هيئة أركان الإرهابيين الاشتراكيين — الثوريين . وقد خيل اليه انه واصل الى ذلك بالاعتماد على واحد من أبرز رجال الحزب ، ب . روتنبرغ الذي انقذ حياته في ٢٢ كانون الثاني إذ جز لحيته وشعره وساعده على الهرب . واقترح عليه غابوني ان يخون رفاقه . فتظاهر روتنبرغ بالقبول واتفق معه على موعد في مكان مأمون . ثم استأجريتاً ريفياً منعزلاً في قرية صغيرة بفنلندا ، قرب بيتر سبورغ ، وخبأ عدداً من العمال في حجرة مجاورة لحجرة الاجتماع

الذي دعا اليه غابوني في ٢٨ آذار ١٩٠٦ . ووقع الكاهن في الفخ . واستمع العمال المختبثون الى ما دار في الاجتماع المنفرد . وما ان سطع برهان الحياة ، حتى انقض شاغلو العزبة على الكاهن – الجاسوس ، فضربوه ثم شنقوه على مشجب للملابس . ولم تعبر الاوكرانا على جثته إلا بعد مرور شهر كامل .

*

شرع لينين في إعادة بناء ما هدمته ثورة ١٩٠٥ . فجمع في ستوكهولم في عام ١٩٠٦ مؤتمر الحزب الرابع بحضور المناشفة . ووقع مع بليخانوف ودان ومارتوف اتفاقية لدمج المجموعتين الاشتراكيتين – الديمقراطيتين . وقد كانت للمناشفة في المؤتمر الغالبية : اثنان وستون ضد تسعة واربعين من البلاشفة ، وهمنوا على اللجان كافة .

وقد قال ستالين فيما بعد نادياً : اني لأذكر كيف اننا كنا ننظر جميعاً ، وقد خارت عزائمتنا ، الى لينين سائلين اياه النصح .

واستطاع المناشفة فرض برنامجهم الزراعي القائم على تحويل ملكية الاراضي الى المجالس البلدية ، بدلاً من تأميمها كما كان يتمنى لينين . لكن فلاديمير ايليتش بقي متفائلاً :

– دعونا من التباكي ، ايها الرفاق . سوف تكون الغلبة لنا لأننا على حق . ان الانشقاق لم يعد موضع بحث . ولن يعرف حزبنا بعد الآن انقسامات وانما أجنحة فقط .

ووافق المؤتمر على إنشاء لجنة فنية عسكرية هدفها مكافحة حزب اقصى اليمين ، المئة السود .

ودخل اللجنة المركزية دزرجنسكي ، فيلكس الحديددي ، الذي فر من سجنه في وارسو .

وتنكر لينين باسم كاربوف ليتسلل من جديد الى روسيا حيث كان رأسه مطلوباً . وفي ايار ١٩٠٦ نظم له الثوري كالينين ، الذي قدم من

الجنوب ، مهرجاناً شعبياً في مصنع الأسلحة في بوتيلوف . وقد سجلت كروبسكايا في مذكراتها : « كان فريسة لانفعال جارف . وعندما صعد الى المنصة ، التزم الصمت حوالي دقيقة من الزمن . وكان شاحباً شحوباً رهيباً » .

وقد اثار فلاديمير ايليتش عاصفة من الهتاف والتصفيق عندما اقترح قراراً ينص على الحاجة الى سلطة مطلقة للشعب . وفي جو من الحماسة المنقطعة النظر ، مزقت القمصان الحمر لتحويلها الى اعلام ، وانتشر العمال في الضواحي منشدين الأناشيد الثورية .

واصبح همّ لينين المزدوج تزويد الحزب بالسلح والمال . وقد وجد رجلاً قوياً ، سيمون أرشاكوفيتش نير - بتروسيان ، الملقب بكامو ، والبالغ من العمر اربعة وعشرين عاماً ، والذي ستحدث عنه صحف العالم قاطبة وعن عمليات السطو الجريئة التي سينفذها . وكان كامو ، وهو ابن مقاول ميسور الحال ، قد طرد من مدرسته الأرمينية لكسله وخبثه . وكان يناضل منذ عام ١٩٠١ في صفوف الحزب البلشفي في تفليس حيث عرف ستالين وكامينيف وكالينين . وقد اوقفه رجال الشرطة ، في اواخر عام ١٩٠٣ ، في محطة باطوم وهو يحمل حقيبتين مليئتين بالمشورات الثورية . وبعد ان امضى تسعة أشهر في السجن ، وثب فوق السور ساعة الزهة . وكان هو الذي اطلق النار في تفليس على القوزاق اثناء ثورة ١٩٠٥ ، ثم سقط بين ايديهم بعد ان اصيب لإصابة خطيرة اثناء الاشتباك . ولكنه تمكن من الهرب للمرة الثانية .

وقد التقى به لينين في بيتربورغ وعهد اليه بقيادة عمليات السطو المسلحة التي كان القصد منها تمويل صندوق الحزب . وقد تخصص كامو في مهاجمة القطارات الناقلة للأموال العامة . وكانت هذه العمليات يتضاعف عددها يوماً بعد يوم . وقد سمته الاوكرانا لصوصية ، وسماها الثوريون مصادرة . لم يكن كامو الضخم الجثة الاكتشاف الوحيد للينين ، فهو قد وجد

ايضاً رجل دعاية عبقرياً في شخص فلاديمير بونتش - برويفيتش ، البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً ، المثقف النبيل المحتد ، المعروف بدراساته عن الشيع الدينية ، الشبيه في مظهره بمستخدم مكتبي ، المخني الظهر بعض الشيء ، المحمر الجفون من كثرة المطالعة ، المرسل اللحية ، الزري الملابس . لكن بونتش برويفيتش يخفي تحت ظاهره الحضري هذا طاقة لا حدود لها ومواهب تنظيمية كبيرة . وقد حولته الماركسية عن هواية الأدب . وأخوه ميشيل يحترف بنبوغ مهنة السلاح ويشغل أهم المناصب في القيادة القيصرية .

لقد اخترع بونتش - برويفيتش في جنيف طريقة معصومة لا تضارع لإدخال الأدب السري الى روسيا . فقد اكتشف مع زوجته نوعاً من الصمغ امكن بواسطته تجميع صفحات رقيقة من الورق المطبوع . فكانت الكتابات تتحول الى ورق مقوى تصنع به الحقائق وعلب القبعات والألبومات . وفي الجانب الآخر من الحدود كان يكفي ان تغطس هذه الأشياء في حوض من الماء الفاتر لمدة خمس عشرة دقيقة حتى تنفصل الوريقات من دون ان يكون قد لحقها اي اذى أو تشويه .

•

« فرنسا ، انني أبصق في وجهك علقماً ودماً » : هكذا علق مكسيم غوركي على المليارين من الفرنكات التي حصل عليها ويت على سبيل القرض . وصحيح ان بيترسبورغ قد التزمت بالمقابل بأن تؤيد ، في ألجيسيراس ، المطامع الاستعمارية الفرنسية في مراکش . إلا ان القرض أثار استياء الاشتراكيين . وقد صرح جان جوريس متنبئاً :

— ان هذا القرض لن يسدد ابداً .

لقد تغلبت السلطة على عاصفة ١٩٠٥ ، لكن الأمواج ما تزال تندافعها . وقد واجه سيرج ويت ، رئيس الوزراء ، توبيخات قاسية بسبب نتائج انتخابات دوما الامبراطورية ، أول هيئة ديموقراطية روسية . فالقانون

الانتخابي الذي سنّه ، والذي نصّ ان تكون الانتخابات على درجتين وان يدفع الناخب والمنتخب ضريبة محددة ، لم يحقق للقيصر أمنيته في برلمان خاضع وأخرس . واصبح حلم الليبراليين الأحقق كابوس الامبراطور . فمن بين ٤٣٦ منتخباً موزعين على تسع مجموعات ، فاز الحزب الدستوري – الديموقراطي (الكاديت) وحده ب١٧٨ مقعداً (٣٧,٤٪) . وقد أعفي ويت للمرة الثانية من منصبه . وعين نيقولا الثاني خلفاً له الشيخ الطاعن في السن غوريميكن . لكن تسمية وزير الداخلية هي التي أزعجت النقاب عن كل اتجاه السلطة . فقد قبل بيير ستوليين ، الرجل الذي « يفرغ عليه الجبناء غداراتهم » والرجل الذي يواجه الثوريين في قلب مؤتمراتهم ملقياً بمعطفه الى الخطيب الذي يقاطعه والرجل الذي فرض احترام النظام في ساراتوف ، قبل بأخطر المناصب الوزارية .

وفي ١٠ ايار ١٩٠٦ اجتمعت الدوما الاولى التي سميت بدوما الرجاء الوطني . أما المقر الذي اختير لانعقادها فيوناني – روماني الطراز . انه القصر الذي شيدته كاترين الثانية للمقرّب إلى قلبها ، الأمير بوتمكين ، قصر توريدا . وكان يفترض في القيصر ان يرعى حفلة الافتتاح ، لكن لما كانت منزلته لا تسمح له بالهبوط الى مستوى الشعب ، فقد استقبل في قصر الشتاء اول نواب انتخبهم امبراطوريته . وقد دعي أعيان البلاد والضباط بالآلاف فعمرت بهم الأبهاء التي كان الذهب هو اللون الغالب فيها . وبين صفين من رجال مزدهين بأوسمتهم وثيابهم المطرزة بالذهب مر موكب ممثلي الشعب ، وفي مقدمته البورجوازيون المحتشمو اللباس ، ثم الفلاحون ببرانسهم والعمال بستراتهم . انهما روسيتان اثنتان تتواجهان .

في الخارج ، كان النهار حاراً ومشمساً . وعلى ارضفة قصر الشتاء كانت عدة مراكب تنتظر النواب لتنقلهم الى قصر توريدا . وتحرك الموكب على اللينا باتجاه البرلمان : مئة واحد عشر فلاحاً ، وخمسة وستون ملاكاً

عقارياً ، ثمانية وثلاثون محامياً ، خمسة وعشرون عاملاً ، تسعة عشر طبيباً ، اربعة عشر كاهناً ، ثلاثة عشر مثقفاً ، الخ . وفجأة تعالت من ضفة النهر صيحات عالية . فمن نوافذ السجن كريستي كان المعتقلون السياسيون ، ومن بينهم كيرنسكي ، يترصدون مرور المراكب . وعند ظهورها بسطوا من النوافذ أعلاماً حمراء ومناديل هاتفين : العفو العام ، العفو العام !

وما كادت الدوما تباشر أعمالها حتى بدأ امتحان القوة . فقد اصدر القيصر قوانين أساسية تحرم الهيئة التمثيلية من حقوقها الواقعية . وعاملها غوريميكين بازدرآء ، متخلفاً عن حضور جلساتها . وعندما « شرفها » غوريميكين بحضوره في ٢٨ أيار ، فلنما ليقدم اليها مشروع قانون عن انشاء دفينة ومغسل في جامعة دوربات !

وعبئاً ضاعف النواب جهودهم : ١٠٩٦ خطاباً ، ٦٩٥ تصويتاً ، ١٣٣ اقتراحاً بقانون ، ٣٣٦ استفهاماً في غضون اثنين وسبعين يوماً . من اجل لا شيء . وأرغى سيرج ويت وأزبد ضد السياسة الحكومية التي تشوه مشاريعه . وقال :

— مزيج من الجبن والعمى والغباء .

وقد بلغت الحرب التي تدور رحاها بين الدوما والحكومة أوسع مداها عندما شرع النواب بإعداد مشروع للإصلاح الزراعي . فقد سميت لجنة خاصة ، رئيسها ميشيل ياكوفليفيتش هرزنشتاين ، عضو حزب الكاديت ، وهو رجل معتدل واستاذ للحقوق في جامعة موسكو . وأثارت شائعات تقسيم الاراضي والمصادرة القسرية قلق غوريميكين والنبلاء واقصى اليمين . وفكر رئيس الوزراء بجل الدوما ، لكنه خاف من الاضطرابات . ولزم ستوليين مقرر وزارته استعداداً لكل طارئ . واجتمع زملاؤه لدى غوريميكين الذي ذهب لاستشارة القيصر في بيترهوف . وعندما عاد الأمير الطاعن السن الى منزله ودخل مكتبه ، خاطب مجلسه بالفرنسية :

— ايها السادة ، سأقول لكم كما قالت مدام دي سيفيني لنسيبها دي كولانج لتعلمه بزواج دوق لوزن : اراهنك على اربعة ، اراهنك على عشرة ، اراهنك على مئة ، احزر ماذا يجري هل تظنون ان القيصر رفض حل الدوما؟ كلا ، فهو ذا مرسومه . وبعد هذا يجب ان اقول لكم اني لم أعد رئيس الوزراء . فقد عين القيصر ستوليين مكاني !

(١٩)

في الساعة التاسعة مساء لم يكن الظلام قد خيم بعد . وسوف يدوم نور الغسق حتى الفجر ، لأن دورة ليالي البلطيق البيضاء المشهورة لم تنته بعد تماماً . وفي ١٨ تموز ١٩٠٦ كان ميشيل هرزنشتاين ، رئيس اللجنة الزراعية التابعة للدوما المنحلة ، يتزهر مع زوجته وابنته في تيريوكي بفنلندا ، غير بعيد عن فندق بلفيدير ، في ساعة غروب الشمس . وبغته دوت طلقنا رصاص . وسقط هرزنشتاين ارضاً وقد اصيب في ظهره . وبعد ثلاث دقائق لفظ الروح في الشارع . أما القاتل فقد وثب فوق احد الحواجز وتوارى في الغابة . وكان النائب قد تلقى إشعاراً بقتله قبل بضعة ايام :

« لقد قررت جمعية العدالة المدنية ان النواب المؤيدين لمصادرة الأراضي لا بد ان يلاقوا حتفهم . وأنت في عدادهم . »

وتحت ستار هذا الاسم ، جمعية العدالة المدنية ، يخفي حزب اليمين المتطرف ، اتحاد الشعب الروسي او المثة السود . و « الاتحاد » يستطيع ان يقتل بلا حساب : فالسلطة تعطيه ، والنصح يبذل له من كبار الموظفين . والمدير الجديد لشرطة بيترسنورغ ، البارون فون ديرلاونيتز ، مسجل في الحزب الذي يدفع للقتلة ألفي روبل على كل عملية ناجحة . والمثة السود يملكون ، بالاضافة الى عملهم الإرهابي المضاد للثورة ، شعبة للدعاية تدين بفعاليتها لديناميكية رئيسها ، فلاديمير بوريشكيفيتش ، سليل أسرة نبيلة ريفية ، ومالك ثلاثة آلاف هكتار من الاراضي الغنية في بيسارابيا . ويصدر

بوريشكفيتش صحيفة « العلم الروسي » التي تدعو علناً وجهاً الى النضال ضد الاشرائيين والليبراليين . وغداة اغتيال نائب الكاديت هرزنشتاين استعاضت الصحيفة عن عنوانها البارز الأول بصليب أسود كبير ، وكان يعني أن على جميع المؤيدين ان يبقوا الى القيصر مهنيين . ودفن هرزنشتاين في تيريوكي بحضور جمهور غفير ، وخط غابة من الأعلام الحمر . وانشد الموكب « المارسييز » ثم « المسيرة الجنائزية » :

— « لقد سقطت شهيد النضال في سبيل الشعب ... »

ولم يكن هذا الشهيد سوى رجل معتدل ، نصير ملكية دستورية . والواقع ان كل ما يفعله النظام او يقطبه ينقلب ضده . فهو قد جعل من هرزنشتاين ميثاً الثوري الذي لم يكنه قط حياً .

واضطر حزب الكاديت ، الذي حال حل الدوما دونه ودون ان يلعب دوراً متوسطياً ، الى الاجتماع سراً في فنلندا . وقد وافق المؤتمر على اقتراح قدمه المؤرخ بول ميليوكوف يدعو الشعب الروسي الى عدم دفع الضرائب والى رفض الخدمة الاجبارية .

*

امام المعارضة المتعاطمة وضعت الاوتوقراطية كل آمالها في رئيس الوزراء الجديد بيير ستوليبين ، الخطيب المفقوه ، الخارق الذكاء ، الحازم الادارة : وبرنامجه لإعادة بناء روسيا الجديدة من الأعلى هو أمنية أماني النبلاء واليمين : الهدوء اولاً ، ثم الاصلاحات .

وكان رد لينين السريع : « البيت لا يبني ابتداء من السقف » .

لكن ستوليبين يولي الأسس ايضاً اهتمامه . فهو يعرف ان الوسيلة الوحيدة لنجدة روسيا هي تمكين الزراعة من ان تحقق نهضتها بنفس السرعة التي تمت بها نهضة الصناعة . وهو يعرف الفلاح حق المعرفة : كادحاً مهجوراً ، معزولاً ، فقيراً ، مثله السائر المحبذ هو : « الله أعلى مما ينبغي ، والقيصر

أبعد مما ينبغي» . ومشروع ستوليين هو ان يركز الملكية العقارية في ايدي عناصر ثابتة ، وأن يعطي الملكية الريفية طابعاً فردياً . فالمير (الهيئة المشاعية) يملك حتى الآن الأرض التي يؤجرها لفلاحي القرية لمدة ثلاث سنوات بنسبة عدد الأذرع في كل أسرة . ومشروع ستوليين هو ان يصبح في وسع الفلاح امتلاك الارض بعد ثلاث سنوات من الاستثمار . وقد اتخذ سلسلة من التدابير لتسهيل القروض المصرفية ورحيل الأسر الفقيرة الى ما وراء الأورال لإعمار سيبيريا الشاسعة وتخصيها .

وخطة ستوليين بحاجة الى عشرين سنة من الأمن والسلم حتى يكتب لها النجاح . والواقع أن التطبيقات الأولى لم تخلق سوى بورجوازية ريفية محسودة : الكولاك .

وقد أحس الثوريون بالخطر الذي تعرضهم اليه سياسة ستوليين اذا ما استطاع السير فيها حتى النهاية . إذ أن التعلق الشديد بالملكية الفردية ينذر بإبعاد الفلاح عن الطريق الاشتراكي .

يقيم رئيس الوزراء عند مصب النيفا ، في جزيرة الصيادلة . وهناك يجري المقابلات الشخصية . وفي عصر ٢٥ آب ١٩٠٦ كان ثلاثون من أصحاب الالتماسات ينتظرون . وأمام المدخل الذي يحرسه الجنرال زامياتين ، مرافق رئيس الوزراء ، وشرطي واحد ، توقفت عربة يجرها حصانان . ونزل منها اربعة ضباط درك . وعندما لاحظ الجنرال زامياتين بعض الشنوذ في زيهم الرسمي ، سد دونهم المدخل . ولكن بعد فوات الأوان . فقد رمى الزوار ، وهم من الاشتراكيين - الثوريين المنكرين في إهاب رجال درك ، من فوق كتف المرافق ، بحقيرة محشوة بثلاثين كيلوغراماً من المتفجرات . وتطاير المنزل . لكن بيير ستوليين ، الذي كان يستقبل في الجناح الأيمن ، نجح ولم يمسه أذى . وبالمقابل سقط ابنه وابنته اللذان كانا يلعبان على الشرفة تحت الانقاض وأصيبا بكسور . لكن الملتسمين هم الذين دفعوا الفدية :

سبعة وعشرون قتيلاً واثنتان وثلاثون جريحاً .

وأقام نيقولا الثاني أسرة ستولييين كلها في قصر الشتاء . ومن هناك شرح رئيس الوزراء ، وهو جالس على كرسي كبير ، مسنداً رأسه الى ركيزته الخيزرانية ، لأحد مراسلي « التايمز » : « لقد امسكت بالثورة من خناقها وسأجهز عليها خنقاً ... إذا عشت . من الواجب ان يستتب النظام ، النظام المطلق . ان الثوريين يتهمونني بالوحشية . وقد أصدرنا في غضون ثلاثة شهور عشرين ألف حكم وأعدنا ألفي ثوري . لكن هل تعرف ان الارهابيين قتلوا في الوقت نفسه او جرحوا ٦٠٩١ من جماعتنا وسرقوا مليونين ومئتي ألف روبل » ؟ .

صحيح ان ايقاع النشاط الإرهابي لم يتباطأ . فغداة الهجوم على جزيرة الصيادلة ، صرع الجنرال مين الذي كان قد ذك بالمدفعية متاريس موسكو في كانون الأول ١٩٠٥ ، بثلاث رصاصات في ظهره على رصيف محطة بيترهوف . وقد قال القيصر عندما سمع بالنبا :
- خسارة لا تعوّض .

وتعرض ديمتري ترييوف الى محاولة اغتيال بالسم في قصر الشتاء . وقد اعتقل على إثر المحاولة طاهيه وخادمان . ثم صرع الجنرال كوزلوف في حديقة قصر بيترهوف وقد حُـسب ترييوف . وقتل حاكم سمارى العام بقنبلة مثله مثل المدعي العسكري العام بافلوف .

وفي كرونشتاد تمرد بحارة اليخت الامبراطوري ، « النجم القطبي » ، بسبب سوء الطعام . وامتدت شرارة التمرد الى الحصن . ومن بيترهوف سمع الأمبراطور دوي المدافع . وقال :

- مهما يحدث ، فسوف أنحني امام ارادة الله .

وتواجهت الرجعية والثورة بعنف لا مثيل له . ولُقِّب رئيس الوزراء من قبل الثوريين باسم ستولييين - الشنّاق ، ورجال المشقة ببربطات عنق

ستوليبيين . وتضاعفت مظاهر سوء استعمال السلطة . فقد اقتيدت صبية في العشرين من العمر الى احدى الثكنات وعريت من ملابسها في الاضطراب وجلدت بالسوط حتى اغمي عليها ، لأنها قالت لدى مرور كتيبة ان الضباط مرحون كما لو انهم استولوا على بور - آرثر ! وحكم على شاليابين بغرامة ألفين وخمسمئة فرنك لأنه رفض ان ينشد اغنية وطنية .

واكتشف ترييوف مؤامرة تحاك ضد الامبراطور لكنه مات موتاً فجائياً بعد بضعة ايام . وقد دل التشريح الذي تم بناء على أمر من ستوليبيين على أن ترييوف مات بانفجار أم الدم .

*

تلقي تروتسكي الذي كان ينتظر البدء بمحاكمته رسالة من مارتوف : « محاكمتك ستبدأ قريباً . اني ادعوك الى الاعتدال . وأساس الدفاع يجب ان يكون بيان تشرين الاول » .

ولم يصل جواب تروتسكي الى مارتوف ، فقد وقع في ايدي الشرطة : « علينا ان نتحمل مسؤولية تهينة سياسة للتمرد . وقصص المتهمين يجب ان يكون منبراً سياسياً ، لا ملجأ » .

وافتح المحاکمة في اواخر ١٩٠٦ . وبالرغم من أن الصحافة كانت مكبوتة ، إلا ان بعض الجرائد نقلت المداولات بموضوعية جريئة ، وقد نشرت احداها : « ألقى اليوم في المحكمة احد المتهمين ، ويدعى برونشتاين ، خطاباً لامعاً » .

وحول تروتسكي ، كما كان قد عقدهم العزم ، قفص المتهمين الى منبر سياسي . وتبارى امام هيئة المحكمة خمسون متهماً ومثتان وخمسون شاهداً واربعون محامياً . وتكلم « الريشة » بصوت مرنان في جو محموم . ولم يغادره نظر والده الذي كان ضائعاً بين الجمهور . اما أمه فكانت تبكي

بصمت . وأثارت مرافعة الابن الثوري القاعة الى حد ان الجلسة عقلت .
ثم صدر الحكم : ان ليون برونشتاين غير مذنب بتهمة مؤامرة العصيان
المدني ، ولكنه سيُنفى مدى الحياة بسبب نشاطه الثوري .

وفي محكمة اخرى لم يكن المتهم هو الذي هاج دموع الحضور ، وانما
المحامي الكسندر كيرنسكي الذي ألقى مرافعته الاولى امام هيئة محكمة ريفال ،
بعد ان اطلق سراحه في آب ١٩٠٦ من سجن كريسني . وقد ألقى هذه
المرافعة دفاعاً عن فلاحين استونيين متهمين بنقل شرارة العصيان الى اراضي
احد البارونات وبحرق القصر والمزارع . وقد قوبلت بعاصفة من التصفيق
وأخلت ساحة جميع الموقوفين تقريباً . وقرر كيرنسكي الذي اصبح بين
عشية وضحاها ألمع محامي روسيا من دون أن يكون قد تجاوز الخامسة والعشرين
ان يكرس موهبته للمضطهدين السياسيين . وعندما عاد الى بيترسبورغ
ليدافع عن بلشفي متهم بـ «مصادرة» ، استعلم عن التدابير التي يتخذها
الحزب في مثل هذه الحالة . وقد أجابه المتهم بصراحة :

— ثمة تدابير خاصة . فعندما نقرر القيام بمصادرة ، نقدم استقالتنا
من الحزب قبل اسبوعين ، بحجة المتاعب مع الاوكرانا . وعندئذ نصبح
احراراً في التصرف . أما المال فيرسل الى الخارج . وبعد اسبوعين نعتذر
عن اخطائنا ونطلب إعادة قبولنا في الحزب فيقبل طلبنا فوراً .

*

وفي باريس ، كانت « الاومانيتيه » تهلل لشكل آخر من النضال الثوري :
« ان كل الديمقراطية الاشتراكية تحتفل بالأعوام الثلاثين من منفي جورج
بليخانوف وحياته النضالية » .

اجل ، لقد انقضت ثلاثون سنة منذ ان خفق العلم الأحمر الأول على
احياء سان - بيترسبورغ البورجوازية .

ارتدى تروتسكي لباساً صوفياً خشناً ليأخذ مكانه تحت الحراسة العسكرية في قافلة مؤلفة من اربعين زحافة باتجاه سيبيريا . وقد احاطته المحاكمة بهالة من الشهرة ادفأت قلبه . كما ان حضور والديه اللذين كانت صلته بهما مقطوعة قد شدد من عزمته . إذ كان الاب برونشتاين قد كافح افكار ابنه الديمقراطية ، وقال له :

— انها لن تتحقق حتى ولا في ثلاثمئة سنة .

اكن اللهجة الحارة الصادقة التي تكلم بها ابنهما في المحكمة بدلت كل شيء ، وقد طمأناه قبل رحيله :

— سوف نهم بزوجتك الكسندا وبابنتيك . سوف نربيهما .

وقد علم « الريشة » لحظة رحيله الى منفاه أن رفيقته ناتالي سيدوفا قد أنجبت له ابناً ، ليف .

ان لتروتسكي ذكرياته في المدن التي تتوقف فيها الزحافات . انه يتذكر انه قد استمع قبل سبع سنوات ، في ليلة ربيعية مظلمة ، حول موقد نار على ضفاف نهر اللينا الذي كان مجراه قد ضاق به ففاض ، الى دزرجنسكي وهو يلقي أشعاراً بولونية : « ان وجه هذا المراهق الفائق الجمال ، المشع بقوة روحية ، المضاء بالسنة لهب الموقد ، بقي حياً في ذاكرتي » .

وقد شارك في تلك الليلة الشاعرية المتوهجة منفي آخر أبدي الابتسامة ، بشوش وهادىء : مويس سالومونوفيتش اوريتسكي ، الفتي الماركسي الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين ، والممزق مثل تروتسكي بين اتجاهي بليخانوف ولينين .

الزحافات الاربعون تنساب نحو اوبدورسك ، في الدائرة القطبية ، على بعد ألف وستمئة كيلومتر من أول سكة حديدية ، وعلى بعد ثمانين

كيلومتراً من اول مركز برقي . آخر العالم . ولكن قبل خمسمئة كيلومتر من منتهى الرحلة ، تظاهر تروتسكي الذي حمل الحرية في كعب خذائه المجوف على شكل جواز سفر وقطع ذهبية ، بأنه مصاب بعرق النسا ، ونجح في دخول المستشفى في بيريزوفو .

في الوقت الذي ألقى فيه القبض على ابن ليون تولستوي ووجهت اليه مهمة الحياة العظمى لأنه طبع الأهجية السياسية الاخيرة لوالده ، أقسمت اللجنة التنفيذية الاشتراكية - الثورية ان تنفذ حكم الموت في ذراعي القيصر - الطاغية : الرئيس ستوليبين ومدير البوليس فون دير لاونيتز الذي افتضح أمر انتمائه الى حزب المئة السود . وكان هذان الرجلان سيحضران في ١٣ كانون الثاني ١٩٠٧ تدشين معهد الطب الجديد . وقد كشف آزييف ، العميل المزدوج الرهيب الذي نجح في ادخال الراهب غابوني من سويسرا ، لرئيس الاوكرانا غيراسيموف عن خطة لاغتيال . وقبل ستوليبين ، بعد ان أخطر ، بالأ يذهب إلى احتفال المعهد الديني . وبالمقابل رفض لاونيتز . وأثناء القداس اقترب شاب يرتدي ثوب الكهنوت من مدير الشرطة وأطلق ثلاث رصاصات في ظهره . وتهاوى لاونيتز صريعاً . أما القاتل فقد استبق ضربة سيف أحد فرسان القوزاق متتحراً بحرقه دماغه .

ولم تستطع الشرطة التحقق من هويته ، فوضعت رأس القاتل في ناقوس زجاجي ، وعرضته على الجمهور بضعة أيام . وفي النهاية اكتشف آزييف نفسه هويته . إذ كان قد لاحظ أن فرداً آخر يرتدي ثوب الكهنوت قد غادر كنيسة المعهد الصغيرة قبيل مصرع لاونيتز . وكان هذا المدعو هو الاشتراكي - الثوري سولياتسكي الذي كان يفترض فيه ان يغتال ستوليبين فيما لو قدم . وقد علم آزييف من خلال تحقيقه في تنقلات سولياتسكي ان هذا الاخير كان يسافر بكثرة الى فنلندا حيث ينزل في فندق السياح المشاد في غابة قرب شلالات ايناترا . وتم اكتشاف عرين المنظمات الاشتراكية -

الثورية الكفاحية ، المبني من الخشب والمؤلف من طابقين والمحتوي على اثني عشرة غرفة .

اجل ، في هذه الغابة الاجنبية كان الفدائيون يستعدون للتضحية العظمى مع علمهم ان ساعة الحصاد ليست قريبة .

وبناء على تعليمات آزييف ، أرسلت الاوكرانا زوجاً من الثوريين الزائفين ليطلبوا اللجوء الى الفندق . وفي الوقت نفسه طلبت الحكومة القيصرية من دوقية فنلندا الكبيرة السماح لها بأن تقوم بغارة بوليسية في أراضيها . ولكن شيئاً من قلة الفطنة والحذر اتاح للاشترائيين - الثوريين ان يلوذوا بالفرار الى الغابة قبل بضع ساعات من مجيء الشرطة الذين لم يعثروا في الفندق إلا على خدم . وقد أراهم آزييف ناقوس الكحول المحفوظ فيه رأس قاتل لاونيتز ، واعترفوا بأن القاتل هو من المترددين على الفندق ، الطالب الفتي كودريابانيسيف .

*

لم يشترك الاشتراكيون في دوما الامبراطورية الاولى ، دوما الرجاء الوطني ، ولكنهم سيشاركون في الدوما الثانية المسماة بدوما الاستنكار الوطني . ولم تستطع المناورات الحكومية ان تأتي الى الحكم بالغالبية المأمولة . وقد نال اليمين المتطرف ثلاثة وستين مقعداً . ويريد زعيماه ، فلاديمير بوريشكيفتش وباسيل فيتالايفيتش شولغين ، الكاتب والمحرر في صحيفة المئة السود ، موت الدوما والعودة الى الاوتوقراطية المطلقة . وقد عاد الكاديت بـ ١٢٣ نائباً وعلى رأسهم بول ميليوكوف والمحامي باسيل ماكلاكوف . ودخل الملكيون - التشرينيون ، من يمين الوسط ، الى الدوما بـ ٣٤ نائباً يتزعمهم أ . ج . غوتشكوف ، الصناعي والملاك العقاري الموسكوفي الفني . وهو رجل قوي حارب بجانب البوير وضد اليابانيين . وكان قد طالب اثناء مناقشة في الدوما حول الميزانية العسكرية بأن يترك الدوقة الكبار مناصبهم الادارية

في الجيش حيث برهنوا على لاسمؤولية كبيرة . وقد اصبح غوتشكوف ، زعيم الجناح اليميني من البورجوازية ، موضع كراهية الامبراطورة التي تود لو تشنقه وتحلم باستمرار بأنه قتل في حادثة قطار .

في الجناح اليساري من الدوما يحتل الاشتراكيون - الديمقراطيون والاشتراكيون - الثوريون ٨٣ مقعداً . وقد بقي النواب البلاشفة تابعين مباشرة للينين الذي كان ينسق بنفسه خطبهم . أما المناشفة فقد زعموا عليهم رجلاً عظيم القيمة ، هيرقليون جورجيفيتش تسنريتبلي ، ابن كاتب مغمور وسليل أسرة أمراء يبدأ تاريخها من القرن الرابع عشر . وقد ضم تشيرنوف وافكسانيتيف ، مؤسس الحزب الاشتراكي - الثوري ، اليهما محامياً مشهوراً عن الفلاحين الفقراء ، الشيخ ناتانسون .

ووقف ستوليين من الدوما عكس موقف سلفه غوريميكين . وكان ، هو الوفي لنفسه والمحب لمواجهة الصعوبات ، يحضر الجلسات ويهاجم المعارضة بعنف :

— ان مشيئة العاهل لم تعط الدوما الحق في أن تعبر للحكومة عن استنكارها او لومها او عدم ثقته . وعلي ان أصرح بأن مقعد الوزراء هذا ليس مقعد متهمين . انكم لن تخيفونا . واذا لم يعرف النواب كيف يفرضون على انفسهم الانضباط الضروري ، فإن الدوما الثانية ستحل بأسرع مما حلت به الأولى .

واراد ستوليين ان يقطع الطريق على برلمانه بصدد مشكلة الاصلاح الزراعي الذي تم وضع مشروعه في الفترة الفاصلة بين الدوما الاولى والثانية . والواقع ان تدابير الاولى لم تهديء الفتن الفلاحية . وقد فتح رئيس الوزراء قلبه لنائب الكاديت اندريه ايفانوفيتش شنغاريف الذي جاء يلتمس العفو عن واحد من ناخبيه الفلاحين له علاقة بجرمة اغتيال :

— انت لا تعرف لصالح من تتدخل . انهم لأجلاف قساة القلوب لا

يمكن ردعهم إلا بالخوف . واذا ما منحوا الحرية فتكروا بالناس جميعاً :
انت وأنا وكل من يرتدي ستره .

وتصاعد الغضب الفلاحي كمد لا يريد ان يتبعه جزر . ولم يتوصل
ستوليبين الى تهديته . ولم يكن في وسع شخص مثل تولستوي نفسه ان
يهده . فلقد عاد تولستوي ، الذي قال عنه لينين نفسه انه اول من أدخل
الفلاحين الموجيك الأضلاء الى الأدب الروسي ، ذات مساء الى بيته والدموع
تترقق من عينيه ، إذ كان قد صادف في طريقه فلاحين :

– لقد رأيناها بما فيه الكفاية ، جثتك القذرة .

– يا أصدقاؤني ، ما معنى هذا؟ اني تولستوي .

– بالتأكيد ، اننا نعرفك . انتظر قليلاً ايها الشيخ حتى نسوي أمرك .

ان تولستوي نبيل وملاك . وابنه المسجون واهاجيه لن تجنبه سخرية
الفلاحين الذين يحبهم .

*

في صبيحة ٢٩ آذار ١٩٠٧ ظهرت صحيفة المئة السود ، صحيفة
بوريشكيفيتش وشولغين ، « العلم الروسي » ، بصليبيها الأسود المشهور .
لقد اعطيت الاشارة هذه المرة لمطالبة القيصر بجل الدوما . وفي آخر مرة
ظهر فيها الصليب الأسود مكان عنوان لسان اقصى اليمين ، قبل حوالي
اقل من سنة ، اغتيل نائب الكاديت هرزنشتاين . واليوم سقط نائب كاديت
آخر تحت ضربات المئة السود : الصحفي غريغوار بوريسوفيتش إيولوس .
وقد أعد للجريمة كازانشيف ، عضو عصابة الاغتيالات في « اتحاد الشعب
الروسي » ومقترف جريمة قتل هرزنشتاين . وقد احب كازانشيف هذه
المرّة أن يكون ماجناً وطلب الى فلاح ثوري فتي يدعى فيودوروف ان يقتل
إيولوس . واقسم فيودوروف ، الذي ظن انه اغتال ثورياً خائناً لحزبه ،
ان ينتقم عندما عرف من الصحف الشخصية الحقيقية لضحيته . فاجتذب

كازانتشيف الى الغابة وقتله . ثم فرّ خارج البلاد ، الى برلين ، حيث فضح دور المثة السود قبل ان يلفه النسيان .

*

يبدو ان لندن كانت المحط المقرر مسبقاً لتروتسكي عندما هرب من سيبيريا . فقد تمكن ليون برونشتاين ، بفضل تظاهرة بمرض عرق النسا وبفضل جواز السفر والقطع الذهبية المخبأة في كعبيه المجوفين ، من الوصول الى بيرم ، ومنها استقل قطار سان - بيترسبورغ وأبرق الى أسرته بوصوله إلى فنلندا حيث لاقى لينين ومارتوف . ولم يكن تروتسكي ليقبل مقابل اي شيء في العالم بأن يعقد المؤتمر الخامس للحزب بدونه . والحال ان جلسات هذا المؤتمر ، الذي كان بلا شك اهم مؤتمر عقد حتى الآن ، قد عقدت في لندن . وقد انتدب اعضاء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي البالغ تعدادهم مئة وخمسين ألفاً أشهر قادتهم وأصدحهم صوتاً : بليخانوف ، فيرا زاسوليتش ، اكسلرود ، بوغدانوف وعديله لوناتشارسكي ، غوركوي ، كامينيف ، زينوفايف ، ستالين ، كراسين ، مارتوف ، لتفينوف ، دان ، تسيريتيلي زعيم المناشفة في الدوما ، الجنرال الأحمر الفتى فوروشيلوف ، أ . ي . ريكوف ، ابن اسرة فلاحية ، عضو سوفيت بيترسبورغ ، وبلشفي من الساعة الاولى .

كانت هيئة المؤتمر مناصرة للينين ، وعبئاً حاول تروتسكي تشكيل تجمع وسطي يكون جسراً بين جناحي الحزب . وكان النجاح حليف لينين في كل المناسبات ، وانتزع الغالبية في اللجنة المركزية . وهلل ستالين بردائه الأسود وبربطة عنقه التي كانت عبارة عن حبل رفيع : « انها المرة الاولى التي أرى فيها فلاديمير ايليتش في موقف الغالب » . وللمرة الاولى ايضاً رأى تروتسكي ، العظيم الالجدوى على حد تعبيره . اما « الريشة » فإنه لم يلاحظ ولو مجرد ملاحظة « الرجل الفولاذي » .

ووجد غوركوي ان بليخانوف غربي اكثر مما ينبغي ليمحضه إعجاباه :

« كان ينظر إلي بصرامة وملل مثلما ينظر المعلم ، المتعب بالتزاماته ، الى تلميذ جديد » .

ولم يخل المؤتمر من لحظات انفعال عارم لدى تذكر الغائبين الكبار : سفيردولوف ، المساعد الصيديلي ، صديق غوركي ، المنفي الى هاريم ، المنطقة الصحراوية المتجمدة ، فيرا فغزr الجميلة التي هربت من آرخانجيلك ولم تصل في الوقت المناسب الى لقاء لندن الكبير (ستشيء فيما بعد في باريس صندوقاً لمعونة السجناء السياسيين) ، ميشيل فرونزه ، مؤسس سوفيت ايفانوفو الأول ، المحكوم عليه بعشر سنوات من الأشغال الشاقة ، كامو ، ملك المصادرات الذي لم يتمكن من مغادرة روسيا . وقد تردد اسمه بلا انقطاع في المؤتمر عندما بدأ النقاش الواسع والحامي حول تمويل الحزب . فالمصادرات قسمت المندوبين . وعارضها تروتسكي ومارتوف بحزم . وكان رأي لينين انها مفيدة .

كان الهجوم الأخير على عربة جمرك بيترسبورغ قد در ستمئة الف روبل . وكان المهاجمون قد سرقوا الحقيبة ورموا بها على حصان اصيل اشتروه بألف وسبعمئة روبل وتمتطيه سيدة أنيقة . لكن العملية كلفت عشرة ثورين حياتهم . وقد اعتقل عشرة آخرون وشنق منهم سبعة .

ان لينين وستالين ومعظم البلاشفة الذين يناضلون في الداخل بحاجة الى مال . ومن الواجب ان تستمر المصادرات . وسوف يبقى كامو قائداً للعمليات . وعند اختتام المؤتمر سافر لينين ليستريح شهراً من الزمن في فنلندا حيث اقلت من عشرين مخبراً تابعين للسرية الطيارة .

وعاد بليخانوف الى جنيف . وسافر غوركي الى كابري ليقم في دير قديم ، بمواجهة بركان الفيزوف ، حول الى مدرسة ثورية . اما جوزيف ستالين فقد تلقى الأمر بالعودة الى تفليس وبوضع نفسه تحت تصرف كامو .

*

كانت كيكي ، الجيورجية الجميلة التي تزوجها في كنيسة غوري ، تنتظره بفارغ الصبر . وكانت قد استحالت جلدأ على عظم بسبب السل الذي كان يقرسها . ولم تعد بقادرة على مغادرة فراشها . وقد اخذت منها الثورة خير سويغات حبها . وقد أنجبت ابناً ، ياشا ، ولم تجحد قط عقيدتها الاورثوذكسية . وفي تفليس وجد ستالين امرأة محتصرة تصارع سكرات الموت وتطلب أسرار الكنيسة والحق في ان تدفن في تربة مسيحية . ولبي الزوج الأمنية التي كان يفترض في الثوري ان يرفضها . ولفظت كيكي الروح بعد ثلاث سنوات من الزواج وبضع سويغات من السعادة .

واعاد العمل ستالين الى الوقائع الاشتراكية . فقد وضع كامو وليونيد كراسين خطة لمصادرة جريدة : الاستيلاء على العربة الناقلة لأموال مصرف الدولة في تفليس . وقد وقع الاختيار على ستالين ليكون بين المهاجمين الاثني عشر : ثمانية رجال واربع نساء ، كلهم جيورجيون . وفي فجر ١٣ حزيران ١٩٠٧ احتل المهاجمون مواقعهم ، مسلحين بالقنابل . وامام المصرف كان يقوم قصر صناعي ثري . وقد ادخل احد الخدم ستالين اليه واحتل مكانه على السطح . وكان شارع المصرف قد طوق تماماً عندما وصلت عربة أمين الصندوق كوديوموف التي تنقل ٣٧٥٠٠٠ روبل . وكان يرافقها اربعة جنود وخمسون من فرسان القوزاق . ومن اعلى السطح قذف ستالين بالقنبلة الاولى . ودب الذعر في صفوف القافلة . وحرنت الخيل وتطايرت شظايا الزجاج على مسافة كيلومترين دائرياً . وتعالى دوي القنابل اليدوية . ثم اقترب كامو وهو متنكر في إهاب ضابط من العربة واستولى على الصندوق . وقد ادى الهجوم الى مقتل ثلاثين شخصاً وهز روسيا بأسرها^(١) . ووضع

(١) : يصور المؤرخون السوفياتيون مصادرة تفليس هذه على انها من أجراً المصادرات لكنهم يؤكدون انها لم تسبب موت أحد وان ستالين لم يساهم فيها . وتؤكد المصادر الاخرى ولا سيما احد تقارير الاوكرانا على العكس ان ستالين كان حاضراً وأن عدد القتلى بلغ الثلاثين .

جميع أفراد الشرطة في حالة استنفار، لا في داخل البلاد فحسب بل في خارجها أيضاً. واعتقل اشخاص كثيرون ، دونما جريرة في غالب الاحيان . وفي باريس فاجأت الشرطة بابا لتفينوف وهو بصرف الروبلات المسروقة من تفليس ، ولكنه لن يحاكم ولن يسلم الى سلطات بلاده ، وانما سيطرده فقط من فرنسا بعد تدخل شخصي من جانب جان جوريس لدى أرستين بريان ، وزير العدل . وقد سافر الى لندن وأصبح هناك عميلاً بلشفيًا . وتمكن كامو من عبور الحدود . ولكن احد العملاء المزدوجين وشى به في برلين . وقد عثر في منزله على ما فيه الكفاية من الأسلحة والمنشورات لإرساله الى المقصلة . وقرر كامو ان يتظاهر بالجنون . وبدأ بالنسبة اليه درب آلام طويل .

ثار قلق النبلاء العاقدين مؤتمراً في بيترسبورغ من موجة الاغتيالات والمصادرات الجديدة . وأبدوا تخوفهم ، مع اقتراب فصل الصيف ، من عودة النواب الى اقاليمهم وفتحوا الامبراطور بالموضوع واقترحوا عليه ان يحل الجمعية التمثيلية وان يجري انتخابات جديدة على اساس قانون انتخابي يضمن غالبية موالية للعرش . وهكذا نسف مبدأ الدستور بالذات : القيصر منح والقيصر سحبه ، القيصر الذي لا حدود لسلطته السلفية .

منذ عام ٨٦٢ ، عام تأسيس روسيا ، نصبت الطبقة النبيلة نفسها طبقة حاكمة . واليوم تندلع نيران الثورة ضدها . فطيلة قرون اربعة شكل الأمراء النورمانديون المنتمون الى سلالة روريك الأسطوري والنبلاء الذين لا ألقاب لهم فتى النبالة في الدولة . وبعد ان حطم ايفان الرهيب سلطة النبلاء البوابار ، اقتضى توسع الحدود وتوحيد الاراضي الروسية حول موسكو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعديل تلك البنية البسيطة وتكتملتها بنبالة الأمراء اللتوانيين (غولتسين ، كوراكين ، تروبتسكوي) والأمراء التتار (يوسوبوف ، اوروسوف) والأمراء القفقاسيين (باغراسيون) . وقد أوجد بطرس الأكبر ألقاباً جديدة في عهده الزاهر الخلاق . فقد أسست البارونية لصالح الأسر

البلطيقية من سلالة الفرسان « حاملي السيوف » والفرسان التوتون . وبالمقابل لعبت الدوقية دوراً اساسياً طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد استطاعت بعض الأسر الدوقية أن تستأصل شأفة سلالات بعض الأمراء القدامى عن طريق الزواج ، وركزت بين أيديها ثروات هائلة وأنشأت جيوشاً وقدمت قروضاً اسطورية الى العرش وحمّت الفنون .

ان كل هذه الفئات النبيلة التي تكونت على مر العهود تعيش الآن ممزجة فيما بينها في سنوات بداية القرن المضطربة . وسوف يقسم الامير دولغوروكي مرافق الامبراطور وسليل الزعيم روريك ، مؤسس الدولة الروسية ، وتاتيشيف سليل النبلاء القدامى الذين لا ألقاب لهم ، قسم الوفاء لنيقولا الثاني حتى الموت . أما الامير القفقاسي باغراسيون ، الذي يحمل الاسم الماجد للبطل الذي سقط في معركة بورودينو ، فإنه يخدم الامبراطور تحت السلاح . وسوف يصبح عما قريب قائد « الفرقة المتوحشة » المشهورة .

اما النبلاء الذين منحتهم قوانين بطرس الأكبر لقب الكونت ، فإنهم يدينون بألقابهم لخدماتهم او لنزوات القياصرة . وقد برز آل شيريميتيف ، الذين تعود أصولهم الى اوائل القرون الوسطى ، في ساحات القتال . وقد تلقى الكونت الاول لقبه بهزيمته شارل الثاني عشر ، ملك السويد ، في بولتافا . ويدين آل تولستوي للسياسة بارتفاعهم الى مستوى الكونتية وللأدب بمجدهم . وكان آل ستروغانوف ، كآل ميديشيس في ايطاليا ، رجال دولة وحماة للآداب والفنون ، وسادة حقيقيين على الاورال حيث يملكون مليون هكتار من اراضي متصلة . وفي اواخر القرن السادس عشر جهزوا جيشاً على نفقتهم لغزو سيبيريا ووضعوه تحت تصرف ايفان الرهيب . كما أقرضوا القيصر ميشيل ، أول قياصرة آل رومانوف ، مبلغ مليون روبل لإعادة ترميم الامبراطورية بعد احتلال البولونيين موسكو . وفي القرن التاسع عشر زوج بول ستروغانوف ، الذي سمي كونتاً ومستشاراً لالكسندر الاول ، ابن

اخيه من احدى بنات نيقولا الاول . وفي بيترسبورغ كان قصره يعج بكنوز من التحف الفنية والمعادن الكريمة التي لا تقدر بثمن .

وغير ذلك تماماً هو تاريخ آل رازوموفسكي . فقد كانت الامبراطورة اليزابيت ، ابنة بطرس الاكبر ، تصلي ذات يوم في كنيسة قروية باوكرانيا عندما سمعت صوتين راعين يرتلان صلاة . وعند انتهاء القداس استقدمت القيصرة المنشدين وهما الفتيان القفقاسيان الجميلان والذكيان الكسيس وسيريل رازوموفسكي . وجعلت من الكسيس زوجاً لها سرأ ، وكونتاً رسمياً وانجبت منه ابنة ماتت في ربيع العمر . واصبح سيريل فيلد - ماريشالاً في عهد اليزابيت وكاترين الثانية . وتزوج من فتاة من اكبر الأسر الروسية ، آل نارشكين ، لكنه بقي بعيداً عن السياسة . وكان معدوم الطموح ولكن عظيم الحساسية بكل ما يتعلق بالاحترام الواجب له ، ولهذا صدمه استخفاف الامير بوتتمكين عندما استقبله ذات يوم بالروب دي شامبر ، فقدم باللباس نفسه الى حفلة راقصة كبيرة اقامها المقرب الى قلب كاترين الكبيرة الواسع النفوذ . وبعد موت زوجته عاد الى اوكرانيا ، مسقط رأسه ، وهناك استقبل مبعوث بول الاول الذي جاء يستنخر عن الأحوال ، وكان جواب سيريل :
- قل لجلالته اني قضيت نحبي .

ومات الكسيس في ريعان الشباب من دون ان يخلف وريثاً . وانجبت سيريل ثلاثة ابناء . وقد اصبح البكر وزيراً للتعليم العام في عهد الكسندر الاول ، والابن الثاني سفيراً في فيينا وصديقاً وحامياً لبتهوفن الذي ألف له الرباعية رازوموفسكي . اما الابن الثالث فقد هاجر الى فيينا لغضب الامبراطور عليه وأنشأ سلالة من الكونتات النمساويين ما تزال مستمرة الى اليوم .

وجميع هؤلاء الكونتات الذين صنعوا تاريخ الامبراطورية ، مثلهم مثل ورثة ألقاب النبالة الأقدم عهداً ، غير راغبين في الدوما .

وكان حلها في حكم المقرر عندما ارتقى ستوليبين المنصة البرلمانية ليطلب

توقيف النواب الاشتراكيين - الديمقراطيين الخمسة والخمسين المتهمين بتنظيم اجرامي . وكانت الشرطة قد فتشت ، ضاربة بعرض الحائط الحصانة النيابية ، منزل احد النواب البلاشفة ، أوزول ، دونما تفويض . وقد داهمت المنزل اثناء اجتماع منعقد فيه وفتشت الاشخاص الحاضرين وبينهم اربعة نواب . وترددت الدوما وحولت طلب الحكومة الى احدى اللجان . وقبل ان يأتي جواب اللجنة كان النواب قد صرفوا الى بيوتهم .

وانطرحت مسألة الجمعية التمثيلية القادمة . وكان رأي لينين انه من الواجب استخدام المنبر التشريعي لإسماع الأمة والانسانية قاطبة صوت البلاشفة . وفي فندق صغير في تيريوكي ، غير بعيد عن مكان اغتيال هرزنشتاين ، دعا اصدقاءه البلاشفة لوضع برنامج لحملة انتخابية . وخاف صاحب الفندق من مجيء الشرطة وطرده جميع ضيوفه . وكانت السماء يومها تمطر بغزارة . وتوبع الاجتماع في الغابة تحت الوابل الشديد نظراً لعدم توفر مكان آخر . وواجه الاشتراكيون - الديمقراطيون الانتخابات ، لكن القانون الجديد لم يوصل سوى تسعة عشر منهم الى قصر توريدا .

واجتمعت الدوما الثالثة ، دوما السادة ، في ١٤ كانون الاول ١٩٠٧ . وكانت الغلبة فيها للنباله العقارية . وكتب للبرلمان ، المفصل على الطلب ، ان يعيش حياة مديدة . ووجدت سياسة ستوليين ضمانها بلا نقاش . وازدهرت أحوال الكولاك ، وبدأت سياسة ترويس هددت الحريات في فنلندا وبولونيا وحريات سائر القوميات غير الروسية .

(٢١)

بدأ الحزم الذي يطبق به ستوليين سياسته بشل مسيرة الثورة الى الأمام . ووصف ستالين الذي اخذ طريقه من جديد الى السجن ثم الى سيبيريا في مطلع عام ١٩٠٨ ، وصف الاضطهاد بأنه « البشاعة المجسدة للعقم » .

واصطدم لينين ، المراقب باستمرار من العملاء القيصريين ، بمصاعب متعاطمة في حياته اللاشعرية . وفي كانون الثاني ١٩٠٨ اضطر الى عبور مياه خليج البلطيق المتجمدة في طريقه الى جزيرة فنلندية يستطيع الإقلاع بجرأ منها بلا مخاطر . لكن الجليد طقطق وكاد ينهار تحت قدميه : آه ! ما أغبي الموت على هذا النحو !

وعقد فلاديمير ايليتش العزم على المهاجرة من جديد ، بعد ان تزود بأوراق طاه فنلندي ، في حين استعارت كروبسكايا اوراق مواطنة اميركية . وقال لينين عندما وصل الى جنيف ولاقى زينوفيف وكامينيف :

– انني أشعر وكأنني جئت أدفن نفسي في قبر .

وسافروا سوية الى باريس حيث نزلوا في فندق غوبلان ، قبل ان يقيموا في باب اورليانس ، ٢٤ ، شارع بونيه ، ثم في شارع ماري – روز . وعاش لينين حياة تسكع . وامضى بضعة ايام في نيس حيث اقام لدى الصيدلي تومانوف ، ٩٥ ، شارع غامبيتا ، او في مختبره في شارع لابي (جادة جورج كليمانصو) . والتقى هناك بيجان نوفيل ، سكرتير الشعبة المحلية للحزب الاشتراكي الذي كان راحلاً الى غاليسيا ، وسلمه رسالة الى اصدقائه الروس خاطها الفرنسي بقفا بنطاله . وقد كتب لينين الى اخته : « انني أستريح هنا ، روعة ما بعدها روعة ، الشمس ، هواء جاف ودافئ ، بحر الجنوب ، سماء وكأنها مغتسلة بالحليب » .

وذهب عدة مرات الى « مقبرة القيصر » حيث ضريح الكاتب الروسي الكبير الكسندر ايفانوفيتش هرزن الذي كان قد أقسم ، وهو لم يتجاوز بعد الثالثة عشرة ، في عام ١٨٢٥ ، على جبل الدوري (حيث تأمل نابليون حريق موسكو) ان يقف حياته على النضال الثوري .

ثم عاد الى جنيف ليهتم مع بوغدانوف بمطبعته .

*

في رسالة سرية موجهة الى اللجنة المركزية ، ترك تاجر مفروشات موسكوفي غني قضى نحبه في السجن كل أملاكه للحزب الاشتراكي - الديمقراطي . وكان نيقولا شميدت ، مخلّف هذا الإرث غير المنتظر ، الفتى المأخوذ بالحرية وابن أخت المليونير موروسوف ، قد سبق له ان قدم ورشاته لتكون بمثابة مقر لقيادة ثوار ١٩٠٥ . لكن الإرث ذهب بصورة شرعية الى اخي شميدت اللتين التزمتا بإعادته . ومثل زوج كبرى الاختين ، وهو محام اشتراكي - ديموقراطي ، امام محكمة حزبية فخرية ، وتعهد بدفع نصف المبلغ ، اي ٨٥٠٠٠ روبل . ولكن الاخت الصغرى ، القاصرة وعشيقة مناضل بلشفي مجرد من الاوراق الشرعية لا تستطيع أن تتصرف بحصتها ولا أن تزوج من عشيقها لافتقاره الى قيد نفوس مدني . وهكذا جرى البحث عن مناضل مزود بأوراق شرعية ليتزوجها شكلياً . وعن طريق هذا الزواج الوهمي امتلاً صندوق البلاشفة بحوالي مئتي الف روبل .

قدمت الرفيقة اينيس آرمان ، فرنسية الثورة الروسية ، التي هربت من ميزين بالقرب من الدائرة القطبية عن طريق آرخانجيلسك ، الى باريس التي كان لينين يسافر اليها كثيراً . وقد احتفظت اينيس ، بالرغم من تعدد إقاماتها في السجن ، بالمعالم الغضة النضرة لامرأة رشيقة في مقتبل العمر ، وبعينيها السوداوين ، الواسعتين ، المعبرتين ، وبشعرها الكستنائي الفاتح الغزير . وقد بقي عملها السياسي موجهاً الى الدفاع عن المرأة . وكان لإخلاصها للقضية الاشتراكية مطلقاً حتى ان احد رفاقها ذهل عندما علم أن لها اطفالاً خمسة : « كان يبدو مستحيلاً ان يكون لها شيء خاص بها » .

وعندما قابلها لينين فكر غريزياً بكتاب تشير نيشفسكي « ما العمل ؟ »
« ان الانسانية كانت ستتقدم بسرعة عشرة أضعاف لو لم يكن ذكاء المرأة مرفوضاً ومخنوقاً ، ولو كان قادراً على العمل » .

واينيس تتكلم الفرنسية والروسية ، الانكليزية والالمانية ، بإتقان تام .

وهي علاوة على ذلك موسيقية رائعة . وكان لينين ، في كل مرة تتاح له فيها الفرصة ، يأتي الى ٢٤١ شارع سان - جاك ليستمع الى اينيس تعزف على البيانو اجمل صفحات بتهوفن ، ولا سيما تلك السمفونية التي كان الرائد الثوري ميشيل باكونين يقول عنها : « كل شيء الى هلاك ، ولن يخلد شيء . لكن شيئاً واحداً سيبقى ويخلد ابداً : انها السمفونية التاسعة » .

وسوف تبقى اينيس الى جانب لينين تعاونه بعطف وحمية .

وذهب بوغدانوف ، الذي ما كان يوافق دوماً على تصلب لينين ، الى كابردي لدى غوركي الذي كان قد نشر « الأم » . وكان لوناتشارسكي من رأيهما . ولما خشي فلاديمير ايليتش من تأثير ضار للكاتب على التلامذة الذين يقدمون من روسيا الى مدرسته الثورية ، قرر ان ينشئ مدرسة خاصة به في لونجيمو بالقرب من باريس ، بإدارة اينيس آرمان . وكلف كامينيف بتدريس تاريخ الحركة الثورية في روسيا ، وزينوفايف بتدريس تاريخ الحركة النقابية ، وكروبسكايا بتدريس أساليب العمل اللاشعري . وتكفل لينين بعرض إصلاح ستوليبين الزراعي .

وبرز بين التلاميذ غريغوار كونستانتينوفيتش اورجو نيكدزه ، وبين المناضلين الطموحين الى تعلم فن إيصال عقيدتهم الى الجماهير . وكان غريغوار الملقب بسيرغو ، وابن فلاحين جيورجيين ، وذو الوجه الشعري الطويل والمجدد الشعر ، قد تسجل في الحزب منذ ١٩٠٣ ، في سن السابعة عشرة ، وتلقى عماد الدم في ١٩٠٥ . وقد اعتقل اثناء تفرغ شحنة أسلحة ، وفر عن طريق بلاد فارس ليعيش في لونجيمو الحياة البسيطة لطالب سياسي .

ونظمت الرفيقة اينيس ، في منزل استأجرته على نفقتها ، غراً ومطعماً يتناول فيه لينين وكروبسكايا والاساتذة والطلاب والمناضرون وجبات الطعام سوية .

لم تكف المهاجرة عن زرع ابنائها عبر أرجاء أوروبا. وقد اختار كل تكتل مركزه في مدينة. وإبان تلك الأعوام التي تضاعف فيها النشاط والتي قضاها لينين في باريس وبلخانوف في سويسرا وغوركي في كابرني، حط تروتسكي الرحال في فيينا حيث اصدر صحيفته الخاصة نصف الشهرية «البرافدا» (الحقيقة). وقد شاطرته ناتالي سيدوفا التي أنجبت له ابناً ثانياً، سيرج، حياة المهاجرين الصعبة مالياً. وكانت كثيراً ما تذهب الى أحد الدائنين مقابل رهن وتبحث عن الوسائل لدفع أتعاب المهريين الذين يدخلون «البرافدا» الى روسيا عن طريق غاليسيا والبحر الأسود. وقد جمع تروتسكي بعض الأتباع حوله: انتونوف - اوفسينيكو، «الحرية»، بطل بولونيا واوديسا، آدولف أ. إيوفي، المثقف الفتي اللامع المعرض الى نوبات النورستانيا، سكوبيليف، الطالب الكبير الموهبة، ولا سيما مويس اوريدسكي القوي الهادىء الذي أمضى معه تلك الأمسية السييرية التي لا تنتسى والتي استمع فيها حول نار اغصان الشجر الى قصائد فيلكس دزرجنسكي البولونية.

وما عاد في وسع مجموعة فيينا، المحرومة من موارد الحزب الاشتراكي - الديمقراطي السرية، والمعزولة عن التكتلين المنشفي والبلشفي، ان تستمر في الحياة بلا مساعدة. فوجه تروتسكي نداء الى اللجنة المركزية وأرسل إيوفي ليدافع عن قضية «البرافدا» في روسيا. لكن آدولف إيوفي اعتقل في اوديسا وأرسل لسنين طويلة الى سيبيريا ولينين هو الذي اجاب بتحفظ على نداء تروتسكي بطلب المال. فالحزب مستعد لتمويل «البرافدا» بشرط ان يسمى احد اعضاء اللجنة المركزية مديراً مساعداً فيها. وقبل «الريشة» الذي لم يكن له من خيار ان يسيّر صحيفته بالتعاون مع ليون كامينيف الذي سيصبح عديله في المستقبل. ولم يطل الأمد على معونة اللجنة المركزية: فبعد محاولة باطلة لتوحيد التكتلين الاشتراكيين - الديمقراطيين في حزب واحد أوقف تمويل البرافدا واستدعي كامينيف الى باريس.

*

ان شقة اوليانوف اشبه بخلية نحل طنانة . فناديا تستقبل في بيتها المتواضع الرفاق القادمين من بعيد ، وتنظم سفر الراحلين ، وتقيم الاتصالات ، وتؤمن الارتباط ، وتحدد المواعيد ، وتكتب مئات الرسائل ، وترسل وتفك لغز الرسائل السرية .

وفي تساركوي - سيلو او في قصر ليفاديا في القرم تعيش الاميرة الألمانية ، التي وجدت الحب في العام نفسه ، حياة راكدة مترفة ، خاضعة كل الخضوع لغريغوري الفاسق ، مقدمة النصح للامبراطور ، ساهدة مقرحة العين على حياة ابنها الوحيد الكسيس .

ان الامتحانات الرهيبة التي تجتازها روسيا وعزلة العاهلين الطوعية بثت الحيرة والقنوط في صفوف اعضاء الأسرة الامبراطورية والبلاط . وقد أسست الدوقة الكبيرة اليزايث ، اخت الامبراطورة ، رهبانية دينية باسم مارتا ومريم ، بعد اغتيال زوجها بمدة وجيزة . وكانت الاخت اليزايث تزور احياء موسكو السفلية لتواسي البائسين مرتدية ثوباً رمادياً وحجاباً رمادياً وحاملة صليماً من الخشب موشحاً بشريط حريري ابيض .

واراد الامبراطور ان يمنع اخاه ميشيل من اضافة صفة شرعية على العلاقة التي تربطه بابنة حمام موسكو في . ولكن الدوق الكبير تحدى مشيئة القيصر ورحل سراً الى باريس مع رفيقته . واضاع غيراسيموف ، المكلف بتعبه ، أثره في فرنسا ، بينما كان ميشيل يتزوج سراً في فيينا من عشيقته في كنيسة اورثوذكسية حربية . ولن يغفر القيصر إلا بعد خمسة أعوام .

وكان الدوق الكبير سيريل فلاديموروفيتش ، ابن عم نيقولا الثاني ، الذي نجا بأعجوبة من الغرق مع بحارة بيتر وبافلوسك في بور - آرثر ، لا يفكر من جهته إلا بتثبيت حقوقه في التاج ويحلم بتنازل لمصلحته .

ولم يجد تقشف الأسرة المالكة من يتبعه بين الدوقة الكبار والدوقات الكبيرات وأعيان الامبراطورية .

ان روسيا القديمة الآخذة امتيازاتها وارضيتها وثروتها من الله ، لاتدين بحساب إلا له وحده . وبالرغم من النذر الكالحة التي كانت تلوح في السماء ، استمرت حياة البذخ وكأنها حق مطلق غير قابل للنقض . ففي قصر الامير يوسوبوف ، أغنى أغنياء البلاد ، تحتوي قاعة واحدة على اربعين لوحة لغروز . والحفلات الراقصة التي يقيمها لألفي مدعو بحضور القيصر تتبعها مادب عشاء في صحاف من ذهب . ويملك يوسوبوف مئة مليون هكتار من الاراضي ، وثلاثة قصور في سان - بيترسبورغ ، وآخر في موسكو ، وخامساً في القرم تنحدر بساتينه نحو البحر في مدرجات مزهرة ، ومئات الخدم من شتى الاجناس . وسوف يتزوج في ١٩١٣ من الاميرة ايرينا ، أجمل نسيبات القيصر ، في عربة بيضاء وذهبية ، تجرها احصنة بيضاء يقودها خدم في الملابس الرسمية ويحوطها فرسان موشحون بالذهب . ومع ذلك فإنه متخوف من المستقبل ويحاول ان يفضح التأثير الضار للبطانة المحيطة بالتاج .

•

الفن الروسي في اوج ازدهاره . وقد عرف دياغيليف باريس بشالباين وافتتح موسماً لرقص الباليه مع نيجنسكي وبافلوف . وألّف سترافنسكي « الطائر الناري » .^(١)

لكن النفوس مبلبله ايضاً بانتفاضات التطور الاجتماعي .

وفي مسرح ماري حيث كان القيصر يصطحب بناته الاربع لحضور مسرحية لبوريس غودونوف ، خرّ شالباين على ركبتيه اثناء الاستراحة لينشد « ليحم الله القيصر » . وبكت الصالة المكتظة انفعالاً ، لكن الحاكم

(١) : كان سترافنسكي تلميذ رمسكي - كورساكوف . وكان هذا الأخير قد طرد من معهد سان بيترسبورغ الموسيقي في عام ١٩٠٥ ، لأنه كان يعتبر آنذاك الزعيم الثوري لتلاميذه .

بأمره كان يعلم ان شاليابين قد ركع ليلتمسه الموافقة على مطلب نقابي لحوقة الاوبرا .

وفي ٩ تشرين الثاني ١٩١٠ ، اثناء جنازة ليون تولستوي الذي كان اربعة من ابنائه يحملون نعشه ، قدمت جموع غفيرة لتسجد في غابة زاكاس ، على مقربة من مدينة تولا ، ولتودع « مرآة الثورة » الى مئواه الأخير . وكانت اعداد الطلاب والفلاحين الذين قدموا الى منزل المتوفي كبيرة جداً حتى ان الفنان باسترناك ، رسام مؤلفات تولستوي ، لم يستطع ، بالرغم من مساعدة ابنه بوريس باسترناك (الذي سيؤلف في المستقبل الدكتور جيفاغو) ان يرسم الخطوط الاولى من لوحة الوداع . وكانت الحكومة قد اتخذت عبثاً تدابير عديدة لإفقاد الاحتفالات ألقها .

كان في وسع البورجوازية ، التي ولدت مع التصنيع السريع ، ان تلعب دور الوسيط بين تأثير النبالة المحافظ وبين العنف المتصاعد من أعماق الشعب . وكان من المفروض أن يُشرك أرباب صناعة النسيج موروسوف وريابوتشنسكي ، وملك السكر ميشيل ايفانوفيتش تيرشتسنكو ، ورجالات البترول ماننا شيف واسطفان جورجيفيتش ليانوزوف وغولبنكيان ، في تسيير الشؤون العامة . لكن هذه الطبقة الحديدية القوية مالياً والمحرومة في الوقت نفسه من القوة السياسية كانت تُعتبر تجمعاً من حديثي النعمة الذين لا يعرفون حذلقات آداب البلاط . وبذلك اصبحت بيترسبورغ ، عاصمة النبالة ، معارضة لموسكو ، عاصمة التجار .

ما مصلحة هذه البورجوازية ، المتشعبة بشيء من الليبرالية ، في ان تكون ملكية ، في الوقت الذي تجد فيه في قيام الجمهورية كل الفرص لتصبح سيدة نفسها والبلاد ؟ أفليس أولى بهذه البورجوازية الرأسمالية ، المخففة في تحالفها مع الحكم الاوتوقراطي ، ان تتطلع الى الاستيلاء على السلطة من

*

وبقي لينين من جهته وفيماً لنذره : الفقر . فهو ابدأ يرتدي نفس الثياب الرثة . ومن كوبنهاغن حيث انعقد مؤتمر الحزب في عام ١٩١٠ ، ذهب الى ستوكهولم خصيصاً لمقابلة والدته فيها . وللمرة الاولى رأت السيدة اوليانوف ابنها يلقي خطاباً امام جمهور من البلاشفة . وقد خيل اليها ، على حد قول ابنتها ماريا ، انها تتذكر خطاباً آخر استمعت اليه ذات يوم ، الخطاب الذي ألقاه ابنها البكر الكسندر قبل ٢٣ عاماً امام هيئة المحكمة قبل أن يصدر الحكم بإعدامه . وتضيف ماريا :

— لا اشك مطلقاً في هذه النقطة ، لأن وجهها كان يفضحها .

وعندما ودعت السيدة اوليانوف ابنها فلاديمير ، تركت له اجمل هدية يمكنه أن يأمل بها ، معظماً شتوياً عظيماً . والى سويسرا غادر لينين أمماً بالية العظام ، رميمتها ، لها من العمر اثنان وسبعون عاماً . ولن يراها ثانية ابدأ .

(٢٢)

— لا بد ان المرء يجد راحته اذا ما رقد هنا رقدته الأبدية .

هكذا خاطب بيرر ستوليين نيقولا الثاني اثناء زيارتهما أقدم دير في كييف في صبيحة ١٤ ايلول ١٩١١ المشرقة . ولقد قدما ، مجتازين اراضي اوكرانيا السوداء ، ليدشنا نصباً تذكاريّاً تخليداً لألكسندر الثاني ، محرر بلغاريا .

في المساء مثلت في الاوبرا غنائية رمسكي — كورساكوف « القيصر السلطان » . ووصل نيقولا وضيف الشرف ، الأمير الوريث بوريسي ، أمير بلغاريا ، في عربة مكشوفة . وكما هي العادة فنشت المدينة بيتاً بيتاً

تلافياً لأي خطة اغتيال ضد القيصر . وأيد ديمتري بوغروف ، وهو محام من كييف ، وابن مقاول اوكراني غني ، ومقامر وفوضوي ، ايد شائعات خطة الاغتيال زاعماً :

– انني أعرف رأي العين الإرهابي المكلف بالتنفيذ . واعتقد أن في وسعي مساعدتكم على اعتقاله .

وسلمته الشرطة بطاقة دخول الى الاوبرا حتى يتمكن من دل رجال الاوكرانا الاربعين المتمركزين في الصالة الى الإرهابي المشتبه فيه .

واحتل القيصر وابنتاه اولغا وتاتيانا والأمير بوريس اماكنهم في مقصورة تقع في مقدمة يسار المسرح . اما ستوليين فقد أخذ مكانه في الصف الاول من الصالة ، يرافقه وزير المالية كوكوفستيف ، وصدرة مزدان بصليب القديس فلاديمير . وذات لحظة التفت نحو الامبراطور مبتسماً له ابتسامة حزينة بوجه متعب .

وفي الاستراحة الاولى احاطت البطانة برئيس الوزراء سائلة اياه عن شائعة خطة مبيتة لاغتيال نيقولا الثاني . وعندما أسدلت الستارة للمرة الثانية ، اكد وزير الداخلية كورلوف ان المخاوف لم يكن لها من مبرر . وانسحب نيقولا لبضع ثوان الى البهو الملاصق لمقصورته . وبغته سمع طلقات نارية واتجه غريزياً نحو مقدمة المسرح . فسدت عليه تاتيانا مدخل المقصورة ، وقالت باكية :

– لا ، لا ، يا بابا ، لا تذهب .

كان المحامي ديمتري بوغروف قد اقترب في الاستراحة الثانية من ستوليين ، وأطلق عليه بكل هدوء اربعة عبارات من مسدسه في بطنه . وقد وجد رئيس الوزراء القوة ليخلع معطفه الابيض الملطخ بالدم وليضعه على خشبة المسرح ، لينهار من ثم على احدى الارائك .

وأمسك الجمهور بالقاتل وشرع بسحله . وهرع الضباط شاهري السيوف

الى المقصورة الامبراطورية لحماية القصر الذي تقدم ووقف جامدا اخرس امام المشهد المفجع . واسترد ستوليين وعيه وأشار الى نيقولا الثاني بأن ينسحب وقال متمماً للمحيطين به :

— قولوا للأمبراطور انني سعيد بالموت دونه .

كان ستوليين قد كتب في وصيته : « أريد ان ادفن حيثما أقتل » . وسوف يثوي حسب وصيته في نفس المكان الذي تكلم فيه صبيحة ذلك اليوم عن الرقاد الأبدي .

أما المحامي بوغروف فقد شتق بعد بضعة ايام وبعد محاكمة سريعة في بذلة السهرة التي كان يرتديها ليلة الجريمة كما طلب ذلك في وصيته ، من غير ان يتمكن التحقيق من بيان الدافع الذي سلح يده .

وافترضت أجراء الفرضيات جريمة اشتراكيين -ديموقراطيين ؟ جريمة مجنون ؟ جريمة البلاط الحاقد على رئيس الوزراء لأنه طلب طرد راسويتين ؟ ان المؤرخين لم يتمكنوا من حل اللغز الذي اخفقت في فكها الشرطة التي لم تشر في تقريرها إلا الى سرقة ساعة رئيس الوزراء المحتضر الذهبية اثناء نقله من الاوبرا الى المستشفى .

لم تكن القبصرة تحب السيدة ستوليين التي كانت تقدم ثمين العون لزوجها . وقد قالت الكسندرا فيودوروفنا ذات يوم تحت لسع سوط الغيرة من الامبراطورة المترملة : « إن وجود امبراطورين هو اكثر من كاف » .

وفي بيترسبورغ تذكر احد النواب نبوة ستوليين . انه شنغاريف الذي جاء يلتمس الرحمة ذات يوم لأحد فلاحيه فأجابه رئيس الوزراء : « إن هؤلاء الأجلاف سيدبحون جميع الناس ، انت وأنا وكل من يرتدي سترة » .

*

كان ستوليين قد أمسك بزمام السلطة خمسة اعوام من غير ان يتوصل الى توطيد النظام والى إنجاز اصلاحاته . فقد اصبح ١١٧٥٠٠٠ فلاح من

الملاك ، واستوطن ١٧٠٠٠٠٠ في سيبريا . وقد تكونت البورجوازية الريفيه .
وشكل الكولاك درعاً مضاداً للثورة ، ولاسيما في جنوب البلاد وأواسطها .
ولكن هل هم أقوياء بما فيه الكفاية للوقوف سداً منيعاً في وجه غضب من
هم أفقر وأكثر عدداً ؟

وخلف وزير المالية كوكوفستيف ستوليين . وكان مشهوراً بنزاهته
وبقدرته المعجزة على العمل ، وقد تبنى نقطة نقطة سياسة سلفه وتابع الإعداد
لانتخابات الدوما الرابعة غير معتمد إلا على اليمين واصحاب النزعة القومية .
وفي الدوما استقال الزعيم البورجوازي القومي والغني غوتشكوف من
منصب الرئاسة . وحل محله ميشيل فلاديميروفيتش رودزيانكو ، البالغ من
العمر اثنين وخمسين عاماً ، والملاك العقاري الكبير ، وماريشال النبالة في
منطقة ايكاتيرونوسلاف ، والمستشار السابق لنيقولا الثاني ، والتقي الورع
الممقوت من راسبوتين .

(٢٣)

ان للتاريخ مصادفاته الغريبة . فالدوق الكبير ديمتري الذي لمحاه الارهابي
كالايف بأعجوبة من خلال نافذة العربة في اللحظة التي هم فيها يقتل
الدوق الكبير سيرج ، له من العمر الآن واحد وعشرون ربيعاً . وبلوغه
الرشد يلزمه بأن يحلف قسم الوفاء لابن عمه نيقولا ، الحاكم الاوتوقراطي
المطلق :

— انني اقسم بأن أناضل حتى الموت لأدافع ، ضد كل فوضى داخلية ،
عن سلالة رومانوف .

في نفس اللحظة التي كان فيها ديمتري يلفظ هذه الكلمات ، في ١٩
كانون الثاني ١٩١٢ ، كان لينين يفتح في براغ المؤتمر البلشفي الذي قرّر
مضاعفة الجهود في روسيا . وقد بادر فلاديمير ايليتش ، الذي سُم من
السعي وراء وحدة مستحيلة ومن رخاوة المناشفة ومن ذلك التوازن العقيم

الذي قضى على الحركة الاشتراكية - الديمقراطية بأن تعيش منقسمة تارة الى تكتلات وطوراً الى أجنحة ، بادر الى إنجاز القطيعة . فمن اللحظة التي اعلن فيها لينين أن « الفئدة البلشفية هي الحزب » ، اصبح فعلاً هو نفسه ، قائداً لا منازع له لحزب مستقل ، محدود ولكن مصمم ، منظم ، منضبط فعال ، ينشد هدفاً وحيداً أوحد : الثورة المسلحة التي هي الوسيلة الوحيدة لتسليم الشعب السلطة كلها .

وشكل البلاشفة بلختهم المركزية الخاصة بهم ، والكلية القدرة . وكلف غريغوار اوردجو نيكيدزه ، التلميذ المبرز الشاعر في الوجه في مدرسة لونيجمو ، بالدخول الى روسيا ولبلاغ الغائبين الكبار المنفيين بأنهما سميا في اللجنة المركزية : يعقوب سفيردولوف وستالين .

لقد قرر مؤتمر براغ ان الحزب البلشفي سيخوض منفرداً معركة انتخابات الدوما الرابعة في ١٤ ايلول ، بدون الهالة الاشتراكية - الديمقراطية . وقد اقترح لينين ان تضم لأئحة المرشحين للنيابة اسم مناضل جديد حضر مؤتمر براغ : رومان مالينوفسكي ، البولوني المروس ، الفلاحي المنشأ ، الخراط على الخشب والمتحول الى صناعة التعدين ، والسكرتير العام لتقابته في بترسبورغ . وكان مالينوفسكي قد مثل امام القضاء مرتين ، وأدين في كلتا المرتين بجرم عادي ، ولكن سجله العدلي بقي نظيفاً بفضل الرشوة . بيد ان لينين لم يكن مطلعاً على هذه الوقائع . ولسوف يتزعم البولوني ، الخطيب المفوه ، الحملة الانتخابية البولونية . وقد رحل الى روسيا عملاً بالأدب السري وبشعارات المعركة الانتخابية : ديموقراطية ، يوم عمل من ثماني ساعات ، مصادرة اراضي كبار الملاكين العقاريين لصالح الفلاحين .

*

نجح اوردجو نيكيدزه في مهمته . فقد وصل الى فولوغدا عن طريق باكو واتصل بستالين .

وقد ساعده للمرة الثانية على الهرب ووصل الاثنان في ١٥ آذار الى بيترسبورغ حيث اعتقل اوردجونيكيدزه وأرسل لمدة ثلاثة اعوام الى شلوسلبرغ . وقرع ستالين باب قديم في النضال : سيرج آيلوئيقي الذي تعرف اليه في الماضي في تفليس . وآيلوئيقي يعيش الآن في العاصمة ، في شقة عارية الجدران لا تزيناها سوى صورة لتولستوي . وقد شبت ابتناه ناديا وأنا عن الطوق . والعم جوزيف هو في نظرهما بطل اسطوري . وهما تعلمان ان المعتقلين عندما يضربون بكعوب البنادق في معسكراتهم ، فإنه الوحيد الذي لا يحمي رأسه بيديه ، بل يقف كالطود تحت الضرب . وبناء على أمر من لينين شرع الجيورجي في الإعداد لإصدار صحيفة بلشفية جديدة مع كالينين ، عضو اللجنة المركزية . وقد ضم اليه سكرتير تحرير ، فياشسلاف سكريابين ، الذي ستنشهره الثورة باسم مولوتوف والدبلوماسية باسم السيد لا . وظهر العدد الاول في ٥ نيسان ١٩١٢ مثيراً سخط تروتسكي وحنقه الشديد . فقد سمى البلاشفة صحيفتهم باسم « البرافدا » ! وأرغى « الريشة » وازبد :

— انها سرقة من قبل التكتل الذي لا يحيا ولا يزدهر إلا في القوضى والالتباس .

ولم يستأ البلاشفة من المقلب الذي اوقعوا فيه المتردد تروتسكي الذي رحل ، ساعة الانشقاق النهائي ، الى البلقان كمراسل لإحدى صحف كييف . لكن الشرطة لم تتح الفرصة لستالين ليضحك كثيراً . ففي صباح اليوم التالي ، ٦ نيسان ، ألقى القبض عليه وزج في عربة قطار مليئة بالمعتقلين ، وبدأت الرحلة السييرية الطويلة من جديد .

*

في قلب التايغا (غابة الصنوبريات المشهورة) وعلى ضفاف اللينا حيث مناجم الذهب الكبيرة ، انفجرت مأساة غير منتظرة اهتزت لها سان - بيترسبورغ .

فبالقرب من الرافدين فتيتم واولكما ، على بعد كيلومترين من أول مدينة ، ايركوتسك ، يكدح عمال المناجم اربع عشرة ساعة في اليوم .

لقد بدأ الإضراب في بئر اندرييفسكي في اواخر شباط ١٩١٢ ، على إثر بيع لحم خيل نتن . وفي ١٤ آذار ، واثناء التصويت على الاستمرار في الاضراب ، جيء ببرميلين فارغين كتب على الاول : سأذهب الى العمل ، وعلى الثاني : لن اذهب الى العمل . وضمناً للسرية ، كان العمال يضعون يديهم الاثنتين في البرميلين ويلقون بحجر في البرميل الذي يختارون . وسرعان ما طفح الثاني . ولم يعثر في الأول إلا على سبع عشرة حصة . وفي ٩ نيسان اصبح الإضراب عاماً ، واعتقل المحرضون . وفي صبيحة ١٧ نيسان اخذ ثلاثة آلاف عامل طريقهم الى ناديجدينسكي حيث مقام الحاكم . وقد شكل العمال بصفوفهم الثلاثية او الرباعية رتلاً أسود طوله كيلومتران على الجليد الابيض ، تحت عاصفة من ريح ثلجية عنيفة . وعندما وصل الموكب الى الجسر الصغير على نهر آكاناه كان الليل قد أرخى سدوله . وفي الجانب المقابل من الجسر كان الجنود مصطفين ينتظرون والبنادق في ايديهم . وتباطأت خطى القافلة العمالية . وارتفع صوت احد المهندسين بحرضهم ، ودفع رجال المؤخرة بثقلهم . وانهمر الرصاص . وكانت حصيلة مجزرة اللينا مئتي قتيل ومئتين وسبعين جريحاً .

عندما علم ستالين بفاجعة التايغا كتب : « إن الطلقات النارية التي دوت على اللينا قد حطمت جليد الصمت وبدأ نهر الحركة الشعبية بالتدفق . انه يتدفق » .

ومن منبر الدوما ، اجاب وزير الداخلية ماكاروف ، الشائب الشعر والناعم الصوت ، على استجواب الاشتراكيين - الديموقراطيين بقوله :

— هكذا كان وهكذا سيكون دوماً .

وسمت الحكومة لجنة تحقيق ، لكن المعارضة تريد لجنتها الخاصة . وبالفعل

سمت ثلاثة نواب من الدوما : س. أ. كوبياكوف ، أ.م. نيكيتين ، الكسندر كيرنسكي . وبدأت رحلتهم بالقطار ، وتوالت بالمركب ، وانتهت بالزحافة . على احدى ضفتي اللينا الغابات ، وعلى الضفة الاخرى المنازل . ومن مياه اللينا نفسها تأتي افواج الدببة لتروي ظمأها . وعلى طول الطريق كانت تعقد مهرجانات خطابية للمنفيين . وامضى كيرنسكي بضع ساعات مع «جدة» الثورة ، كاترين بريشكو - بريشكوفسكايا التي تضع ربطة عنقها الحمراء الخالدة منذ اعتقالها في كييف .

وحفظت الحكومة النتائج التي خلصت اليها اللجنة الاشتراكية . وسحب امتياز شركة مناجم اللينا الذهبية . وبات العمال في حمى من تعسف أرباب العمل .

*

انتقل لينين الى كراكوفيا حتى يكون على مقربة من روسيا وحتى يقود الحملة الانتخابية . وقد وجد فلاديمير ايليتش نفسه في هذه المدينة البولونية التي تعج بالمهاجرين والتي اعتاد فيها رجال الشرطة على غض النظر كرهاً بزملاتهم الروس أشبه بسمكة في الماء . فأنشأ شبكة ارتباط نشطة وعهد بها الى رجل في السابعة والعشرين من العمر ، نيقولا فاسيليفيتش كريلنكو ، المثقف الباش الوجه ، العريض الجبهة ، الأصهب الشعر ، ذي اللحية القصيرة والنظرة الصريحة التي تركز فيها افكاره . وكان والده ، الثوري المطارد ، قد لقبه بنيقولا على ذكرى كيبالتشيتش الذي نفذ فيه حكم الاعدام لمساهمته في اغتيال الكسندر الثاني . وكان كريلنكو ، المجاز في التاريخ وفقه اللغة ، قد برهن على مقدرته في مهمات سابقة . فهو عضو في الحزب البلشفي منذ عام ١٩٠٤ ، وقد جرح اثناء تبادل إطلاق الرصاص في ايام ١٩٠٥ الدامية . وفي عام ١٩٠٦ طرد من العاصمة لنشاطه بين جنود حامية سان - بيترسبورغ . واينيس آرمان هي التي اقتادته الى كراكوفيا ليستلم قيادة شبكة الارتباط .

وهناك التقى بليين للمرة الاولى .

وقد قدم زينوفيف وكامينيف ايضاً الى أبواب روسيا حيث كانت مهمتهما الاساسية مساعدة مولوتوف الذي بقي لوحده على رأس «البرافدا» بعد اعتقال ستالين .

(٢٤)

منذ اغتيال ستوليين والشرطة ترتعد أوصالها كلما انتقل الامبراطور الى مكان او آخر . وقد قدم نيقولا الثاني هذه المرة الى تشير نيغوف بأوكرانيا في زيارة رسمية ، واستقبله فيها نيقولا ماكلاكوف ، شقيق نائب الكاديت باسيل ماكلاكوف . وقد اجتاز القيصر مدينة محتفية ، تعج بالآلاف الزوار من الفلاحين . ولعل الثقة التي كان كل شيء يدل على انها متبادلة بين هؤلاء الريفيين وحاكمهم قد انتقلت عدواها الى القيصر ، فكلف نيقولا ماكلاكوف بوزارة الداخلية .

ان هذا الأخير رجل يميني ، غير منتم الى حزب من الأحزاب ، نصير للحكم الملكي المطلق ، شغوف بالنظام ، ومتزوج من احدى نسيبات تولستوي . وكان يشغل منصب رئيس دائرة في وزارة المالية قبل ان يعين في تشير نيغوف . وقد جعلت منه الداخلية وزير الانتخابات المقبلة ، الشيء الذي زاد من هوة الخلاف بينه وبين اخيه . وقد حذره باسيل بقوله :

— ليس من الممكن خداع الشعب الى ما لا نهاية .

لكن نيقولا أجاب :

— لو كان في وسع الشعب ان يعبر عن رأيه بحرية ، لما كنت الآن على الاغلب نائباً .

*

إن حوار الصم هذا بين الشقيقتين هو صورة نموذجية عن سوء التفاهم القومي . .

إن انتخابات الدوما الرابعة ، برلمان الفرصة الاخيرة ، تستهوي البلاد قاطبة وتثير مشاعرها . .

وقد شعر لينين من جهته ان هناك محاولة للتفاهم مع المناشفة رغماً عنه ، فمنح إينيس آرمان سلطات مطلقة لقيادة الحملة البلشفية . وقد اجتازت الحدود سراً بمساعدة كريلنكو وبفضل جواز سفر مزيف ، وعملت بلا كلل طوال اربعة اسابيع على زرع انصار لينين في المصانع . وكانت تنشط تحت اسم ايلينا فيديروفنا ، منتعلة جزمة قبيحة مهترئة وملابس بعيدة كل البعد عن الأناقة الباريسية . وبحجة قطف الفطر كان البلاشفة يعقدون ايام الأحاد اجتماعات سرية في الغابات . وقبل يومين من موعد الانتخابات اعتقلت إينيس وزجت في زنازة رطبة فانقلت الى رثتها جرثومة السل . ولكن المهمة التي كلفت بها قد أنجزت ، وحل ستالين محلها بعد ان هرب مرة اخرى .

وترشح الكسندر كيرنسكي بناء على طلب من الحزب العمالي ، الجناح الايمن من الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، في اقليم ساراتوف حيث كان ستوليين قد نجح في توطيد النظام عام ١٩٠٧ .

اجتمع البرلمان الجديد في ١٦ ايلول ١٩١٢ . وعين لينين على رأس النواب البلاشفة الستة رومان مالينوفسكي نائب موسكو وصاحب السجل العدلي المزيف . أما المنتخبون الخمسة الآخرون فهم : بادايف ، بيتروفسكي ، مورانوف ، صامويلوف ، شاغوف . وقد دعاهم فلاديمير ايليتش جميعاً الى كراكوفيا ، ووضع معهم خلال اجتماعات دامت ثلاثة ايام برنامج الحزب .

وفاز المناشفة من جهتهم بسبعة مقاعد . وترأس النواب السبعة محام

جيورجي ، نيقولا تشخذه ، احد مخضرمي الحركة الثورية في الففقاس .
وفاز كيرنسكي بغالبية كبيرة . واعيد انتخاب الكسندر غوتشكوف
مع ٩٨ من التشرينيين ، وكذلك رودزيانكو ، محامي سياسة الاوتوقراطية
الرجعية . وعاد باسيل ماكلاكوف وبول ميلوكوف الى كرسييهما النيابيين
في اطار حزب الكاديت . وقد اصبح التشرينيون سادة الموقف بحكم انه
كان من المستحيل ان تقف اية غالبية على قدميها بدون مساهمتهم .

*

في كراكوفيا تلقي لينين رسالة مرسلة من فيينا ، وممهوره بإمضاء
بلشفي موثوق ، نيقولا بوخارين ، المناضل الموسكوفي الذي اعتقل في عام
١٩١٠ ونفي ، وها هو يصل الى النمسا بعد هروب صعب . وقد أحنقت
التهمة التي ضمنها رسالته لينين : « علمت نبأ انتخاب رومان مالينوفسكي
في الدوما وتسميته على رأس المجموعة البلشفية . اني أتهم مالينوفسكي بأنه
عميل مزدوج استأجرته الاوكرانا للتجسس علينا . وقد اعتقلت أنا نفسي
غداة اليوم الذي قابلته فيه . اني ارجوك التخلص منه » .

كان لينين يعترف بجميل النائب مالينوفسكي لإطلاقه سراح اينيس آرمان ،
ولهذا رد على بوخارين برسالة ساخطة . لكن جرثومة الشك قد زرعت في
النفوس .

في كانون الاول ١٩١٢ هاجر ستالين لمدة ثلاثة أشهر بناء على طلب
لينين الذي يريد ان يعرفه معرفة افضل عن كذب وان يحل معه مصاعب
« البرافدا » . وبعد حوالي شهر أرسل الى فيينا للاجتماع بنيقولا بوخارين .
وكان تروتسكي ايضاً قد عاد الى العاصمة النمسوية . واثناء زيارة قام بها
للنائب المنشفي ماتيو ايفانوفيتش سكوبيليف ، وبينما كانا يتبادلان أطراف
الحديث حول سماور شاي ، دلف رجل من غير ان يقرع الباب ، « رجل
متوسط القامة ، أسمر اللون ، معروق الوجه ، آثار الجلدري بادية عليه » .

واقترب الزائر من السماور ، وتناول قليلاً من الشاي ، وخرج من دون ان ينبس ببنت شفة . انه ستالين الذي لم يلحظه تروتسكي اثناء مؤتمر لندن . وفي هذه المرة لاحظ « الريشة » : قائم المظهر ، مبتذل بعض الشيء ، تعبير عدواني واضح ، عينان صفراوان .

*

افلت يعقوب سفيردولوف ، الذي يرى فيه لينين نموذج الثوري المحترف ، من برائن الموت أثناء هربه من سيبيريا . إذ كانت الحسكة التي استأجرها للحاق بالمركب المسافر الى طوبولسك قد انقلبت في مياه الخريف المثلجة . وقد نجح بأعجوبة وقدم الى بيترسبورغ حيث كلفه لينين بإدارة « البرافدا » التي كانت كل مسؤوليتها واقعة على القتي مولوتوف بعد رحيل ستالين . وقد اختار سفيردولوف مقاماً سرياً له في بيت النائب ج.إ. بيتروفسكي ، واتصل بكل من كالينين ومولوتوف وبونتش - برويفيتش . وفي ٨ شباط ١٩١٣ التقى برومان مالمينوفسكي . وفي اليوم التالي اعتقل وسجن في كريستي . وبعد بضعة ايام واثنا حفلة خيرية أقيمت لصالح « البرافدا » راح البوليس يراقب امرأة تخفي وجهها في برنس . لكن هذه المرأة التي تنتعل جزمة رجالية هي ستالين الذي عاد من فيينا ، والذي وقع في أيدي الشرطة من جديد . وكان قد اجتمع البارحة بمالمينوفسكي .

أرسل سفيردولوف وستالين معاً الى قرية كوريكا الصغيرة المعزولة : ثلاثون ساكناً بينهم عشرة من الحراس . ويبدو انهما لم يستطيعا التفاهم . فقد كتب سفيردولوف الى زوجته : « ان ستالين هو الفوضى عينها وقد لبست لبوس إنسان ، وهذه سمة قفقاسية مميزة . انني دائم السخط وما اكثر خناقاتنا . انه مثالي اكثر مما ينبغي . إلحقي بي مع الاولاد » .

ولوحقت هيئة الاركان البلشفية بصرامة خارقة عبر البلاد من اقصاها الى اقصاها . وحكم على فيلكس دزرجنسكي في موسكو بالسجن ثلاث

سنوات . وكتب هو ايضا الى زوجته : « ما ازال مقيداً بالأغلال . لكنها لا تؤلمني . وصليلها الدائم هو وحده الذي يغیظني . بيد ان الانسان يعتاد على كل شيء » .

*

بمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثمئة عام على تسم آل رومانوف العرش ، اصدر نيقولا الثاني عفواً عاماً عن الكتاب والصحفيين المحكومين بسبب كتاباتهم « الهدامة » . وبفضل هذا العفو امکن لكامينين ان يعود الى بيترسبورغ ليدير « البرافدا » . ونصح لينين غوركي بأن يعود الى الوطن حتى يعمل من اجل قضية الثورة . لكن مؤلف « الأم » سينتظر كانون الثاني ١٩١٤ حتى ينتقل الى فنلندا على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات من بيتروغراد .

اما كامو ، الذي كانت السلطات الالمانية قد سلمته للسلطات الروسية عام ١٩٠٩ ، فقد خفف حكم إعدامه الى عشرين سنة من الاشغال الشاقة . وكان ملك المصادرات قد قاس درب آلامه الرهيب متظاهراً بالجنون . فقد قامت الشرطة بمختلف انواع التجارب عليه . وفي احد الأيام غرست في ظهره إبرة موصولة بمحرك كهربائي : « كان الألم لا يطاق . وكنت أشم رائحة اللحم المحروق . وكان المحقق واقفاً امامي يحدق في عيني ، اذ ما كان ليصدق الأطباء . وكنت انظر اليه ببلاهة وأضحك كالعبيط . وبصق المحقق وجدف ، ثم انصرف » .

ومن الخارج كانت تعد خطة لتهديب كامو . وقد سلمه احد مستخدمي السجن مبرداً من الفولاذ . ونجح كامو – المجنون في الفرار واجتمع بستالين في اوروبا . وعندما عاد الى روسيا محملاً بالمنشورات السرية ، وقع في ايدي السلطات من جديد وحكم بالإعدام . وقد صاح في وجه هيئة المحكمة :
– ان ربي ، عقيدتي هي الاشتراكية . ليس ولا يمكن ان يكون لي رب آخر ، عقيدة اخرى .

وجاء الاحتفال ببوئيل القرون الثلاثة في حينه ليجنبه عمود الإعدام .

روسيا كلها تحتفل بالمناسبة التاريخية . وكشيسنسكايا ، التي اقامها نيقولا قبل زوجته في مواجهة قصر الشتاء ، ترقص رقصة مازوركا في الفصل الثاني من « الحياة للقيصر » .

القيصر الكسيس له الآن من العمر تسعة اعوام ، وهو يشهد الاحتفالات محمولاً بين ذراعي بحار من كرونشتاد . راسبوتين لم يشفه ، لكن الراهب هو اليوم رجل العهد الكلي القدرة . وقد بنيت كنيسة على اسمه في حديقة تساركوي رسيلو . والوزراء انفسهم يتهاكون على بطاقات توصية من الفاسق ، قطع صغيرة من الورق مليئة بالأخطاء الإملائية .

في كوستروما ، على الفولغا ، مهد آل رومانوف ، كان راسبوتين يقف خلف رئيس الوزراء اثناء الاحتفال بوضع القيصر للحجر الأول لنصب تذكارى . والامبراطورة تشهد من عربتها استعراض الجنود ، على مرأى من فلاديمير بوريشكيفيتش ، عضو المئة السود ، الذي كتب في دفتر مذكراته بحتق : « ما ان انتهى الاستعراض حتى تحركت العربة الامبراطورية . كان الراهب يمدج الامبراطورة بنظرات خالية من كل قداسة . كيف يجرو؟ التفتت القيصرة ولمحته ، وتغير تعبيرها بغتة . وحتت له رأسها إحناءة طفيفة واضاءت ابتسامة وجهها » .

كان الصراع بين رئيس اساقفة سان - بيترسبورغ وراسبوتين قد اخذ طابعاً علنياً مكشوفاً . وقد اجتذبه رئيس الاساقفة الى دير نفسكي وطلب اليه بحضور عدد من ممثلي الكنيسة ألا يتردد بعد الآن على البلاط . لكن الراهب الزائف دفعهم جميعاً بقوته الهرقلية ولاذ بالفرار . وبعد بضعة ايام داهم رجال الدرك الدير ليقبضوا على رئيس الاساقفة ويرسلوه الى سيبيريا .

*

ما كاد الجنرال نكوفسكي ، الحاكم السابق لموسكو ، يعين على رأس الاوكرانا ، حتى وجد نفسه امام سجل ضخم ، سجل رومان مالينوفسكي .

فالشرطة ترى ان ثمن الخدمات التي لا تقدر بقيمة والتي يؤديها رئيس المجموعة البرلمانية البلشفية باهظ جداً. وبالفعل ، كان مالمينوفسكي اكثر خطباء الدوما عداء للحكومة وللنظام الملكي . وشهرته بموهبته وشجاعته على المنبر ، وثقته بخصايته تجعلان منه شخصية مرموقة وملحوظة اكثر مما ينبغي . ولهذا الاسباب سلمه الجنرال دجونكوفسكي جواز سفر مزيفاً وستة آلاف روبل وطلب اليه ان يرحل الى الخارج حتى ينساه الناس . وفي الوقت نفسه استدعي الى مقر تحرير « البرافدا » لاستجوابه ، بعد أن وصلت من كامينيف معلومات تدينه . وعندما شعر مالمينوفسكي بأن الارض تهتز تحت قدميه من الجائنين ، قرر أن يقامر مقامرته الكبرى . فليين وكروبسكايا في بولونيا ، في بورونين . ولسوف ينضم اليهما .

كان الرجل الذي مثل امام فلاديمير ايليتش رجلاً مرتاعاً مرتعداً الفرائص . فالقضية اخذت في بترسبورغ أبعاداً تدعو الى القلق بعد ان بدأ اليمينيون والمناشفة باستغلال الفضيحة البرلمانية التي جعلت من البلاشفة موضع سخرية مريرة . ودعا لينين ، المقتنع باستقامة الرفيق رومان ، الى عقد محكمة حزبية تناولت عدة ساعات ، بحضور بوخارين وزينوفيتش . وامضى فلاديمير ايليتش ، المتألم من الافتراعات التي تهدد سمعة الحزب والمتخوف من احتمال اذانة رجل بريء ، امضى ليلته ساهداً يحنسي الشاي حتى مطلع النهار . واصدرت المحكمة الحزبية قرارها : انها مقتنعة بخيانة مالمينوفسكي ، لكنها لا تملك أدلة قاطعة . واستقبل لينين للمرة الاخيرة مالمينوفسكي ، وفتح له بشكوك رفاقه ، ونصحه ، مثل الاوكرانا ، بأن يخفي عن الانظار حتى يطويه النسيان .

(٢٥)

في ١٣ شباط ١٩١٤ استدعي من جديد ايفان لونغينوفيتش غوريميكين ، البيروقراطي الطاعن في السن ، التقليدي الأسلوب ، الضعيف الشخصية ،

الى رئاسة الحكومة بعد خمسين سنة من خدمات مستقيمة وبسيطة معاً. وقد شبه نفسه بنفسه بأنه معطف قديم أخرج من صندوقه لمواجهة عاصفة غير منتظرة. وبالفعل اكفهر أديم السماء.

ان المأساة التي فجرتها «اليد السوداء» في ٢٨ حزيران في سيرا جيفو باغتيالها ولي عهد امبراطورية النمسا - المجر ، الأرشيدوق فرانسوا - فردينان ، كان لا بد ان تقود اوروبا الى الكارثة . وحتى الاضرابات التي قوبلت بها زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية ، ريمون بوانكاريه ، لسان - بيترسبورغ في تموز ١٩١٤ ، توقفت من تلقاء نفسها تحت ضغط التوتر الدولي .

وعلى ظهر سفينة تشق عباب نهر الفولغا وقف الكسندر كيرنسكي يخاطب صببة في مستقبل العمر عرفها منذ عهد بعيد في سيمبرسك ، مدينة اعيان الريف . والصبية هي آنا اوليانوفا ، شقيقة لينين ، وحديثهما يدور حول الغائب . وقد قال لها كيرنسكي :

- لا تقلقي . سترينه عما قريب . ان الحرب ستنتش بين لحظة واخرى وسوف تفتح له ابواب روسيا .

ان النائب كيرنسكي ، العائد من جولة عبر البلاد ، متجه الآن نحو دائرته الانتخابية ، ساراتوف ، حيث ينوي ان يقضي الصيف . ولكنه عندما وصل الى بيته وجد خطاب دعوة من الامبراطور موجهاً الى جميع نواب الدوما لعقد جلسة استثنائية في ٨ آب ١٩١٤ لإطلاعهم على التهديد الذي تتعرض له حليفهم ، صربيا .

واثناء ذلك كان س.د. سازونوف ، صهر بير ستوليبين ووزير الخارجية ، يجري مفاوضات متواصلة مع بيير باليولوغ وجورج بوكانان ، سفيرى فرنسا وبريطانيا العظمى . وقد لعبت القروض الضخمة دوراً حاسماً في القرار الذي نستخذه روسيا للوفاء بتعهداتها التي اخذتها على عاتقها تجاه الحلفاء . وكانت الامبراطورة ، الألمانية النسب ، عاجزة عن ممارسة اي تأثير .

وراسبوتين ، الذي طعنته بالخنجر منذ مدة وجيزة امرأة اكلت الغيرة قلبها ، عاجز هو الآخر عن إسداء النصح اليها .

وفي ٢٨ تموز اعلنت النمسا - المجر الحرب على صربيا .

وفي ٢٩ تموز حاول نيقولا الثاني المستحيل . فقد أبرق ، بغير علم الحكومة ، الى الامبراطور غليوم الثاني : « من العدل ان يعرض النزاع النمساوي - الصربي على محكمة لاهاي » . فأجابه الامبراطور في ٣٠ تموز في الساعة الواحدة صباحاً ، ملقياً بكل مسؤولية الحرب على روسيا اذا ما اعلنت التعبئة ضد النمسا - المجر . وفي مساء اليوم نفسه ، وفي الوقت الذي اعلنت فيه المانيا التعبئة ، طلب سازونوف الاجتماع بالقيصر في بيترهوف لإقناعه بضرورة إصدار الأمر بالتعبئة العامة . واستمع نيقولا الثاني ، وهو ممتقع الوجه ، الى وزيره ساعة من الزمن ، وتردد إذ حدثه قلبه بأن الحرب ستلقي ببلاده في هاوية لا قرار لها ، لكنه عدل عن ترده عندما اضاف سازونوف :

- سوف تفقد روسيا النفوذ الذي كسبته في البلقان على مر التاريخ ولن تعود تعرف سوى وجود بائس تمن بها عليه امبراطوريات وسط اوروبا ..
وران صمت طويل ، ثم قال نيقولا الثاني لوزيره :
- انت على حق ، انقل الى رئيس الأركان أمري بالتعبئة .

وفي الساعة العاشرة والدقيقة الاربعين من صباح ٣١ تموز نشر وزير الداخلية نيقولا ماكلاكوف مرسوم التعبئة .

وفي الاول من آب اعلنت المانيا الحرب على روسيا ، وفي الثالث منه على فرنسا . ودخلت انكلترا بدورها أتون النزاع العالمي . وكانت المواجهة بين ٢٣٨ مليوناً من سكان بلاد التفاهم وبين ١٢٠ مليوناً من سكان بلاد التفاهم وبين ١٢٠ مليوناً من سكان دول وسط اوروبا .

عندما اعلن الامبراطور الحرب ، كانت جماهير غفيرة محتشدة حول قصر الشتاء ، فخرت راکعة وراحت تنشد « ليحفظ الله القيصر » :

وفي جلسة الدوما في ۸ آب أعلنت جميع الاحزاب السياسية الاتحاد المقدس باستثناء النواب البلاشفة .

وبدل نيقولا اسم عاصمته . ففقدت بيترسبورغ ايقاع اسمها الالماني واصبحت بيتروغراد . ودعيت الأقليات القومية الى المشاركة في المجهود العام . وفي بولونيا منح الناس الحق في أن يولدوا ، بعد الحرب ، أحراراً في دينهم ولغتهم وادارتهم الذاتية .

وقرر ممثلو الزيمستفويات والبلديات إنشاء اتحادات للاهتمام بالجرحي التموين . ووضع على رأس اتحادات الزيمستفويات اوجين لفوف ، الأمير بالدم ، ولكن الأمير الليبيرالي .

*

في اليوم الذي علم فيه لينين بأن الاشتراكيين الالمان خانوا القرارات التي اتخذتها الامة الثانية وصوتوا مع الاعتمادات الحربية هتف قائلاً :

— لن اكون بعد اليوم اشتراكياً — ديموقراطياً ، فقد اصبحت شيوعياً .

لكن ها هم رجال الدرك النمساويون يقرعون باب شقته في برونين . وقد وجدوا بين الاوراق التي صادروها احصائيات عن الانتاج الزراعي تشبه بما فيه الكفاية معجم شيفرة لتوجيه تهمة التجسس اليه . واخذ فلاديمير ايليتش طريقه الى السجن . كان له من العمر آنذاك اربعة واربعون عاماً ، قضى عشرين سنة منهم في النضال . وسوف يحتفظ التاريخ الى الأبد بصورته هذه ، بمجممته المصلوعة ولحيته النموذجية وعينيه المتحركتين المشدودتين .

وتدخل الاشتراكي — النمساوي فيكتور أدلر لدى وزير الداخلية لإطلاق

سراحه :

— هل أنت مقتنع بأن اوليانوف هذا عدو حقاً لحكومة القيصر ؟

— اجل ، بالتأكيد ، بل انه اشد عداً له من سعادتك .

وعاد لينين ، بعد سجن دام خمسة عشر يوماً ، الى كروبسكايا وزينوفيف ولم يكن لهم من ملجأ غير سويسرا . وفي ٥ ايلول وصل أربعتهم اليها .

في فرنسا وانكلترا وبلجكيا ، وفي كل مكان صوت الاشتراكيون الى جانب اعتمادات الحرب ، وقبلوا بالدخول في التشكيلات الحكومية ، ورفضوا ان يوجهوا أسلحتهم الى صدور بورجوازياتهم . وكان جان جوريسي ، رجل الجهود الاخيرة في سبيل السلم ، اول قتيل يصرعه رصاص هذه الحرب في مطعم « الهلال » بعد ان قال :

— القليل من الأمية يبعد المرء عن الوطنية ، والكثير من الأمية يرجعه اليها .

واعلن بليخانوف تأييده الصريح للاتحاد المقدس . ورفع بوانكاريه الحظر الذي كان مفروضاً على اقامته في فرنسا .

وتطوع « الجسيم » ، بوريس سافنكوف ، المحرض على أجرأ مؤامرات الاغتيال الاشتراكية — الديموقراطية ، الذي كان قد هاجر في عهد ستوليبين ، تطوع في الجيش الفرنسي .

واستدعى لينين أتباعه للاجتماع في احدى غابات بيرن . وكان عددهم ثمانية . ونحت الأشجار أفرغوا جيوبهم . وكانت حصيلة مالية الثورة مئة وستين فرنكاً . ثمانية ثوربين ومئة وستين فرنكاً : انها القوة الوحيدة التي بقيت معبأة للإطاحة بكل امبرياليات العالم .

وعاد غوركي الى بيتروغراد وأسس جريدة « لوتويس » (الحوليات) ونظراً الى نزعته المعادية للحرب والعسكريين فقد لاقى مضايقات كثيرة من الرقابة .

اما سائر الزعماء البلاشفة الكبار فقد كانوا إما في السجن وإما في المنفى : ستالين ، سفيردولوف ، دزرجنسكي ، اوردجو نيكيديزه . وقد نجح تروتسكي في مغادرة فيينا وأقام في زوريخ . وذهبت اينيس آرمان الى الساحل الدالمتي ، في فيوم ، لتداوي سلها . وحطمت الحرب ، فيما حطمته ، جميع وسائل المواصلات .

ومن جديد وجد لينين نفسه وحيداً . وحيداً ضد الاتحاد المقدس الذي خفقت رايته من الأطلسي الى الاورال . ووحيداً تجاه الحرب ، المسرع الرهيب لعجلة التاريخ .

٢

يوم النداء الكبير

(٢٦)

هرعت الكتائب الروسية الى الحدود الألمانية ، مختربة حقولاً غير محصودة ، ومثيرة عواصف خانقة من العجاج .

ورقى القيصر الى مرتبة كبير الجنرالات عمه الدوق الكبير نيقولا نيقولايفيتش ، المارد الذي يبلغ طوله مترين والذي هدد نيقولا الثاني بالانتحار على مرأى ومسمع منه إذا لم يصدق على بيان ٣٠ تشرين الاول ١٩٠٥ الذي نص على إنشاء الدوما .

وسمح للدوق الكبير ميشيل ، اخي القيصر ، الذي كان زواجه العامي قد ابعده عن البلاط ، بالعودة من سويسرا ليصبح قائداً فخرياً للفرقة المتوحشة المشهورة التي رأت النور اثناء الحرب الروسية - اليابانية .

وكان على روسيا ، وفاء منها بالتزاماتها ، ان تفتح النار في اليوم الرابع عشر من التعبئة . وقد وضعت خطة هجومها على اساس جبهتين . ففي الشمال يتوجب على جيوش الكسندر فاسيليفيتش سامونوف وبول كارلوفيتش رينكامف ان تغزو بروسيا الشرقية ، بينما يتوجب على قوات الجنرال نيقولا جودوفيتش ايفانوف في الجنوب ان تدخل غاليسيا وان تستولي على هضاب الكاربات وان تتوغل في السهل المجري .

ولم تسمح مساحة الاراضي الروسية وندرة السكك الحديدية والملاكات

بنقل اكثر من ثلث القوات الى مسرح العمليات . ولم تستطع البحرية ان تعيي اكثر من ثماني مدرعات واثنين وعشرين طراداً . وكان المشاة مسلحين ببنادق ممتازة من نمط عام ١٨٩١ وبرشاشات من نمط مكسيم محمولة على عربة صغيرة ذات عجلتين . وكانت المدفعية مزودة بالمدافع من عيار ٧٦ المتفوقة على المدافع الفرنسية المشهورة من عيار ٧٥ . لكن الأسلحة والذخيرة غير كافية عددياً . وانتاج القنابل لا يتجاوز خمسة وثلاثين الف قنبلة شهرياً ، في حين ان العمليات ستطلب خمسة واربعين ألفاً يومياً .

واخيراً فإن مسرح العمليات العسكرية لم يكن ملائماً ، لأن هذه العمليات دارت اول ما دارت في اراضي القوميات غير الروسية من بولونية وليتونية واوركانية ورومانية ، تلك القوميات التي لم تؤد محاولات ترويسها الفظة إلى تأجيج مشاعرها ووعيها لذاتها .

وعندما بدأت روسيا في ١٧ آب بالهجوم لم تكن خطوطها الخلفية مأمونة الجانب تماماً . لكن جيوشها ، الجريئة المقدمة ، أذهلت العالم ونجحت في إرغام العدو على الانسحاب في كل مكان .

ان روسيا تدين بنجاحاتها هذه لفرسانها بوجه خاص . وكان القوزاق ، وهم عشيرة روسية النسب ، اول من دعي لحماية الاوتوقراطية . وفي المقام الثاني تأتي « الفرقة المتوحشة » التي شهد الضابط الشاب كورنيلوف ولادتها في آسيا في عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ . وتمكن سامسونوف وريينكامف من اختراق الخطوط الالمانية ومن احتلال جزء من بروسيا الشرقية . وفي غاليسيا تفهقر جيش النمسا - المجر . وكانت هذه الانتصارات سريعة ودامية . لكن تعجل الروس في بدء الهجوم قبل ان تستكمل الدول الحليفة تعبئتها جعل اغصان الغار تذبل قبل ان تزهر . فقد انتقل الالمان الى الهجوم المضاد

في بروسيا الشرقية . وتعرضت قوات سامسونوف الى هزيمة مدوية في ٣٠ آب ، فانتحر هذا في ساحة المعركة بالذات بأن اطلق رصاص مسدسه على رأسه . واضطر ريننكامف بدوره الى التراجع تحت ضغط المدفعية المعادية . وفي الجنوب بذلت وحدات ايفانوف جهوداً يائسة لصد الهجوم المضاد النمساوي - المجري . وفي مدى بضعة اشهر كان مليون ومثنا ألف رجل قد وضعوا خارج المعركة : قتلى او جرحى او أسرى .

*

امام خيانة الاشتراكيين العامة فكر لينين بأن على البلاشفة ان يضاعفوا جهودهم على الصعيد الأمي بهدف إعادة تجميع العناصر المعادية للحرب . وفي تشرين الاول أتاح له مؤتمر لوغانو الاشتراكي الايطالي - السويسري ان يرسي أسس الأمية الثالثة من خلال اطروحاته المشهورة التي قدمها الى ذلك المؤتمر . وكانت هذه اولى محاولات اللينينية ، الماركسية المطبقة على وقائع العصر ، للتفتح في أوج الحرب .

وفي ١١ تشرين الاول خطب بليخانوف في « بيت الشعب » في لوزان ليدين الامبريالية الألمانية وليبرر قضية الحلفاء . ومن قلب القاعة نهض رجل وتقدم طالباً الكلام بكل هدوء وثقة بالنفس ، وفي يده كأس من البيرة . ان فلاديمير ايليتش يريد ان يرد على أستاذه القديم . ومنح عشر دقائق . وحاول لينين ان يقنع مستمعيه بضرورة تحويل الحرب الى كفاح بروليتاري حاسم ضد الطبقات المالكة . ولكن بليخانوف هو الذي اثار عاصفة من التصفيق والهتاف . وبعد ثلاثة ايام استأجر زعيم البلاشفة ، الذي كانت اينيس آرمان قد انضمت اليه ، القاعة نفسها . وأخذ بثأره : فقد دوى الجمهور بالتصفيق والهتاف عندما أعلن :

— ان الحرب التي اندلعت هي حرب استعمارية ، امبريالية ، رأسمالية

وحرب سلاطات مالكة . وهدفها إبادة البروليتاريا . وزعماء الأهمية الحالية خونة . ومن الواجب ان نخوض نضالاً لا رحمة فيه ضد الشوفينية الروسية الكبرى والملكية . من الواجب ان نقنع الجنود بتحويل حكوماتهم وضد الأحزاب المؤيدة لها ، لا ان يسدوها الى صدور اخوتهم من البلدان الأخرى . من الواجب إعلان الجمهورية في روسيا وبلجيكا وألمانيا وايطاليا والولايات الاوروية الجمهورية المتحدة .

وارتفعت بعض اصوات تأييداً للينين : أصوات زينوفيف وغوركي وبوخارين والمخبر رومان مالنوفسكي .

*

في الوقت الذي وجدت فيه روسيا نفسها عاجزة بسبب نقص الذخيرة عن شن أي هجوم على طول جبهات القتال ، دخلت تركيا حلبة الصراع العالمي . وتحت قيادة أنور باشا احتل العثمانيون بلاد عبر القفقاس . وشن ضده الجنرال نيقولا نيقولايفيتش بودينيتش ، أبرز الضباط الروس ، هجوماً مضاداً أرغم قوات العدو على الانسحاب . وعاد الأتراك ادراجهم من حيث أتوا تحت عواصف الثلج وبين جثث الرجال والحيوانات المتجمدة والذخائر والمدافع المهجورة .

في نهاية ١٩١٤ لم تكن حصيلة العمليات سلبية بالنسبة الى سلطات بيتروغراد . فقد سحقت تركيا . ونجحت قوات ايفانوف في إحباط الهجمات النمساوية - المجرية وتوغلت في الكاربات . وفي الشمال أوقف ريننكامف الهجوم الألماني المضاد . لكنه أقبل من منصبه بسبب الأراضي التي خسرها . وخفضت كل محاولاته للعودة الى الخدمة في الجبهة ، حتى كمجرد جندي نقر . وخيل لنيقولا ماكلاكوف ، وزير الداخلية ، أن الوقت قد حان لتسديد ضربة جديدة الى الثورة . وبناء على أمره اعتقل النواب البلاشفة بادائيف وبيتروفسكي ومورانوف وسامويلوف وشاغوف اثناء اجتماع سري لهم .

اما النائب السادس ، رومان مالينوفسكي ، رئيس حزب لينين في الدوما ، فقد اختار ان يتطوع كجندي بسيط حتى يطويه النسيان . وقد نقل منذ المعارك الاولى الى الجبهة الشمالية ودل على بطولة خارقة منح على إثرها صليب القديس جورج .

(٢٧)

أدت الحرب الى تخلع بنيان الحزب البلشفي في الوقت الذي وجد فيه خطه الأصيل . ولم يقبل لينين ان يعترف بأي فشل . فالحرب عدوة ، لكن الحرب على الحرب حليفة . والتراجع يجب ان يكون فرصة للهجوم الكبير .

وتطلع لينين اولاً الى اعادة توطيد الاتصال بالداخل . وتلقى كريلنكو ، الرئيس السابق لشبكة ارتباط كراكوفيا ، الأمر بمغادرة سويسرا وبالذهاب الى موسكو التي وصل اليها ليعلم نبأ اعتقال زوجته وولديه . ونقلت شبكة كراكوفيا الى ستوكهولم وتولت قيادتها مناضلة مخضمة : الكسندرا كولانتاي ، ابنة جنرال قيصري وزوجة مهندس من بيساراييا منفصلة عنه . وكانت منشفية حتى يوم لقائها بلينين الذي هداها الى البلشفية . وقد أسست حزباً شيوعياً حقيقياً في السويد .

واستدعى فلاديمير ايليتش الى بيتروغراد بلشفياً موثقاً ، شليابنكوف ، ليحل محل كامينيف الذي اعتقل في نفس الوقت الذي اعتقل فيه النواب البلاشفة الخمسة في كانون الاول ١٩١٤ ، وكلفه بأن ينشيء ، بمساعدة اوليانوفا ومولوتوف ، مكتباً للجنة المركزية ، وبأن يوزع الكتابات المعادية للحرب في المصانع وبين صفوف الجيش . وأرسل بابا لتفينسوف ، المزيف الحزبي ، بدوره الى لندن ليدافع عن اطروحات لينين في مؤتمر المنظمات الاشتراكية في دول التفاهم . لكن القاعة التي استقبلته ببرود انقلبت عليه بسرعة . واضطر لتفينوف الى مغادرة المنصة تحت الصفير .

اقام تروتسكي هيئة أركان حربيه في باريس حيث لاقى من جديد الأثرار
مارتوف الذي أسس صحيفة يومية ، « كلمتنا » . وكان من ضمن أسرة
تحريرها انتونوف - اوفسينيكو ، « الحربة » ، ولوناتشارسكي وغريغوار
الكسنسكي ، رئيس المجموعة البلشفية في الدوما الثانية ، الذين ابتعدوا جميعهم
عن لينين . و « كلمتنا » هي في الواقع اكثر من صيغة واكل من حزب .
وكانت لها شبكة من المراسلين موزعة في أرجاء اوروبا وموازية لشبكة لينين .
فمويس اوريتسكي ، الرجل صاحب الابتسامة المطمئنة الذي عرفه تروتسكي
في سيبيريا حول موقد النار ، مقيم في كوبنهاغن . وتشيتشيرين ، الاشتراكي
الطريف والمنعزل ، مقيم في لندن . وحول الصحيفة ولد الفريق الذي سيطلق
عليه اسم « حزب ما بين المعسكرين » والذي سيحتل مواقعه في منتصف
الطريق بين البلاشفة والمناشفة .

*

في ٢١ شباط ١٩١٥ تنازل القيصر ليشرف الدوما بزيارته . وقد استقبله
الرئيس رودزيانكو ، واستمع الى مزموور « الى الخالق » في قاعة كاترين .
ولكن الحكومة ووزير الحربية سوخوملينوف تعرضا الى انتقادات عنيفة
اثناء الجلسة السرية ، إذ أن وضع الجيش قد تدهور تدهوراً خطيراً .

وأهبت محاكمة النواب البلاشفة الخمسة التي افتتحت في ٢٣ شباط المشاعر
الثورية من جديد . وذهبت كلمة محامي الدفاع ، الكسندر كيرنسكي ، هباء
منثوراً ، إذ ان الحكم بالنفي مدى الحياة مقرر مسبقاً ، وأخذ النواب البلاشفة
الخمسة طريقهم الى توريكما حيث لاقوا منفين آخرين مرموقين : ستالين
وسفيردلوف .

*

لبس لينين وكروبسكايا ثياب الحداد بعد ان انطفأت شعلة الحياة في
والدة هذه الاخيرة . وقد وافتها المنية في سويسرا حيث كانت تعيش معهما

منذ أن التقيا . وكانت اليزايث فاسيليفنا قد انتقلت معها الى كل المهاجر . وعندما لحقت كروبسكايا بفلاديمير ايليتش الى سيبيريا ، تبعتهما لتشاطرها المنفى السيبيري . وكانت تتولى شؤون المنزل كلها حتى تستطيع ابنتها ان تكرس نفسها للثورة . كذلك كانت تناضل ، إذ كانت تأوي المهاجرين وتخط المنشورات السرية بالملابس وتؤلف معاجم للشيفرة . وكانت اليزايث فاسيليفنا قد جحدت عقيدتها الاورثوذكسية قبل بضعة أشهر من وفاتها . وقد أحرق لينين وناديا جثمانها حسب طلبها . ورمادها ما يزال الى اليوم في مقبرة بريمغارتن السويسرية .

*

قامت عدة فرق ألمانية ، متفوقة في السلاح ، بمهاجمة الجبهة الشمالية في ٧ شباط ١٩١٥ اثناء عاصفة ثلجية عنيفة . وبعد قتال دام ثلاثة عشر يوماً ، خسرت روسيا بروسيا الشرقية كلها . وفيما أخذ ايمان البلاد بالنصر يتداعى ، كانت الملاحم البطولية تكتب في ميدان القتال .

ومن الكتاب التي برزت في القتال ككتيبة سيمينوفسكي التي كانت قد دمرت بقنابل المدافع ، وتحت إمرة الجنرال مين ، متاريس موسكو في عام ١٩٠٥ . وكان قادة الكتيبة يحثون رجالها على الاستماتة في القتال حتى يمحو دينهم نحو الشعب . وقد خاطب الملازم ميشيل توخاتشيفسكي جنوده الذين يكونون له الحب والاحترام قائلاً :

— يجب ان نغسل عار ذلك القمع !

ومن الوجوه التي لا تنسى في تلك الحرب الضروس وجه ماريا بوتشكاريفا التي طلبت من القيصر التطوع فأذن لها بصورة استثنائية . وكانت ماريا قد ذقت الأمرين على يد زوجها الجلف ، وقد هربت من بيته أكثر من مرة ، واضطرت في احدى المرات الى العمل في احد المواخير لتكسب حياتها . وقد دلت على شجاعة خارقة في قتال الخنادق ، ومنحت ميدالية .

وفي ايار ١٩١٥ ، وفي الوقت الذي كانت فيه حرب الغواصات تسجل افجع الكوارث مع غرق السفينة لوسيتانيا بركابها الألفين والمتين ، راح الأمل في النصر يولد من جديد. في الكاربات فقد احتل الروس موقع برزيميل الاستراتيجي ، وأسروا تسعة جنرالات وألفين وستمئة ضابط ومئة وعشرين الف رجل ، واستولوا على ألف مدفع . وتوغلت جيوش القيصر في المجر . ولكن في غاليسيا شنت خمسة فيالق ألمانية ، حديثة التسليح ، هجوماً مباغتاً . وأخرست ثمانمئة مدفع ألماني بسرعة الافواه النارية الروسية المثة والخمسة والأربعين . وانهال وابل من القنابل على الخنادق ، ثم انتقل الألمان الى الهجوم . واشتعلت معركة ضروس على طول الجبهة من البلطيق الى رومانيا . وفي تشرين الأول تحولت المعارك الى مجازر :

– أعطونا أسلحة !

هكذا راح يهتف المحاربون الروس الذين ما كانوا يملكون احياناً سوى بندقية واحدة لثلاثة رجال .

(٢٨)

في المؤخرة كانت افواج الجنود النازحين تنشر الشائعات الانهزامية . فمنها ما يقول ان المشاة مضطرون الى الدفاع عن انفسهم بأعقاب البنادق ضد الرشاشات المعادية ، ومنها ما يقول ان الضباط لاهون في احتساء الشمبانيا مع « الأخوات الصغيرات » ، الممرضات العسكريات . ولقد تزعزت اسس الاتحاد المقدس بفعل الفوضى الاقتصادية . ونقص شبكة السكك الحديدية المسدودة بعربات مهجورة تعرقل المرور ، والاستخفاف بالدوما التي لم تدع الى الاجتماع إلا فيما ندر ، وارتفاع الأسعار . وفي موسكو ادت استشارة مشاعر الشعب الى نهب المخازن . وهدد نقص الوقود انتاج الأسلحة . وانطفاً ستة وثلاثون فرن عال . وبارت الزراعة لقلة الأيدي العاملة . ونظم البلاشفة حملات ضد الثروات الهائلة التي تكونت بسرعة في القطاع الصناعي . كما

استأنفوا عملهم النفسي وانتقلوا الى التحريض داخل الخنادق بالذات ، بعد ان خلق انحطاط الدولة جواً ملائماً للنشاط الثوري . وشكل ميشيل فرونز ، مؤسس سوفيت ايفانوفو الاول ، منظمة سرية في مينسك تعمل بين جنود الجبهة الغربية . وسيطر سيرج كيروف ، الذي أثار طومسك في عام ١٩٠٥ ، على القفقاس ، وكريلنكو على قوات الجنوب . ووزع الاوكراني اندريه الكسندروفيتش جدانوف ، ابن احد مفتشي التعليم ، منشورات تحريضية في الخطوط الاولى . وحاول فاليريان فلاديميروفيتش كوبيشيف ، المولود في اومسك بسيبيريا في أسرة من الضباط القيصريين ، وعضو اكاديمية الطب العسكرية ، ان يثقف عمال سمارى بالثقافة الثورية . اما كيف وإيكاثير – ينوسلاف فهما بين يدي لازار كاغانوفيتش . ويعمل مكسيم غوركي من جهته كل ما في وسعه للدعوة الى السلام ، في حين ان ابنه بالتبني ، زينوفي الذي كان في باريس لحظة إعلان الحرب ، قد تطوع في « الفرقة الاجنبية » وقاتل بشجاعة في آرتوا ، وجرح وبتر ذراعه اليمنى . وعن طريق مولوتوف في بيروغراد والكسندرا كولانتاي في ستوكهولم ، كان لينين يتتبع أسبوعاً فأسبوعاً أبناء تقدم نشاط الحزب والتحريض . وعادت فيرا فغنز من مهجرها ، ذابلة ، محيرة امام تعقيد المشكلات السياسية ، فكفت عن النضال الاشتراكي واصبحت روائية . كما عاد ايضاً من سويسرا فيرا زاسوليتش وبوتريسوف ومحضاً تأييدهما للمعتدلين الذين يتهمهم لينين بأنهم من انصار الحل الوسط . واتخذت اعمال السطو ، التي هي ثمرة مسمومة للأيام الصعبة التي تجتازها روسيا ، أبعاداً تدعو الى القلق . وكان آخرها زنياً محاولة السطو على القصر الباذخ الذي يقطنه الكونت ستروغانوف الذي يلخص اسمه وحده كل تاريخ البلاد ، ولا سيما تاريخ سيبيريا التي غزاها أسلافه ليقدموها الى ايفان الرهيب . لكن رجال الشرطة الساهرين اوقفوا اللصوص الخمسة ووجدوا على رأسهم النائب الاشتراكي – الثوري كوزنتسوف الذي قال :

– اني لست بلص ، وانما أنا منفذ مصادرة .

دلف الى القاعة الموسكوفية التي كان يجتمع فيها اغنياء التجار رجل ريفي الملبس ، ملطخ بالوحل . وقد تعرف فيه اصدقاؤه بعد لأي المليونير ريبوتشنسكي ، صاحب مصانع النسيج ، القادم من الجبهة حيث تكحلت عيناه بمراى الفواجع . وقال بحمية :

– ان الوطن في خطر . وبات من المستحيل على الجيش ان يقاتل . ينبغي ان نعلن التعبئة الصناعية .

وقرر اولئك الصناعيون والتجار المجتمعون في موسكو في شهر حزيران ١٩١٥ ، بعيداً عن تأثير البلاط ، ان يهزوا السلطة . وخلص ريبوتشنسكي الى القول :

– علينا ان نتحرر من البيروقراطية . يجب ان ننشئ لجنة مركزية للصناعات الحربية ، وان نشرك في مجهودنا كل القوى الليبرالية في المـسـدن والدوما والزيـمستفويات .

وأيد أ.إ. كونوفالوف ، احد ملوك النسيج ، والتشريبي غوتشكوف ، أي المليونير الريفي الملبس .

والحقيقة ان البورجوازية ، بمحاولتها تنظيم هذا النهوض الاقتصادي ، انما تتطلع الى ان تملك ببعض من زمام السلطة . وقد عرض الصناعيون ، الذين يعون انه لا يمكن بناء شيء بدون وضع حد للاستياء الشعبي ، ان يكون للعمال عشرة مقاعد في لجنـتـهم المركزية . وقد اثارت هذه البادرة عاصفة جديدة بين لينين وبلخانوف . فأبو الماركسية الروسية يرى :

– من الواجب ان ندخل اللجنة بدون افكار مسبقة . وفلاديمير ايليتش يقول :

– لا تعاون مع البورجوازيين .

وفي خاتمة المطاف احتل المناشفة المقاعد العشرة برئاسة عامل تعدين من اريكسون ، ونائب في الدوما ، كوسما.أ.غفوسديف ، البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً . وسوف يكون من أبرز اعضاء هذه اللجنة ليونيد كراسين الذي ابتعد لبعض الوقت عن الزمرة البلشفية .

وسمي غوتشكوف رئيساً للجنة المركزية . وثار قلق الحكومة وكان رد فعلها ان شكلت لجنة رسمية : اللجنة الخاصة للدفاع الوطني .

ولم يخف على لينين ان الصراع على السلطة قد بدأ وان البورجوازية قد رشحت نفسها جهازاً لخلافة الحكم الملكي المنهار .

*

عبر المراعي الدسمة المحيطة ببيرن ، نقلت اربع عربات تجرها الخيل ثمانية وثلاثين اشتراكياً الى قرية زيمروالد في يوم ٣ ايلول ١٩١٥ . وقد علق تروتسكي على ذلك فيما بعد :

— بعد نصف قرن من إنشاء الاممية الاولى ، امكن نقل جميع الثورين

في اربع عربات !

وكان لينين وكروبسكايا ينتظران هؤلاء الاشتراكيين الثمانية والثلاثين القادمين من احد عشر بلداً منذ يومين في المزرعة التي استأجراها عند مدخل زيمروالد ، وهي مزرعة جبلية نموذجية ينحدر سقفها حتى مستوى الارض . كان هؤلاء الثمانية والثلاثون من مختلف الأجناس والأشكال ، وكان اكثرهم يعرفون بعضهم بعضاً : زينوفييف الذي اصبح مساعداً في مخبر كيميائي ، اينيس آرمان التي ترجم كتابات لينين للعمال الفرنسيين ، سافاروف المحرض لدى عمال ميناء سان - نازير ، اكسلرود صانع اللبن البيتي ، مارتوف الثرثار الذي لا يتوب ، فريتز بلاتن وغريم الاشتراكيان السويسريان ، ناتانسون وتشيرنوف مؤسساً الحزب الاشتراكي - الثوري ، كارل راديك البولوني المتجرمن ، انجيليكا بالابانوفا ، الروسية - الايطالية التي فصلت من الحزب

الاشتراكي الايطالي بينيتو موسوليني القومي الزرعة .

وكان بليخانوف هو الغائب الكبير عن الاجتماع ، وهذا ما عزز سطوة لينين . وتقرب تروتسكي من البلاشفة ، مما جعل صديقه مارتوف يستقبل من « كلمتنا » . ومال اكسلرود ، الذي جاء ممثلاً لبليخانوف ، هو الآخر في نهاية المؤتمر الى صف لينين .

لكن هناك اصواتاً اخرى ارتفعت ضد فلاديمير ايليتش :

– انت تقترح علينا تأسيس امية جديدة . والساعة لم تأزف بعد . انك تتكلم بسهولة عن بلادك عندما تكون غائباً عنها .

بيد ان الزعيم البلشفي لم يتراجع :

– مند تسعة وعشرين عاماً ، في السجن وسيبيريا والمهجر ، لم افكر قط بغير الثورة . لقد كان ماركس وانجلز ايضاً خارج حدود بلادهما عندما وجها « البيان الشيوعي » الى العمال الالمان . إن علينا ان نفصح الاشتراكيين الخونة .

وتولى تروتسكي صياغة البيان النهائي الذي طرح للتصويت . ووجده لينين مطاطاً بعض الشيء ، لكنه صوت الى جانبه حتى يعطي بيان زيمروالد المعادي للحرب مائز الإجماع .

وعند الحدود الفرنسية فتش رجال الجمرک الوثائق التي يحملها معه « الريشة » الى باريس ، من غير ان يفتحوا الإضبارة الكبيرة التي تحمل الصفحة الاولى فيها هذا العنوان : « عاش القيصر » ! ولكن الحكومة الفرنسية فرضت الرقابة على تقارير زيمروالد .

*

سرعان ما عادت كروبسكايا ، بعد اجتماع زيمروالد ، الى وظيفتها كأمينة لصندوق مساعدة المهاجرين الروس وأسرى الحرب . وقد وجدت

عند عودتها من زيمروالد رسالة ممهورة بامضاء رومان مالينوفسكي ، النائب السابق . فالعميل المزدوج الذي قاتل بصرارة من اجل القيصر ، وقع في الأسر ، وهو يناضل من اجل الثورة في معسكره . وكان لينين ما يزال يؤمن ببراءته . وقد اجابه شخصياً وكتب في صحيفته « الاشتراكي - الديمقراطي » :

— ان مالينوفسكي^(١) يعمل كل ما في وسعه بين الأسرى حتى انه يمكن القول انه كفر عن خطيئته الفادحة . .

*

اخذ وضع حكومة غوريمكين المسنّ يتفاقم ويتدهور اكثر فأكثر بين ضغط حمى الجماهير الشعبية المتضاعفة وضغط العدو على الحدود .

ففي مصانع الأسلحة ، بوتيلوف ، في بيتروغراد ، توقف العمال عن العمل مطالبين بإطلاق سراح النواب البلاشفة الخمسة وبحق الانتخاب العام وبدعوة الدوما الى الانعقاد . وقد تظاهروا طوال يومين منشدن المارسييز . وفي ايفانوفو فتح رجال الشرطة النار على خمسة وعشرين ألف شغيل ، نزلوا الى الشوارع هاتفين « لتسقط الحرب ! » ، فقتلوا منهم خمسين رجلاً :

وكان راسبوتين ، المحاط بالرعاية الامبراطورية ، يتربع على عرش مجده في أوج قوته . وفي آب ١٩١٥ مثل امام كبير الجنرالات الدوق الكبير نيقولا وأعلن له ان السيدة العذراء ظهرت له وطلبت اليه وقف الحرب .

فرد عليه الدوق الكبير قائلاً :

— أنا ايضاً ظهرت لي ، وكلفتني بأن أجلدك بالسوط .

وكان كبير الجنرالات قد كتب الى الامبراطور يحذره من بطانته : « اذا

(١) تأكدت خيانة مالينوفسكي من سجلات الاوكرانا التي ضبطت بعد الثورة ، وتسليمه بوخارين وسفيردولوف وستالين ، فأعدم في عام ١٩١٨ .

كنت أَلح على تحريك منها ، فإنني افعل ذلك بأمل إنقاذ عرشك ووطننا العزيز .

وفي ٦ ايلول أقال نيقولا الثاني عمه وعهد اليه بقيادة القفقاس حيث شن الأتراك هجوماً جديداً ، وأعلن نفسه القائد الأعلى للقوات المسلحة . وضم اليه كرئيس لهيئة الأركان الجنرال ميشيل فاسيليفيتش الكسييف ، وهوضابط يتمتع بجدارة كبيرة ، لكنه رجل بسيط ومتواضع ، ضعيف الهيبة بين مرؤوسيه الذين برهنوا على قيمتهم العسكرية في انتصارات غاليسيا في آب ١٩١٤ .

وأكثر نيقولا الثاني من زيارته لمقر القيادة العامة في موغيليف ، على بعد سبعمئة كيلومتر من العاصمة جنوباً . وقد انضمت اليه القيصرة عدة مرات ، وكانت تنتظره في المحطة على متن قطارها الخاص . وذات يوم طلب أمير اولدنبورغ مقابلتها ، فأجابه الحرس بأن الامبراطورة نائمة بعد ان قضت ليلتها ساهرة تعالج شؤون الدولة . وعندما لج الأمير في الاستعلام عن طبيعة هذا العمل المطول ، علم ان الكسندرا أمضت الليل مع وصيفتها أبس فيروبوفا تغلب صفحات دليل هاتف لبيتروغراد وتضع إشارة زائد الى جانب أسماء انصارها وإشارة ناقص الى جانب أسماء خصومها .

وقد وضع القيصر هو الآخر اشارات ناقص وزائد الى جانب أسماء وزرائه . وقرر تغيير الحكومة . واستبدل غوريميكين بمخادم أمين للتاج ، بوريس شتورمر ، السياسي اليميني ، وزير الداخلية المساعد المسابق ، حفيد مفوض نمساوي عمل مع السلطات الحليفة المكلفة بحراسة نابليون في جزيرة القديسة هيلانة .

وانسحب نيقولا ماكلاكوف ، بعد أن أعفي من منصبه هو الآخر ، الى ملكه على مقربة من موسكو حاملاً معه ألقابه الفخرية مثل كبير أساتذة البلاط وعضو مجلس الامبراطورية . وخلفه في وزارة الداخلية الكسيس نيقولايفيتش خفوستوف ، النائب اليميني المتطرف ، وعضو حزب المئة

السود. وحل الجنرال بولينانوف ، المتمتع بالكثير من الشعبية في الجيش والأوساط الليبرالية ، على رأس وزارة الحربية محل سوخوملينوف ، المتهم بالخيانة . وقد استقبل الحلفاء بمرارة رحيل سazonوف ، وزير الخارجية .

وخاب قال الأمير اوجين لفوف ، رئيس الزيمستفويات ، والعديد من اعضاء هذه المنظمات بهذا التغيير السياسي الذي يؤكد صعود نفوذ طغمة راسبوتين ، فذهبوا الى ستافكا ليقترحوا على القيصر إجراء تغيير سياسي عميق . لكن نيقولا رفض استقبال « وفد تتجاوز مهمته نطاق وظيفته » .

ولإزاء فشل خطوة الأمير لفوف تأكد للبورجوازية صحة تفكيرها باستبدال نيقولا الثاني بابن عمه نيقولا ميخائيلوفيتش . وهكذا عادت موسكو تتأمر ضد بيتروغراد . وعقدت اجتماعات سرية لدى التاجر الغني التقدمي أ . كونوفالوف ، حضرها كل من الكسندر كيرنسكي ، وملك السكر تيريشتنكو ، وعضو حزب الكاديت نكراسوف ، والنائب التقدمي ايفريموف .

في اواخر ١٩١٥ زار القيصر - كبير الجنرالات الجبهة . وكان آلاف من اللاجئين ينزحون على الطرق المتجمدة . وكانت النيران تفتس مناطق بأكملها . وقد سقط ميونا نسمة بين قتيل وجريح . وبقي لروسيا ستمئة وخمسون ألف بندقية . وتحلل الجيش وتفسخ كما تشهد على ذلك رسائل المحاربين :

« ... الطقس بارد . القذارة في كل مكان . الطفيليات تفترسنا ... الطعام لا يقدم لنا إلا مرة واحدة في اليوم ، في الساعة العاشرة مساء ، علاوة على انه لا يعدو ان يكون اكثر من قصعة من العدس الأسود يأنف الخنزير من اكلها ! ... ان الهيجان شديد هنا بين الجيش . يكفينا ما رأيناه حتى الآن من الحرب . لقد صدرت لنا الأوامر عدة مرات بالهجوم ، لكن الجنود لا يخرجون من الخنادق ، ولا يريدون ان يعرفوا شيئاً . وهذا ما جعل

القيادة تعدل عن الهجوم ... » .

وراح الجنرال انطوان ايفانوفيتش دينيكين ، ابن ضابط صف وعاملة ، المرقى الى رتبة كولونيل في القتال ضد اليابانيين ، والمبرز في معارك غاليسيا في عامي ١٩١٤ و١٩١٥ ، يندب حظه وحظ بلاده : « لقد تناسينا ، من خلال لغط الخطب الوطنية عن الدين وقصر والوطن ، المعادة المكررة الى ما لانهاية في ارجاء روسيا الاربعة ، نسينا العيب العضوي الملازم للشعب الروسي : قلة الوطنية » .

(٢٩)

قرر الجنرال يودينيتش ، متجاوزاً رأي الدوق الكبير نيقولا ، ان يهاجم حصن إرزيروم المشهور بمناعته والذي يحتمي فيه الاتراك خلف ثلاثة خطوط من التحصينات . وفي ١٢ شباط ١٩١٦ ، بدأ يودينيتش هجومه تحت وابل من نيران المدفعية ، وفوق ثلاثة امتار من الثلج . وفي ١٦ شباط كانت الاعلام الروسية تخفق فوق جميع الابراج . وكان النبأ مفاجئاً حقاً حتى ان الامبراطور طلب إعادة توكيده برقياً .

لكن الدعاية البلشفية شنت ، مستغلة صدوع النظام ، هجوماً مظفر على المصانع وفي أوساط الجيش واعادت البروليتاريا ، المتحررة من خرافة الاتحاد المقدس ، المتشككة في الاحزاب الاشتراكية التي ربطت مصيرها بالبورجوازية بخوضها الحرب معها ، الظمئة الى السلم ، أعادت اكتشاف ذلك الذي لم يتغير قط والذي يقترح ويعد بما يتمناه الشعب اكثر من اي شيء آخر اليوم : النبي لينين .

ان الشعب لا يعرف شيئاً عنه ، ويجهل حتى قسما وجهه . إذ ان لينين دلف الميتولوجيا الشعبية وهو غائب عن الوطن . لكن عمله حافل بالوعود . وشمس الحقيقة التي كان يعد بها القيصر توشك ان تغرب . وظل

الغائب يتناول ويرسم على البلاد. والمواقع التي خُسرت في البداية قد أُسردت. وبقي لينين وفياتاً لأسلوبه: رجل قصير القامة متواضع الملبس، خطيب لا يجب الفخامة في الكلام، ناثر بعيد عن الرومانسية، متقشف وبسيط، ناذر نفسه لمثل أعلى ووطيد الصلة بالواقع، عدو للعنف العقيم، رجل تكتيك بارد الأعصاب صاحبي الذهن. وهو يشعر باقتراب الساعة التي لن يعود يعتبر فيها «خائناً» للوطن، لأن وطنه الذي لا حدود له هو الاشتراكية. ان وطنه يريد ان يكون وطن الشعوب الحرة، في حين ان وطن القيصر هو سجن الشعوب...

وقررت الحكومة، مكافحة منها لتصاعد الوعي البروليتاري الطبقي، أن تجيِّش المصانع مهددة المشاغبين بإرسالهم الى الجبهة. وكان رد مصنع بوتيلوف، معقل اليساريين، ان اعلن التوقف عن العمل. وقرر عماله أن يجعلوا من يوم الذكرى السنوية الاولى لمحكمة النواب البلاشفة الخمسة يوم عصيان وتمرد. لكن الشرطة عرفت بالأمر واعتقلت القادة وفرضت تسريح قسم من العمال. فأعلن الاضراب ثمانية وثلاثون مصنعاً تضامناً.

وفي الطرف الآخر من اوروبا دعا لينين، الذي فرغ صبره الثورين الى كيينتال، القرية السويسرية الصغيرة التي لا يعكر صفوها غير خريبر جدول جبلي. وكان فلاديمير ايليتش يتنزه بعصية في تلك القرية مردداً بقوة استنتاجات مؤتمر زيمروالد:

— لا يكفي ان يكون المرء ضد الحرب، بل ينبغي ايضاً ان يكون مع الثورة.

لكن تصميمه هذا اثار خوف معظم مخاطبيه الذين كانوا يفضلون التمهّل. لكن لينين رد بقوله:

— ان التصلب يؤدي الى كل شيء بشرط معرفة التراجع عنه في الوقت

المناسب.

ولم تكن كروبسكايا شديدة التحمس عند انتهاء مناقشات كيبيتال .
وقد كتبت الى شليابينيكوف : « كانت هناك ثرثرة كثيرة ، ولكن لم تكن
هناك وحدة داخلية » .

*

في الغرب هزم النمساويون قوات فيكتور – عمانوئيل . وطلبت روما
من ستافكا أن تعاود الهجوم حسبما تنص على ذلك اتفاقيات شاتي لتخفيف
الضغط على الجبهة الايطالية . وكلف نيقولا الثاني ورئيس هيئة أركانه
الكسيس ، الحريصان على الحفاظ على هيبتهما لدى شركائهم في التحالف ،
الجنرال الكسيس الكسيسيفيتش بروسيلوف بشن هجوم لاخترق الجبهة
الجنوبية الغربية . وكان بروسيلوف رجلاً ذكياً ، مثقفاً حازماً ، قوي
الشكيمة ، متميزاً عن سائر الجنرالات القيصرين :

– ان الجيش اسرني . ولن أنفصل عن الشعب الروسي . وسأبقى معه
مهماً حدث .

ووضع بروسيلوف كل نبوغه وكرامته في تنظيم الهجوم على النمسا –
المجر . وفي ٤ حزيران ١٩١٦ وجه اربعة فيالق الى غاليسيا وبوكوفين حيث
استولت كتائب الفرسان ، المقاتلة بالسيف والرمح ، في مدى بضعة ايام
على موقع بورخوف المحصن . وتم الاستيلاء على كل اقليم بوكوفين وأسر
خمسمئة ألف نمساوي – مجري .

وكان يعمل تحت إمرة بروسيلوك الجنرال دينيكن الذي كان يتشكى
من قلة وطنية الشعب الروسي ، والجنرال الكسيس مكسيموفيتش كاليدين ،
وقد قاتلا كالأسود .

ونجح أسد آخر ، لافر كورنيلوف ، سُم من حياة الأسر في الهرب . فقد
اجتاز بلاد الأعداء متكرراً في إهاب جندي نمساوي ، ووصل الى روسيا
عن طريق رومانيا . وقد منح كورنيلوف لقب بطل قومي ، وقتلده القيصر

بنفسه وساماً ، وعينه قائداً للفيلق الخامس والعشرين .

وفي الخطوط الاولى قتل احد الجنود بمفرده اربعة جنود ألمان ، قبل ان يسقط ارضاً مصاباً برصاصة في ساقه . انها ماريا بوتشكاريفا ، المرأة المجندة الوحيدة وقد نقلت الى احد المستشفيات في موسكو ، ثم اعيدت الى الجبهة بعد حوالي شهر لتصاب من جديد بجرح خطير في العمود الفقري بفعل شظايا قنبلة مدفع .

واثار بروسيلوف حمية رجاله ، وقاد جيوشه في سبعة هجومات متتابة . لكن شروط القتال بقيت بالغة الصعوبة . فمقابل كل ثلاث فرق مسلحة ، كانت هناك فرقة رابعة غير مسلحة . وكانت جميع الجبهات تعج بجنود مصنفين يتسلحون في ميدان القتال كلما سقط رجال الفوج السابق . وفي آب توقف القتال بسبب نفاذ الذخيرة ، وأمر بروسيلوف جيوشه بالانسحاب من سفح الكاربات . وتركت للعدو المئة كيلومتر التي كانت قد أخذت منه . وبقيت معركتا إرزيروم وغاليسيا نصرين لا ثالث لهما بالنسبة الى روسيا . لكن فرنسا ، المعترفة بحميل بروسيلوف الذي خفف الضغط عن جبهة فيردون ، قلّدته أرفع الأوسمة .

*

توقف في ستوكهولم الكسندر ديمتريفيتش بروتوبوبوف نائب رئيس الجمعية الوطنية وعضو وفد الدوما البرلماني الى البلاد الخليفة ، المولود في سيمبرسك مثل لينين وكيرنسكي ، توقف فيها ليجتمع سراً بالصيرفي الألماني واربرغ ، المكلف بحس النبض حول شروط صلح منفرد . وقد اجرى النائب هذه المفاوضات لحساب راسبوتين الذي أراه راحة يده عندما استقبله قائلاً :

— وهنا تكمن السلطة الآن .

وبعد بضعة ايام ، في ايلول ١٩١٦ ، عين بروتوبوبوف وزيراً للداخلية

خلفاً لـحفوستوف .

*

خريف ١٩١٦ . الهدوء مخيم على الجبهة . الجنود ما عادوا يطلقون النار عندما يلمحون جنود العدو .

— هذا ما يفعله النمساويون ايضاً . انهم يصيحون بنا أحياناً : ايها السادة انهما الحرب ! وكثيراً ما ندعوهم الينا ، وهم يدعوننا ايضاً . لقد أصبح التآخي واقعة غير مستغربة .

— ... وصلت الأمور الى حد بتنا معه نتقايض أشياء مختلفة : نعطي خبزاً وسكراً ، ونأخذ سكاكين وأمواس حلاقة .

وفي الخنادق كان الجنود ينشدون أغاني من تأليفهم فيها اقلدع الهجاء لضباطهم .

وفي فرنسا نشر هنري باربوس رواية « النار » . وكتب الضابط الشاب بول فايان — كوتورييه :

— ايه رؤسائي ، ألا ما اشد ما سيكون خوفكم لو علمتم بما اكنه لكم في سريرتي !

وتلافياً لنقص السلاح اصدرت هيئة الاركان الروسية أوامرها بتسليح بعض الفرق بالفؤوس . لكن الضباط أخفوا البلاغ خشية المزيد من الانحطاط في معنويات الوحدات . وكان الجنود يتقصدون نقل عدوى مختلف الأمراض الى اجسامهم عن طريق البغايا ، او يشوهون أطرافهم ، أملاً بالتملص من الحرب .

ولم يتوصل رجال اليمين من امثال فلاديمير بوريشكيفيتش الذي جهز قطار إسعاف على نفقته واخذ يتنقل به بين الجبهات تحت نار العدو ناقلاً الأدوية والاطعمة ، الى تجهيز جنود الامبراطورية تجهيزاً لائقاً . وقد لاحظ

بروسيلوف أن عدداً كبيراً من الجنود محروم من الخبز في حين ان معظم السكان المدنيين يتعلونها ، وهذا معناه ان الجنود يبيعونها ... كما تقلصت وجبة الخبز اليومية الى ليرتين في ساحات القتال والى ليرة ونصف ليرة في المؤخرة .

وكان الفلاحون المجندون يسرون في غالب الاحيان حفاة فوق الثلج ، خاوية امعاؤهم ، بلا ذخيرة .

وآنذاك بدأت تلوح في الافق تبشير الانتصار الكبير الاول للمتطرفين ، الانتصار الذي ترتعد منه فرائص السلطة اكثر من اي شيء آخر : الفرار الجماعي الممجد من قبل البلاشفة . فقد ترك الآلاف ومئات الآلاف من الجنود المتسخين ، المشعثي الشعور ، الجبهة ليتوجهوا نحو الثورة .

(٣٠)

في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٦ قرع باب تروتسكي في باريس شرطيان :
— لقد صدرت بحقك مذكرة طرد من الأراضي الفرنسية . وقد كلفنا بمرافقتك الى الحدود الاسبانية .

وتدخل عدد من النواب لدى آرستيد بريان ، لكن رئيس الوزارة الفرنسية لا يستطيع شيئاً لـ « الريشة » المتهم هو وصحيفته « كلمتنا » بالتحريض على عصيان حدث على ظهر سفينة روسية راسية في مارسيليا .

وقد وجه تروتسكي ، المطرود بناء على طلب سفير بلاده ، رسالة قاسية قبل رحيله الى الوزير الاشتراكي جول غيد :

— انزل من سيارتك العسكرية . أجل الطرف حولك ، علك تسمع الصوت الأصم للأحداث التي تقترب ...

وفي سان سيباستيان ثم في مدريد زار تروتسكي المتاحف بانتظار جواز سفر الى ايطاليا . ولكنه اعتقل اثناء اجتماع رياضي واقتيد تحت الحراسة

الى قادش حيث امضى ستة اسابيع يرغي ويزبد ضد الاسبانيين . وفي النهاية انضم اليه رفيقته وابناه في برشلونة حيث اقلعوا بحراً الى اميركا . وابتعد تروتسكي عن اوروبا العجوز الدنيئة .

في أروقة قصر توريد كان اغنى رجل في البلاد ، الامير فيلكس يوسوبوف ، يتسكع بانتظار جلسة الدوما التي يدل كل شيء على انها ستكون صاحبة جداً . فمنذ بضعة ايام تسري الشائعات بأن بعض النواب ينون مهاجمة بطانة الأسرة الامبراطورية جهاراً . وكان من بين النواب الذين طلبوا الكلام النائب اليميني المتطرف فلاديمير بوريشكيفيتش الذي كان من المنتظر ان يكون اكثر الخطباء عنفاً . وعبثاً حاولت الكسندرا فيودوروفنا ان تضغط على نائب حزب المثة السود عن طريق والدة صديقته المفضلة ، السيدة فيروبوفا :

— ان الامبراطورة تسألك ، يا سيدي ، ألا تتكلم عنها في البرلمان .
فالشعب لا يحبها اصلاً كثيراً ...

ولكن بوريشكيفيتش قاطعها قائلاً :

— انت مخطئة يا سيدي ، فالشعب يمجتها .

كان راسبوتين قد بدأ يتعاطى السكر علناً وجهاراً . وقد خرج ذات مساء من مقصورة خاصة في فيلا دودي ، المطعم المشهور ، مضطرب الثياب الى درجة ان مدير المطعم اضطر الى لفت نظره . فهتف به الراهب :

— ماذا تظن ؟ انني أظهر هكذا امام الأم الصغيرة ، القيصرة . اذن دعني وشأني أنت ودكانك القدرة .

وقد تدخل بعض الضباط الحرس وضربوا الراهب المزيف الكلي القدرة ضرباً مبرحاً .

وافتح الرئيس رود زيانكو جلسة ١٣ تشرين الثاني ١٩١٦ في قصر

توريد امام قاعة مكتظة . واعطيت الكلمة للنائب بول ميليوكوف الذي استنبط من التاريخ الاسباب التي تدعو الى القلق من سياسة آل رومانوف الراهنة . ومن اعلى المنبر اقترف اول جريمة بحق الذات الملكية ، وهاجم اعضاء البطانة قائلاً :

– ما هناك ؟ أعباء أم خيانة ؟

وزاود عليه التقدمي شولفين ، ثم اطلق فلاديمير بوريتشكفيتش السهم الناري :
– يجب ان نستأصل شأفة الفاسق وكل الفاسقات مهما يكن مركزهن عالياً .

واستقبلت هذه الدعوة الجريئة بتصفيق محموم ، لكن الرئيس رودزيانكو قاطعه قائلاً :

– ايها النائب بوريشكفيتش ، اني ادعوك الى إدراك معنى كلماتك .
فأجابه الخطيب :

– اني أعي الكلام الذي يصدر عني .

وفي اليوم التالي ، ١٤ تشرين الثاني ، تدخل مقص الرقيب على نطاق واسع وظهرت الصحف بأعمدة بيضاء . وكان بوريشكفيتش في شقته عندما اعلن له الحاجب عن زائر يود مقابله .

انه اغنى اغنياء روسيا ، الامير يوسوبوف ، نسيب القيصر ووريث الأمراء التتار :

– لقد تكلمت بالأمس عن استئصال شأفة الفاسق ، من فوق منبر الدوما . فهل تنوي يا سيدي ان تضع كلماتك موضع تنفيذ ؟

– اذا ما اتاحت لي الامكانية ، فسأفعل ذلك .

– اذن تعال الى قصري غداً . سوف ندرس المسألة دراسة جدية .

وسوف يكون معنا احد اعضاء الأسرة المالكة .

*

كان جلسة الدوما وقع كوقع الصاعقة في تساركوي- سيلو . وتحت تأثير راسبوتين زجت الأسرة المالكة الامبراطورية في سياسة اكثر رجعية ايضاً ، مستبدلة كلبها الأمين بوريس شتورمر بسياسي يوقظ اسمه اصداء الماضي المفجعة : الكسندر فيودوروفيتش ترييوف ، ابن الجنرال القاسي القلب ترييوف الذي جرحته فيرا فغز في عام ١٨٧٨ ، وشقيق ديمتري ترييوف ، حاكم سان- بيترسبورغ العام الذي أصدر اثناء ثورة ١٩٠٥ الأمر المشهور : « لا توفروا الخراطوش » .

وعندما اعلن ترييوف الثالث من منبر الدوما ان الاتجاه السياسي لن يتبدل ، قوبل بالصفير .

وضاعف الملكيون من تحذيراتهم . وقدمت اليزابيث ، التي سقط زوجها الدوق الكبير سيرج ، على مرأى منها تحت ضربات الاشرائيين - الثوريين ، الى موسكو لتتوسل عبثاً الى اختها بالتخلي عن القوى الغاشمة التي تحيط بها . ولن تلتقي الأختان هيس مرة اخرى وسوف يكون مصيرهما واحداً .

وكتب الدوق الكبير نيقولا ميخائيلوفيتش الى ابن عمه نيقولا :

« هل تعتقد بأن من الممكن في ظروف البلاد الراهنة لإنهاء هذه الحرب بالظفر؟ هل تعرف وضع الأشياء الحقيقي ؟ تخلص من شبكة العنكبوت التي تجسبك . أنقذ ، قبل فوات الأوان ، عرشك ، والبلاد من داهية » .

ولما ادركت النبالة انه ما من التزام يمكن ان يحرر الأسرة المالكة من السحر الواقعة فيه ، اجتمعت في اواخر عام ١٩١٦ في مؤتمر استثنائي في بيتروغراد ، بحضور فلاديمير بوريشكيفيتش والأمير كوراتين ، الوطني الكبير الذي تولى رئاسة الاجتماع :

— إلام صار رئيس مستشاري البلاط ، الامير فلاديمير اورلوف ؟
— ابدى آراء معادية لراسبوتين واضطر الى مغادرة المدينة .
— اين هما آنتا البلاط اوربلياني وتوتشيفا ، وصيفتا الدوقات الكبيرات ؟
— تجرأنا على التصريح بأن الراهب يأتي مساء لحماية نوم الأميرات ،
فطردتا .

ومن هذا المؤتمر ولدت « مؤامرة كانون الاول » الهادفة الى الإطاحة
بالقيصر لصالح مجلس وصاية ، وحظيت بموافقة الدوق الكبير نيقولا
ميخائيلوفيتش . وكان للتنازل انصار مكشوفون ، ومن بينهم قادة الجيش
الرئيسيون الكسييف وبروسيلوف وروسكي وغوركو وكريموف ، والأمير الان
كولتشاك ونيبينين ، لكن عين وزير الداخلية بروتوبوبوف كانت ساهرة .
وقد نفي الدوق الكبير نيقولا ميخائيلوفيتش الى اقليم خيرسون على البحر
الأسود .

واستغل السفير الانكليزي جورج بوكانان ، الواسع النفوذ في البلاط ،
فرصة التهاني بالعام الجديد ليفتح القيصر بمخاوف بلاده :
— أشرك ممثلي الشعب إشراكاً اكبر في الحكم .

— تقول لي ، يا سعادة السفير ، ان علي أن أستحق ثقة شعبي . أليس
عليه هو بالأحرى ان يستحق ثقتي ؟

ومن ذلك اليوم لم يعد نيقولا الثاني يستقبل الدبلوماسي البريطاني إلا
برسمية بالغة ، ليظهر له ان زمن الأحاديث الودية بغير كلفة قد ولى .

*

في مقر هيئة الاركان العامة في موغيليف أستقبل القيصر اثناء غياب
الجنرال الكسييف من قبل مساعدتي هذا الأخير ، الجنرالين بروسيلوف
وباسيل جوزيفوفيتش غوركو . وفي فيلق هذا الأخير كانت ماريا بوتشكاريفا

الشجاعة قد استقبلت بحماسة بعد ان برئت من جرحها في العمود الفقري . لكنها سرعان ما وقعت في الأسر على نهر ستيسر ، ونظمت تمرداً في معسكرها ساعد الروس على الاستيلاء على المواقع الألمانية . وبعد ذلك بقليل سرقت جهاز استماع وفرت مع الأسرى .

وقد أمر القيصر بمنحها الصليب الذهبي من الدرجة الاولى . ولكن ملحمة بوتشكاريفا لا تعدو ان تكون اكثر من نادرة في الجبهة التي تنهار من كل مكان . فقد بلغ عدد الفارين من الجنود مليوناً ومئتي ألف !

وكما جرت العادة افتتح مجلس الأركان العامة بمأدبة غداء أقامها الامبراطور - كبير الجنرالات . وبعد انتهاء هذه المأدبة بدا السأم على نيقولا وراح يتشاب بشكل متواصل . ولم يتوصل غوركو إلى إثارة اهتمامه بالاستعدادات لحملة السنة الجديدة . واثناء ذلك وصل احد الضباط وحيا القيصر وخاطبه بصوت خافت ثم نهض نيقولا واختتم جلسة المجلس قائلاً :

- ان نبأ رهيباً يزعمني على العودة الى تساركوي - سيلو فوراً .

ولاحظ بروسيلوف في مذكراته : « ان سفينة الدولة هي الآن رهن العاصفة ، بلا قبطان وبلا دفة » .

(٣١)

فور رحيل القيصر علم بروسيلوف وغوركو بأسباب استدعائه على عجل الى تساركوي - سيلو . فراسبوتين ، الراهب الملعون ، غريغوري المعصوم المقرب الى قلب الامبراطورة الكسندرا ، لم يعد من هذه الدنيا .. وقد انتشلت جثته الثقيلة والمشوهة من تحت جسر بيتروفسكي ، في أحد مجاري النيفا .

عندما وصل فلاديمير بوريشكيفيتش في ١٥ ايلول ١٩١٦ الى قصر يوسوبوف وجد نفسه ، كما وعد ، بحضرة احد افراد الأسرة الامبراطورية :

الدوق الكبير ديمتري بافلوفيتش . ان ديمتري ، الذي نجا بأعجوبة من قبلة كالايف اثناء ذهابه الى مسرح البولشوي مع ولي أمره الدوق الكبير سيرج ، ديمتري الذي اقسام قبل عامين من الزمن امام ابن عمه الامبراطور قسم الوفاء لآل رومانوف ، ديمتري هذا كان موجوداً في قصر يوسوبوف للمشاركة في الاجتماع التاريخي . وقد تم الاتفاق على ان يجري التنفيذ في قصر يوسوبوف نفسه ، وعلى ان يقدم نائب الكاديت باسيل ماكلاكوف والدكتور ستانلاس دي لازوفير قارورة سم ومقرعة . وقد وصف فلاديمير بوريشكيفيتش تلك الليلة الحارقة على النحو التالي :

« تقرر ان تنفذ العملية في مساء ٣٠ كانون الاول ١٩١٦ . وفي الساعة المحددة ، ومن مدخلين مختلفين وصلت انا والدوق الكبير ديمتري ، كل منا على حدة ، الى قصر يوسوبوف حيث استقبلنا الأمير . وقد قادنا الى حجرة تقع فوق بهو صغير في الطابق الارضي ومتصلة به بدرج معكوف يطل على الحديقة . وبعد ذلك ذهب ليأتي بـ « الرجل القديس » . وقد بدا لنا الانتظار وكأن لا نهاية له . واخيراً سمعنا اصواتاً وخطى في الطابق السفلي . لقد وصل راسبوتين . وان هي إلا بضعة لحظات حتى يكون كل شيء قد انتهى .. وانصرفت عشر دقائق ، ربع ساعة ، وعشر دقائق اخرى ... وصعد الأمير ليرانا . كان كل ما فيه يعبر عن بالغ دهشته . وقال بصوت مخنوق :

— اني لا افهم . لقد احتسى كأساً من النبيذ واكل قطعتين من الكاتو ومع ذلك لم يحدث له شيء . ما معنى هذا ؟
فنصحته قائلاً :

— تابعوا . لا بد ان يفعل السم فعله في النهاية .

فقال يوسوبوف :

— انه يطلب زوجتي . وقد صعدت الى هنا بحجة الاتيان بها ، وقد

قلت له انها تستقبل بعض الضيوف . أحداثا ضجة حتى يعتقد ان هذا صحيح .
في احدى زوايا الغرفة كان هناك حاك صغير وعليه اسطوانة . فشغلناه .
وبدت لنا الموسيقى الخناء في غير محلها . ونزل يوسوبوف من جديد . ولا
ادري كم مرة شغلنا الاسطوانة نفسها قبل ان يعاود الصعود . وكان وجهه
منهاراً تماماً ، وقال :

— اربع قطع اخرى من الكاتو وكأس اخرى من النبيذ . لا شيء ...
انني عاجز عن الفهم .

— هل يفعل السم فعله ببطء شديد ؟

— كلا ، على العكس ، فقد كان يفترض ان يكون صاعقاً... والآنكى
من ذلك انه بدأ يرتاب في شيء ما ، فهو يريد الذهاب .
وسأل الدوق الكبير :

— أليس هناك أي عرض من أعراض التسمم ؟

— من حين الى آخر يفرك معدته ، هذا كل شيء .

واتجه الامير نحو الدرج ثم استدار فجأة :

— استمعا الي ايها السيدات — لم يبق هناك من حل إلا ان نقتله
بمسدس . فإذا لم تسر الأمور على الوجه المطلوب ، استدعيتكما :

فقلت له ، وانا أناوله مسدسي :

— خذ مسدسي ، انه من نوع سافاج .

— لا ، شكراً ، لدي براونينغ صغير .

خمس دقائق اخرى من الانتظار . كانت الاسطوانة ، عينها ، ما تزال
تدور . صوت عيار ناري ، وصوت جسم يقع ...

وعاود الأمير ظهوره وعلى وجهه علامم الظفر ، وصاح :

— لقد مات . انزلا بسرعة !

كان راسبوتين منبطحاً ارضاً بلا حراك ، وجزء من جسمه تحت الطاولة :
وأفسحنا مكاناً ومددناه . وغطاه احدهم بلحاف .

وغادرنا الدوق الكبير مع الطبيب الفرنسي لازوفير^(١) حاملاً معطف
راسبوتين المبطن بالفرو ليحرقه في احدى عربات قطاري الصحي . ثم خرجنا
نفتش عن ائقال . انني لا اذكر بالضبط ما كنا نفعله . فبعد ذلك الانتظار
الطويل المضني كنا كلنا في حالة من الهياج الشديد . كنا نتصافح ونهنيء بعضنا
بعضاً بأننا خلصنا الوطن من الوحش الذي كان يعمل على خرابه . وفجأة
سمعت صوت الأمير يستدعيني . وما هي إلا طرفة عين حتى رأيتہ ينقض
نحوي ، وفي حالة لا توصف ! انه لم يعد الرجل نفسه : العينان شاردتان ،
الشعر أشعث ، المشية مترنحة ، كالكسكير .

— بوريشكيفيتش ! بوريشكيفيتش ! إنه لم يمت ! انه يهرب ، انه
يهرب !

بقفزة واحدة كنت عند مدخل البهو الصغير . لم يكن راسبوتين حيث
تركناه وكان باب الدرج مفتوحاً على مصراعيه . فاجتزت عتبه : كان
راسبوتين يهبط الدرجات متسنداً بالدرايزون . وكان يبدو تحت نور الدرج
الخافت اشبه بسرطان ضخم . ونزلت الدرج اربع اربع في إثره . وعندما
وصلت الى الحديقة كنت أمسك بمسدسي في يدي ، لكن الوحش كان متقدماً
علي وينقض بكل سرعة نحو البوابة الكبيرة . ولم تكن قد اغلقت بعد ذهاب
الدوق الكبير ...

أطلقت طلقتين متتابعتين ، وأخطأته . واستدار وصاح بي وقد حسبني

(١) كان الدكتور ستانلاس إيتين دي لازوفير يعمل في قطار بوريشكيفيتش الصحي .
وهو الذي مزج بالسم الكاتو الذي اكل منه الراهب . والدكتور لازوفير يعيش الآن في باريس
وقد صرح لنا : « منذ خمسين عاماً وأنا ارفض الكلام عن هذه الجريمة . ولعلي سأنشر وثائق
بعد موتي » .

الأمير يوسوبوف :

– فيلكس ، فيلكس ، سأروي كل شيء للامبراطورة !

فصحت به بدوري :

كذاب . لن تروي شيئاً . انا لست فيلكس ، اني بوريشكيفيتش .
فأخذ يعدو بسرعة اكبر . وتوقفت . وحتى أستعيد حواسي ، عضضت
يدي حتى الدم . وضغطت على الزناد ... وانهار الوحش . اقتربت منه وأطلقت
رصاصة أخيرة على رقبتة . ثم ركلته بقدمي بقوة في رأسه . كان يتلوى وسمعت
صريف أسنانه ...

وفي تلك اللحظة ظهر يوسوبوف وفي يده الدبوس . وكان يردد اسمه
الشخصي مذهولاً : فيلكس ... فيلكس ... فيلكس !
فقلت له :

– لقد انتهى الأمر . لقد مات فعلاً وحقاً هذه المرة .

ومن غير ان يستمع إلي انهال الأمير ضرباً بالدبوس على الجثة ، وبخاصة
على هامتها . وأنبرت نوافذ القصر وهرع الخدم من كل صوب . فقلت لهم
وأنا اشير الى الأمير :

– خذوه . لقد خرج عن طوره وما عاد يدري ما يفعل .

وبعد جهد ولأني فصل يوسوبوف عن جثة راسبوتين . واقتيد الى الحمام
حيث رش بالماء البارد . كان يهز رأسه ويتنفس بصعوبة ولا يكف عن التردد
– فيلكس ... فيلكس ... فيلكس !

وشيناً فشيناً استعاد رشده . وقيل له ان احد رجال الشرطة قدم الى
القصر ويريد ان يحدثه . فقلت له :

– انتظر . لا بد ان ذلك بسبب العيارات النارية في الحديقة . دعني اكلم
هذا الشرطي .

وذهبت وسألت الشرطي :

– هل تعرفني ؟

– اجل ، يا سيدي .

– من أنا ؟

– النائب بوريشكيفيتش .

– قل لي ، هل تحب روسيا والقيصر ؟

– اجل ، يا سيدي .

– هل تحب راسبوتين ؟

– ليس كثيراً ، يا سيدي .

– حسناً ! اعلم اني قتلت راسبوتين . ولكن لا تخبر احداً بذلك .

تستطيع الانصراف .

والأرجح ان الحكومة علمت بعد بضع ساعات من هذا الشرطي بالذات
بنهاية راسبوتين وبأسماء جميع المتآمرين . وكان ما يزال علينا ان نخفي الجثة .
وعاد الدوق الكبير ديمتري من المحطة وهو ما يزال حاملاً المعطف المبطن
بالفرو ، وقال لنا أن حرقه مستحيل لكبر حجمه . ودثرنا الجثة بالفرو وقيدناها
بالسلاسل وربطنا بها الأتقال . واختلفنا تفسيراً رسمياً لل عبارات النارية في
الحديقة . فالأمير يوسوبوف قد صرع أحد كلابه ، لا أكثر ولا أقل ! ثم
وضعنا جثة « الرجل القديس » في السيارة الفرنسية دولوناي التي يخفق عليها
علم الدوق الكبير ديمتري ، وانطلقنا بها أنا والدوق الكبير نحو مصب النيفا .
ووجدنا فتحة في الجليد على مقربة من جسر صغير ورمينا بالجثة منها . وبعد
ان اختفت لاحظت ان فردة جزمة راسبوتين بقيت في السيارة . فألقيت بها
في الماء ، لكنني أخطأت الهدف وعلقت الجزمة بأحد أعمدة الجسر . وقد تم
فيما بعد العثور على موضع الجثة بفضل هذا الدليل . وعندما انتهى كل شيء

كانت عقارب الساعة تشير الى الثامنة صباحاً وكان النهار قد اخذ يطلع .
وذهبت لتناول الشاي لدى والدتي ، ثم ذهبت الى مقر الصليب الأحمر ،
ثم الى قطاري لأستقبل فيه وفداً من النواب . ومن ثم رحلت الى الجبهة ... » .
وفي منتصف الطريق بين بيتروغراد وتساركوي - سيلو ، في كنيسة
فيديوفسكي سوبور الصغيرة ، دفن راسبوتين في احتفال رسمي وقد ألبس
جثمانه بنظالاً من المخمل الأسود وسترة روسية ، ولم تحضر زوجته وأولاده
مراسيم الدفن بناء على أمر القيصرة . وقد حمل نيقولا الثاني بنفسه التعش .
وصدرت الاوامر الى ديمتري ويوسوبوف بمغادرة العاصمة الى الريف . ثم
نفي الدوق الكبير الى بلاد فارس ، فأقلت بذلك من مصير آل رومانوف
المفجع . ولم يعتقل القتلة قط . وامكن لباسيل ماكلاكوف ان يحصل على
قارورة السم والدبوس . وقد انتابت وزير الداخلية بروتوبوبوف نوبة
هستيريا في حضرة الامباطورة ، وادعى ان روح راسبوتين قد تقمصته ،
أقرب الناس الى الأسرة المالكة .

في عام ١٩١٦ ، ومن خلال الصخب الأصم للأحداث التي كانت نذرها
تلوح في الأفق ، انطفأت امرأة في صمت .

فقد قضت ماريا الكسندروفنا اوليانوفا ، والدة لينين ، نجحها عن عمر
يناهز الحادية والثمانين ، في بيت كبرى بناتها آنا ايليزاروفا اوليانوفا ، في
بيتروغراد . وقد دفنت سراً تقريباً في مقبرة فولكوفو ، بجانب ابنتها اولغا
وكان ابنها قد كتب اليها من منفاه البعيد في رسالته الاخيرة : « اني .
قلق على صحتك . آمل أن يدفأ الطقس وان تستريح بعد الشتاء » .

وكانت ماريا اوليانوفا ، والدة ثوري مشنوق وثوري منفي منذ ٢٠
عاماً ، قد دفعت ، حتى آخر لحظة من حياتها ، بالأمها ثمن آمال ابنائها ،
من غير ان تشهد مجدهم الذي بات على الأبواب .

شوارع العاصمة تعج بالموكب والعربات الفخمة . وفي مسرح ماريا ، المطلي باللونين الازرق والذهبي ، وقفت بافلوفا وكشسناكيا تحيان جمهوراً وضاء بالذهب والمجوهرات . وفي الفنادق الخاصة اقيمت حفلات رائعة . وغيرت بيروغراد لونها فعاتت سان - بيترسبورغ لتستقبل ممثلي الدول الحليفة المكلفين ببحث الروس على بذل جهود جديدة في الجبهة الشرقية . ولكن اللورد ملر والسير هنري ويلسون عن انكلترا ، وغاستون دوميرغ ، وزير المستعمرات ، عن فرنسا ، والمركيز سيالويا عن مملكة ايطاليا ، لم يخدعوا بالأبهة ، وهم أدري الناس بأن الروس أخرجوا اجمل آيتهم الذهبية والفضية واقاموا ابذخ المآدب حتى يججبوا عنهم مصاعبهم . وقد سار السير هنري ويلسون السفير الفرنسي مورييس باليولوغ بقوله :

— اننا نضجع وقتنا .

ولم يخف بول ميليوكوف وباسيل ماكلاكوف عن دوميرغ حقيقة انه لا بد ان يتغير شيء ما في روسيا . لكن الشيء الوحيد الذي تبدل في تلك الايام الاولى الباردة من عام ١٩١٧ الرهيب هو رئيس الوزارة . فقد اقنع وزير الداخلية بروتوبوبوف ، المتقمص روح راسبوتين ، الامبراطور بالاستغناء عن خدمات الكسندر ترييوف المستبد بنفسه ، وباستبداله بالأمير ن . د . غولتزين ، مستشار الدولة السابق ، الشيخ المرن العاجز عن الأذى ، سليل أسرة ليتوانية أنشأها ايفان الرهيب .

حاول اجتماع ممثلي الحلفاء ان ينسق استراتيجية شاملة ، في الوقت الذي استأنفت فيه ألمانيا حرب غواصات لا تعرف الشفقة مهاجمة الأسطول التجاري للولايات المتحدة الاميركية التي كانت ما تزال تقف خارج النزاع ولكن التي كانت تنظر بأسف وغضب الى بضائعها تتكدس في الموانئ ، والى مراكبها لا تبرح الأرصفة ، والى ازدهارها يوشك ان بأفل .

واكد موريس باليولوغ لغاستون دوميرغ :

— علينا أن نستعد لانزهاج حليفتنا الروسية وان نتوقع النتائج .

والحقيقة التي خفيت عن ضيوف بيتروغراد هي ان نساء الشعب ، في اللحظة التي أنهى فيها شاليابين غناؤه في « بيت الشعب » ، كن يتدافعن بالمناكب بأعداد متعاطمة باستمرار ، قبل مطلع الفجر ، امام ابواب المخازن .

الحقيقة هي ان بطاقة الخبز قد ارجعت الفوضى التي اوقفتها الحرب .

الحقيقة هي أن سيرك عيد الميلاد قد أعاد فتح ابوابه وان لوحات متحف الصومعة قد أرسلت الى موسكو بالمقابل ضماناً لسلامتها .

الحقيقة هي ان بروتوبوبوف ، رجل الساعة ، هو اكره وزراء — الامبراطورية على قلوب الناس . والحقيقة هي ان الامبراطورة تتكلم الالمانية في زياراتها مشاغل بنات الفقراء ، بينما يتأمر قائد فرسان القوزاق الجنرال الكسندر ميخائيلوفيتش كريموف ضد العهد الملكي ويعلن لروديانكو ، رئيس الدوما :

— ان الاستياء والارتباب لا ينيان يتعاطمان بين الجنود . والانضباط على وشك الزوال كلياً . والجيش قابل هذا الشتاء لأن يهجر الخنادق بكل بساطة .

والحقيقة هي ان غاستون دوميرغ كذب على مراسل صحيفة « الصباح » عندما صرح وهو يهبط من القطار العائد به من بيتروغراد :

— انني عائد بانطباع ممتاز . فالروس راغبون بالإجماع على متابعة الحرب حتى الظفر التام .

*

ما كاد الممثلون الحلفاء يغادرون روسيا حتى حلت المواكب العمالية في الشوارع محل المواكب الاستعراضية .

٢٢ كانون الثاني . قبل ١٢ عاماً بالضبط كان الراهب غابوني يقود اول تظاهرة بروليتارية تحت نوافذ قصر الشتاء المغلقة . وانتهزت القيادة البلشفية مناسبة ذكرى الأحد الدامي لتدعو العمال الى النزول الى الشوارع . وفي بيتروغراد وموسكو وباكو ونيبي - نوفغورود ، خرج مئتا الف مضرب من المصانع ، رافعين الرايات الحمر ، هاتفين « لتسقط الحرب ! » . وانقضت كتابت فرسان الشرطة شاهرة السيوف لتشتت شمل التجمعات الانهزامية . واتخذت الحكومة تدابير صارمة جديدة ، واعتقلت الاعضاء المناشفة العشرة في اللجنة المركزية للصناعات الحربية ، وعلى رأسهم عامل التعدين كوسما . أ . غفوسديف .

وفصلت منطقة بيتروغراد العسكرية عن الجبهة الشمالية ، وحولت الى وحدة مستقلة بنفسها . ووضع على رأسها عسكري حديدي القبضة ، سيرج سيمينوفيتش خابالوف ، القائد السابق لمدرسة موسكو العسكرية ، البالغ من العمر تسعة وخمسين عاماً ، المستبد والجلف ، الممقوت من تلامذته . وقد منح خابالوف سلطات واسعة واطلقت يده على الحامية التي يبلغ تعداد رجالها مئة وستين ألفاً بما فيهم كتابت الحرس الامبراطوري ، وهي قوة كبيرة حقاً لفرض النظام على سكان مجردين من السلاح يبلغ عددهم مليونين واربعمئة ألف نسمة^(١) .

ولم يكن للمتظاهرين لا تنظيم ولا قادة حقيقيون . ويروي فلاح سيبيري : « لكأننا خرجنا من كهف معتم ، ولبثنا واقفين تحت لظى الشمس لا نعرف اين نذهب ولا ماذا نفعل » .

وكانت الجماهير ، الواثقة بعددها اكثر من ثقتها بأهدافها ، تريد بوجه خاص ان تخرج . وكانت قيادات أركان جميع الاحزاب تطمع بها .

(١) : كان تعداد الهال في حدود ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة .

واراد المناشفة ان يتظاهروا تأييداً للدوما بمناسبة اعادة افتتاحها في ٢٧ شباط . ورفض شليابنيكوف ، باسم البلاشفة ، ان يخدع العمال بسراب الدوما واقترح ان يختار البروليتاريون بلاط ساحة نفسي الخشي ليتظاهروا وي طرحوا مطالب سياسية واضحة . وبهدف الوصول الى اتفاق اقترح يسار البرلمان تحكيم مكسيم غوركي . وعقد اجتماع المصالحة في شقة الكاتب حول سماور أبدي التدخين . وقد مثل ماتيو ايفانوفيتش سكوييليف الذي كان تروتسكي قد لاحظ في بيته بفيينا ستالين للمرة الاولى ، ونيقولا تشخيدزه رئيس المجموعة المنشفية في الدوما ، مثلاً اصداقاً بليخانوف . ومثل جماعة لينين شليابنيكوف ون . د . سوكولوف المحامي المشهور في بيتروغراد . وكان حاضراً ايضاً كيرنسكي ، الرجل الذي أصبح في اقصى يسار الدوما منذ اعتقال النواب البلاشفة ، بصفته رئيس مجموعة العمال الصغيرة ، احد اجنحة الحزب الاشتراكي - الثوري . وتحقق الاجماع بسرعة ضد البلاشفة . وقال كيرنسكي :

— ان موقفكم من الدوما يضر بالديموقراطية .

وأخفقت الوساطة . وفي ٢٧ شباط لبي نداء البلاشفة ثمانون ألف عامل ، متحدثين بلاغات خابالوف الذي هدد بأن يقمع بقوة السلاح المشاغبات العامة . ولم يتظاهر سوى خمسمئة عامل امام الدوما تلبية لنداء المناشفة .

وهاجم كيرنسكي شليابنيكوف :

— لقد حطمت حركة الديموقراطية .

فرد عليه المسؤول البلشفي بقوله :

— لم يكن عليكم إلا ان تذهبوا بأنفسكم الى المصانع لتدعوا العمال الى اتباعكم .

وقد توافقت آخر توصيات أرسلها ستالين من سيبيريا مع توصيات

لينين : من الواجب في المقام الاول تجنب اتباع البورجوازية ، فهي تريد ثورة صغيرة مقابل حرب كبيرة .

في تركستان كان نيقولا نيقولافيتش هيمر يعمل كموظف مخلص في مشكلات الري . وكان قد انضم الى الحزب الاشتراكي - الثوري في سن الحادية والعشرين ، واعتقل في عام ١٩٠٤ في موسكو لأنه نظم مطبعة سرية ، واطلق سراحه في عام ١٩٠٥ ، وعاش مبتعداً عن السياسة . وقد أيقظ صحب الاحداث المقترية المصم لدى هذا الرجل المطمئن البالغ من العمر ٣٤ عاماً الضمير الثوري النائم . وعندما طرد من العاصمة في بداية الحرب تحت اسم هيمر عاد اليها تحت اسم نيقولا سوخانوف المستعار ، وعاش فيها حياة مزدوجة كموظف رصين وكتأمر بعد ساعات الدوام . كان اقتصادياً نهاراً ، وصحفياً ليلاً ، وصديقاً لكبرنسكي ، ومنشفي التنظيم ، ومحرراً في « الحوليات » ، مجلة مكسيم غوركي ، ومديراً للصحيفة اليسارية « المعاصر » .

لقد جعل سوخانوف من نفسه الناطق بلسان اليسار الجديد ، اليسار الذي ولد من الحرب والذي يضم المناشفة والاشتراكيين - الثوريين والعماليين ، وجميعهم من أنصار خوض الحرب حتى النهاية وقيام الجمهورية . ولكن اذا كان سقوط الاوتوقراطية يبدو امراً مرغوباً فيه بالنسبة الى هؤلاء الاشتراكيين إلا أن تسيير شؤون الدولة كان يخيفهم . فالقوى الديمقراطية لا تتمتع بأي هيئات مهنية او سياسية او بلدية . والبروليتاريا غير قادرة بعد على إنشاء منظمات كفاحية . وقد حظيت حجج سوخانوف بتأييد الاشتراكيين المعتدلين :

— ان فن الحكم في شروط الحرب والانحلال يتجاوز امكانياتنا . فالصناعة ووسائل النقل في حالة يرثى لها . والعاصمة جائعة . واذا لم يكن في الامكان إعادة تسيير آلة الدولة كلها ، فسوف تمحق الثورة . وأي سلطة ديمقراطية ستكون عاجزة في الوقت نفسه عن متابعة المجهود الحربي . وأي تغيير فظ

في السياسة الخارجية سيكون ضاراً . وسياسة السلم لن تأتي إلا بمشكلات جديدة هائلة مرتبطة بالدفقرطة وبتحويل الصناعات الحربية وبإغلاق المصانع وبالبطالة وبتقهقر الاقتصاد الوطني . والبورجوازية هي وحدها التي تملك البعد السياسي المطلوب . وهي وحدها القادرة على قيادة جيش الموظفين الريفيين والمدنيين . فلنتحالف معها حتى لا تميل الى الاتحاد مع القيصرية ضد الثورة .

وفي الدوما عقدت الاحزاب الاشتراكية العزم على القيام بثورة تسلم مقاليد السلطة للكتلة التقدمية المؤلفة من الكاديت والتشريبيين . لكن هؤلاء الاشتراكيين الذين يريدون البورجوازية معهم حتى لا تكون ضدهم ، هؤلاء الاشتراكيين الذين يريدون ان يقدموا ثمار النصر يانعة للرأسماليين ، هؤلاء الاشتراكيين الذين يشعرون بأنهم كليون القدرة باتحادهم مع الملاك المستيرين ، يخططون خططهم بدون الغائب ، يخططون بدون لينين الذي ينتظر ، في عزلة النائبة ، الساعة التي ستبدأ فيها افكاره بالتحرك والتحقق ضد الرياح والعواصف ، ضد القيصرية ، ضد البورجوازية ، ضد الجيش ، وعند الحاجة ضدهم هم انفسهم ، أشقائه الاشتراكيين .

(٣٣)

٧ آذار . نيقولا الثاني يستقل القطار الصفر ، قطاره الخاص ، للذهاب من تساركوي - سيلو الى مقر القيادة العامة في موغيليف ، ويستذكر اثناء الرحلة الحديث الذي سارره به رودزيانكو ، رئيس الدوما ، قبل سفره :

- انني احذرك من انه لن تمضي ثلاثة اسابيع حتى تكون قد اندلعت ثورة تطيح بك عن العرش . ان كرامة الأمة ومشيئتها ليستا بالشيء الذي يستهان به . انك ستحصد يا مولاي ما زرعته .

وقد اجابه الامبراطور :

– ليكن ما يكون وما يشاء الرب .

ولكن ما ان وصل القيصر الى ستافكا ، حتى اصبح شغله الشاغل هو التفكير بتعليق الدوما . وقد تذكر آنذاك ذلك الحاكم الذي اتاح له في عام ١٩١٢ بأن يختلط بفلاحي تشيرنيفوف دونما خوف ، نيقولا ماكلاكوف الذي جعل منه على الفور وزيراً للداخلية ، والذي كلفه فيما بعد بتنظيم التعبئة العامة ، وفي اواخر ١٩١٤ بتوقيف النواب البلاشفة . وقد طلب اليه الامبراطور ان ينضم اليه وان يعمل على إصدار بيان يعلن تعليق البرلمان . فأجاب نيقولا ماكلاكوف برسالة طويلة واتخذ تدابير لمغادرة اراضيه في ضواحي موسكو حتى يشل الدوما التي يتمركز فيها اخوه ، باسيل ماكلاكوف الليبرالي الذي لا يعرف احد بعد انه قدم دبوساً لقتله راسبوتين .

ولم يلق المتآمرون ضد الملكية بسلاحهم . ففوتشكوف والجنرال كريموف وبوريشكيفيتش وميليكوف يفكرون بتوقيف القطار الصفر عند تحركه القادم وبإرغام نيقولا الثاني على التنازل لصالح ابنه ، على أن يتولى الوصاية عليه اخوه الدوق الكبير ميشيل .

*

قبل هذه الاحداث بعامين ، كانت اينيس آرمان وكروبسكايا وزوجة زينوفيف قد جمعن في بيرن المؤتمر الأممي للنساء الاشتراكيات . وقد تابع لينين جلسات المؤتمر من مقهى مجاور ، وكثيراً ما كانت تأتي احدى النساء الثلاث لمشورته . وقد ثبت المؤتمر القرار الذي كان قد اتخذ قبل خمسة اعوام في كوبنهاغن بتكريم العاملات مرة في كل عام ، في الثامن من آذار .

وفي عام ١٩١٧ هذا كانت كل الاسباب تدعو الجنرال خابالوف الى القلق والتخوف من عيد العاملة . فالبرد ، ٤٠ تحت الصفر ، قد شل كل المواصلات . وتحولت ١٢٠٠ قاطرة الى كتل جليدية . وتجمدت في اماكنها ٥٧٠٠٠٠ عربة تموين . واصبحت العاصمة فريسة للذعر والمجاعة والغضب

الشعبي .

وتحرك الموكب الاول من حي فيبورغ حيث يناضل كالبينين وف . م . مولوتوف . وتقدمت النساء في أثواب داكنة طويلة ورؤوسهن معصوبة بمناديل صوفية طويلة بيضاء ، هاتفات : نريد خبراً ! خبراً ! خبراً ! وكلما تقدمت العاملات من الأحياء الادارية ، تكاثف طابورهن . واحاط بهن رجال . وخفقت أعلام حمر . وفي الساعة ١٥ كان جمهور المتظاهرين يقدر بشماتين ألف شخص عندما حاولت الشرطة تفريقه . ولكنها لا تستطيع شيئاً امام مثل هذا الحشد بدون تغطية من الجيش . والحال ان خيالة القوزاق لم يحركوا ساكناً لحماية رجال الشرطة الذين وقعوا في أسر المتظاهرين . ونهبت المخازن .

في المساء قررت اللجنة البلشفية متابعة الإضراب وتعميمه . وقد حرر النداء بلشفي مخضرم ، الصحفي اولمنسكي : « شكلوا بلخان نضال ، بلخان حرية . خير ان نموت ماجدين دفاعاً عن القضية العمالية من ان نموت في الجبهة دفاعاً عن أرباح الرأسمالين ! » .

واصدر خابالوف أوامره الى الجيش باحتلال النقاط الاستراتيجية من المدينة ، وبخاصة الجسور . وعند مطلع النهار كانت بيتروغراد اشبه بمدينة محاصرة . فالخافلات متوقفة ، والمصانع مغلقة ابوابها . وفي الضواحي تشكلت مجموعات ، ومزقت بلاغات خابالوف المصوقة على لجدران ، وشرعت بالزحف نحو قلب العاصمة . وانضم اليها طلاب وبورجوازيون . ولأول مرة دوى هتاف : « لتسقط الاوتوقراطية ! » . وتوجه العمال الى شليابنيكوف طالبين تزويدهم بالسلاح ، لكن معاون آنا اوليانوف آثر إر ساهم الى الثكنات للنضال فيها .

وذهب نيقولا سوخانوف ، الموظف الثوري في مكتب تركستان ، عندما سمع بالأبناء ، الى المحامي اليساري ن . د . سوكولوف . وغادر

الدوما كيرنسكي ، الذي كان رجال الاوكرانا يتعقبونه كظله ، لينضم اليهما . وكانت الشرطة القيصرية قد لقبته بـ « السريع » بسبب مشيته المهرولة وطريقته التي لا تقلد في ركوب الحافلة وهي سائرة او في القفز من العربة قبل وقوفها . وقد وصل « السريع » الى منزل سوكولوف لاهت الانفاس . وقدم تقريره قائلاً : « إن الثواب في قصر الدوما حيارى . فبعضهم يريد الاشتراك في الثورة حتى يزعجها ، والبعض الآخر ينوي وضع حد لها » . وكان كيرنسكي على عادته مبعباً في كلامه ، محبباً للهجة المسرحية والفخفة . وقدم الى المنزل مخبرون آخرون . وتحولت المحادثة الى ما يشبه المهرجان الخطابي .

وعبر المتظاهرون نهر النيفا المتجمد من كل مكان تجنباً للجسور المحروسة . وتجمهر الناس في ساحة زنامنسكايا ، عند تمثال الكسندر الثالث . وكانت دوريات الشرطة والقوزاق تحوم مترددة في التدخل .

وتلقت كتيبة فولينسكي ، زهرة كتائب الحرس الامبراطوري التي ما تزال تحتفظ بهالة الانتصارات الرائعة على جنود نابليون ، الأوامر باحتلال باحات البنائات المجاورة استعداداً للتدخل . وعندما اقتربت مواكب المتظاهرين اخترق الرقيب كيربتشنيكوف الصفوف وقال :

— لا تطلقوا النار على إخوانكم وآبائكم .

وسرعان ما ذاعت أنباء بعض الحوادث : فقد انقض احد فرسان الشرطة على احد الخطباء يريد إسكاته ، ولكن احد فرسان القوزاق قطع يده بضربة من سيفه ؛ وفي مكان آخر سحل احد مفوضي الشرطة حتى الموت ؛ وفي شارع يوغومو لوسكايا ربط ٤٠٠ عامل مناديلهم الحمراء برؤوس العصي وتقدموا نحو باب نارفا منشدين المارسيينر ، فانقضت عليهم احدى فصائل الشرطة ، وراحت تضرب يمناً ويساراً ، ولكن الصفوف عادت فالتأمت وتابعت المسيرة طريقها متراصة . وعند باب نارفا تماسك الألوف من عمال مصنع بوتيلوف بالأيدي حتى يتعاظم حجم الموكب . ووصلت احدى سرايا

الحياة شاهرة السيوف . ففتح العمال صفوفهم وشق هتافهم عنان السماء . وجاء عمال فيبورغ بدورهم . ووصل الموكب ، الذي كان يشكل بقعة داكنة كبيرة متحركة فوق الثلج ، الى ساحة زانمنسكايا حيث كان يعقد المهرجان الخطابي الكبير .

وشن رجال الشرطة هجوماً جديداً . وجرح المفوض الذي كان على رأس رجاله بضربة من سيفه كتف امرأة تحمل علماً . ولكن سرعان ما ظهر فرسان قوزاق ، فاستدار رجال الشرطة على أعقابهم وولوا الأدبار وشعر المئات ألف عامل الذين اجتاحوا الشارع بأن إزار النصر بدأ يعقد للثورة .

*

عاد كيرنسكي الى الدوما بعد ان قال لسوخانوف :

— كن عندي بعد ساعة من الزمن .

وجاء سوخانوف حسب الموعد . ولكن « السريع » تأخر . ولم يكن في بيته غير ابنيه اللذين انضممت اليهما فيما بعد السيدة اولغا كيرنسكي التي قدمت من مكتب الصليب الأحمر في جادة نفسكي :

— رأيت من النوافذ موكباً هائلاً يتجه نحو ساحة زانمنسكايا . وقد اطلقت الشرطة النار . ولا ريب في أن هناك قتلى . لم أستطع التمييز بوضوح ، لأن الشمس كانت قد غابت .

وذهب سوخانوف آنذاك الى منزل غوركي . وكانت أفجع الأنباء تتناقل من فم الى فم في الأهباء الغاصة بالزوار . وعلم ان الجثث غطت قارعة الطريق في الأحياء المركزية ، وأن العشرات من الضحايا قد سقطوا . واتصل غوركي هاتفياً بشاليابين وبعده من الشخصيات البورجوازية .

كان العمال يتسلحون بالقناني والمفاتيح والمسامير والهرافات . وقد قلبت عربات الحافلات لاستخدامها كمتاريس . وأوقف عدد من رجال

الشرطة وجردوا من أسلحتهم . وسقطت الضواحي في ايدي المتمردين .
ووقع مولوتوف منشوراً :

— الى الأمام ، انها ساعة النضال ، ولكن النصر بانتظارنا .

•

كتبت الكسندرا فيودوروفنا من قصرها الى زوجها في موغيليف :

— انها حركة زعران . غلمان وبنات يركضون ويصيحون أن لا خبز
لديهم ، لا لشيء إلا ليخلقوا الفوضى ، وعمال يمنعون الآخرين من العمل .
وعندما ابدى احد كبار موظفي الدولة قلقه رد عليه بروتوبوف بقوله :
— اذا كان لا بد من حدوث ثورة في روسيا ، فلن يكون ذلك إلا بعد
خمسين عاماً .

ولكن هيئة الاركان في موغيليف قلقة غاية القلق . وفي مساء ١٠ آذار
وصلت الى الجنرال خابالوف برقية :

— أمر بأن توقف من الغد في العاصمة الاضطرابات التي لا يمكن غض
النظر عنها في هذه الساعة الحرجة من الحرب مع المانيا والنمسا . نيقولا .
من الغد ! إن خابالوف لا يملك خياراً . فلتنصب الرشاشات على الأسطحة ،
ولتعلن حالة الحصار . ومن مقر القيادة العامة أبرق الجنرال الكسييف الى
قادة الوحدات في الجبهتين الشمالية والغربية بأن يهيء كل منهم سرية فرسان
لإرسالها إلى بيتروغراد :

— الساعة حرجة . ينبغي بذل كل جهد ممكن لإرسال قوات مأمونة على
جناح السرعة .

وفي مسرح الكسندر كانت تمثل مسرحية « المسخرة » لليرمنتوف امام
السير بوكانان وموريس باليولوغ وبول ميليوكوف وعدد من أفراد الأسرة
المالكة ، بينما كان جنود كتيبة فولينسكي ، التي يقودها القيصر بنفسه فخرياً ،

يعودون الى ثكتهم من غير ان يفتحوا النار على إخوانهم وآبائهم . وقد
خطب بهم القائد لاختيفيتش يخثهم ويحرضهم :
- سوف نغسل في الغد هذا العار .

ويبدو ان الليل قد سکن من روعة النفوس . وقد أبرق خابالوف الى
نيقولا في ضحي النهار : « اليوم ١١ آذار ، الهدوء يخيم على المدينة منذ الصباح » .
الشوارع صامتة . وقد احتل جنود الحامية مواقعهم في المفوضيات او
على الأسطحة قبل طلوع النهار . أنهم ينتظرون وقد لغموا مدافعهم ورشاشاتهم .
الحفلات ما تزال قابعة في مراتبها .

في الصباح تلقت كتيبة فولينسكي ، المعسكرة في باحة فندق الشمال وفي
طابقه الارضي ، الأمر باحتلال الشارع عندما أطل موكب بلشفي من رأس
جادة نفسكي . ووجه القائد لاختيفيتش بلا جدوى إنذاراً الى المتظاهرين الذين
احتلوا ساحة محطة نيقولا . وعندما اشارت عقارب ساعة المحطة الى منتصف
النهار ، دوت الأوامر : « افتحوا النار ! » . وانهمر وابل من الرصاص .
وركض العمال في كل الاتجاهات او انبطحوا أرضاً . ولم تخلف الرصاصات
الاولى ضحايا .

وصاح القائد لاختيفيتش :

- سدّدوا الى القلب .

وأرسلت الرشاشات التي يشرف عليها الضباط حممها وصبغ الدم الساحة
المثلجة بلون احمر قان . وهرع المتظاهرون الى مداخل البنايات متكدسين
بعضهم فوق بعض . وأنطلق الحياثة في إثر العمال يفتكون بهم بالسيوف .
وكان حصاد المعركة اربعين قتيلاً . لكن الجماهير قاومت في مناطق اخرى .
فقد توقف طابور من العمال أمام ثكنة كتيبة بافلوفسكي وراح يهتف محرّضاً
الجنود : « الجيش معنا ! » . ولم يخرج من الصفوف سوى عشرين رجلاً .
ولما رأوا انه لم يتبعهم أحد ، استداروا على أعقابهم . وفرقت سرية من

خيانة الشرطة شمل المتظاهرين الذين انتشروا على طول قناة كاترين هرباً من رصاص الشرطة . وأنداك دفع جنود بافلوفسكي ضباطهم وانقضوا خارج الثكنة ، مقتحمين الأبواب ومفرغين مستودعات الأسلحة . وانضموا الى العمال :

– لا تخافوا ايها الرفاق ، فنحن معكم !

لكن المساعد الذي تولى قيادتهم قتل على بعد ٥٠٠ متر . ولما وجد العصاة انفسهم بلا قائد قرروا العودة الى ثكنتهم حيث استقبلهم الكولونيل بترحاب ، لكنه صرع على الفور برصاصة قادمة من الخارج .

وأرسلت قوات موالية لاحتلال ثكنة بافلوفسكي ، فجردت في الساعة ١٧ الجنود العصاة من أسلحتهم . وسجن تسعة عشر متمرداً في حصن تروتسكو في قلعة بطرس وبولس . ولم يبقَ مع المتظاهرين سوى واحد وعشرين جندياً مسلحاً .

*

نقل ثلاثة من السجناء الى ظهر « اورورا » ، الطراد الذي شارك في الرحلة اللامتناهية الطول للأسطول المنهزم في تسو – شيما في عام ١٩٠٥ . وقد قرر بحارة الطراد تهريب السجناء اثناء صلاة المساء بمساعدة الكهربائي الذي وعد بإحداث عطب في التيار . ولكن الخطة أحبطت . بيد ان البحارة هجموا ، بتحريض من أصغرهم سناً ، المدعو ييليشيف ، على جسر الطراد واستولوا عليه . وفتح الضباط النار دونما تمييز . وأصيب اثنان من السجناء الثلاثة ، وكانت اصابة احدهما مميتة . وعندما هدأت عاصفة العسيان ، جمع القبطان رجاله وقال لهم :

– غداً تقومون بغسل السفينة برمتها .

*

بحا القائد لاختيفيتش العار الذي انتابه من اللانضباط الذي دلى عليه جنوده البارحة ، فقد اطلقت كتية فولينسكي نيرانها على المتظاهرين في محطة نيقولا . وفي الساعة الواحدة صباحاً أصدر أوامره الى الرقيب كيربتشنيكوف اثناء عودة وحدته الى الثكنة :

– على الجنود ان يجتمعوا في الساعة السابعة صباحاً .

لكن ضابط الصف المذكور لم يذهب الى حجرته . فقد التجأ هو وثمانية عشر رجلاً من العرفاء والأنفار الى مكان قصي ومعتم حيث قرروا ان جنود فولينسكي لن يجتمعوا في الساعة السابعة صباحاً بل في الساعة السادسة حتى تتاح لهم الفرصة لتحريضهم على عدم اطلاق النار ثانية على آبائهم وإخوانهم .

– ان كل شيء سيجري غداً كما نريد .

*

أبرق بروتوبوف الى الامبراطور يقول :

– برهنت القوات على ولائها ، باستثناء حادثة عدم انضباط في السرية الرابعة من كتية بافلوفسكي .

لكن رودزيانكو ، الناطق بلسان الدوما ، لم يشاطر بروتوبوف تفاؤله وتوسل الى القيصر ان يشكل حكومة سلامة عامة : « إن أدنى تأخر يعدل الموت . أبتهل الى الله حتى لا تقع المسؤولية في هذه الساعة على كاهل العاهل » .

وازدري نيقولا الثاني بهذا التحذير وقال لوزير البلاط ، فريديريكس :

– ها هو صاحبنا رودزيانكو يكتب إلي شتى انواع الحماقات ، ولن أتنازل حتى للرد عليه .

(٣٤)

مع إطلالة فجر ١٢ آذار دوى في رواق ثكنة فولينسكي وقع مهمازين . فقد وصل القائد لاختيفيتش في الساعة السابعة يتقدمه المرشح كولوكلوف .

ورد الرجال على تحية هذا الأخير على حسب العادة . ولكن عندما لاح شخص القائد لاختيفيتش من الباب ولفظ الصيغة المقدسة : « صباح الخير ، يا إخوتي ! » .
دوت أرجاء الثكنة ، كما تم الاتفاق البارحة ، بهتاف واحد مصمم : « هورا ! » .
استدعى القائد ضابط الصف ماركوف وسأله ان يشرح معنى ذلك . فأنزل هذا الأخير حربته وقال بصوت حازم :
- هورا ، هي الإشارة لعصيان أوامرك .

واخذت ارضية الباحة بالاهتزاز ، إذ راح الرجال يطرقونها بأعقاب بنادقهم حتى يغطوا صوت قائدهم الذي كان يحاول ان يقرأ رسالة من نيقولا الثاني . ولما لم يستطع السيطرة على جنوده ، ولى الأدبار راكضاً يتبعه المرشح . وتمركز العصاة عند النوافذ وسددوا فوهات بنادقهم الى الباحة حيث تجمع الضباط . ومن الرشة الاولى سقط لاختيفيتش على إسفلت الباحة . وتمكن كولوكولوف من الإفلات . ودبّ الذعر في الثكنة . وغادرها الضباط بمثل عدو الريح حاملين راية الكتيبة ، ولم يتخلف منهم غير المرشح جورج أستاكوف الذي تقدم من الجنود قائلاً :
- اني منكم يا إخوتي .

وصاح المساعد كبير بتشنيكوف : « الكل الى الخارج » . وتقدم العصاة الى ثكنات الكتيبتين المجاورتين : بربو براجنسكي وليتوفسكي . وعند بوابة ثكنة كتيبة اسماعيلوفسكي سدّ مرشح شاب بالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، جورج بوينيفيتش ، نسيب الصحفي الكبير ب . ك . زاتسيف ، الطريق على المتمردين . فاخترقت الحراب جسده . ولم يقف مصير بوينيفيتش التعيس عند هذا الحد ، فقد قابلت الجماهير أفراد أسرته والكاهن الذين رافقوه الى مشواه الأخير بالسباب والشتائم .

قامت الكتائب المتمردة ، تتقدمها الموسيقى ، باستعراض نظامي في جادة نفسكي حيث اختلطت الجموع الحاشدة بها . وارتفعت من بين الصفوف

الرايات الحمراء . ولأول مرة شهدت شوارع بيتروغراد موجة عارمة من
التآخي بين الجنود والمدنيين . ووزعت البنادق ، وتمنطق بها الرجال والنساء .
وقام المرشح استاكوف ، اول ضابط انتقل الى صف الثورة ، بقيادة الموكب
الى قلب حي فيبورغ ، بؤرة البلاشفة ، حتى يحقق الارتباط مع رجال كتيبة
موسكوفسكي . ولكن السرية الاولى التي أرسلت لتوطيد الاتصال قوبلت
ببيران الينكرز (الضباط التلامذة) . بيد ان المقاومة حطمت بسرعة . واقتحمت
الجموع الابواب واحتلت الثكنة وقتلت قائدها .

ثم تقدم موكب الثوار في جادة ليتيني التي تربط فيبورغ بنفسكي .

*

ايقظ جرس الهاتف الكسندر كيرنسكي من سباته . وكان المتكلم النائب
البورجوازي نكراسوف :

— انهض يا الكسندر فيودوروفيتش . العامة تزجر . والجيش يتمرد .
ويقال ان القيصر سيصدر عكاظاً ضدنا .

وان هي إلا بضعة دقائق حتى كان « السريع » جاهزاً ومغادراً شقته التي
لن تسنح له الفرصة للرجوع اليها ثانية . ووصل كيرنسكي ، في قميصه الأسود
نصف العسكري الذي يرتديه منذ اعلان الحرب ، الى قصر توريدا الحافل ،
واجتاز رواقه المستدير المشمشي اللون ، وأطل مهولاً على القاعة الضخمة
بأعمدها الستة والثلاثين وبثرياتها الثقيلة الذهبية المركبة على شكل تيجان محفور
عليها النسر الامبراطوري . وكان عدد من النواب قد التجؤوا منذ الصباح
الباكر الى حجرة كاترين حيث انضم اليهم كيرنسكي . وكان النبأ قد تأكد :
فقد تلقى رودزيانكو مرسوم حل الدوما . وقد حدد بروتوبوف بيده ساعة
تنفيذ العكاظ : ١٢ آذار في منتصف الليل . وقد أبرق رودزيانكو الى القيصر
طالباً منه إرجاء التنفيذ : ولكن الأوان قد فات : فدوي الرصاص يصل الآن
من جادة نفسكي ، والراية الدامية فد شهرت .

على ظهر «أورورا» ، الراسي في مصب النيفا ، كان البحارة البالغ تعدادهم خمسمئة وسبعين رجلاً ينفذون سخرة الغسل والتنظيف . ولم تكن هذه السخرة بالشيء الذي يستهان به . فطول الطراد يبلغ ١٢٦ متراً ، وعرضه ١٨ متراً ، وهو مسلح بأربعة عشر مدفعاً من عيار ٦ بورصة ، ومداخنه الثلاث العالية منطفئة بعد ان وقع في أسر الجليد . وتقدم من الورشات البحرية موكب من العمال والجنود ، وارتقى ظهر السفينة واستولى عليها قبل أن يتاح الوقت للضباط للمقاومة . واصبح البحارة سادة الطراد . ودست منشورات دعائية في مجاري البخار ، وحبس الضباط في مقصوراتهم .

*

استيقظ مليونير البترول مانتاتشيف ، الذي قدم من القفقاس ليشهد تجلية خيوله في ميدان السبق في بيتروغراد ، على نفس النحو المبالغت الذي استيقظ عليه كيرنسكي . فقد قال له وصيفه وهو يسحب الستائر :

— سيدي ، أنها الثورة !

ووثب مانتاتشيف من فراشه ، وأطل من النافذة ليرى جموع البروليتاريين والجنود تندفق كالنهر في ضباب الصباح الجليدي . فقد احتل المتظاهرون القادمون من فيبورغ قلب العاصمة وتجمهروا لا يدرون اين يذهبون .

كان مجلس الوزراء مجتمعاً في قصر ماريا الايطالي الهندسة الذي بني في اواسط القرن التاسع عشر من اجل ابنة نيقولا الاول . وكانت أبناء التمرد تفرع الرؤوس مثلما يفرع ناقوس الموت : فقد خان خمسة وعشرون ألف رجل من رجال الحامية ، وتم الاستيلاء على ترسانة قلعة بطرس وبولس ، واستولى المدنيون على أربعين ألف بندقية ، ونهبت مفوضيات الشرطة ، وأخرقت الإضبارات ، وجرد رجال الدرك من أسلحتهم وقتل البعض منهم . وحاولت سرية موالية مؤلفة من ألف رجل ان تهاجم كتيبة فولينسكي . وكان على رأسها كولونيل مجاز راح يقاتل والسلاح في يده : الكسندر

بافلوفيتش كوتيبوف ، الضابط المتواضع الأصل ، الملحق بكتيبة بريوبراجنسكي مكافأة له على ثلاثة جروح وعلى وسامين تلقاها في الجبهة اليابانية . ولكن رجال كوتيبوف لم يحدوا حذوه بل تأخروا مع عصاة فولينسكي . وقد اختفى هو نفسه في ليل بيتروغراد . وقد جرح جنرال على ايدي رجاله الثمردين : اوجين كارلوفيتش ميلر^(١) ، الضابط في الحرس الامبراطوري ، والملحق العسكري السابق في بلجيكا وايطاليا ، ورئيس هيئة أركان الجيش الخامس . وأفجع من ذلك كان مصير الجنرال ستاكلبرغ ، هاوي الزبدة الطازجة ، الذي استقدم بقرة بالقطار عبر سيبيريا أثناء الحرب الروسية - اليابانية . فقد اقتحم جنود داره وقتلوا البواب الذي حاول مقاومتهم . وكان ستاكلبرغ القوي الشكيمة قد تسلح حتى أسنانه كما يقال . وقد قتل احد عشر شخصاً من المهاجمين بمسدسه ثم ولى الأدبار . ولكنهم أمسكوا به في الشارع وقتلوه ورموا بجثته تحت سنايك الخليل . ثم فصل رأسه عن جذعه وعلقى بوتد ليكون مرمى لرصاص الجنود .

وقام رودزيانكو بمحاولة اخيرة لإنقاذ الملكية بإقناعه مجلس الوزراء بتشكيل حكومة جديدة . ولكن الأمير المسن غولتزين ، الذي كان واقفاً تحت نفوذ بروتوبوبوف ، رفض كل حل وسط . وعندما ادرك رودزيانكو واصدقاؤه من الكتلة التقدمية استحالة التفاهم بين البورجوازية وبين بقايا السلطة الامبراطورية المتداعية ، انضموا الى صف الثورة وأعلنوا ضرورة قيام الجمهورية .

*

لم تكف افواج الثوار عن التضخم منذ الفجر . وقد زين فرسان القوزاق والجنود حراهم بشرائط حمراء . وصدورت العربات والشاحنات . وجالت

(١) : أصبح كوتيبوف وميل قائدین للجيش الابيض المهاجر بعد الثورة، وقد اختلفا في باريس في ظروف ما تزال غامضة الى اليوم .

في الأحياء المركزية سيارات خاصة بالرجال المسلحين .

وانشق السيل البشري الى نهرين . فتوجه طابور نحو الدوما ، وآخر نحو كريستي . لقد انصرفت ايام المواكب على طريقة الأب غابوني : فلا يقونات ولا تماثيل للقيصر ، وانما أعلام ولافتات : « تحية الى اخوتنا في الخنادق ! لتسقط الحرب ! الموت للاوتوقراطية ! » .

وسقط سجن كريستي دونما مقاومة . وأطلق سراح المعتقلين السياسيين بالئات . وكان بينهم بلشفي في السابعة والثلاثين من العمر ، نيقولا ايليتش بودفويسكي ، الذي امتهن حرفة الثورة منذ ربيعه السادس عشر والذي امضى عدة سنوات في السجن . وقد استقبلته اللجنة البلشفية استقبالاً مظفراً . وسماه شليابينكوف ومولوتوف رئيساً للجنة العسكرية التابعة للجنة الحزب المركزية .

ومن بين الذين أطلق سراحهم ايضاً كوسما غفوسديف ، الرئيس العمالي للجنة المركزية للصناعات الحربية . وقد صرح لأصدقائه : « انني ذاهب فوراً الى الدوما لأطالب بانتخاب سوفيت للنواب العمال ، كما في عام ١٩٠٥ » .

*

ـ ها هم !

دوت الصيحة داخل الدوما . وكان الطابور الثاني قد انتشر في ساحة قصر توريدا الواسعة . وما كان النواب يعرفون بعد عواطف هذه الجموع المسلحة . ولكن القصر أقفر على حين غرة من حرسه الرسمي . وهتف الناس : « أوقفوا القيصر ووزراءه والمتنفعين » . وأطلقت بعض العيارات النارية . وكلفت الدوما ثلاثة نواب باعلان انضمام البرلمان الى الثورة : الكسندر كيرنسكي ، والمحامي الجيورجي نيقولا تشخيدزه ، الأريب البليغ ورئيس المجموعة المنشفية ، وماتيو سكوبيليف المنشفي . وكان لكيرنسكي من العمر آنذاك ٣٦ عاماً ، وكان وجهه أمرد حاد التقاطيع ، وشعره مقصوصاً على الطريقة البروسية ، وشفثاه غليظتين . وقد قال :

– ان هذا البيت هو بيتكم ايضاً .

ومذالك لم تعد الدوما بيتاً لمثلي الشعب فحسب ، بل اصبحت بيتاً للشعب نفسه . وفتحت الابواب على مصاريعها . وغصّ قصر توريدا بأناس تكحلت عيونهم لأول مرة بمرأى الذهب ووطأت اقدامهم الرخام .

والتجأ النواب البورجوازيون الى الاجنحة الجانبية . وردوا على العكاظ الامبراطوري بتشكيل لجنة مؤقتة للدوما مؤلفة من : رودزيانكو ، الملقب بالرئيس هرقل ؛ شولغين ، المحرر في صحيفة بوريشكيفيتش والعدو اللدود للاشتراكين ، بول ميليوكوف ، رجل الساعة والوجه المركزي في العالم البورجوازي ؛ ن . ف . نكراسوف ، نائب الكاديت ؛ أ . إ . كونوفالوف ، الصناعي المنتمي الى الكتلة التقدمية ؛ كيرنسكي ورئيس المجموعة المنشفية تشخيدزه .

ولم ينضم سوى اشتراكين أصيلين اثنين الى هذه اللجنة البورجوازية المؤقتة التي تريد ان تكون تجسيدا للسلطة ساعة الثورة . وتكشف مذكرات شولغين النقاب عن الحالة المعنوية لهذا الزواج غير الحبي بين الاشتراكين والبورجوازيين الذي فرضه ضغط الاحداث :

– إن ما كنا نخشاه اكثر من اي شيء آخر وما كنا نريد تجنبه بأي ثمن قد اصبحت حقيقة واقعة . كانت الثورة قد بدأت . وكنت أشعر بأن الرصاص هو وحده الذي يستطيع ان يعيد الوحش الرهيب المنفلت الى حجره ... وقد كان هذا الوحش ، بكل أسف ... جلالته ، الشعب الروسي .

ووردت انباء انتصارات جديدة . فقد استسلمت قلعة بطرس وبولس . واستفاد المجرمون العاديون من الظروف وخرجوا أحراراً . وفرغت السجون كلها ، بانتظار نزلها الجدد . وأصدر كيرنسكي الأمر باعتقال أعداء النظام الجديد .

وأغرقت فكرة غفودسيف بتشكيل سوفيت جديد زعماء الاحزاب

الاشتراكية الذين اجتمعوا في قاعة لجنة الميزانية ، القاعة رقم ١٢ من قاعات قصر توريدا حيث ضربت الفوضى أطنابها . وأخذت الممرات تتسخ . واكتظت القاعات بموظفين موقوفين بانتظار لإرسالهم الى السجن ، وبنواب منهكين مستلقين على الأرائك ، وبأسر جاءت حاملة معها سلال الطعام .

وبادر احد الطلاب الى اعتقال وزير العدل شتيغلوڤيتوف ، الشيخ الهزيل الجسم ، الشامخ الأنف ، في منزله بالذات بمساعدة جنود متمردين . وعندما وصل الى توريدا اقتيد الى قاعة كاترين حيث استدعى الطالب كيرنسكي . ووقف شتيغلوڤيتوف خافض الرأس . وقال كيرنسكي بلهجة مسرحية :
- يا سيد شتيغلوڤيتوف ، انني أعتقلك باسم الشعب .

وفي اللحظة نفسها دلف رودزيانكو الى القاعة ، وشق لنفسه طريقاً بين الحشد ، وقال وكأنه يتابع حديثاً :

- ايفان غريڤوريفيتش ، تعال الى مكنتي .

وتفرس كل من كيرنسكي ورودزيانكو في الآخر بتحدٍ . وتدخّل الطالب :

- كلا ، ان الوزير السابق سيوقف في جناح الدوما الوزاري .

وفي قلب العاصمة نهب قصر الكونت فريديريكس الذي كان القيصر قد قال له مؤخراً : « ان رودزيانكو يكتب إلي شتى انواع الحماقات » . وابتلعت مياه النيفا حصيلة النهب . وتسكعت زوجته وبناته في المدينة بحثاً عن ملجأ .

وفي كل المصانع انتخب نواب عمال ، وتم الاتفاق على ان يعقدوا اولى جلسات السوفييت الحديد في الساعة الحادية والعشرين . وفي توريدا جث مولوتوف الجنود المتمردين على انتخاب نوابهم بدورهم .

ورافق نيقولا سوخانوف غوركي الذي كان يريد ان يتفرج على منظر الشارع . ومن بعيد ارتفع عمود من نار ودخان . لقد أحرق القصر العدلي .

وحملت الريح الثلجية الى وسط المدينة صدى تبادل إطلاق النار الذي كان مستمراً بالقرب من محطة فنلندا ، في الجانب الآخر من النهر .

وكان في الشارع ايضاً راصد فرنسي . فقد اقتفى دي شامبرون ، الملحق بالسفارة ، خطى سرية من كتيبة بافلوفسكي كانت متجهة نحو قصر الشتاء ، تتقدمها الموسيقى : « نظرت الى هذه الفصائل المتراسة الصفوف التي يقودها ضباط صف . ثم وصلت الى ساحة الكسندر ، تحت نوافذ القصر . وقد ذهلت عندما رأيتها تتقدم نحو المبنى ، وتدلف اليه ، فيحيتها الحراس وتجتاحه وتحتله . »

وانظر دي شامبرون بضع لحظات . وشاهد العلم الامبراطوري بنسره الأسود المزدوج الرأس ينزل من فوق صاريته . ومرت بضع لحظات اخرى . ثم خفق ، من واجهة القصر ذي الألفي نافذة ، مستطيل كبير من القطن الأحمر .

*

غادر الوزراء قصر ماريا المكشوف اكثر مما ينبغي ليلتجئوا الى الاميرالية التي تعتبر من اجمل قصور بيتروغراد . فهي تمتد مع أجنحتها الجانبية على طول ٧٨٠ متراً ، ويبلغ ارتفاع برجها ٧٠ متراً . وقد انضم الجنرال خابالوف الى الوزراء . وكانت الأنباء التي أبرق بها الى نيقولا الثاني مفجعة : النظام ما امكن توطيده في بيتروغراد ، وعدد الذين ثبتوا على ولائهم قد سقط الى ستمئة من المشاة وخمسمئة من الحياالة مع خمسة عشر رشاشاً واثني عشر مدفعاً ، والموقف بالغ الخطورة .

وأبرقت القيصرة وقد هصرها القلق بدورها الى موغيليف من تساركوي – سيلو : « الثورة اخذت أبعاداً رهيبه . والانباء أسوأ منها في اي زمن سبق » . وارتأت ستافكا انه لا مناص من إرسال قوات موثوقة الى العاصمة . وأصدر نيقولا الثاني أمره الى مساعده ، الجنرال نيقولا جودوفيتش ايفانوف ،

ابن الفلاح ، الذي رجع من الحرب الروسية – اليابانية وصدده مغطى بالأوسمة والذي تولى قمع فتنة كرونشتاد في عام ١٩٠٥ وقاد اول هجوم على غاليسيا في عام ١٩١٤ ، بأن يتحرك الى بيتروغراد على رأس فرقة وبأن يهدئها وفوضه بمطلق الصلاحيات .

كانت الدوما ما تزال رابطة بالناس ، ولا سيما بالجنود . ولكن هؤلاء العسكريين ليسوا في الواقع سوى عمال وفلاحين يرتدون الثياب الحماكية . وحضر الى قاعة الاجتماع خمسون نائباً عن المصانع وثمانون عسكرياً لعقد اول جلسات السوفييت ، مزودين بتفاويض لفظية لا يمكن لأحد ان يثبت صحتها او بطلانها . وتولى المحامي سوكولوف ، المنظم المرح ، المنشفي المتبلشف ، إصدار التعليمات وتعيين اماكن المندوبين .

وبلغ اخيراً عدد النواب العمال مئتين عندما افتتح سوكولوف الجلسة واقترح العمل مباشرة على انتخاب مجلس رئاسة وكان في القاعة كروستاليف – نوسار ، رئيس سوفييت ١٩٠٥ . الذي خلفه تروتسكي بعد اعتقاله . ومثل كيرنسكي بدوره . وانتخب مجلس الرئاسة بدون مناقشة . وسمى نفسه بلجنة السوفييت التنفيذية وعين تشخيدزه ، الذي جاءه اثناء ذلك ، نبأ وفاة ابنه ، رئيساً لها ، وانتخب كيرنسكي وسكوبيليف نائبين للرئيس . اما مكتب الرئاسة فقد ضم : بوغدانوف ، غفودسيف ، سوخانوف ، سوكولوف ، شليابنيكوف هيراكليون ، تسيريتيلي ، أبرام غوتز ، ميشيل لاير ، جورج ميخائيلوفيتش ستكولوف وهو ثوري من اوديسا ، كروستاليف – نوسار وفلاديمير زرينوف ، المنتمي الى الجناح الارهابي من الحزب الاشتراكي – الثوري . وكانت الغالبية الساحقة للاشترائيين – الثوريين والمناشفة . وكان يمثل البلاشفة ستكولوف الذي التقى بلينين في مهجره بباريس ، وسوكولوف وشليابنيكوف .

واصبح الكسندر كيرنسكي ، الذي عين بعد الظهر في لجنة الدوما ومساء في لجنة السوفييت التنفيذية ، والذي كان ينتمي في آن واحد الى كلتا

المنظمتين اللتين انجبتهما الثورة ، رجل الساعة وصلة الوصل بين هاتين السلطتين اللتين تتعايشا تحت سقف واحد من دون اي صفة شرعية .

وقوطع وضع جدول الأعمال اكثر من مرة من قبل نواب الكتائب العسكرية المتمردة الذين كانوا يستقبلون بالهتاف والتصفيق الواحد تلو الآخر . واقترح المكتب دمج الجيش المتمرد والبروليتاريا في سوفيت واحد ، سوفيت بيتروغراد للنواب العمال والجنود ، وتم تبني الاقتراح بالاجماع .

وفي منتصف الليل واثناء انتخاب لجنة أدبية مكلفة بتحرير النداءات الى الأمة ، دلف الى القاعة جندي شاب ، وقاطع المداولات ، وشهر بندقيته فوق رأسه ، وصاح :

— ايها الرفاق والإخوة ، اني احمل اليكم نحية كتيبة سيمينوفسكي . فلقد قررنا بالاجماع ان ننضم الى الشعب .

سيمينوفسكي ، الكتيبة التي قمع بها الجنرال مين موسكو بوحشية في عام ١٩٠٥ والتي ينتمي اليها توخاتشيفسكي ، قد انضمت الى الثورة !

وقوبل نبأ آخر بعاصفة من التصفيق : فكرونشاد ، مفتاح خليج فنلندا ، قد انضمت عدداً وعدة الى الثوار . وكان في القلعة الدوق الكبير سيريل ، الناجي من البحر الأصفر والطامع في العرش الذي أبعده عنه زواجه من امرأة مطلقة . وقد انضم على الفور الى المتمردين وعلق على صدره وشاحاً أحمر واعلن :

— غداً سأذهب الى الدوما .

اضطر الزبائن الاجانب في فندق آستوريا الى خدمة انفسهم بأنفسهم في المطابخ والقاعات الباردة . وعجت المسارح بروادها رغم الحوادث . ولعب فيكتور فرانس دور « السارق » لبرنشتاين . واجتذب مسرح الباليه الجمهور .

اختلى نيقولا سوخانوف في مكتب صغير مع سائر اعضاء اللجنة الاديبة . وكان الجميع يتدارسون نصوص البيانات عندما ولج بول ميليوكوف الى الحجرة واتجه رأساً الى المنضدة ، والابتسامة تدغدغ شفثيه . واعلن الناطق بلسان البورجوازية الليبيرالية لمثلي السوفييت :
هناك قرار : الاستيلاء على السلطة .

(٥)

ازاء التسارع المأساوي للأحداث عزم نيقولا الثاني على العودة الى تساركووي — سيلو . وفي الساعة الخامسة من صبيحة يوم الثلاثاء ١٣ آذار ١٩١٧ ، اتجه نحو محطة موغيليف في ليل عاتم الدجنة . وشق القطار الصفر طريقه عبر الغابات الكبيرة المحيطة بالمدينة . وكان طول الطريق بين موغيليف وتساركووي — سيلو سبعة كيلومتر باتجاه مستقيم نحو الشمال ، ويستغرق حوالي اربع وعشرين ساعة . وكان الشفق على وشك البروز عندما وصل القطار الى منطقة البحيرات الصغيرة التي ترسل مياهها شبه الآسنة نحو نهر الدنايبر .

*

أفاق عدد من الثورين الراقدين في ممشي قصر توريدا نصف الدائري على صوت قماش يمزق . وفتح نيقولا سوخانوف المستلقي على فروته عينيه ليلمح جنديين يمزقان بحريتهما صورة الامبراطور الجدارية الكبيرة . وفي المدينة عادت الفتنة كما كانت وأشد في الصباح : نهب مخازن ، اضراب عام ، تأخي الجنود والمدنيين . والبنادق في متناول الجميع . تكفي كلمة ثورية او حتى ابتسامة للحصول على سلاح . وتكدست القمامة امام ابواب المنازل . واكتظت الأرصفة بالبلاغات الممزقة المهورة بإمضاء خبالوف .
ووقف المنتصرون حيارى امام تمرد البارحة الغفل ، التلقائي ، غير المنضبط . وتجاوزت الأحداث بسرعتها الحافظة الحزب البلشفي ، كما تجاوزت

سائر التشكيلات السياسية . ووجد البلاشفة انفسهم لا يملكون الوسائل اللازمة لتماشي التحالف الديمقراطي البورجوازي الذي أدانه لينين . وسمت لجنة الدوما المؤقتة ، العاقدة العزم على الاستفادة من مكاسب الشعب ، مفوضين عسكريين ومفوضي تموين . وشكلت لجنة السوفييت التنفيذية ، التي لا تريد البقاء في المؤخرة ، أجهزة مماثلة . وصارت السلطة ترنجل ارتجالاً من خلال تنافس القوتين القائميتين . ولكن السوفييت كان أنقب بصيرة ، فشكل ميليشيا منظمة مجندة من عمال المصانع بنسبة مئة عامل مسلح من كل ألف .

وقد وصف احد الخبراء الاميركيين هذه الثنائية في السلطات بأنها تجميع للمسؤوليات بدون سلطة وللسلطات بدون مسؤولية .

وتحت سهم الاميرالية الذهبي تداعت وزارة غولتزين وزيراً تلو الآخر . وبعد انتصاف النهار بدأت زججة الثورة تمخر عباب البحر . فكرونشناد تتحرك . كرونشناد ، مرفأ بيتروغراد الأمامي ، المبني في جنوب شرقي جزيرة كوتلان ، المحصن بثلاثين برجاً وبطارية مفخرة بطرس الاكبر ، كرونشناد التي هي في الواقع مدينة وترسانة ومرفأ حربي منبع وبؤرة تقليدية من بؤر العصيان .

ان البحارة جميعاً يذكرون ملحمة بوتمكين . لكن أسطول البحر الأسود تحت إمرة واحد من صفوة الضباط الروس ، الاميرال الكسندر فاسيليفيتش كولتشاك ، المستكشف المشهور .

تضم البحرية الروسية ١٣٧٠٠٠ بحار يؤلف ٨٠٠٠٠ منهم اسطول البلطيق . ومعظم سفنها راسية في هلسنغفور ، المسماة اليوم هلسنكي ، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ٩٠٠٠٠ نسمة ومرفأ متقدم للبحرية الروسية عند مدخل فتحة خليج فنلندا العريضة ، تحت حماية حصن سفيبورغ المنيع . ولم تكن اي سفينة تخلو من خلية صغيرة مرتبطة بثوريبي بيتروغراد .

كان المشاغبون يُرسلون عادة الى كرونشناد حيث تسهل حراستهم بين

الأسوار المحصنة . لكن عددهم لم يكف يوماً عن التزايد . ورجال القلاع لا ينتظرون إلا الذريعة ليمردوا على حاكمهم العسكري ، روبر نيقولاثيفيتش فيرين ، الذي يكون له عميق البغضاء . وفيرين ، القوي الشكيمة ، المتعجرف ، المهوب الجانب ، ليس بالرجل الذي يتبنى افكار الثورة الهدامة . فهو آخر قائد لأسطول بور - آرثر ، وتلميذ لماكاروف العظيم الذي استشهد في القتال ضد اليابانيين . وقد علم ان إضراباً قد قام في مصنع البارود . وقدم اليه عند المساء وقد يسأله المثول في ساحة كاترين لسماع الشكاوى . وقد وعد الاميرال بأن يفكر في الموضوع ، لكن قراره قد قر سلفاً على عدم المثول امام رجاله . فنظم هؤلاء انفسهم ، وغزوا الثكنات ، وفتحوا ابواب السجون ، وقتلوا احد الضباط .

وفي ساعة الصلاة الجماعية حلت محل ابتهاج « ليحفظ الله القيصر » التقليدي صيحة « عاشت الثورة ! » . وفهم فيرين انه لا يستطيع شيئاً ازاء هذا الحشد المنفلت . فاستدار على عقبه عائداً الى منزله ، وهو عبارة عن فيلا باذخة مبنية في الحي الارستقراطي ، عش الافاعي ، ومحاطة بسور من الأشجار الباسقة . وهناك جلس ينتظر الاحداث ، في البهو الخافت الإضاءة ، والى جانبه خوذته وقفازه وزوجته وابنته وزوجة اخيه .

في الشارع كان البحارة ينشدون نشيد اوجين بوتيه « الأمية » :

اذا عاند اكلة لحوم البشر اولئك

في ان يجعلوا منا ابطالاً

فعما قريب يعلمون ان زصاصاتنا

هي لصدور جنرالنا .

في محطة بيتروغراد هبط من القطار نيقولا ماكلاكوف الذي استدعاه الامبراطور من اراضيه الموسكوفية . وذهب فيما يشبه الهرولة الى منزله ليبدل ملابسه . وكان ينوي ان ينضم على الفور الى غولتزين وبروتوبوف .

ولكنه ما كاد يضع قدمه في ارض الشارع حتى احاطت به جماعة من الثوريين واقتادته الى قلعة بطرس وبولس . وعجز اخوه ، نائب الكاديت ، باسيل ما كلاكوف ، عن إطلاق سراحه ، كما عجز الأخ الثالث ، الدكتور الكسيس ما كلاكوف ، الاستاذ في اكااديمية موسكو .

وعندما قدمت السيدة نيقولا ما كلاكوف الى ابواب القلعة تستفهم عن ابناء زوجها ، لم يقدم لها من جواب سوى قميص ، ملطخ بالدم .

واحتج السوفييت والدوما معاً على كل انواع سوء استعمال السلطة . ولكن البلد اشبه بسفينة جانحة في عرض البحر بدون ربان . ولن تبقى السجون خاوية لمدة طويلة من الزمن بعد الأمر الذي اصدره كيرنسكي باعتقال أعداء النظام الجديد . وكان من أول الزبائن الجدد غيراسيموف ، رئيس الاوكرانا السابق المستقيل منذ عام ١٩٠٨ . وكان هو الذي أوقف كيرنسكي وتروتسكي وأول النواب العمال في سوفييت ١٩٠٥ . وكان الموقوفون المرموقون يُقتادون اولاً الى توريدا ، ويجسسون في قاعة الوزراء قبل نقلهم الى قلعة بطرس وبولس .

واخذت اللائحة تتناول ساعة فساعة : شتورمر ، المرتدي معطفاً طويلاً له قبة من الفرو ، غوريميكين المرصع صدره بوسام القديس اندريه ، غولنزين الأمير المسن ورئيس الوزارة ، سوخومنيوف وزير الحربية السابق ، ماخاروف وزير الداخلية اثناء حوادث اللينا المفجعة والذي تولى كيرنسكي بنفسه اعتقاله في منزله ، بتريم رئيس الأساقفة ، الاميرال كارتزوف المدير العام للمدارس البحرية ، الجنرال كورلوف حاكم بيتروغراد السابق ... وفي المساء لحق بكيرنسكي في احد ممشي الدوما شخص يرتعد خوفاً ، قليل العناية بهندامه ، وقال

— جئت اليك يا صاحب السعادة من تلقاء نفسي لأسلم نفسي .

انه روح راسبوتين المتجسدة ، بروتوبوبوف بعينه .

وتولت نشر قائمة الشخصيات المعتقلة صحيفتا « البرافدا » و « الازفستيا » اللتان عاودتا الصدور بفضل البلشفي فلاديمير بونتش - بروفينش الذي صادر المطابع وأمن للعمال ما يلزمهم من تموين يومي .

*

ذهبت الامبراطورة ، شأن عاداتها في كل يوم ، لأداء مهمتها كمرضة في مستشفى تساركوي - سيلو الذي كان يعج بجرحي الحرب . وراحت تقص أظافر ناقه كانت كل الدلائل تشير الى انه برىء نهائياً . ولم تكذ تمضي بضع دقائق حتى شعر الجندي بضيق مفاجيء ، وارتفعت حرارته الى الدرجة ٤٢ . فقالت الامبراطورة لإحدى تابعاتها :

— أرأيت ، ان اللعنة تطاردني .

وكان نيقولا مستقلاً قطاره الخاص منذ الصباح . وقد أبرق الى زوجته اثناء الطريق : « فكري دوماً معك . آمل ان تكونوا على ما يرام ومطمئنين . آمل ان اكون في البيت غداً صباحاً . نيكي » .

وكان مسار القطار قد بدل تجنباً للمرور بالمحطات غير المأمونة . وعند منتصف الليل كان القطار قد وصل الى مالايا فيشيرا ، على خط موسكو - بيتروغراد . واقترب من المحطة جنود متمردون . وعندما علم القيصر بالأمر قال وهو في الروب دي شامبر : « هيا ، لنسر الى اول مركز برق » . ثم عدل عن رأيه ، وصعد الى القطار من جديد ، وأصدر أوامره بالتحرك الى بسكوف التي تقع الى الغرب ، على خط وارسو - بيتروغراد ، على ضفاف بحيرة بيبوس .

*

ان السلطة هي في متناول يد الثورة ، ولكن هذه اليد ليست قوية بما فيه الكفاية للسيطرة على العاصفة الشعبية . والنصر تلوح تباشيره في الأفق ، ولكن الجموع لا تعرف صفح الغالين . الحرية ، ما أربهه من اسم مكتوب

على رياح العواصف . وتحركت كرونشتاد طوال الليل . وبقي فيرين خلف سور الأشجار بينما كانت ساحة كاترين تلتهب بالخطب النارية . وعُين اربعون رجلاً لاقتحام منزله . ولكنهم دخلوه بلا مقاومة حيث كان فيرين ينتظرهم وقد ارتدى خوذته وقفازه . واقتاد الموكب الاميرال الى قدام تمثال معلمه ماكاروف . وكانت الساحة غاصة بالحشود . وكان الفجر قد أطل . وطُلب الى حاكم كرونشتاد ان يستدير نحو قاعدة التمثال . فأجاب :

– اني لا اخاف النظر الى الموت وجهاً لوجه .

وانهمر وابل من الرصاص . وانطفأت الحياة في عروق فيرين .

ومذذاك عمت الفتنة كرونشتاد . فقد قتل الضباط بالعشرات . وأعدم رمياً بالرصاص الاميرال بوتاكوف . رئيس هيئة الاركان ، مفضلاً الموت على الهرب كما كان يقترح عليه بعض مساعديه . ونفذ حكم الاعدام ايضاً في الاميرال ران .

وفي هلسنغفور كانت النتيجة هي هي ، ولكنها أخرجت لإخراجاً افضل . فقد تلقى الاميرال نيبنين ، قائد اسطول البلطيق ، برقية من رودزيانكو . وقد أيد على الفور ، هو البحار الممتاز والدبلوماسي الرديء ، تبدل النظام ، وأبرق الى ستافكا حاثاً القيصر على تقديم تنازلات . ولما كان احد حابكي مؤامرة كانون الاول المحاكة ضد نيقولا الثاني ، فقد جمع هيئة أركانه التي وافقته على موقفه . ثم وصلت من بيتروغراد جماعة من المناضلين ، قليلة الاطلاع وقوية التصميم . وقد اتصلت ببخارة مدرعة بطرس الأول التي تعتبر من أنشط سفن الأسطول . وقد تم الاتفاق على ان تعطي « بطرس الاول » إشارة التمرد ، بإشعالها فانوس كبرى الصواري ، وعلى ان تحذو سائر المراكب حذوها في اعتقال الضباط وتجريدتهم من أسلحتهم .

وأضيئت الفوانيس الحمر الواحد تلو الآخر في دجى الليل . وعلى ظهر جميع السفن بدأ الزحف . ولما رفض الاميرال نيبولسين تسليم بعض الوثائق

السرية ، صرع برصاصتين من مسدس شأنه شأن سائر الضباط المشاكسين .
وخاطب الاميرال نيبينين ، الذي لم يكن قد مسه اذى بعد ، رجاله بحمية
كبيرة . فهتف له البحارة ، ثم انسحب الى مكتبه مقتنعاً بأن العاصفة قد
مرت . وقبل نيبينين ، بصحبة مرافقه ، بأن يتبع جماعة من العمال والبحارة
للمشاركة في مهرجان خطابي . ولكن سرعان ما أقصي الملازم الشاب وصرع
الأميرال بطلقات مسدس . لقد حل الانتقام محل الرومانسية ، وجاء الارهاب
ليتوج الثورة .

وقدم من بيروغراد الى هلسنفور بالقطار روديتشيف نائب الدوما ،
وسكوبيليف نائب رئيس السوفييت ، تحاشياً لمجازر اخرى وتلافياً لفرق
آمال الثورة في عار الدم .

أنهاسعة الهيجان المحموم واللامسؤولية . ومع ذلك ما يزال هناك في
اقاصي الارض ، في معسكرات سيبيريا ، كما في المهاجر الاوروبية الغربية ،
رجال لم يقنعهم هذا النصر ، ومصرون على عدم قلب صفحة الكفاح
الرومانسية : البلاشفة .

(٣٦)

أنهى نيقولا صلاته المسائية في المصلى الثر بالأيقونات وبصور التقوى
والورع في القطار الصفر . ودارت عجلات القطار الخاص نحو أبراج قصر
الكرملين الصغير في بسكوف . ولكن وجود قوات نائرة قريبة حتم على
القطار التوقف في دنو . وأبرق القيصر ، الذي ذابت حكومته بكل ما في
الكلمة من معنى تحت ضغط الاحداث ، الى رودزيانكو طالباً منه الانضمام
إليه للتشاور حول الموقف .

وفي بيروغراد لم يتغير مظهر الشارع كثيراً في صبيحة ١٤ آذار الثلجة
بلك . فالصقيع يدثر الأشجار ، والثلج يحجب الشوارع بطبقة بيضاء .

والمهرجانات الخطابية تقام في الهواء الطلق ، عند زوايا الشوارع . وللكلمة
حظوة هائلة في هذا البلد الذي لا يعرف ٨٠٪ من سكانه القراءة او الكتابة .
والجنود العصاة ، الذين لا يفارقون العمال المسلحين ، متشبثون باحتلال
المباني الرسمية . وقد وقعت الاميرالية وسجن شلوشلبرغ الرهيب في ايدي
الثوار في ساعة واحدة . وكانت الثورة ما تزال كما وصفها الجنرال دينيكنين :
— حركة بلا رأس ، مؤلفة من عناصر منفلتة بلا هدف ولا خطة ولا
شعارات .

واستقبل رودزيانكو في قاعة كاترين مندوبي حرس كرونشتاد البحري .
وكان على رأسهم الدوق الكبير سيريل .

امام الدوما كان الشعب محتشداً ليعرف في سبيل من ولماذا قاتل . ولكن
الأنباء « تتسرب من قصر بوتمكين . والسوفييت في انعقاد دائم . وقد ارتفع
عدد نوابه من مئتين في المساء الاول الى ثلاثة آلاف .

وفي قاعة مجاورة كان النظام مستتباً ، بالرغم من التعب ، داخل لجنة
الدوما المؤقتة . وكان بول ميليكوف ، السيد المطلق للنواب الليبراليين ،
يريد في آن واحد ان يثبت الحكومة المؤقتة وأن يحصل على تنازل القيصر
وان يبقي على النظام الملكي وان يقاوم تدخل السوفييت في الشؤون العامة .
ولم تكن الجمعية الشعبية تريد السلطة ، ولكنها كانت تغزو مراكزها
محتلة مصرف الدولة والمحطات والبريد والمطابع .

وولدت سوفييتات جديدة في كل أرجاء روسيا ، وشكلت لجان ثورية
في المصانع والثكنات والمزارع . ووضعت نفسها كلها تحت سلطة سوفييت
بيتروغراد .

كان رحيل رودزيانكو الى دنو حيث ينتظره نيقولا الثاني اول سبب

للصدام بين الدوما والسوفييت . فقد رفض عمال سكك الحديد تشكيل قطار كما طلبت الجمعية البورجوازية إلا اذا وافقت اللجنة التنفيذية للجمعية الشعبية . ووقف السوفييت موقفاً متصلباً . لن تكون هناك لا قاطرة ولا عربة لروديانكو وانصرفت بضع دقائق ، ثم دلف الى قاعة اللجنة التنفيذية وجل منهنك ، شاحب ، يرغي ويزبد غضباً ، وقال :

— ماذا فعلتم ؟ أضنتم بالقطار ... مع ان روديانكو كان ذاهباً ليطلب من نيقولا ان يتنازل . انكم ستتحملون مسؤولية هذا العمل .

وتهاك الرجل الغاضب على أريكة ، فاقداً الوعي . انه كيرنسكي الذي انهكته ثلاث ليالٍ من السهر . ثم ثاب الى رشده ، وعاد الى الكلام ، ونجح في إقناع اللجنة . ولكن بعد فوات الأوان ، فقد غادر القطار الصفر دنو .

*

تداولت الدوما سراً لتشكيل حكومة . ووضع السوفييت لأئحة شروط دعمه للوزارة الجديدة . وكانت كل من الجمعيتين عاجزة عن الحكم بدون مساعدة الأخرى . ولكن سياستيهما متباعدتان تباعد أصليهما . فالدوما تفضل ان تستمد سلطتها من عهد ملكي جديد تكون وصية عليه على أن تستمدها من الشعب . والسوفييت يريد ان يكون المصدر الطبيعي للسلطة الجديدة . فشهداء الثورة هم شهداؤه ، وبالتالي فإن النصر نصره . ملكية تحت الوصاية ؟ انه حلم الليبراليين المجنون الثاني ...

ولم يكن السوفييت والدوما قد تطرقا بعد الى اي موضوع سياسي : السلم أو الارض أو الجيش . وكان كل من الجهازين يعمل بدون دراية الآخر على تحديد الروابط المستقبلية لاتحادهما الحتمي واللامشروع .

ان رجلاً واحداً يستطيع مساعدة الثورة على الخروج من المأزق . وهو يتكلم ، بالرغم من انتمائه الى لجنة الدوما المؤقتة ، عن السوفييتات بوصفها «قوالب بدائية ، سياسية ، واجتماعية ، يمكن للسيل البركاني الثوري الجارف

ان يجري فيها حتى يبرد . وهذا الرجل هو كيرنسكي المثبت قدميه الاثنتين على قاعدتي السلطة الوليدة .

وقد صرح لتيقولا سوخانوف عندما صادفه في ممرات توريدا :

— انهم يقترحون علي وزارة العدل ...

ولم يخف عنه سوخانوف استهجاناه :

— على الاحزاب الديموقراطية ان تترك مسؤولية الحكم الكاملة للبورجوازيين الليبراليين . ولجنة السوفييت التنفيذية لن تمحضك ابدأ ثقتها .

وبلع كيرنسكي مرارته ولم يفه بشيء عن نياته النهائية .

ولما اصبح التواجه بين الجمعيتين أمراً لا مناص منه ، كلف الصناعي التقدمي نكراسوف بدعوة السوفييت . واتفقت اللجنتان على اللقاء في مساء اليوم نفسه ، ١٤ آذار ، عند منتصف الليل .

*

في الساعة العشرين وصل القيصر الى بسكوف حيث كان ينتظره الجنرالان الكسييف وروسكي .

وفي الساعة نفسها كان المحامي المتبلشف ن . د . سوكولوف منحنيماً على طاولة في توريدا ، محاطاً بالجنود والعمال ، يكتب تحت إملائهم ، حرفاً حرفاً ، بياناً هو بمثابة ثورة في الثورة : الأمر رقم ١ :

« الى حامية منطقة بيتروغراد . الى جميع جنود الحرس والجيش والمدفعية والأسطول ، بغرض التنفيذ الفوري والحازم ، والى عمال بيتروغراد بغرض الإعلام :

مجلس النواب العمال والجنود يقرر :

١ — في جميع الفرق والألوية والكتائب والرحبات والبطاريات وكواكب

الخيلة والادارات العسكرية من كل الانواع ، وعلى ظهر سفن الأسطول الحربي ، يتم فوراً ، عن طريق الانتخاب ، اختيار لجنة ممثلين بين جنود الوحدات العسكرية المذكورة آنفاً .

٢- في جميع الوحدات العسكرية التي لم تحتر بعد ممثلها الى سوفيات النواب ، يجري انتخاب ممثل عن كل فرقة ، ويتقدم بعد انتخابه الى دوما الدولة في ١٥ آذار الجاري في الساعة العاشرة صباحاً حاملاً شهادات خطية .

٣- تخضع الوحدة العسكرية في كل افعالها السياسية لسوفيات النواب العمال والجنود واللجانة .

٤- اوامر اللجنة العسكرية التابعة لدوما الدولة يجب الا تنفذ إلا في الحالات التي لا تكون فيها متناقضة مع اوامر وقرارات سوفيات النواب والعمال والجنود .

٥- الأسلحة من مختلف الانواع كالبنادق والرشاشات والسيارات المصفحة الخ يجب ان تكون موضوعة تحت تصرف ورقابة لجان الفرق والألوية ، ولا تسلم في اي حال من الاحوال للضباط حتى ولو طلبوها .

٦- من حيث الرتبة واثناء الخدمة يتوجب على الجنود التقيد بالانضباط العسكري الصارم . ولكن لا يمكن البتة المساس بالحقوق التي يتمتع بها الجنود بصفتهم مواطنين خارج الرتبة والخدمة وفي حياتهم السياسية والمدنية والخاصة . وتلغى بوجه خاص خارج اوقات الخدمة وقفعة الاستعداد والتحية الإلزامية عند مرور ضابط .

٧- تلغى ايضاً ألقاب الضباط : سعادتك ، نبالتك ، الخ ، وتستبدل بـ : سيدي الجنرال ، سيدي الكولونيل ، الخ .

ان إساءة معاملة الجنود ولا سيما مخاطبتهم بضمير المفرد محظرة على الضباط مهما تكن رتبهم . والجنود مسؤولون عن إطلاع لجان الفرق على كل خرق لهذا الأمر وعلى كل سوء تفاهم بينهم وبين الضباط .

ينشر هذا الأمر في جميع الفرق والألوية والكتائب والسفن والبطاريات
وسائر الخدمات المسلحة والمساعدة .

سوفيت الثواب العمال والجنود في بيتروغراد .
ونقلت أسلاك البرق الأمر رقم ١ وطبعته الآلات الطابعة ، وجرى نشره
بدون مشورة الدوما ، وقضي على كل ما تبقى من انضباط في الجيش .

اجتاح الزخم الثوري موسكو من غير ان تراق فيها قطرة دم واحدة .
وبقي النظام مستتباً في الحامية بفضل ضابط ليبيرالي : الجنرال الكسندر
فيرخوفسكي . والحق ان فيرخوفسكي ليبيرالي منذ أمد بعيد . فهو الذي كسر
القيصر رتبته عندما تجرأ في شبابه على الكتابة اليه طالباً لإصدار دستور . ثم
استعاد فيرخوفسكي رتبته في ميدان القتال ضد « القروء » اليابانية . وكان قد
رقي الى مرتبة جنرال منذ اسابيع ، وقد ترك فتيل الثورة يشتعل دون ان
يتدخل لإطفائه .

وأحرقت مكاتب الاوكرانا . ومنعت الجموع رجال الإطفاء من الاقتراب
حتى تأتي النار على الملفات والأضابير فلا تندر منها شيئاً .

وفي شقة معتمة في موسكو وضع صديق قديم للشرطة القيصريه حداً لأيامه .
فقد اطلق زوباتوف ، مؤسس الاتحادات العمالية المناصرة للحكومة في عام
١٩٠٥ ومقنع الأب غابوني بجذوه حذوه ، رصاصة من مسدسه على صدغه .
وقد احتل مورالوك ، البلشفي المخضرم والعملاق الشجاع والمهندس
الزراعي فطرة وميلاً ، النقاط الاستراتيجية من المدينة ، بلا مقاومة . ثم فتح
ابواب السجون .

وكفّ اخيراً دزرجنسكي ، الملقب بفيلكس الحديدي ، عن سماع
صليل الأغلال الذي لا يطاق . وقد غادر فارس الثورة ، الذي اشتهر بطولته
مع انتونوف - الحربة اثناء ثورة بولونيا ، وعضو اللجنة المركزية للحزب

البشفي ، غادر الزنزانة رقم ٢١٧ في سجن بوتيركي مكلل الهامة بالفخار . وقادته شاحنة مضاءة بالمشاعل ، تسير ببطء بين كوكبة من الطلاب ، الى دار البلدية حيث أمضى اولى ليالي الحرية . ولكن دزرجنسكي ، الذي كان يُشبّه في مراقبته برفائيل ، يحمل الآن آثار المرض بادية على وجهه ، إذ ان السل تمكن من رثته في ليل الاعتقال .

ومن صباح اليوم التالي سيستأنف فيلكس دزرجنسكي الكفاح ، فيتجول في موسكو في قميص السجن ، ملقياً خطبه الاولي في الجماهير .

*

منتصف الليل . انها ساعة موعد الشعب مع البورجوازيين . وقد سمي سوفيت بيتروغراد كلاً من سوخانوف وستكلوف وسوكولوف وتشخيدزه ليجتمعوا بأعضاء لجنة الدوما المؤقتة . وكان رودزيانكو ، أطول واضخم رجل في روسيا ، في انتظارهم . وكان ميليكوف منعكفاً على كدسة من البرقيات . وكان في قاعة الجلسات ايضاً كل من الامير اوجين لفوف ، الأمير الليبرالي ورئيس اتحاد الزيمستفويات ، وباسيل فيتالييفيتش شولغين ، المحرر في صحيفة بوريشكيفيتش القديمة الناطقة بلسان « المثة السود » ، ونيقولا فيساريونوفيتش نكراسوف ، والثري الكسندر ايفانوفيتش غوتشكوف ، وكيرنسكي .

وتمّ الاتفاق بلا مناقشة على إطلاق حرية التعبير والمذهب وعلى إصدار عفو عام عن كل الجرائم الزراعية والعسكرية والارهاية . ولكن اسم رومانوف آثار اول خلاف . فقد خيل لميليكوف ان تنصيب الكسيس قيصرأ وميشيل وصياً عليه يمكن ان يطمئن البورجوازيين والملكيين من السكان واطواً واسعة من الشعب في آن واحد . وقد قال :

— الاول طفل مريض ، والثاني أبله .

لكن تشخيدزه وسوكولوف وصفا المشروع بأنه غير مقبول .

واذا كان السوفييت والدوما قد وجد نفسيهما متفاهمين على ضرورة متابعة الحرب حتى النهاية المظفرة ودونما مطمع في غزو او فتوحات ، إلا ان اقتراحاتهما بصدد إعادة تنظيم الجيش كانت متعارضة تعارضاً تاماً .

وكان من اسباب الخلاف الأخرى توزيع الارض .

وثناء الجلسة جاء ضابط برتبة كولونيل ليخطر رودزيانكو بأنه مطلوب على الهاتف من بسكوف ، على الخط المباشر لهيئة الاركان التي يواجه مقرها قصر الشتاء . وقال رودزيانكو :

– ليعطي السادة نواب العمال حرساً لاجتياز المدينة . ان لديكم القوة والسلطة ، وفي وسعكم اعتقالي .

وبعد ان تم له ما طلبه تكلم رودزيانكو بالهاتف مع الجنرال روسكي . وشرح له الموقف بالتفصيل وقال :

– ان التنازل محتم . ولكن لم يقرر شيء بصدد السلالة المالكة .

وثناء ذلك أعلنت اسماء اعضاء الحكومة المؤقتة لنواب السوفييت :

– رئيس الوزارة ووزير الداخلية : الامير اوجين لفوف .

– الشؤون الخارجية : بول ميليوكوف .

– الحربية والبحرية : الكسندر غوتشكوف .

– طرق المواصلات : نيقولا نكراسوف .

– التجارة والصناعة : أ . إ . كونوفالوف .

– المالية : م . إ . نيريشتشنكو .

– الزراعة : أ . إ . شنغارييف .

– العدل : الكسندر كيرنسكي .

– التعليم العام : أ . أ . مانويلوف .

– وكيل المجمع المقدس : ف . ل . لفوف (لا صلة قريبي له بالأمر

لفوف) .

وقد تبرأ الاثراكيون من كيرنسكي ، وهو لن يمثل غير نفسه في الوزارة اذا ما قرر البقاء فيها .

ولم يرتح السوفييت الى اسم غوتشكوف ، الرجل اليميني المتطرف . أما تيريشتشنكو فلا يعرفه احد . ووضعه كزعيم من زعماء صناعة السكر ، وثروته المقدرة بـ ٨٠ مليون روبل ذهبي ، وولعه بالباليه وبكواليس المسارح ، كل هذا لم يكن مما يجعله محبباً الى القلوب مقدماً .

وأثقل النعاس بوطأته على المتفاوضين . واقترح ميلوكوف :
— لنعد في الساعة الخامسة صباحاً .

وافترقت الجمعيتان بعد ان قررتا ترك حسم المشكلات الاساسية لجمعية تأسيسية قادمة تنتخب من قبل الشعب جميعاً . وتبنت السلطة الهجينة كلمة نابليون التي طالما كان لينين يجب ترديدها : نباشر اولاً .. ثم نرى .

*

والتقى الليبيراليون فيما بينهم من جديد . وعاد رودزيانكو سليماً معافى من قلب العاصمة . وكان الليل على وشك ان يطوي رحاله ، ولكن المفاجآت لم تكن إلا في بدايتها .

وحُمل الى رئيس الدوما بإعلان ما يزال ندياً . وعند قراءته تجمد الدم في عروق الليبيراليين جميعاً : الأمر رقم ١ ...
وهتف احدهم :

— لقد خاننا السوفييت .

أما السوفييت فقد حمل اليه احد الزوار منشوراً ، وتعالت الهتافات :
« ليسقط عملاء رومانوف ! » .

وكان المنشور نداء صريحاً الى متابعة اعمال العنف . وقال نائب عمالي :

– لقد غدروا بنا . أنهم يريدون تحطيم تفاهمنا مع الدوما . يجب ان يوقف فوراً توزيع هذا المنشور .

وأجريت عمليات تنقيب . واكتشف مخزون المنشورات في أحد مكاتب قصر توريدا ، تحت حراسة مؤلفها: مولوتوف . وبعد مناقشة حادة سلم البلشفي الشاب الأوراق المطبوعة الى سوخانوف . وفي طريق عودته الى قاعة السوفييت التقى سوخانوف بكيرنسكي المنهد القوى والشاهر في يده الأمر رقم ١ قائلاً :

– هوذا ما كتبه سوكولوف . انه نداء الى ذبح الضباط . ان لجنة الدوما لا تقبل بهذا الأمر .
ثم اضاف كيرنسكي :

– اننا نقدر انه يستحيل في هذه الظروف تشكيل حكومة .

وكانت اعضاء قصر توريدا قد بهتت مع مطلع النهار عندما عاد مندوبو السوفييت الى قاعة الدوما في الساعة الخامسة حسب الموعد . وكانت القاعة ممتمة . وكان ميليوكوف وحيداً ، يكتب على نور مصباح مكثي . وقال بتعب :
– ما عدت استطيع الاستمرار . سوف نتابع غداً .

(٣٧)

كان لينين ، في شقته بزوريخ ، المتقشفة والبسيطة شأن كل الغرف التي مر عليها في حياته ، يستعد للخروج والذهاب الى المكتبة البلدية ، بعد ان ازدررد وجبة طعامه . وكانت كروبسكايا قد أنهت غسل آنية المائدة عندما قرع الباب .

كان الزائر ثورياً بولونياً ، برونسكي ، جاء بشيراً بالنبا العظيم ، منبهر الانفاس :

— لقد اندلعت الثورة في روسيا . وآل رومانوف على وشك السقوط .
ولبث فلاديمير ايليتش كالمذهول وشحب لونه . وبصورة آلية تناول
قبعته ، وضم معطفه القديم المرفوع ، آخر هدايا أمه ، وخرج يستطلع الأخبار .
ورن وقع حذائه ذي المسامير على بلاط الأزقة المنحدرة نحو البحيرة . وتأكد
لينين من حدوث الحدث التاريخي من لوحة اعلانات « صحيفة لوزان » .
وهتف :

— أعظم به من عذاب ان تبقى هنا في مثل هذا الوقت !

وأبرق لينين الى زينوفييف في بيرن لينضم اليه على وجه السرعة . ثم اختلى
بنفسه ، وتناول ماعوناً من الورق الابيض ، وشرع يكتب اولى « الرسائل
الخمسة من بعيد » الموجهة الى لجان الداخل عن طريق الكسندر كولونتاى ،
صلة الوصل بستوكهولم .

ولم ينسَ لينين لحظة واحدة الهدف الثوري الأعظم : « إن السوفييت
هو جنين السلطة العمالية ، وممثل مصالح جماهير السكان الفقيرة كلها ، اي
٩٠٪ . ومن الواجب توسيع الحركة ، وإثارة فئات جديدة ، وإيقاظ مباديات
جديدة ، وبعث الحياة في تجمعات جديدة ، والاثبات لها ان سوفييت النواب
العمال هو وحده القادر على تحقيق السلم اذا ما أخذ السلطة والسلاح بيده » .

•

في فيلا جميلة على تلال سان ريمو المزهرة ، كان سادة البيت ما يزالون
مجتمعين حول المائدة . ودخلت الخادم :

— الصيدلي يعلمكم ان الثورة اندلعت في روسيا .

وحافظ جورج بليخانوف ، الذي يقدم كل سنة الى الريفييرا الايطالية
لمعالجة سله ، على هدوء مدهش ، وأنهى غداءه بصحبة زوجته وابنتيه اللتين
عمرهما بعمر منقاه : ٣٤ و ٣٦ سنة .

وبعد ذلك ببضع دقائق تقدم أبو الماركسية الروسية على قدميه في الشوارع المنحدرة نحو قلب المدينة ، مفتشاً مثل لينين عن توكيد حسي ، مكتوب ، للنبا العظيم . وقد وجده هو الآخر في لوحة اعلانات صحيفة محلية .

ولم يعد زعيما الاشتراكيين – الديموقراطيين يفكران إلا في الرحيل من زوريخ وسان ريمو ، الرحيل الى روسيا ، الرحيل بأسرع ما يمكن .

*

في ١٦٤ من شارع برونكس بنيويورك هللت وكبرت فرحاً جماعة من الاشتراكيين الروس المهاجرين عندما علمت نبأ ثورة بيتروغراد . والتاع قلب تروتسكي شوقاً الى مسقط رأسه ، روسيا .

كان يعمل صحفياً ومحاضراً ، ويواجه أواخر الشهر الصعبة بأداء ادوار تمثيلية ثانوية . وقد لعب بلا موهبة دور رئيس محطة في مسرحية « زوجتي موظفة » وقد أسس في نيويورك صحيفة « نوفي مير » (العالم الجديد) مع البلشفي نيقولا بوخارين الملقب بـ « الابن العزيز » ومويس . ماسكوفيتش فولو دارسكي ، عضو الحزب الاشتراكي اليهودي ، البوند ، الهارب من روسيا ، والحياط في الوقت الراهن .

والهدف بالنسبة الى جميع هؤلاء المهاجرين الذهاب الى حيث اشتعل الحريق ، والوصول قبل ان ينطفئ الموقد تحت الرماد كما حدث في عام ١٩٠٥ .

*

في القطب الآخر من المسكونة ، في سيبيريا التي ما تزال منكمشة على نفسها من البرد ، استعد ستالين وكامينيف للسفر الى بيتروغراد بدون انتظار صدور العفو الرسمي . وضجت سهول آسيا بصليل الأغلال المحطومة .

وبعد رحيل ستالين بقليل سافر يعقوب سفيردولوف ، ابن النقاش المتواضع

في نيني - نوفغورود ، وصديق غوركي ، وعضو اللجنة المركزية البلشفية ،
سافر من كوريكو مع زوجته وطفليه . وسوف يتوقف الرفيق اندريه في
الاورال ، ميدان عمله في عام ١٩٠٥ حيث ستستمع الجماهير من جديد الى
صوته الجهير .

وفاجأت الثورة اندريه سيرجيفيتش بوبنوف في سجن مرحلي في منطقة
طوروهان . وقد بكى انفعالاً عندما جاءه نبأ انتصار سوفيت بتروغراد .
وتذكر انه كان ، قبل اثني عشر عاماً ، أول من أوجد أول سوفيت في
روسيا ، سوفيت ايفانوفو ، مع رفيقه ميشيل نيقولايفيتش فرونزه .

*

لم يغادر نيقولا الثاني بهوه المفروش بالحرير الاخضر الفاتح . وارتدى
زي كولونيل في الكتائب القوزاقية . وقد نقل اليه الجنرالان الكسييف وروسكي
الأبناء الواردة من العاصمة واستشارا قادة الجبهة . وهما يعلمان ان التنازل
محتوم وقد تحادثا عن ذلك مع نيقولا ملياً .

وأرسلت الدوما ، من دون علم السوفيت ، رسولين ملكيين الى الامبراطور :
شولغين وغوتشكوف ، عدو القيصرة اللدود (الذي رأته في الحلم يموت
اكثراً من مرة في حادث قطار) . لكن غوتشكوف الذي شهد من الأهوال
ما لا يوصف في حرب البوير استقل في يوم ١٥ آذار ١٩١٧ ذاك القطار
الى بسكوف من غير ان يقع له اي حادث .

في الساعة ١٥ حرّ نيقولا الثاني ووزير البلاط فريديريكس والحاشية
المرافقة له في سفره ساجدين امام ايقونة . ورسم القيصر إشارة الصليب ،
وقال مخاطباً تابعيه :

— لقد قرّر قراري .

لقد قرّر قرار الامبراطور على التنازل لصالح اخيه الدوق الكبير ميشيل
الكسندروفيتش ، خارقاً بذلك قوانين الامبراطورية الأساسية وتقاليد آل

رومانوف كما وضعها بول الأول ، حارماً بذلك القيصر ، المريض ، من حقه في الخلافة .

واخيراً عيّن عمه الدوق الكبير نيقولا نيقولايفيتش الذي كان قد أقاله في ايلول ١٩١٥ كبيراً للجنراليات .

*

في قصر توريدا تسير الأمور سيراً بطيئاً وثيداً . والحكومة المؤقتة لم يعلن عنها بعد . ومع ذلك فقد خاطب ميليوكوف الشعب الذي بدأ صبره يفرغ ، وكأنه (اي ميليوكوف) الرجل الذي بيده الحل والربط :

— ان الاوساط الممالكة هي الأوساط المنظمة الوحيدة اليوم . وسوف توفر لسائر فئات الشعب الروسي امكانية تنظيم نفسها بدورها .

وفي قاعة السوفييت أنهى ستكلوف خطابه عن مسألة السلطة . وانتصب كيرنسكي ، الذي لم يلمحه احد وهو يدخل ، انتصب شاحباً ، منفعلاً ، فوق احدى الطاومات كالشيطان ، وصاح :

— يا رفاق ، ان لكم ثقة في . ولقد اضطررت الى الموافقة ، بدون انتظار قراركم ، على المشاركة في الحكومة الجديدة كوزير للعدل . وكان همي الأول العمل على إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين وعلى إرجاع النواب البلاشفة المعتقلين منذ عام ١٩١٤ من سيبيريا محاطين بكل التكريم السذي يستحقون .

وقوبلت كلمة كيرنسكي بالهتاف والتصفيق . ونال من هيئة السوفييت التفويض الذي ضنت به عليه اللجنة التنفيذية .

*

القيصريعيش آخر لحظات مُلكه . وقد آن الأوان للتكفير عن أزمان من هم على شاكلة بليخفي وترييوف وبروتوبوبوف وراسبوتين .

وفي القصر الذي اهداه الى كشنسكايَا حتى تكون دوماً تحت بصره من نوافذ قصر الشتاء ، أقامت الغانية المشهورة مآدبة عشاء لثمانين مدعواً . وعلى المائدة المزينة بالزنبق والمخمرات ، صفت راقصة الباليه اجمل آنية تملكها ، ومن بينها أقداح ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة كان نيقولا الثاني قد اهداها اياها بمناسبة انتقالها الى مقامها الجديد ، وصحاف مذهبة منسوخة عن صحاف كاترين الكبيرة أهداها اياها احد أنسباء الامبراطور ، الدوق الكبير ميشيل الذي ستزوج منه ذات يوم ...

وفي قصر توريدا العابق بدخان السجاير والمصم من شدة اللفظ والضجيج ، وقعت الجمعبتان ، تحت ضغط الشعب ، اتفاقاً تحاشى طرح المشكلات الكبيرة . واعلنت الحكومة المؤقتة رسمياً في شكلها المبدي ، في اللحظة التي كان فيها شولغين وغوتشكوف يتقدمان من ابواب القطار الصفر المتألىء بالأضواء . وكان القيصر هادئاً الى حد غير مألوف . ولم تكن كسمات وجهه الجامدة تعبر إلا عن استسلام للمقدر والمكتوب . وأدخلت بعض تعديلات على صك التنازل الذي كان معداً سلفاً ، ثم نسخ بالآلة الكاتبة على وريقات تحمل شارة الستافكا . واقنع شولغين وغوتشكوف القيصر بتسبيق تاريخ توقيع العكاظ حتى يأخذ تعيين الامير لفوف رئيساً للوزارة الصفة الشرعية .

وفي منتصف الليل إلا اثنتي عشرة دقيقة وضع نيقولا الثاني إمضاءه بالقلم في أسفل صك التنازل . ودعي وزير البلاط فريديريكس الى التوقيع عليه بالحبر بوصفه شاهداً .

وعندما ناول القيصر صك التنازل لشولغين ، قال هذا الاخير :

— لو ان جلالتكم فعلتم ذلك قبل الآن ، فلربما ...

ولم يستطع الكاتب متابعة عبارته ، إذ احتبست الكلمة في حلقه . فهب القيصر الى نجدته قائلاً ببساطة بالغة :

— هل تعتقد انه كان في الامكان تجنب ذلك ؟ هل كنت على خطأ من

أمري طوال اثنين وعشرين عاماً ؟

وودع الجنرالان الكسييف وروسكي الرسولين :

— بود الامبراطور ان يذهب الى هيئة الاركان في موغيليف ليحجي للمرة
الاخيرة معاونه في القيادة العامة .

فأجاب غوتشكوف :

— فليذهب .

وانسحب نيقولا الى مقصورته بجلال وتعب باد . وكانت حصيلة ملكه :
حريين وثورتين ومذكرات ذاتية مليئة بتوافه الأمور ، مذكرات فتحها في
ذلك المساء ، ١٥ آذار ١٩١٧ ، يسجل فيها : « لا شيء حولي الا الخيانة
والعار والجن » .

وعند الفجر تحرك القطار الامبراطوري باتجاه الجنوب .

*

اذاع الدوق الكبير نيقولا ، المقلد أرفع السلطات على الجيش ، بلاغاً
ضمنه ما يلي :

— لقد سلمت السلطة الى الحكومة المؤقتة من اجل صالح الوطن . وقد
اعترفت ، انا كبير الجنرالات ، بها ، ضارباً بذلك مثال واجبنا كعسكريين .
لكن الأمر رقم ١ كان قد ذاع بمثل ملح البرق ، وتسرب الى الخنادق ،
وراح الضباط ، الخاضعون لرقابة لجان الجنود ، يلاقون صعوبات متزايدة
في فرض النظام والطاعة .

والحكومة تعلم انها لا تملك اي حظ في الاستمرار اذا ما بقي الجيش
خاضعاً لإمرة السوفييت وحده . فكان اول تدبير اتخذته أن عينت على رأس
منطقة بيتر وجراد ضابطاً ذا حظوة وسطوة . فبعد ان أقالت خابالوف واعتقلته ،
سمت مكانه الجنرال الآسيوي العينين ، الأسطوري الشجاعة ، لافر

كورنيلوف الذي شهره فراره البطولي من النمسا . ولكن السوفييت استقبل تعيينه بعين غير راضية لأنه كان يرى فيه متأماً قادراً على إقامة دكتاتورية عسكرية لإرضاء لمطامحه السياسية . بيد ان ما تم تم ولا عودة عنه . وكان كيرنسكي هو الوحيد بين جميع الوزراء القادر على الاحتجاج على هذا الاختيار . ولكنه تذكر تلك الاعوام المنصرمة في طشقند حيث كان كورنيلوف ، الضابط الشاب ، صديقاً للأسرة .

وعادت شوارع بيتروغراد الى سابق هدوئها . وكانت الدوما- هي آخر مراكز الهيجان . فمجرة الغضب ما تزال تتصاعد من أروقتها ضد آل رومانوف ، وضد الدوق الكبير ميشيل غير المرغوب فيه قيصراً ، وضد الامبراطورة المنحوسة ، وضد نيقولا الذي بقي طليق السراح . ولما أصرت الحكومة على عدم تلبية المطلب الاخير ، تولى المبادرة نائب من الجناح اليميني ، الكسندر بوبليكوف الذي عينته لجنة الدوما المؤقتة مفوضاً في وزارة المواصلات . فقد وجه الأمر التالي الى جميع المحطات :

— الى الجميع ، الى الجميع ، الى الجميع . أوقفوا القطار الامبراطوري حيثما يكتشف .

وفي الوقت نفسه أقنع ممثلو الدوما ، ومن بينهم الامير لفوف ورودزيانكو وكيرنسكي ، الدوق الكبير ميشيل بالتنازل عن حقه في التاج . وخرجت الملكية الروسية من التاريخ .

(٣٨)

استنجدت الكسندرا فيودورفنا ، المنقطعة عنها الاخبار ورسائل زوجها منذ يومين ، بنسيبها الدوق الكبير بول . فوصل في ساعة مبكرة جداً من صباح ١٦ آذار الى قصر الكسندر في تساركوي — سيلو . ومن دون ان يفوه بكلمة واحدة بسط تحت نظر الامبراطورة نسخة من « الازفستيا » النشرة نبأ التنازل . وصاحت الكسندرا :

— هذا مستحيل ، هذا كذب !

وتصاعد في الوقت نفسه من الحديقة ضجيج وهتاف . فقد وقف جنود قفقاسيون ، بالقرب من نبع شمشون الذي أحرس الجليد خريره ، يهتفون لكورنيلوف الذي قدم لرؤية الكسندرا باسم الحكومة المؤقتة . ولم تمنع القيصرة بتاتاً في دخول « بطل العديد من المعارك ، وأحد الوجوه البارزة لأمجاد جيشنا القهار » الى صالونها الخاص المفروش بسجادة فاخرة مهداة لها من فرنسا كالنبؤة ، ماري — انطوانيت وأولادها .

وقالت القيصرة التي كانت ترتدي ثوباً أسود :

— أمن الممكن ان تكون جمهورياً ، يا جنرال ؟

— اني روسي ، يا سيدتي . وسوف أقرأ عليك القرار الذي اتخذ بشأنك وبشأن الكولونيل رومانوف .

— من هو الكولونيل رومانوف ؟

— انه الامبراطور السابق ، يا سيدتي ...

« إن الآتي ذكره أدناه ، القيصر نيقولا الثاني وزوجته ، قد حرما من حريتهما . وسيقتاد الاول الى تساركوي — سيلو ... » .

وكانت الحاشية الامبراطورية قد تجمعت في الدهليز عندما خرج كورنيلوف . ولما لاحظ الجنرال غياب النجية ، السيدة فيروبوفا ، قيل له :

— انها طريحة الفراش بسبب الحصبة .

فقال كورنيلوف :

— الحصبة تعالج ايضاً في « بطرس وبولس » .

ورجا المشرف الجديد على القصر ان يبادر الى اعتقالها .

*

شرع الثوريون البلاشفة او المتبلشفون ، الذين أقصاهم تطرفهم الى أرجاء المعمورة الاربعة ، بمسيرة العودة الكبيرة . وتحركوا فرادى او جماعات الى بيروغراد . وكان عليهم ان يعبروا جبلاً او محيطات ، حدود عالم متحارب . والأبناء الشرحون اليها اكثر من الطعام تبعد كل يوم أملهم بالوصول في الوقت المناسب لرؤية بصيص الثورة الأخيرة . فالعاصمة قد استردت هدوءها . والبلاغات لم ينقطع سيلها من تاريخ التنازل الى نهاية آذار . وقال لينين : « ان عربة سلالة رومانوف ، الملطخة بالدم والوحل ، قد هوت من الضربة الاولى » .

ولكن هذا غير كاف . وما الإطاحة بنيقولا إلا بريق العاصفة الاول . والصاعقة لم تصعق بعد من يجب ان تصعق . وقال تروتسكي عن كيرنسكي : « هذا الحقوقي الشاب الذي ليس له من وزن يذكر في ميزان الثورة والذي يحامي ببريق المغنيسيوم عن نفس المصالح التي يحامي عنها ميليوكوف » . وقال فلاديمير ايليتش بمزيد من العنف ايضاً : « كيرنسكي وزيراً ، انها خيانة لقضية الثورة والبروليتاريا » .

وروى الشعب ظمأه الى الانتقام . فنبشت جثة راسبوتين المحنطة وأحرقت ، وألقي برمادها الى الريح .

وفي « بطرس وبولس » حيث يعج السجن بالفراغة ، لقب المخبرين من عملاء الاوكرانا ، كانت ساعة الحائط ما تزال تعزف كل ربع ساعة انغام المزامير ونشيد « ليحفظ الله القيصر » . وكان دوستوفسكي الذي سجن قبل نصف قرن من الزمن في حصن تروبتسكوي قد كتب : « ليس في العالم شيء يؤلم مثل هذا الجرس الذي يشير ست وتسعين مرة في اليوم الى بظء الزمن » . ولكن الجرس ما عاد الآن يقرع لآذان الثوريين .

وفي المدارس اخذت هيئة التعليم تتساءل عم اذا كان يجب استبدال الصلاة بنشيد « ليحفظ الله الحكومة المؤقتة » ...

ورحل ايغور سترافنسكي ، الذي كان موجوداً في سويسرا مع الكاتب السويسري راموز ، الى روما حيث اقام دياغيليف حفلة روسية لصالح الصليب الأحمر الايطالي. وأثار موضوع عزف النشيد القومي مشكلة . وعنت لدياغيليف فكرة استبدال « ليحفظ الله القيصر » بالأغنية الشعبية « نوتية الفولغا » : وكتب سترافنسكي توزيعها في ليلة واحدة .

وفي بيتروغراد سادت السكينة التامة . وعادت المصاييح الزرق الصغيرة لتضيء ليلاً فوق نهر النيفا المتجمد ، تنبيهاً الى مناطق العبور المأمونة . وسارت الحافلات الحمر والعربات . واستأنفت المسارح حياتها . وفكر اهل الكواليس بأن لهم هم ايضاً دوراً يلعبونه . ومثلت روشينا ، الكونتيسة ايغناطييف ، نجمة المسارح الامبراطورية ، « العاصفة » لأوستروفسكي .

*

جمع اوجين لفوف وزارته تارة في قصر ماريا ، كما في عهد النظام السابق ، وطوراً في وزارة الداخلية ، في قاعة المحاضرات ، تحت صور رؤساء الوزارة السابقين . وما كان النائب شنغاريف الذي اصبح وزيراً للزراعة ، يستطيع امساك نفسه عن تأمل هذه اللوحات بلا انفعال . وكان من بينها صورة بيير ستوليين ، خالق الكولاك الذي اغتيل عام ١٩١١ في مسرح اوبرا كييف . وتذكر شنغاريف تلك الحملة الرهيبة التي لفظها ذات يوم رئيس الوزارة :

— انهم سيقتلوننا جميعاً ، انت ، أنا ، وكل من يرتدي سترة .

ان نبوءة ستوليين ما تزال محتفظة بكل دلالتها . فالريف يتحرك . والمزارع تحرق . وقوانين ستوليين الزراعية ما تزال سارية المفعول . وقد أثار تطبيقها مناطق بأكملها . ففي سيبيريا طرد اهل البلاد الأصليون من اكواخهم ليحل محلهم بوجوازيو الارض الجدد الممولون من قبل الدولة . وقد قمعت الفتن بالدم والحديد . ولقد كان ستوليين بحاجة الى عشرين سنة من السلام

ليضمن النجاح لمشروعه . ولقد اختطفت حرب ١٩١٤ من الأرض عشرة ملايين من الموجيك ومليونى رأس من الخيل . والأزمة الزراعية خطيرة فادحة ، ولا حل لها قبل اجتماع الجمعية التأسيسية . وانهايت على شنغاريف انتقادات اصدقائه السياسيين بالذات . وقال عنه فلاديمير نابوكوف^(١) : « مثقف قروي لا على مستوى الدولة ، وانما على مستوى محافظة » .

وفي وزارة الحربية ضاع غوتشكوف بين شكاوى وانذارات رؤساء هيئة اركان الجبهة القلقين من السلطة التي منحت للجنود وبين مطالب السوفييت الذي يريد ان يبقي الجيش تحت سيطرته . وقد ارتقى مقاتل شاب ، قادم من الجبهة ، منصة الجمعية الشعبية وبين يديه كيس مليء بالأوسمة . وقال وهو يفرغه :

— هذا كل ما كسبناه بدمنا . ونحن نرهنه لدى السوفييت الذي لن نطبع غيره .

وتفاقت حوادث الفرار الجماعي ، ولا سيما بين المجندين الفلاحين الذين خافوا ان توزع الاراضي في غيابهم . واعلن الجيش الثوري استيائه من وجود دوق كبير على رأسه . وفاوض غوتشكوف على انسحاب نيقولاً نيقولاً ليفيتش الذي قبل بالتخلي عن منصبه الذي لم تمض فترة طويلة على تسلمه اياه . وعين مكانه الكسييف ، الجنرال المتواضع الأصل .

وفي وزارة الخارجية كانت العهود المقطوعة للحلفاء شغل ميلبوكوف الشاغل . وقد بادر الى طمأنة دول التفاهم ، من دون علم السوفييت .

ووجه السوفييت ، بهدف طمأنة أنصاره وتعديلاً لكفة التوازن المختل بسبب اتفاهه مع الحكومة المؤقتة ، نداء حرره غوركي : يا شغيلة جميع البلدان ، اننا نمد اليكم يداً أخوية من فوق جبال جثث أشقائنا وأنهار الدم

(١) : هو الحقوقي الذي حرّر صك تنازل الدوق الكبير ميشيل ، وأبو مؤلف «لوليتا» .

البريء والدموع وأنقاض المدن والقرى المدخنة ... يا بروليتاريي جميع البلدان ، اتحدوا ! » .

وفي وزارة العدل كان كيرنسكي يصارع لحماية حياة آل رومانوف المهدةة . وطلب السوفييت اعتقال الأسرة الساقطة . وبالمقابل طلب نيقولا عن طريق الجنرال الكسييف أن ينقل هو وجميع أفراد أسرته الى انكلترا . وقد قبلت حكومة لويد جورج بمنح حق اللجوء الى الأسرة المالكة الروسية . ولكن الملك جورج الخامس خشي ان يستاء حزب العمال من حضور أميرة ألمانية وان يتقوض بالتالي الاتحاد المقدس ، فسحب من نسيبه نيقولا الثاني الموافقة التي منحه اياها رئيس وزرائه .

وبقي الامبراطور بضعة ايام في موغيليف حيث شاهد أمه للمرة الأخيرة . وقد كلفت الحكومة المؤقتة بوليكوف ، كاتب رسالة « الى الجميع ، الى الجميع ، الى الجميع ... » ، بإبلاغ القيصر السابق بأنه أمسى سجين قصر الكسندر . ولكن الانفعال عقد لسانه لحظة هم بتنفيذ المهمة .

وصعد الجنرال العجوز الكسييف الى القطار بدلاً منه ، وأبلغ نيقولا ، ثم عاد الى بوبليكوف وتفرس في وجهه وقال بجفاء :
- لقد تم الأمر !

وربط مندوب الحكومة القطار الصفرة بقاطرته وتحركت . القافلة نحو تساركوي - سيلو . وعند مدخل قصر الكسندر مدّ الكولونيل رومانوف يده لضابط في الحرس ، فرفضها هذا بلا تردد :

- لقد ولدتُ من الشعب وعندما مد الشعب يده اليك ، امتنعت عن أخذها .

ووجد نيقولا في القصر أهله ، الشقراء الكسندرا التي يلقبها بالشمس الشارقة ، وأولاده الذين لم يبلوا بعد من الحصبة . ويوماً بعد يوم ازدادت صرامة النظام المفروض على هذا السجن الذهبي الذي قضى فيه آل رومانوف

أسعد أيام مُلكهم . وانصرف الامبراطور المخلوع الى المطالعة والتريض في الحديقة الملحقة بالقصر ، تحت حراسة الحراس . ولم يكن مسموحاً لالكسندرا ان ترى زوجها إلا على مائدة الطعام بحضور احد الضباط وبشرط الحديث بالروسية وحدها . وكان اهل الفضول من الناس يتجمعون عند باب القصر للفرجة عليهما .

وكان كيرنسكي يأتي بانتظام الى تساركوي - سيلو في سيارة كانت تخص الامبراطور ، يقودها سائق كان يخص الامبراطور ايضاً .

*

واجه الأمير لغوف ، رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، هو الآخر صعوبات في الحفاظ على النظام . وقد استبدلت الشرطة بميليشيا من الطلاب . وقام البلاشفة بغزو قصر كشنسكايا غداة المأدبة التي أقامتها لثمانين مدعوأً وقبيل تنازل نيقولا . وقد صودر القصر ، الذي كان يعتبر من أبلذ قصور بيتروغراد ، بوصفه رمزاً ساطعاً للغنى الامبراطوري . وكان في وسع المرء ان يلمح من نوافذه قصر الشتاء المهجور الذي لم يجزء احد بعد على ضمه الى مباني الدولة الجديدة . وعبثاً توسطت كشنسكايا لدى كيرنسكي والسوفييت . واصبح مقامها المقر الرسمي للحزب البلشفي الذي تمالك نفسه على حين غرة بعد صدمة الاحداث . فقد عاد ستالين من رحلة غير صاحبة . ولم يكن احد ينتظره . ولم يحتف به احد . وذهب على الفور الى مضيفه القديم في تفليس وبيتروغراد ، آليويف ، الذي كان بيته بمثابة أسرة له . وكانت ابنتا آليويف ، ناديا وآنا ، قد شبتا عن الطوق خلال هذه الاعوام الثلاثة من المنفى . وكان أحب شيء لنفسه ان يروي لهما في المساء ، وكما في الماضي ، مغامراته .

وقد وصل ايضاً كامينيف الذي ايقظ « البرافدا » من سباتها ، وأعدّ عدداً حقيقياً اصبح حديث العاصمة كلها في اليوم التالي .

واسترد مويس اورييسكي ، المتمرد الوديع الابتسامة ، مكانه بين المعتدلين من أتباع الجناح الوسطي في الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، المؤلف من نخبة من المثقفين المناوئين للحرب وللحكومة المؤقتة وللأشراكيين الوطنيين .

وكان السوفييت قد اعد استقبالاً خاصاً لكاترين بريشكو - بريشكوفسكايا جدة الثورة ، التي امضت اكثر من نصف حياتها في السجن او المعسكرات ، والتي لم تتخل في يوم من الايام عن ربطة عنقها الحمراء . ولكن عميدة الاشتراكيين - الثوريين تأخرت عن قطارها ، فلم تصل إلا بعد يومين دونما ضجة . بيد ان كيرنسكي اقتادها عبر بيتروغراد بكل التكريم اللائق بها .

واسترد المناشفة أحد عمالقتهم ، الجيورجي هيراكليون جورجيفيتش سيريتيلي ، زعيم الجماهير الفلاحية ، بلا مناس ، والخطيب المفوه الذي رفض كل موضوعات مؤتمر زيمروالد : ينبغي قبل كل شيء تعبئة قوى المؤخرة والجبهة ، والاهتمام اولاً بالعدو الخارجي .

*

تحت ظاهر هدوء الشارع كانت تختفي عواصف ثنائية السلطة . والوزراء يضيعون الوقت في تقديم استقالاتهم وسحبها . وتدخل السوفييت بشكل عرقله مستمرة لمبادرات الحكومة .

*

٥ نيسان ١٩١٧ . انها الهدنة . هدنة يوم واحد ، هدنة الموتى . وشيعت بيتروغراد جنازة مئة واربعة وثمانين من معذبي الأرض الذين سقطوا اثناء ايام الثورة . وأشعلت محارق هائلة طيلة ايام عدة لإذابة الجليد عن أرض ساحة أذار . وحفرت حفرة كبيرة حتى لا يفصل إخوة الكفاح في الأبدية . واخرق الموكب الحزين المدينة من اقصاها الى اقصاها ، فوق طبقة رقيقة من الثلج . وكان كل ستة رجال يحملون نعشاً مجللاً بالأحمر . وكان موكباً رائع التنظيم ،

جليلاً ، مهيباً . وقد أغلقت جميع النوافذ خشية استفزاز مؤامرة قيصرية . وكان يتقدم الموكب الجنائزي علم رسم عليه عبد يحطم قيوده ويمسك بخناق النسرا الامبراطوري . وفي المؤخرة كانت جموع غفيرة ، قتيمة ، مجللة بالسواد ، تتقدم تحت غابة الأعلام الحمراء . وكانت تنشدا المارسييز ونشيد قتلى الثورة :

سقوط القيصرية البغيضة

خلود لثواكم .

شهادتكم شهادة النضال

في سبيل الشعب والحرية

على انقراض الامبراطورية

سنشيد قبوركم

وداعاً لإخواننا ، فشهادتكم

فتحت عصر الأزمنة الجديدة .

نشيد رجال . نشيد وثنى . وموكب بلا كهنة ، إذ لم ترغب الثورة فيهم . وأمام الحفرة نصبت منصة للوزراء الجدد الذين راحوا يركعون ، حاسري الرؤوس ، في كل مرة يدوي فيها مدفع بطرس وبولس ليعلن ان الارض ضمت اليها جثماناً جديداً . وقد ترجل الجنرال كورنيلوف مئة واربع وثمانين مرة عن جواده ليحيي شاهراً سيفه الشهداء الذين سقطوا .

مع مقدم الليل ، ساد السكون وخيم صمت رهيب . واضاءت مئات المشاعل ساحة آذار . وشحب بصيص الثورة الأخير مع طلوع الفجر وانطقاً مع إشراق النهار ، من غير ان يكون لينين وبلبخانوف وتروتسكي وكثيرون غيرهم قد شهدوا ضياءها وتوهجها .

مع استئناف حرب الغواصات وخرق الوعود التي قطعها الألمان للولايات المتحدة في ايار ١٩١٦ ، والجمود الاقتصادي الذي حل بالموانئ الاميركية ، وضغط المصالح المصرفية المرتبطة بانكلترا وفرنسا ، والازدهار المهدد بالأفول وعدم انتضاح نتيجة المعارك الضارية المستمرة منذ اثنين وثلاثين شهراً في الجانب الآخر من المحيط ، اقتنع الرئيس ويلسون بضرورة الخروج عن الحياد . وجاء غرق فيجيلانتيا ، ضحية الطوربيدات الالمانية ، ليرجع كفة دعاة التدخل . وفي ٦ نيسان ١٩١٧ دخلت الولايات المتحدة الحرب بكل ما لديها من طاقة .

وفي فرنسا ، حيث خلف الكسندر ريبو آرستيد بريان على رأس الحكومة ، تفاقمت البلبلة الاجتماعية في المؤخرة بينما بادر الجنرال نيفيل الى شن هجوم من الواز على جبل رانس ، على جبهة يبلغ طولها سبعين كيلومتراً . وبالرغم من مؤازرة الدبابات الاولى تحطم الهجوم الانكليزي - الفرنسي على صخرة المقاومة الالمانية .

وظهرت على الجيش الفرنسي ، الذي أضنكته التضحيات التي طلبت منه طوال اثني عشر فصلاً طويلاً ، علائم السأم والتعب . وخففت الرايات الحمر على نوافذ قطارات المجازين . ونظمت مكاتب للفرار عن مشارف المحطات . واندلعت حوادث عصيان . وقدر بيتان ، الذي خلف نيفيل غداة إخفاق الهجوم ، انه ليس في الامكان بذل أي مجهود جديد وانه لا بد من انتظار الدبابات الاميركية .

وفي ميلان وتوران وقعت اضطرابات بسبب نقص المواد التموينية . واحتج مئتان وثلاثون ألف عامل بريطاني مضرب ضد استخدام عمال غير مختصين في المصانع الحربية . وحتى في المانيا عاد الاشتراكيون ليتبنوا موضوعه زيمروالد عن صلح فوري بلا ضم ولا فتوحات .

وفي بيروغراد سارت المواكب في منتصف الليل على ضوء المشاعل لحضور قداس عيد الفصح ، إذ كانت العقيدة الاورثوذكسية ما تزال عامرة في القلوب غداة انقلاب النظام .

وكان بحارة كرونشتاد وجنود الحامية العنصر المسيطر في شوارع العاصمة . واذ كان العديد من المعتقلين قد أخلي سبيلهم ، إلا ان السجون تعج بزبائنها الجدد ، ومن بينهم آخر ثلاثة وزراء للداخلية في عهد القيصرية ، بروتوبوف وماكلاكوف وخوستوف . وقد سُمح لزوجته نيقولا ماكلاكوف ، بعد ثلاثة اسابيع من القلق والحصص ، بأن تقابل زوجها . ولم يكن الوزير السابق يطمح إلا الى معرفة أبناء امبراطوره .

*

ان فيرا فغتر ، الطالبة الجامعية الجميلة في اعوام ١٨٨٠ ، صديقة بليخانوف في الكفاح منذ المهرجان الخطابى الذي عقد في ساحة قازان في عام ١٨٧٦ ، نزيلة سجن شلوسبرغ الرهيب ، الفارة من آرخانجيلسك ، المهاجرة والروائية منذ عودتها الى روسيا ، ان فيرا فغتر هذه هي الآن امرأة في الخامسة والستين من العمر . وما اكثر الثوريين من أمثالها الذين عادوا الى بيروغراد تظللهم هالة رومانسية من المجد والفخار . واولئك الذين قاموا بثورة آذار هم في انتظار من لهم حقوق عليها . وسوف تتعرض السلطة الهجينة المنبثقة عن السوفييت والدوما لصدمة العودة الكبيرة . وسوف يواجه اولئك الذين احتلوا الاماكن الاولى بروح مصالحة طبقية أشقاءهم المطلسق سراهم . والحق ان المهاجرين والمنفيين والمسجونين غير راضين جميعاً عن هذه الثورة المرتجلة ، المفتقرة الى انضباط وهدف .

وقد هجرت فيرا فغتر القلم لتستأنف النضال في وضوح النهار ، وفي غضون اسبوعين من الزمن نظمت وعقدت مؤتمراً نسبياً لعموم روسيا وطالبت للنساء بالمساواة في الحقوق . وقال رودزيانكو نعم عن الدوما ، وقال تشخينزه

نعم عن السوفييت . وكسبت فيرا فغز معركتها الاولى : ان النساء الروسيات
سيمارسن حق الانتخاب .

•

عند رصيف محطة سان ريمو قدمت ليديا وأوجينيا بليخانوف لمرافقة
والديهما الى القطار . وكان هذا آخر لقاء لهما بوالدهما .

وعاد جورج فالنتينوفيتش بليخانوف ، الذي أذان بيان زيمروالد ، الى
مسقط رأسه وقد بلغ من العمر ستين عاماً . وكان قد غادره وهو في الثانية
والعشرين وأيدت باريس ولندن عودة الاشرائيين – الوطنيين القادرين على
تدعيم تلك « المؤخرات التي تقرر مصير الحرب » . وكان على بليخانوف ان
يقطع المانش باتجاه باريس على متن نسافة انكليزية ، وان يصعد من ثم إلى
آبردين ليستقل من هناك السفن المحروسة المسافرة الى اسكندنافيا .

ووصلت ليديا واوجينيا الى باريس بعد بضعة ايام . وفي فانتميل كان
عليهما ان تقابلا مفوض الشرطة الفرنسية . ولكن هذا كان غائباً عن مكتبه
إذ كان يبحث عنهما في القطار . وعندما لاقاهما قال :

– انما تذكراني بالتأكيد . فقد كنت مكلفاً بمراقبة والدكما في آنوماس .
في كل مرة يطرد فيها من سويسرا . انه ليسعدني أن اتخى لكما رحلة موفقة .

وفي آبردين لم تكن المراكب الانكليزية تعلق يومياً إلى بلاد بحر الشمال .
وكان الاسطول الألماني ساهر العين . وكانت الأيام العاصفة هي الأيام المناسبة
للإفلات من طوق رقابته . وهكذا أفلح بليخانوف في يوم عاصف مع مجموعة
من الاصدقاء الأوفياء الذين كانت فيرا زاسوليتش في عدادهم .

ولم يكن على الكسندرا كولونتاى التي نقل اليها لينين تعليماته في
ستوكهولم : « انتظار مسلح وإعداد مسلح لقاعدة أوسع في مرحلة لاحقة » ،
إلا ان تجتاز شبه الجزيرة الاسكندنافية لتجد نفسها في وطنها بين سائر المنفيين
العائدين من سيبيريا في قطارات مكتظة بالمسافرين : ستالين ، كامينيف ،

النواب الخمسة المنفيين في عام ١٩١٤ ، سفير دلوف ، تيودور ، ايليتش دان ، المحرر السابق في « الايسكرا » والطبيب المربوع القامة المتقدم في السن وعضو اللجنة المركزية المنشفية ، أدولف إيوفي ، المحرر في « برفادا » تروتسكي الاولى في فيينا ، نيقولا كريلنكو ، المجاز في التاريخ ، والمحرض في الجيش السادس الذي خلغ بحركة مسرحية شارة رتبته كضابط وداسها بقدميه على مرأى من رجاله عندما تلقى الأمر رقم واحد ، سيمون كامو ، المسؤول عن المصادرات ومتحدي الموت ببطولة ما بعدها بطولة تحت تعذيب الاوكرانا .

وعلى سفينة اخرى قادمة من آبردين كان بوريس سافنكوف مسافراً الى الزويج . فلقد اختار « الجسم » الذي كان مسؤولاً عن كل التنظيم الاشتراكي - الثوري في عهد مؤامرات الاغتيال ضد بليخفي والدوق الكبير سيرج والذي كان لا يهاب شيئاً ولا يتراجع امام شيء ، اختار الطريق القومي . وفي عام ١٩١٤ تطوع في الجيش الفرنسي ، وعندما سقطت الاوتوقراطية طلب ان يخدم في الجبهة الروسية المهددة بالانهيار . ووجد الثوري الوطني صحبة طيبة على ظهر المركب الحربي الانكليزي : المعتدل نيقولا افكسانتييف ، استاذ الأدب في تجهيز البنات في أوريل ، وفلاديمير تشيرنوف ، العدو اللدود للنباله العقارية ، وكلاهما من مؤسسي الحزب الاشتراكي - الثوري ، وريث الشعبين ، وعضوان في سوفيت ١٩٠٥ ونائبان في الدوما الثانية ، وغريغوار الكسنسكي الرئيس السابق للمجموعة البلشفية في الدوما الثانية ومعارض لينين اليوم ، واوجين دويتش ، المهاجر المسن من مجموعة جنيف . وفي بيرجنى التقى سافنكوف واصدقاؤه بفرنسي أنهى الرحلة معهم ، الوزير الاشتراكي البير توما المكلف بمناشدة الثوريين متابعة الحرب حتى النصر .

وعند الوصول الى العاصمة كان المنفيون والسجناء المطلق سراحهم يحاولون ان يتغلغلوا في واقع الاحداث وأن يلاقوا من جديد لإخوانهم في السلاح وأصدقاءهم في الفكر . ولكن الخطوط المميزة ما تزال مبهمه ،

وحدود الاحزاب غامضة ، وعدد الغائبين كبيراً . ومشكلة السلم تقسم الذين يعتقدون نفس الافكار الثورية . أما السلطة فهي لا تفعل شيئاً سوى انها تراكم المشاكل ، وترجىء الحلول ، ولا تحسم شيئاً ، خشية الانفجار عند اول مبادهة .

*

في احد مسارح بيتروغراد ، شهد الدبلوماسي الفرنسي دي شامبرون حفلة خيرية تحت رعاية كيرنسكي الذي حمله شبان متحمسون هو ومقعهه الى خشبة المسرح . وقد كتب دي شامبرون : « رأيتهُ مسترخياً على ظهر لمقعد المبطن بالمخمل الأحمر » ، متمتعاً بانتصاره ، محمولاً على اكتاف معجبيه الى خشبة المسرح . والتفت السفير باليولوغ الى دي شامبرون وقال له :
- انه انتصار مارا .

وهتف كيرنسكي وكأنه ضمن هذه الخاطرة :

- ايها المواطنين ! لن اكون مارا الثورة الروسية !

(٤٠)

١٣ نيسان ١٩١٧ . شعب بيتروغراد اجتاح الشارع مع غياب الشمس وعلقت لجنة السوفييت التنفيذية أعمالها لتتقدم رأس الموكب ولتقوده الى محطة فنلندا . وشقت السيارات طريقها بصعوبة بين الجماهير الحاشدة .

لقد اتحد الاشتراكيون ليستقبلوا بكل الترحيب اللائق ذاك الذي رحل سراً قبل ثمانية وثلاثين عاماً ، حاملاً في حقيبته قميصاً أحمر وقطعة من الخبز الأسود : جورج بليخانوف ، أول ماركسي الامبراطورية ، نظري الاشتراكيين - الديمقراطيين الألمعي ، وتجسيد الروح والفكر الثوريين . وكانت الجموع تنتظرها ، واذا بالذي يستقل السيارة على رأس الموكب رجل أسقمه المرض وأنهكه الترحال الذي لا نهاية له . ورفع يديه محيياً ، لكنه

عجز عن الكلام . واتجه الموكب نحو توريدا . وقال اكثر من صديق قديم واحد للمهاجر العائد : هذه الجموع تريد السلم . وأمام هيئة السوفييت تكلم بليخانوف بصوت لا يكاد يسمع :

– يجب لإنهاء الحرب وانهاؤها بظفر . لقد جئت اعلمكم انه في وسع المرء ان يكون اشتراكياً ووطنياً معاً .

ولم يكن هذا ما ينتظره منه انصار السلم المتزايد عددهم باستمرار . وبذلك يكون بليخانوف قد حطم بيديه شعبيته منذ الساعات الاولى لعودته .

ولم يقابل المندوبون الغربيون الذين وصلوا بالقطار نفسه وتكلموا من المنبر نفسه إلا بتصفيق ضعيف فرضته اللياقة لا اكثر . ولم ينجح اشتراكيو دول التفاهم ، مارسيل كاشان ، ماريوس موتيه ، لافون ، اوغراي ، ثورن ، ساندرز ، في تأجيج الجذوة الروسية ضد الاستبداد الالمانى .

ومن الخارج كان مارتوف ، الاشتراكى – الديموقراطى المهذار الذى عارض لينين في مؤتمر لندن وتزعم المناشفة ، قد حذر اصدقاه من ان الاشتراكيين الانكلو – فرنسيين لم يأتوا ليحيوا الثورة الروسية وانما ليطلبوا ضريبة دم جديدة .

ولقد أساء بليخانوف الى سمعته وثلمها لبقى وفيأ لنفسه . فتورة آذار هي الثورة التي كان يتمناها . ثورة حققتها البروليتاريا الصناعية وحدها ، بدون مساعدة الفلاحين ، وقلدت البورجوازية الليبيرالية زعامتها . وعلى البروليتاريا الآن ، كما ينص على ذلك المنطق الماركسي الصارم ، ان تثقف نفسها حتى تشارك فيما بعد ، دونما صدام ، في تسيير الشؤون العامة . ولكن بليخانوف لم يجد لدى النواب العمال والجنود الصدى الذي كان يأمل به .

وبعد يومين من وصوله قال بمرارة للويس دي بروكير ، المبعوث الخاص لصحيفة « حق الشعوب » ، اثناء مرورهما بالقرب من أسوار قلعة بطرس وبولس :

– بعد ثلاثة أشهر سيأتي دوري ..

*

كان لينين ابعده ما يكون عن التفكير بتدعيم المؤخرة ، بل كان ينوي على العكس تهديهما تمهيداً لإنجاز الهدف الثوري . ولم تكتم «رسائل من بعيد» شيئاً من مقاصده . فالثورة في نظره لا ينبغي ان تكون ثمرة من ثمار الصدفة والمباغته ، وانما نتيجة لسلسلة من أفعال محسوبة ، منظمة ، معلنة ، تنجزها قوة الجماهير الواعية التي لا تقاوم ولا تلجم . وبهذا الشرط وحده يمكنها ان تنزع راية النصر وأن تدوم .

ولقد ترك فلاديمير ايليتش ، الوفي للدكتاتورية البروليتاريا كههدف نهائي ، ترك أشكال كفاحه تتكيف مع مجرى الاحداث . فشرط ١٩١٧ لم تعد هي نفسها شروط ١٨٩٥ او ١٩٠٥ . ولينين لم يعد ذلك الماركسي المأخوذ ببليخانوف والخاضع له ، والنظري المتزمت الذي كان ينعت بالثرثرة الدائمة الثورة الدائمة المقترحة من قبل تروتسكي وبارفوس . وهو يقدر ان البروليتاريا تطورت بما فيه الكفاية لتسوس نفسها بنفسها ، بدون مساعدة البورجوازية المنذرة بمصادرة السلطة مصادرة كاملة تامة .

المناشفة يوكدون : « ثورتنا بورجوازية ، ولهذا يتوجب على العمال ان يؤازروا البورجوازية » .

ولينين يرد : « نحن الماركسيون نؤكد ان على العمال أن يفتحوا عيون الشعب على أكاذيب السياسيين البورجوازيين وأن يعلموه ألا يؤمن بالأقوال ، بل أن يعتمد فقط على قواه الخاصة ، أسلحته الخاصة ، تنظيمه الخاص » .

وحزبا الاشتراكية – الديمقراطية يتناصبان العداء من قطبين متعاكسين تماماً .

وقد اقنع لينين اصدقاءه البلاشفة ، ضد المناشفة وماركس معاً ، بأن النصر البروليتاري لا يمكن ان تقوم له قائمة بدون دعم الجماهير الفلاحية .

والبرنامج السياسي الذي سجله على الورق منذ الاطاحة بالبنائة الملكية
مدعاة لقلق الحلفاء الكبير :

إلغاء المعاهدات التي عقدها القيصر ، نشر ما هو سري منها ، اقتراح
هدنة عامة فورية ، اعلان شروط السوفييات للسلم : التخلي عن المستعمرات ،
تحرير الشعوب المضطهدة او المحرومة من حقوقها ، دعوة عمال العالم قاطبة
الى الاحاطة بالحكومات البورجوازية ، تحميل الرأسمالين ديون الحرب ،
سلخ المرأة عن حياة البيت والمطبخ المبلدة للعقل وإشراكها في الميليشيا البروليتارية ،
إقرار التملك المشترك لوسائل الانتاج .
لقد تجاوز لينين ثورة تروتسكي الدائمة .

واذا لم يُقبل هذا البرنامج ، فستعطى الكلمة للسلاح ، وستصبح الحرب
حرباً ثورية معممة .

ورفضت الحكومتان الفرنسية والانكليزية منح لينين حق المرور الذي
طلبه للذهاب الى بيروغراد . وصرح تشرشل : « علينا ان نمنع جرثومة
الطاعون هذه من الوصول الى روسيا » .

وأوصى مارتوف للينين بفكرة ان يطلب من المانيا حق المرور الذي
ضنّ به عليه حلفاء روسيا .

ولم تكن هذه البادرة تخلو من مجازفة سياسية ، لكن التعاليم الثورية
التي كتبها في القرن الماضي المدرس نتشائيف ، ابن احد أقتان الكونت
شيريميتييف ، كانت كفيلة بتهدئة الضمير :

« لما كانت الثورة هي المصلحة الوحيدة ، الهوس الوحيد ، الوسواس
الوحيد ، لذلك فإن كل شعور موهن للعزيمة بالقرابة او الصداقة او الحب
او عرفان الجميل او حتى الشرف يجب ان يخنق بالهوس الثوري البارد الأوحده .
وليس بأخلاقي إلا ما يسهم في انتصار الثورة . وكل ما يحول دونها هو عين
اللا أخلاقية » .

وجرت اتصالات مع السفارة الالمانية في بيرن بواسطة غانتسكي ، عميل بارفوس الثري ، والاشتراكي السويسري روبر غريم . وقد استشار هذا الاخير بيتروغراد فجاءه منها جواب تشخيدزه وفيرا فغفر وكيرنسكي بأن « السفر عبر ألمانيا ومبدأ المبادلة بين المهاجرين الروس والأسرى الألمان يبدو ان لهم مستحيلين » .

وباسم الحكومة المؤقتة أبرق ميليكوف بدوره : « اطلبوا من لندن وباريس السماح لكم بالعبور » . ولكن كان من الواضح ان هذه المناورات تسويقية وأن القادة السياسيين في بيتروغراد متطيرون من عودة ذاك الذي يستطيع ، بخطاب واحد ، ان يحطم حلف الديموقراطية البورجوازية الهش .

وكان فلاديمير ايليتش يقدر ان ترك الثورة لنفسها خيانة أفدح من ركوب خط حديدي معادٍ بهدف نجاتها . وقد وجد حليفاً نافعاً وفعالاً في شخص الأمين العام للحزب الاشتراكي السويسري ، فريتز بلاتن . ومحض ثقة مطلقة هذا العامل في صناعة التعدين البالغ من العمر اربعة وثلاثين عاماً الذي كان محرضاً بلشفياً في ريغا في عام ١٩٠٥ والذي اعتقل فيما بعد ومثل امام المحاكم القيصرية . وقد اصبح بلاتن ، بعد إخلاء سبيله تحت كفالة مالية مقدارها عشرة آلاف فرنك تم جمعها من المناصرين السويسريين ، اشتراكياً محترفاً وتولى تنظيم مؤتمر زيمروالد وكيينتال . وقد اقنع الألمان بأن يضعوا تحت تصرف لينين وثلاثين من اصدقائه عربية سكة حديد مرخصة اصبحت في التاريخ حصان طروادة البلشفي . وقد علق تشرشل على هذا القرار بقوله : « قرار محزن » . وجددت برلين شروطها : على المهاجرين ألا يجروا اي اتصال بالألمان ، وسيتكفلون هم انفسهم بتأمينهم ، وسيبدلون قصارى جهودهم من لحظة وصولهم الى بيتروغراد في سبيل إخلاء سبيل قدر عددهم من الأسرى الألمان .

وجمع بلاتن الثلاثين مسافراً امام محطة زوريخ ، في مطعم زهرينجر

هوف ، في الساعة الحادية عشرة من صبيحة ٩ نيسان . وكان الجميع يرتدون ثياباً روسية نموذجية . وكان لينين يمتدني جزمة مصفحة بالحديد من صنع صاحب مسكنه الاسكافي كاميرر الذي لقبه الاشتراكي الروسي - الالماني راديك بإرهابي بلاط شوارع زوريخ . وصعد المهاجرون الى عربتهم حاملين بطانياتهم وعدداً كبيراً من الرزم . وفتش الجمرک السويسري الأمتعة وصادر فائضاً من الشوكولاتة . وعين فريز بلاتن للمسافرين اماكنهم : آل زينوفيف ، الفرنسية اينيس آرمان ، راديك ، ابراموفيتش ، سافاروف ، اولغا رافيتش ، الخ

وما ان دارت عجلات القطار حتى صدحت العربة بأغان فرنسية ، وقبل كل شيء المارسييز . وقالت كروبسكايا ، التي حرّمها مرضها والعمليّة الجراحية التي اجريت لها من فرح الأمومة ، لأصدقائها :

« سيكون في وسعي الآن ان اهتم بكل أطفال روسيا » .

وعند محطة هوتمانديغن الواقعة على الحدود حظّر بلاتن الاناشيد . وكانت عربة خاصة تنتظر على خط معزول ، يحيط بمنافذها جنود ألمان . وكان ثلاثة من ابوابها مرصصة . اما الرابع فقد ترك حرّاً حتى يتمكن بلاتن من مغادرة القطار في المحطات لتجديد المؤونة . ورسم ضابط ألماني بالحكك على ارض الممشى خط حدود طولانيا . فمن ناحية النوافذ ، ألمانيا . ومن ناحية المقصورات ، روسيا . ولبلاتن وحده الحق في مخاطبة الحراس الألمان .

وسافر المهاجرون الثلاثون وكأنهم أحداث مجنون ، متحمسون ، غير سائلين عن اسباب الراحة ، ثم استسلموا لخطر الطريق طاعة منهم للينين الذي يريد لها رحلة وقوراً . واجتاز القطار شتوتغارت ثم فرانكفورت وبرلين . باتجاه البلطيق . وانتهت الاراضي الاقليمية الالمانية عند ساسنيز . ولم يكن مسموحاً لبلاتن بمتابعة السفر . وكان عليه ان يعود ادراجه الى سويسرا . وأحصي عدد المسافرين من جديد ، وأزيل الرصاص عن العربة .

كان مركب بخاري سويدي ينتظر عند الرصيف . وقد اقلع في ١٣ نيسان في الساعة العاشرة باتجاه تروليبورغ . وكان البحر هائجاً . وأصيب جميع المسافرين تقريباً بدوار البحر . وبقي لينين وزينوفيف وراديك على الجسر يتابعون مناقشات لا نهاية لها . وفي تروليبورغ كان قطار خاص قد جهز للسفر الى ستوكهولم . وهناك كان الاشتراكيون ينتظرون لينين بكل الحفاوة اللائقة ، وعلى رأسهم أمين العاصمة السويدية ، كارل ليندهاجنس .

وذهب فلاديمير ايليتش ورفاقه الى فندق ريجينا يتقدمهم الشاعر السويدي تور نيرمان . ولم يكن مقبولاً ان يرجع زعيم البلاشفة الى روسيا وهو لا يرتدي غير الطقم المهترىء الوحيد الذي يملكه . وألح عليه اصداقاه ان يشتري بعض الملابس من ستوكهولم ، ودلوه على دكان . وابتاع لينين زوجاً من الأحذية وطقماً وقبعة صغيرة مستديرة . ولما ألح الأمين العام للحزب الشيوعي السويدي ، اوتوغرميلوند ، على فلاديمير ايليتش ليختار طقمماً ثانياً ، أجابه لينين ضاحكاً :

– انني لست عائداً الى روسيا لافتتاح محل للأناقة ، وانما لتحقيق الثورة ..
وتجول المهاجرون في ستوكهولم سيراً على الأقدام .
وكان في عدادهم بنية صغيرة ، فربطت مندبلها الأحمر الصغير بعصا وناولتها للينين الذي شهر هذا العلم المرتجل في الشوارع .
وأزفت من جديد ساعة القطار . ومن ستوكهولم سارت القافلة بمحاذاة خليج بوتني حتى تورينو .

تلقت ماريا اوليانوفا ، شقيقة لينين ، البرقية رقم ١٤٨ ، المراقبة عسكرياً تحت رقم ٨٧ : « واصلون الاثنين مساء ١٦ نيسان . بلغني البرافدا . اوليانوف »
واراد شليا بنيكوف ، البلشفي الموثوق الذي أرسله لينين الى بيتروغراد بعد اعتقال ستالين ليعمل بالتعاون مع اخته ، ان تتجاوز عودة لينين بالأبهة

عودة بليخانوف . ولسوف تذهب ماريا اوليانوفا وكامينيف والكسندرا كولونتاى الى الحدود الفنلندية لاستقبال لينين . وقد جالت الكسندرا في كل أرجاء المدينة لتجمع ما فيه الكفاية من الورود الحمر لتشكيل باقة . وسوف يتولى شليا بنيكوف تنسيق الاحتفال .

ولم يبد السوفييت الذي تحرك موكبه عن بكرة أبيه قبل ثلاثة ايام لاستقبال بليخانوف ، حماسة كبيرة . ورفض تسيريتيلي ، الذي بات يتمتع بنفوذ كبير في الجمعية الشعبية ، ان يذهب لتحية لينين « اللاوطني » وسمي تشخيدزه وسكوبيليف بدلاً منه . وأرسل الحزب البلشفي من جانبه كل رجاله ، وعلى رأسهم ستالين ومولوتوف وآيلوئييف الخ ..

كان السيل البشري يتزاحم بالمناكب في الشوارع المفضية الى ساحة محطة فنلندا . وخفقت مئات الرايات الحمر متألقة تحت ضوء نور كشّاف دوار . وعند رصيف المحطة وخارجها كانت الفرق الموسيقية تعزف . وكانت السيارات حاملة الرشاشات ، آلماس ، تحيط بالمحطة مهددة . وفجأة ارتفع من بين الصفوف لغط . فالقطار قد وصل ، وبعد لحظات سيظهر لينين . لكن ساعة الهتاف الذي يشق عنان السماء لم تأزف بعد . وكان لينين ، المثقل الذراعين بورود كولونتاى الحمر ، يتلهف لإسماع بيتروغراد بيورجوازيها الكبار والصغار واشترაკيها المزيفين رعد العاصفة التي أعدها لها . وخبم الصمت على الجموع الحاشدة عندما بدأت الفرقة الموسيقية تعزف ذلك النشيد الذي ألّف في ستراسبورغ ، على بعد خطوتين من العدو ، المارسييز . ثم شق لينين طريقه بين الجماهير بخطاه السريعة الى البهو الامبراطوري . وحيا تشخيدزه المهاجر الكبير :

– ايها الرفيق لينين ، باسم سوفييت بيتروغراد والنواب العمال والجنود ، وباسم الثورة كلها نتمنى لك طيب الإقامة في ربوع روسيا ... لكننا نقدر ان المهمة الرئيسية للديموقراطية الثورية هي في الساعة الراهنة حماية ثورتنا

من كل محاولة معادية ، في الداخل والخارج على حد سواء . اننا نعتقد انه من الواجب ان نرصد كل صفوف الديمقراطية ، لا أن نقسم على انفسنا . ونأمل بأن هذا هو الهدف الذي ستناضل في سبيله معنا .

ومن غير هذا المنطلق جاء رد فلاديمير ايليتش :

« ايها الرفاق الجنود والبحارة والعمال ، يسعدني ان احيي فيكم الثورة الروسية الظافرة ، أن أحبيكم كفضيلة طليعية من الجيش البروليتاري العالمي . ان حزب النهب الامبريالية هي بداية الحرب الاهلية في كل اوروبا . ولم تعد بعيدة تلك الساعة التي ستحول فيها الشعوب ، ملبية نداء رفيقنا كارل ليكنخت ، اسلحتها ضد مستغليها الرأسماليين . ان فجر الثورة الاشتراكية العالمية قد أطل . وفي ألمانيا ، كل شيء في غليان . والثورة التي أنجزتموها قد رسمت بداية العصر الجديد وأرست اسسه . عاشت الثورة الاشتراكية العالمية ! » .

في الخارج كانت الجموع التي فرغ صبرها تهدد باقتحام الابواب . وشق شليابنيكوف طريقاً الى لينين الذي ظهر اخيراً تحت حزمة النور الكشاف الضوئية ، ليستقبله هتاف منقطع النظير . ودخل فلاديمير ايليتش الى الحلبة واطناً الارض الروسية . وتجاهل السيارة التي أعدت له وبقفرة واحدة انتصب على ظهر احدى السيارات حاملة الرشاشات . فراحت تتقدم به بتوذة ، وهو يخطب عند كل مفرق طرق .

ولم يُقد لينين الى توريدا مثل بليخانوف . فهو يريد الذهاب اولاً الى مقر حزبه . وهذا المقر هو قصر كشنسكايا . فراقصة الباليه لم تنجح في إجلاء محتليه . وامام عجز السوفييت وكيرنسكي عن إعادة بيتها اليها ، ذهبت اليه بنفسها . وهناك وجدت الكسندرا كولونتاى جاثمة على مقعد لا مسند له ، متصالبة الساقين ، وبين شفيتها سيجارة ، وفي يدها فنجان شاي . اما في مخدعها فقد حولت الخزانة الى مصف للبنادق .

الى هناك اراد لينين الذهاب . والى هناك ذهب ، وإلى هناك وصل
ليقعد ، دونما إضاعة للوقت ، اجتماعاً دام ساعتين . واسترق سوخانوف ،
الذي تمكن من التسلل الى القصر بفضل كامينيف ، السمع الى حبر البلشفية
مذهولاً . وقد قال :

– لكأنني تلقيت ضربة دبوس على رأسي .

ان لينين يقدر ان الجماهير تقف الى يسار الحزب ، وان الحزب يقف
بدوره الى يسار لجنته المركزية ، متجاوزاً افكار وتصورات قاداته .

اما الذين كانوا يأملون بأن يقف لينين الى جانب غالبية السوفييت ،
لينين الوارث لقباً نبيلاً عن أبيه ، وحفيد تاجر من عشيرة كالموك في
أستراكان ، فقد نسوا لينين الحقيقي ، أخا الثوري الذي تأمر ضد الامبراطور ،
الثوري الذي لا يمكن وصفه بنعت آخر والذي قال مرة واحدة تغني عن
كل المرات : « لا تتباكوا يا رفاق ، فلسوف ننتصر لأن الحق في جانبنا » .
وها هو ذا يصرح اليوم امام مثي بلشفي : « الحرب الامبريالية لن تنتهي
إلا بحرب أهلية . وسياسة السوفييت السلمية مضحكة . ان تسير بيتلي وتشخيدزه
انهزاميان ثوريان . ونحن لسنا بحاجة لا الى جمهورية برلمانية ولا الى ديموقراطية
بورجوازية . لتتعلم كيف نكون أقلية ، ولنوضح ولنفسر ولنقنع » .

في الخارج كان الجنود والعمال يهتفون مطالبين لينين بأن يخطب فيهم
من الشرفة . فلبى طلبهم وخطب – من جديد حول موضوع السلم الفوري
ودكتاتورية البروليتاريا وضرورة الإسراع بالقطيعة مع البورجوازين الرأسماليين
وأطلق الشعار الذي سيصبح شعار ثورة اكتوبر : كل السلطة للسوفييتات !
وانتهى الاجتماع البلشفي مع إطلالة الفجر . وفي بهو مجاور كان الثوري
منجنسكي ، الارستقراطي السابق البولوني الأصل ، يعزف مقطوعة لشوبان
على البيانو .

وأمضى لينين ما تبقى من الليل عند أخته . وكانت الشقة عادية تماماً ،

ولكن فلاديمير وكروبسكايا وجدا فوق فراشهما لافتة صنعها ابن ماريسا اوليانوفا: « يا بروليتاري جميع البلدان ، اتحدوا ! » .

وفي الضحى ذهب لينين بمفرده الى مقبرة فولكوفو لزيارة قبر أمه التي طالما ضحت بنفسها في سبيله والتي اختطفها يد المنون قبل أشهر خمسة من عودته المظفرة ، وقبر اخته اولغا التي اودت بها الحمى التيفية في سن التاسعة عشرة .

*

سافر تروتسكي وأسرته كلها ومهاجرون آخرون على ظهر السفينة الرويجية كريستيانا فيورد ، ومعهم اذن رسمي بالعودة الى روسيا عن طريق انكلترا . وفي اليوم نفسه الذي وطئت فيه قدما لينين ارض بيتروغراد ، أوقف ليون تروتسكي في هاليفاكس (ايكوسيا الجديدة) . ولما علم السوفييت بالامر برقاً ، اتصل بالحكومة المؤقتة ، ووعد ميلوكوف بالتدخل لدى لندن . ولكن تروتسكي أرسل ، بعد ان فصل عن أهله ، الى معسكر أسرى خاص بالبحارة الألمان

(٤١)

بمعجزة من المعجزات بقيت الغرفة العليا ، اي الجمعية التشريعية التي خلقها نيقولا الثاني لمكافحة مطامح الدوما الإصلاحية ، على قيد الحياة بعد طوفان آذار الذي اجتاح وأغرق كل المؤسسات الموروثة عن العهد القيصري . وقد ادى اعضاء الحكومة المؤقتة القسم امامها ، حتى يزدادوا اقتناعاً بشرعيتهم . وفي نهاية الاحتفال رسم الامير لغوف إشارة الصليب ، مثلما كان متبعاً في التقاليد القيصرية . وقد تنطعت الحكومة الديمقراطية الروسية الاولى التي شلتها ثنائية السلطة عن ممارسة مهمتها الرئيسية للمشكلات الثانوية الأهمية . فألغت الحواجز القومية والدينية ، وأصدرت بمساعدة المصارف «قرض الحرية» بفائدة ٥٪ ، ودعت الفلاحين الى عدم الاستيلاء على الاراضي قبل اجتماع

الجمعية التأسيسية المتعلقة عليها الآمال .

وعن طريق لجنة اتصال تم تأمين الحوار اليومي بين لجنة السوفييت التنفيذية والوزراء .

و شيئاً فشيئاً راحت الحكومة «تتكرنس» ، على حد تعبير الشاعر الثوري فلاديمير ماياكوفسكي الساخر ، وتحلل في عجزها . وقد أصدر عليها لينين حكماً قاطعاً مقتضباً : « أنها سلطة عشرة ارستقراطيين ورهينة واحدة من اليسار » .

•

بعد عودة لينين من فولكوفو ، ذهب الى قصر توريدا ليواجه ، في السوفييت ، مجمل القوى الاشتراكية . وقد أعطي له حق الكلام لمدة ساعة . وكانت لغته متناسبة مع طبيعة مستمعيه ، وأقل حدة وسمية من الخطاب الذي ألقاه البارحة في البلاشفة ولكن البرنامج والتصميم هما لم يتبدلا ، اقضاء البورجوازية كلياً ، وتشكيل حكومة من السوفييات والسوفييتات وحدها . واثار فلاديمير ايليتش بعباراته النارية ، المكررة ، الساخرة عند اللزوم ، عواصف من الاحتجاج . فما يقترحه هو دمار الحكومة المؤقتة ، والاطاحة بهذه الوزارة التي تمّ تشكيلها ببالح الصعوبة بتأييد من الغالبية الساحقة للمناشفة والاشتراكيين - الثوريين . وهكذا خلق لينين الانشقاق الاشتراكي الكبير مزدرياً كل الاعتبارات الدستورية . ولم يجرواً حتى أنصاره على التصفيق له . كانت الكسندرا كولونتا هي الوحيدة التي حاولت ان ترفع صوتها الضعيف . وبات جدول الأعمال في خبر كان . ولم يطرح اي بند من بنوده على بساط البحث . وتوالى الزعماء على المنبر لإدانة تصلب المهاجر العائد . وهاجم تسيريتيلي ، كبير خطباء السوفييت والممثل الألمعي المتوثب للمعارضة الرسمية ، تجريدات لينين وانعدام المقدمات « الموضوعية » لإقامة نظام اشتراكي .

وفي هذا الجو الحامي الوطيس لجأ بوغدانوف الى سلاح المزاح المستهجن .
بوغدانوف الرجل الذي جاء في عام ١٩٠٣ الى لينين في جنيف قائلاً :
« ليس مارتوف واصداقاه المناشفة غير ثرثارين مجدين » ، بوغدانوف الذي
كان في عام ١٩٠٥ العضو البلشفي في سوفيت بيروغراد الاول ، بوغدانوف
هذا هو الآن في جانب اولئك الثرثارين ...

فعندما اطلق لينين شعاره النضالي : كل السلطة للسوفييتات ! قوبل
بهرج ومرج ، ثم صاح بوغدانوف :
هذا هذيان ، هذيان مجنون ...

هذيان ، حلم مجنون : ان لينين يُقابل بنفس العبارات التي استخدمها
نيقولا الثاني ضد الليبراليين الذين كانوا يطالبون بدستور .
وفي المساء ، عندما عاد فلاديمير ايليتش الى السوفيت برفقة زينوفييف ،
لم يجد حوله إلا الصمت والخواء . ودلف الى مكتب اللجنة التنفيذية ليطلب
منه إطلاق سراح عدد من الأسرى الألمان . وبتحريض من تسيريتيلي ، رفض
المكتب ان يعير هذا الطلب بالأل .

*

لم تكن هناك حاجة ، مساء وصول لينين ، لإبلاغه ان الناس الذين
قدموا لاستقباله يريدون السلم بحرارة . فزعم البلاشفة يعرف هذا الشعور
ويحسه ويشجعه .

وهو يعلم ايضاً ان الوقيعة بين الحكومة البورجوازية والنواب العمال
والجنود يمكن ان يكون سببها مشكلة الحرب والسلم على وجه التحديد .
وتجاه السوفييت الذي تؤيد غالبيته ، المصالحة في ميوها ، صلحاً بلا
ضم ولا فتوحات ، وبالتفاهم مع الحلفاء ، وتجاه لينين المجدد لصلح منفرد
وفوري ، لم يجد بول ميليكوف ، وزير الخارجية ، من طريق أمامه غير
طريق السرية لإنجاح صلته الدبلوماسية ببلدان التفاهم . وقد وجه الوزير

(ميليوكوفار الدردنيل) ، المقترح بأن روسيا تستطيع ويجب ان تتابع القتال وتستولي على مضائق الدردنيل ، مذكرة الى السفراء الغربيين تعبر عن « ارادة الشعب الروسي الحازمة في خوض الحرب العالمية حتى النصر النهائي » .

وافترض سر مبادرة ميليوكوف للملا في الاول من ايار ، بينما كانت الشوارع تعج بالعمال والجنود احتفالاً بعيد العمال . وقد طوقت الجموع قصر ماريا شاتمة الحكومة وهاتفه : « لتسقط سياسة الفتوحات ! » . وأرسل الاشتراكي - الثوري غوتز والمنشفي سكوبيليف ، على عجل لتدبير «سوء التفاهم» . واجتمع السوفييت في جلسة استثنائية .

ومن جديد عمت الفوضى وسادت . ولم يستطع بليخانوف ، الذي خرج من المستشفى للاحتفال بالأول من أيار ، ان يعقد مهرجانه الخطابي . وراح يتجول في سيارة تتقدمها كوكبة خيالة وقد اختنق صوته في صدره وانتابه القلق العميق على مصير الثورة . وفي «ساحة آذار» كان لينين يدعو الاحزاب الاشتراكية الى تشكيل امية ثالثة ثورية فعلاً وصدقاً .

واستنفر كورنيلوف الضباط التلامذة في مدرسة ميشيل وهياً المدافع . كان خائفاً من استيلاء رمزي على قصر الشتاء الخاوي ، فأراد ان تنتشر قواته على جنباته . ولكن السوفييت عارض ذلك لتقديره أن شؤون النظام العام هي من اختصاصه . ووجد كورنيلوف نفسه وحيداً اعزل . وكان الرصاص يلعلع هنا وهناك على فترات متقطعة ، تحت نوافذ كيرنسكي الذي كان يستقبل مارسيل كاشان . وقد اشتكى هذا الأخير من عمى المتطرفين .

وأرسل لينين مناضليه الى الثكنات ليشرحوا ويفسروا وينيروا ويقنعوا الجنود بعدم التحرك وليشجعوا التأخي في جبهات القتال . وانهارت الهدنة وراحت الثورة المضادة تنظم نفسها . وتظاهر طلاب مؤيدون للمتابعة الحرب حتى النهاية . ثم تظاهر مشوهو الحرب وقد تكوموا في عربات صغيرة . وانتقلت جده الثورة ، بريشكو - بريشكوفسكايا ، من مشوه الى آخر ،

لترفع الرايات المنكسة ، وربطة عنقها الحمراء الخالدة ترفرف على صدرها .
وهتف المشوهون عند وصولهم الى قصر توريدا : — ان جراحنا تنادي بالحرب
حتى النصر . يجب اعتقال لينين .

وقد استقبلهم هناك تسيريتلي وسكوبيليف برفقة رودزيانكو الذي
خطب فيهم قائلاً :

— لن تكون هناك اي محاولة لوقف القتال قبل إحراز النصر النهائي .

وانسحب جرحى الحرب بعد ان جددوا ثقتهم بالسوفييت وبالحكومة
الموقنة وأنحوا باللائمة على البلاشفة . وتحت ضغط الفوضى والتحريض أخذ
منبعا السلطة يغليان ويسرفان بالوعود المتناقضة .

لقد فهم البورجوازيون أنهم لن يستطيعوا الحكم بدون دعم من قوة
قادرة على لجم هيجان العناصر الشعبية . وهذه القوة لا يمكن ان تكون شيئاً
آخر غير الجيش . وقد نُظمت مؤامرات لتحريره من سلطة السوفييت
ولتحويله الى سلاح يناور به اليمين .

وأسس صانع المدافع بوتيلوف « اتحاداً لبعث روسيا الاقتصادي » .
وانتمى اليه دفعة واحدة اصحاب المصارف وشركات التأمين والصناعيون .
وطالب غوتشكوف ، وزير الحربية ، بالأموال لتجميع وتنظيم القوى الرجعية
وساعده في ذلك زافويكو ، عميد النبلاء السابق ، والمالي الكبير ، والمعاون
السابق للملك البترول ليازونوف ، وتابع كورنيلوف ومستشاره ولما وجد
كورنيلوف ان الجو في العاصمة فاسد ومفسد ، قدم استقالته من منصبه
وذهب الى الجبهة ليتولى بنفسه أمر القوات المعبأة . وقد جرى تعيينه في الجنوب
الغربي في قيادة الجيش الثامن ، خلفاً للجنرال كاليدين ، تحت إمرة الجنرال
بروسيلوف .

لقد حمل زافويكو في حقيبته رزمة من اربعة ملايين روبل تولى جمعها
« الاتحاد » . وكان للجيش الثامن ، شأن سائر الجيوش ، لجنة متفرعة عن

السوفييت . وكان يرأسها بوريس سافنكوف ، الزعيم السابق للإرهابيين الاشتراكيين - وقد تحالف « الجسم » ، المؤيد لمتابعة الحرب حتى الظفر ، مع الجنرال اليميني .

وانضم الجنرال - البارون وراغل ، المساعد العسكري السابق لنيقولا الثاني الى صفوف اتحاد بوتيلوف ، مقترحاً تهيئة الضباط للدكتاتورية عسكرية . وقد حدا حذوه الجنرال الكسندر كرىموف ، قائد فرقة الفرسان الثالثة ، والعضو الفعّال في المؤامرات القديمة المناوئة للملكية . واشترك كبير الجنرالات الكسييف هو نفسه في الحركة وأنشأ اتحاداً لضباط الجيش والبحرية أوضحى بمثابة بؤرة سياسية حقيقية .

وفي قصر توريدا قامت المجنّدة البطلة ماريا بوتشكاريفا بزيارة لروذيانكو . وأبدت رغبتها في تشكيل كتبية نسائية فدائية . وقد استقبلها رئيس لجنة الدوما المؤقتة بحرارة وأرسلها الى الستافكا لتقدم مشروعها الى الجنرال بروسيلوف .

*

شعرت الحكومة المؤقتة ، في الوقت نفسه الذي كانت تعمل فيه في الخفاء ومن وراء الكواليس ، وبهدف بث الطمأنينة قبل ساعة الانقلاب العسكري ، بالحاجة الى توريث السوفييت باقتراحها عليه عدة مناصب وزارية . وكان ميليوكوف ، محرر المذكرة الى الحلفاء ، قد أرغم على الاستقالة من منصبه ، تاركاً بذلك وزارة الخارجية شاغرة . وقد شغرت وزارة الحربية بدورها عندما تضامن غوتشكوف معه . وأخذت الازمة صفة العلنية .

ولم يبق في صفوف المعارضة إلا أقلية لينين المسماة بالخرف السود ، ولينين نفسه الملقب بالمهووس الذي يطالب بالحرب في الداخل وبالصلح مع العدو الخارجي .

وتحالفت صحافة اليمين واليسار لفضح لينين . ووضعت حياة فلاديمير ايليتش تحت المجهر ، وأصبح كل حدث من أحداثها موضوعاً للنقد : نفيه

« المريح » الى سيبريا ، زواجه « الاورثوذكسي » من كروبسكايا ، « مقاومته » في مقاهي جنيف ، صداقته مع عميل الاوكرانا المزدوج رومان مالمينوفسكي ، طرز حياته الذي تحسن مع الحرب ، علاقاته مع الاشتراكي – الجاسوس بارفوس الذي يعيش كالمليونير بفضل الأموال الألمانية والذي لاقاه في أيار ١٩١٥ في زوريخ ، سفرته الأخيرة عبر بلاد العدو ، واخيراً حاجته العضال الى حرق المراحل لاستباق الاحداث دوماً .

وطالبت كتبية فولينسكي باعتقال لينين ، المتهم بأنه طوبائي خطر ، مجرم يريد ان يزوج قبل الأوان ببلد متخلف في طريق الاشتراكية من غير ان تتوفر الوسائل الكافية . وقالت عنه الصحافة : « إنه يعد العدة لأمبراطورية جديدة ، امبراطورية على طراز امبراطوريات الإنكا البيروية ذات طبقة مختارة من ابناء الشمس بكل عبودياتهم الوديعة » .

وقد وجدت الحكومة في إجماع هذه الانتقادات والتهمات وحزمها وصرامتها ما يبعث فيها الطمأنينة .

وقد رد الأمير لغوف بلا مبالاة على الأميرة زينايدا التي رجعت قلقة مروعة من مهرجان خطابي للزعيم البلشفي بقوله :

– ليس للأمر من أهمية ، لا تبالي ، إن صاحبنا تحت رقابتنا .

ولكن هذا « صاحب » كان يعمل ليل نهار ، في قصر كشيسنسكايا ، على بناء حزبه وتنظيمه ، لأنه كان قد عقد العزم على الاستيلاء على السلطة رغم انف كل من سيحاول ان يقف في وجهه . وقد وافقه على ذلك ستالين الذي اصبح للمرة الاولى لينينياً دونما قيد او شرط . ولكن الاتجاهات كانت تتوازع الحزب وتتجاذبه . وقد سلط لينين الضوء على ثلاثة اتجاهات رئيسية : الوسط المستعد للسير وراءه اينما سار ، واليمين مع البلاشفة القدامى الملتفين حول كامينيف ، واليسار الميل الى الفوضوية ، والواجب إعادته الى جادة الصواب دونما مداراة . وكان الرأي الذي انتهى اليه لينين ان تنظيم

الحزب منحور ، وانه لا بد من تحسينه ومن بعث الطمأنينة في قلب كامينيف في آن واحد . وهكذا تمت تسمية زينوفايف ، رفيق رحلة المقطورة المرصصة ، سكرتيراً للجنة المركزية ، وكامينيف في القيادة العامة . وكان المكتب يضم علاوة على ذلك ستالين وسفيرد洛夫 والصحفي البلطقي سميلغا .

ولم يتزعزع لينين قيد انملة عن رأيه وموقفه تحت ضغط الحملة الهجومية . ويصفه غوركوي بهذه العبارات : « كان يقلب رأسه الى الوراء ، ثم يميله على كتفه ، داساً أصابعه بين ثنايا صدره ، تحت ابطيه . وكانت جلسته هذه أنيسة وساحرة الى حد مدهش . وكان يحب الاشياء المضحكة ويقهقه لها بكل جسمه ، غارقاً فعلاً وصدقاً في بحر من المرح حتى ان دموعه كانت تظفر في بعض الأحيان » .

وأنى للحملة الصحفية المنظمة ان تؤثر على لينين وهو يرى ان عدد المناضلين البلاشفة في بتروغراد قد انتقل من ٤٠٠٠٠ في آذار الى ٨٠٠٠٠ في أيار .

وقد ثار ثائر دان ، الطبيب العسكري المشفي ذي الوجه الدموي ، على افتراءات الصحافة :

— اذا كان لينين خائناً ، وجب اعتقاله . وإلا فإن هذا الرجل الذي وهب الطبقة العاملة حياته كلها له الحق في الكلام .

•

في بريد ٢٠ أيار وجد تشخيدزه ، رئيس السوفييت ، رسالة من الأمير اوجين لغوف . وكان رئيس الوزراء يقترح فيها رسمياً على ممثلي النواب العمال والجنود دخول الحكومة . فقد اصبحت حكومة التحالف ضرورة لا غنى عنها في نظر الاحزاب البورجوازية والكاديت والتشرينيين أوالتقدميين لاكتساب تأييد الجماهير ولإنفاذ ثورة آذار . وأثار الاقتراح معركة حقيقية في قلب لجنة السوفييت التنفيذية . وهدد لغوف واصدقاؤه بالانسحاب إذا

ما رفض السوفييت الاقتراح . وبعد ثلاثة ايام من مداوات عاصفة وجد تشخيدزه نفسه امام إحراج محرج : إما المساهمة وإما الاستيلاء على السلطة. وتخلى السوفييت عن فكرة استلام مصائر البلاد. فقد كان يخشى الروح الانهزامية للملاكات والفئة المثقفة والضباط . وقررت اللجنة التنفيذية التعاون في خاتمة المطاف .

وبقي لغوف رئيساً لمجلس الوزراء ، ومكلفاً بوزارة الداخلية . وحل محل ميليوكوف في وزارة الخارجية الثري الكبير تبرشتشكو ، صاحب مصانع السكر ، الذي تخلى عن وزارة المالية لصالح شنغاريف . ودخل التشكيل الوزاري خمسة اشتراكين : فلاديمير تشيرنوف ، مؤسس الحزب الاشتراكي-الثوري ، وزيراً للزراعة ، وقد لقب بوزير الموجيك ، والمنشفي ب.م.بيريفرسيف وزيراً للعدلية بدلاً من كيرنسكي ، وهيراقلون تسيريتيلي ، الخطيب المنشفي المقوه ، وزيراً للبريد والهاتف ، والمنشفي سكوبيليف وزيراً للعمل ، والاشتراكي الشعبي أ.ف.بيشخونوف وزيراً للتموين وبقيت المناصب الرئيسية في أيدي البورجوازيين . وقد تردد لغوف كثيراً واستشار كبير الجنرالات الكسييف قبل ان يعهد بوزارة الحربية الى كيرنسكي . وقد قال له في النهاية :
- إن من واجبك ان تقبل هذا المنصب ، وليس من حقل رفضه .

وكان الأمر اليومي الأول لوزير الحربية الجديد كيرنسكي : « انكم ستحملون على ذوابات حرابكم السلم والحق والحقيقة والعدالة » . وعهدت اليه حكومة التحالف بالذهاب الى الجبهة لبث الحماسة في أوصال الجيش المتخاذل .

وذهب الكسندر كيرنسكي ، رجل الإقناع ، اول ما ذهب ، الى البحر الأسود حيث كان الأميرال المستكشف كولتشاك قد قدّم استقالته لاصطدامه مع لجان البحارة . واقنعت حجج الوزير الأميرال بالرجوع عن قراره . ولكن كولتشاك سيجمع بعد ثلاثة اسابيع رجاله ليستل أمامهم سيفه من

غمده ويلقي به بجرأ علامة على النكوص والاستقالة .

كان كيرنسكي ، حيثما يمر يؤجج نار الحماسة من جديد . لكن هذه النار سرعان ما كانت تعاود الانطفاء . وقد صاح في وجه وحدة غير منضبطة :

– هل أنتم عبيد متمردون ؟

وكان من حق الكتائب جميعاً ان تستمع الى كيرنسكي . وكان هذا قد شرع بإصلاح القيادة . وقد خلع يودينيتش ، بطل لإرزيروم ، من منصبه . وأصدر أمراً رقم ٨ ألغى بموجبه البلاغ رقم ١ المشهور :

– يستعيد الضباط سلطتهم الانضباطية ، بما في ذلك استخدام القوة في حال عدم الانصياع اثناء العمليات في الجبهة .

وعندما تلقى الجنرال باسيل غوركو ، الذي كان أول من استقبل ياشكا الصغيرة في عام ١٩١٤ ، هذا الأمر قدم استقالته . فرفضتها الحكومة ، وأقالت الجنرال ، وسجنته في « بطرس وبولس » وجرده من رتبه .

واستقبل كيرنسكي بنفسه ماريا بوتشكاريفا بصحبة كورنيلوف ، ووافق على تشكيل وحدة نسائية .

وقبل الاشتراكيون المستوزرون بمبدأ هجوم صيفي . واعلم كيرنسكي قيادات الأركان بذلك سراً ، وأقال كبير الجنرالات المسن ذا الشاربين الطويلين الأبيضين ، الكسييف ، وعين مكانه ذاك الذي اقسم ان يظل وفياً للشعب الروسي مهما يحدث : أ.أ.بروسيلوف .

*

في ١٧ أيار تلقى السوفييت نبأ مفاده أن مهاجراً جديداً آخر قد وصل الى الحدود الفنلندية . فقد اطلق سراح ليون تروتسكي بعد ان اعتقلته السلطات الكندية ٢٦ يوماً . وعندما ترك معسكر اسكوتلندا الجديدة ، كان الأسرى الألمان قد رافقوه حتى الباب هاتفين له . وقد عزفت فرقة جرى تكوينها

كيفما اتفق نشيد الأمية . ولكن الوفد الذي خرج لاستقباله على الحدود لم يكن يضم قادة معروفين . بيد ان الريشة استقبال في بتروغراد استقبالاً اخوياً من قبل اوريتسكي الذي كان قد تعرف اليه في سيبيريا ، وحمل على الأعناق . وفي السوفييت استقبلته اللجنة التنفيذية بفتور .

وبدت حكومة التحالف للمهاجر كهرطقة شنيعة . ولم يكن تروتسكي قد اصبح بلشفيماً بعد ، ولكن نظرية الثورة الدائمة يمكن ان تستخدم كأرضية للتفاهم . ولقد بعد وتنامى ذلك الزمن الذي كتب فيه لينين الى اينيس آرمان : « انه هو هو تروتسكي ، مساوياً دوماً لنفسه ، سناس ، خبيث ، عبء على

اليسار ، وعون لليمين ، ما امكنه ذلك ... »

وتزعم « الريشة » الوسطيين الذين حاول أن يرسخ اقدمهم في كرونشتاد . وقد اصبحت الجزيرة المحصنة اشبه ما تكون بجمهورية حمراء لا تعترف بالحكومة المؤقتة . ولقد وجد البحارة ، قوة الثورة الضاربة ، في تروتسكي ما أغراهم وجعلهم يتعلقون به بالرغم من حبه السيطرة وعدم قدرته على الظهور بمظهر ودود .

وبعد خمسة ايام ، في ٢٢ ايار ١٩١٧ ، قدم الى محطة فنلندا آخر جنود الظل من الفترة الرومانسية ما قبل الثورية . وقد قدموا ، شأنهم شأن لينين وزينوفيف من سويسرا وعبروا ألمانيا في مقطورة مرصعة بمساعدة فريتر بلاتن . وكان في عدادهم جول مارتوف المنشفي ، الممدود القامة ، المعروف ، المشير للعواصف بين جناحي الحزب الاشتراكي - الديمقراطي . وقد استضافته اخته التي كانت قد تزوجت من الدكتور وان . وكان في عدادهم ايضاً لوناتشارسكي الذي احدث بظهوره قليلاً وأرسل لحيته ، وبول اكسيلرود اول المهاجرين الى سويسرا ، وأحد مؤسسي الايسكرا ، ورجل ثقة بليخانوف ، والشجاع الجسور فلاديمير انتونوف - اوفسينكو ، الملقب بالخرية ، الذي كتب في « برافدا » لينين غداة وصوله : « انني أطلب ان أقبل في صفوف الحزب ، ركيزة الحقيقة » .

كان فلاديمير تشيرنوف ، وزير الموجيه ، يترقب بلا منافس على مقعده الوثير في البناء الحديث والبيسط لـ «بيت الشعب» . وقد شكل الفلاحون سوفيتاً خاصاً بهم . وهم في الوقت الراهن مجتمعون في مؤتمر لعموم روسيا ، بنسبة مندوب واحد عن كل ١٥٠٠٠٠ نسمة . وقد بدأ المؤتمر منذ ١٦ أيار ولن تختتم جلساته إلا في ٩ حزيران . ولقد كان أبناء الريف ، المؤيدون في غالبيتهم العظمى للاشتراكيين - الثوريين ، متأخرين زمنياً عن الثورة . وقد وقع منذ شهر آذار حوالي ٣٥٠٠ فتنة فلاحية . وقد دعا تشيرنوف السوفيت الفلاحي الى الهدوء . وواعد بأن يضع حداً للمضاربة والاحتكار عن طريق تعليق كل صفقات بيع وشراء الاراضي حتى موعد انعقاد الجمعية التأسيسية ، وضمن للفلاحين حق الحصاد أياً يكن مالك الاراضي المبذورة ، وأنشأ لجنة زراعية دائمة .

وجعل الوزير - المواطن شهوداً على وعده هذا اعضاء الحزب الذين كانوا يحيطون به حول المنصة : افكسانتيف ، احد مؤسسي الحزب الاشتراكي - الثوري ، وفيرا فغز ، وكاترين بريشكو - بريشكوفسكايا المسنة .

وكان المناشفة من اتباع بليخانوف الذين لا يولون اهتمامهم لغير البروليتاريا الصناعية غائبين عن المناقشة . وكان البلاشفة يطمعون في السيطرة على الجماهير الريفية التي يريد لينين ان تساهم في ثورته . ولكن عددهم ضئيل للغاية في المؤتمر ، ولم يكن أمامهم من سبيل الى الظهور عن غير طريق العنف الكلامي . ولم يكن مشروع قانون تشيرنوف الرامي الى وقف الصفقات العقارية في نظرهم إلا وسيلة لطمأنة الملاك الكبار ، وهي نفس الوسيلة التي اقترحها رودزيانكو ، الرئيس السابق لدوما الدولة ورجل ثقة ستوليبين فيما مضى من الايام .

والبرنامج البلشفي بسيط : توزيع فوري وعادل للأراضي على الشغيلة جميعاً .

وفي ٨ حزيران حدث ما لم يكن متوقفاً . فقد ظهر لينين في «بيت الشعب» بعد ان هرب من قصر توريدا حيث كان يناور وراء الكواليس . ظهر في قلب معسكر العدو وطلب ان يعطى له الكلام دونما اعتبار لجدول الأعمال ، وتجاوز الوقت الذي خصص له ، ثم انصرف كما جاء . وعندما كان مكتب المؤتمر يحاول إيقافه ، كان يتوجه الى المستمعين الذين كانوا يصوتون بين فترة واخرى على متابعة خطابه .

لقد استطاع لينين ان يحظى باهتمام الفلاحين ، واتهم الاشتراكيين – الثوريين والمناشفة بأنهم اداة في يد البورجوازية لإخضاع البروليتاريا ، وطبأن الموجيك مؤكداً لهم ان البلاشفة سيدعمونهم بكل قواهم ، ودعاهم الى الاستيلاء على الاراضي دونما انتظار للجمعية التأسيسية ، وبأكبر قدر ممكن من التنظيم .

والحقيقة ان انعزال لينين في صفوف المعارضة قد اتاح له ان يسدد ضربات حرة الى الاشتراكي – الثوري تشيرنوف والمنشفي سكوبيليف ، وزير العمل . ولكن المناشفة والاشتراكيين – الثوريين كانوا ينوون ان يحرورا عمال المصانع من هيمنة البلاشفة . وكانت الحالة الاقتصادية قد تفاقمت نتيجة لتناقص الانتاج واختلال المواصلات . وما كان الوزراء الاشتراكيون براغبين في ان يتركوا لحصصهم اليساري الوحيد فرصة استغلال الاستياء المتعاظم .

واقترح سكوبيليفا ، اكره الوزراء الى قلوب الصناعيين ، ضريبة استثنائية على الرأسمال . وتطرفت لجنة السوفييت التنفيذية اكثر من ذلك عندما صوتت الى جانب قرار بلشفي يخضع حياة البلد الاقتصادية الى تسيير الدولة المباشر ، ويعطي الدولة احتكار التروستات والحق في التصرف بالعمل الذي اصبح إلزامياً . وكاد التحالف الحكومي الذي زعزعت هذه المطالبة « المتطرفة » من أركانه ان ينفجر . وقد قدم أ.ي كونوفالوف ، وزير التجارة والصناعة عن الكاديت ، استقالته ، ولم يقبل أحد بأن يحل محله .

*

جاء جميع الثوريين الكبار الذين برزوا خلال الثلاثين سنة الأخيرة ليحضروا في ١٦ حزيران ١٩١٧ في الساعة ١٩ افتتاح المؤتمر الاول لسوفييتات الجنود والعمال لعموم روسيا ، في قاعة مكتظة بالأعلام الحمر المأخوذة من المدرسة العسكرية الامبراطورية القديمة .

انه الاستعراض العام للقوى الاشتراكية في البلاد قاطبة (١٠٥٠ مندوباً) . والقاعة التي تفوح منها رائحة الدخان العكرة تعج بالمنفيين والمعتقلين والمهاجرين سابقاً . وكانوا يمثلون في حد ذاتهم عدة قرون من السجن والنفي ، وكل الاتجاهات ، وكل الطبقات الاجتماعية .

وكان المثقفون ، المتأثقون ، يسيطرون على الاحزاب ويختلطون بالعمال بسرائرهم المتسخة ، وبالجنود بأزيائهم المهترئة .

وتصالبت المصائر وارتبطت وتقطعت في ذلك المؤتمر السوفيياتي الوطني الأول . وتواجه لينين وكيرنسكي لأول مرة منذ أن كانا طفلين في مدينة سمبرسك الصغيرة .

ولم يتبادلا التحية . وكان كيرنسكي قد قال قبل ثلاثة اعوام لآنا اوليانوفا بصدد ابنها الغائب : « ستنشب الحرب وستفتح له ابواب روسيا » . ولكن الاشياء قد تبدلت كثيراً منذ ذلك الحين . والقوى التي انجزت الثورة مجتمعة تختصم الآن على مستقبلها . وكيرنسكي وزير ، ولينين أكثر المعارضين تصميماً واستبسالاً . وجورج بليخانوف ، الذي كان أول من بشر بالماركسية منذ ٤١ عاماً ، والذي ناء كاهله تحت اعوامه الستين وتحت المرض ، بذل مجهوداً فائقاً للقدرة الانسانية حتى يعود الى موطنه . وحلبة المساجلة الكبرى تضم الآن كل الوجوه البارزة : ستالين ، مولوتوف ، سوخانوف ، اوريتسكي ، لوناتشارسكي ، بريشكو - بريشكوفسكايا ، تشخيدزه ، مارتوف سكوبيليف بوغانوف ، كريلنكو ، كامنيف وزينوفييف . ويلتقي تروتسكي بجاكوب سفيردلوف للمرة الأولى .

من المنصة وجه وزير البريد ، تسيريتيلي ، روح المنشفية ، المديح الى حكومة التحالف وهاجم الفكرة البلشفية عن سلطة سوفياتية وقال :

— في الوقت الحاضر لا يمكن لأي حزب في روسيا أن يقول : « اعطونا السلطة ، أدخلوا السبيل ، فلسوف نحتل أماكنكم » . ان مثل هذا الحزب لا وجود له البتة بين ظهرائنا .

وارتفع ، من خلال صمت القاعة ، صوت يقول :

— بلى ، إن مثل هذا الحزب موجود !

وغادر صاحب الصوت مقعده وأتجه نحو المنبر .

— اجل ، هذا الحزب موجود .

قالها لينين وضجت القاعة بالضحك . فعاد الزعيم البلشفي يقول :

— في وسعكم ان تضحكوا ما شاء لكم الضحك ، ولكن اذا كان

المواطن — الوزير تسيريتيلي يضعنا الى جانب حزب يميني ، فإنه سيتلقى الجواب المناسب . ثقوا بنا نثق بكم . ان انتقال السلطة الى البروليتاريا الثورية المدعومة من قبل الطبقة الفلاحية الفقيرة يعني الانتقال الى النضال الثوري من اجل السلم في اكثر أشكاله رسوخاً وأقلها إيلاماً على مدى تاريخ البشرية ، الانتقال الى وضع تكون فيه سلطة العمال الثوريين وانتصارهم مضمونين في روسيا وفي العالم اجمع . ارفضوا ان تكونوا اداة نهب وعنف بين ايدي الملوك والملاك العقارين والصارفة ...

ولم يكن للينين اي أمل في أن يجمع غالبية من السوفيت تؤيد اقتراحه باعتقال كبار الرأسماليين وبالاستيلاء على السلطة . ولم يكن عدد المندوبين البلاشفة يتجاوز ١٠٥ ، مقابل ٢٨٥ اشتراكياً — ثورياً و ٢٤٨ منشفياً . ولكن هذه التشكيلات ادركت مدى قدرة الافكار اللينينية على التسرب والتغلغل ، تلك الأفكار التي راح تشيرنوف ودان وتسيريتيلي وكيرنسكي وسكوبيليف يسفهنها بكل ما اتيح لهم من براعة ، كل بدوره .

وصرح دان :

– حتى ولو كانت حكومتنا اشتراكية خالصة ، فلإننا لن نستطيع غير انتهاج سياسة الديمقراطية الثورية البورجوازية .

واكد تشيرنوف :

– ان انتقال كل السلطة الى السوفييتات في المرحلة التي نجتازها الثورة الروسية سيضعف الى حد كبير قواها ، إذ يستبعد منها قبل الأوان العناصر التي ما تزال قادرة على خدمتها .

وعاد لينين يقول :

– لقد أخذتم في شباك تناقضات لا مخرج لها . إنكم تنصحون الشعوب الاخرى قائلين : لتسقط محاولات الضم ، ثم تسعون انتم انفسكم وراء الضم . انكم تقولون للشعوب الاخرى : أطيحوا بصيارفتكم ، وانتم لا تطيحون بصيارفتكم . ان السلطة السوفياتية هي وحدها التي ستعطي الشغيلة الخبز ، والفلاحين الأرض ، وروسيا السلم ، وستنقذ البلاد من الدمار .

وما كان أبعد كيرنسكي عن ذكريات الشباب عندما تولى الرد :

– انتم البلاشفة تطلبون أدوية خطيرة : الاعتقال والقتل والتدمير . ما أنتم إذن ؟ اشتراكيون او شرطة من العهد السابق ؟

واحتج لينين لدى الرئيس تسيريتيلي :

– عليك ان تلفت نظره الى احترام النظام .

ولم يكن وزير الحربية يفكر بغير الهجوم المتوقع الذي يفترض فيه ان يعيد الى روسيا حظوتها وأن يرص صفوف الجيش من جديد . وطلب التصويت على مبدأ الهجوم :

– ينبغي ان تبدأ العمليات العسكرية في الجبهة خلال اسبوعين .

بونابرت ذو القدم الصغيرة ، قاطع الجبال ، شارب الدم . تلكم هي

الصفات التي اطلقها البلاشفة على وزير الجيش . وكان رد كيرنسكي الواثق من نفسه ومن غالبية :

— ليس لي اعداء على يساري .

ونفض لينين وغادر المؤتمر قائلاً لأصدقائه :

— اني عدو لكل ما هو على يميني .

وتابع سوفيت عموم روسيا أعماله في جو من الهدوء ، وعين هيشة دائمة جديدة من ٣٠٠ عضو ، اللجنة التنفيذية المركزية لسوفيئات العمال والجنود (تسيك) التي كان من بين اعضائها رجلان لن تتاح لهما بعد الآن الفرصة للقاء من جديد : لينين وكيرنسكي .

وفي قصر توريدا جمع رودزيانكو نواب الدوما وأعلن من خلال موجة من التصفيق نبأ الهجوم القريب . وقال وهو يتختم كلامه :

— سادتي ، اني اطلب اليكم ألا تغادروا العاصمة بسبب الاحداث السياسية الوشيكة .

(٤٣)

خوت مقاعد البلاشفة في مؤتمر سوفيئات عموم روسيا من أصحابها . وأثار غياب لينين وستالين وكامينيف وزينوفيف قلق الزعماء الاشتراكيين الثوريين والمناشفة ، بقدر ما اثار قلق تروتسكي ولوناتشارسكي واوريتسكي واعضاء الحزب الوسطيين الذين كانوا لا يظهرون في الجلسات إلا فيما قل وندر .

وانتشر سر اختفائهم في البداية تحت شكل شائعة : ان البلاشفة ينون القيام بتظاهرة سلمية احتجاجاً على هجوم كيرنسكي الحربي . وقد عقد لينين العزم على تنظيم هذه المظاهرة بنفسه وحدد موعدها : ٢٣ حزيران .

وفي الثكنات والمصانع والمعامل ، وفي كرونشتاد ، عبأ رجال لينين

وتروتسكي والبلاشفة جماهيرهم المخلصة . ففلاديمير ايليتش يريد ان يثبت لنواب السوفييتات الآتين من شتى أرجاء روسيا انه اذا كان للاشتراكين – الثوريين والمناشفة الغالبية داخل جدران المؤتمر ، فإنه هو يملك غالبية الشارع . وفي الوقت نفسه وضعت كتائب موسكو وعدد آخر من الكتائب تحت إمرة الرقيب سيماشكو الذي سمي القائد العام للقوات المتمردة ، وكان لكيرلنكو دور كبير في تثقيف هؤلاء العسكريين .

وانشرت شائعة تقول إن لينين يعد العدة لانقلاب عسكري ، وإن قواته ستحاصر قصر ماريا وتعتقل الوزراء . واجتمع مجلس رئاسة السوفييت في جلسة مغلقة تلافياً للخطر المتصاعد وطلب من البلاشفة ان يفسروا موقفهم . وعين لينين كامينيف ، المعتدل ، ليذهب لطمأننة تسيريتيلي وتشيرنوف وتشخيدزه ... وذهب تروتسكي ايضاً . ومن فوق المنبر تساءل كامينيف :
– لمَ هذه الضجة كلها ؟ ان قوانين الثورة تسمح بتظاهرتنا .

فرد عليه تسيريتيلي وقد اصفر وجهه غضباً :

– ان البلاشفة تجرنا الى مغامرة لا يمكن حساب نتائجها . إن علينا الانتقال الى شكل آخر من النضال . وينبغي ، قبل كل شيء ، تجريد البلاشفة من أسلحتهم .

– لا تقتصر على الخطب ، ايها المواطن – الوزير ، وقدمني الى المحكمة بتهمة التآمر على الثورة ! اذا كنت تخاف من تظاهرة بلشفية في العاصمة ، فسوف نلغيها .

ولزم تسيريتيلي الصمت . وغادر البلاشفة القاعة بضجة وبلجة . وفي جو عاصف تناقش من تبقى من الاشتراكين ، مارتوف وبوغدانوف ولاير وغيرهم ، حول التكتيك الواجب اتباعه . وأخرج بوغدانوف مجلس الرئاسة من المأزق :

– فلننظم تظاهرة ضخمة يوم الأحد ١ تموز . ولنذع اليها البلاشفة

ولنفرقهم في بحر أنصارنا . فلنذهب لتكريم موتانا في ساحة آذار .
ووافقت الفئات جميعاً . وتراجع لينين . وظهرت « البرافدا » التي
كان يفترض فيها ان تعلن عن مظاهرة ٢٣ حزيران السلمية بأعمدة بيضاء .
ومن قصر كشنسكايَا أرسل لينين تعليماته بصدد مظاهرة الأول من
تموز . وعبثت كافة قوى الحزب استعداداً لليوم المحدد .

*

انتهت ياشكا بوتشكاريفا من تشكيل كتيبتها النسوية . وجعلت شعارها
« مساواة في الحياة ، مساواة امام الموت » . وفي ٢٥ حزيران حضرت قداس
البركة في كاتدرائية القديس إسحق ٣٠٠ امرأة حليقات الرأس ، تلقين
تدريبهن على ايدي ضباط كتيبة فولينسكي . وقدم كورنيلوف من الجنوب
الغربي ليحضر الحفل . وقدم ايضاً كيرنسكي وميلويكوف وروديانكو . وفي
اليوم التالي أقام كورنيلوف مأدبة وداع قبل رحيل الكتيبة الى الجبهة .

*

ليلة ٣٠ حزيران - ١ تموز . السماء صافية الأديم فوق بتروغراد وعلى
بعد مئات الكيلومترات غادر الكسندر كيرنسكي تارنوبول ، تحت جناح
الظلام ، ليتغلغل في خطوط المشاة المتقدمة . وأخذ مكانه في نقطة مراقبة
مموهة فوق أحد التلال . وكانت ساحة القتال تمتد أمامه في السهل . وكانت
المدفعية تزجر منذ نحو ساعتين . وكان وزير الحربية يكثر من النظر الى ساعته .
وعلى حين بغتة خيم صمت شجي . ان ساعة الهجوم قد اقتربت ، ولكن
هل سيخرج الجنود من الخنادق؟

منتصف الليل . لمح كيرنسكي البنادق تخرج من الخنادق ، والجنود
ينقضون باتجاه الخطوط المعادية . وكان الهجوم قد شن على الجبهات النمسية -
الألمانية والتركية في آن واحد . وتقدم كورنيلوف والجنرال فلاديمير اندرييفتش
تشيريمسوف في غاليسيا مع فرق بروسيلوف الثلاث والعشرين ، باتجاه

عاليته على جبهة عرضها ٧٠ كيلومتراً وبلغت ديكينين الألمان في الغرب .
وصرح بليخانوف : « ايها المواطنون ! هذا يوم انبعاث للديموقراطية
في العالم اجمع . لقد قررت روسيا ، بعد ان ألقت عنها نير القيصرية ، ان
تلقي نير العدو » .

*

كانت الشمس قد تربعت في كبد السماء والحر قد اصبح خانقاً عندما
خفقت في شوارع بتروغراد غابة الأعلام القانية التي لا يحصى لها عد .
واذا كان بوغانوف قد اقترح الأول من تموز موعداً لمظاهرة السوفييت
الهائلة ، فهذا ليس من قبيل الصدفة . فلقد أراد من هذا التوقيت ، اي بعد
المهجوم الروسي بوضع ساعات ، ان تكون المظاهرة تعبيراً جماعياً عن تأييد
الجماهير لحكومة التحالف وأن تكون ايذاناً بخسارة البلاشفة من جديد
للسببية التي أضحت لهم بفضل الغليان الجماهيري والمصاعب
الاقتصادية . ولكن الحساب كان خاطئاً . فقد بلغ عدد المتظاهرين ،
رجالاً ونساء ، عمالاً وجنوداً ، ٥٠٠٠٠٠٠ ، يسرون يداً بيد ولا
يهتفون إلا بشعارات لينين : كل السلطة للسوفييتات - حرب على القصور
وسلم للأكواخ - يسقط الوزراء الرأسماليون العشرة - لتسقط الحرب .

*

بينما كان الليل يخيم بسدوله على المقاتلين المهاجمين للخطوط الألمانية ،
جمع الحزب البلشفي ، وقد ازداد ثقة بنفسه بفضل انتصاره في النهار ،
مؤتمر التنظيم العسكري للجنة المركزية في بتروغراد . وتوجه لينين وستالين
بالخطاب الى ١٦٠ مندوباً عن ٤٨ منظمة في الجبهات الرئيسية الاربع وعن
١٧ منظمة في المؤخرة . واتخذ المؤتمر قراراً تاريخياً بتشكيل ميليشيا بروليتارية
تابعة للحزب : الحرس الأحمر ، « الضمانة الوحيدة للحرية وللإجهاد
النهائي على القيصرية » . وسوف تكون مهمة الحرس الأحمر ، ذلك الجيش
الطبقي ، إعداد العدة للثورة المسلحة . وسوف يكون عليه ان يكافح الجوع

وان يمارس الرقابة على التوزيع المتساوي للخبز وأن يسهر على سير المصانع .

وقال لينين :

— ايها الرفاق العمال ، أثبتوا للفلاحين وللشعب قاطبة ضرورة إنشاء ميليشيا عامة تحل محل الشرطة وسلك الموظفين القديم . لا تكتفوا بأي حال من الأحوال بميليشيا بورجوازية . ادعوا النساء الى أداء خدماتهن المدنية بالتساوي مع الرجال . اجعلوا الرأسماليين يدفعون للعمال أجرة الأيام التي سيكرسونها للخدمة المدنية في الميليشيا .

ولاقت الفكرة البلشفية عن تشكيل ميليشيا بروليتارية قبولاً حسناً لدى الجماهير وما كان في الإمكان ان تقابل بالرفض من قبل لجنة السوفييت التنفيذية التي وجدت نفسها مضطرة الى أن تعلن :

— يقوم عمال المصانع والمعامل بتشكيل الميليشيا بنسبة مئة شخص عن كل ألف عامل .

ووجد لينين نفسه بحاجة ، بعد ثلاثة أشهر من العمل المتواصل ، وعلى إثر نوبات شديدة من الصداع ، الى استرداد أنفاسه وإراحة قواه . وعرض عليه فلاديمير بونتش — بروثيفيتش ، المهاجر المخضرم الذي كان يرسل من سويسرا المنشورات السرية المضغوطة في شكل ورق مقوى لصناديق القبعات ، منزله الريفي في قرية نيجولا في فنلندا ، غير بعيد عن الحدود . ورافقت كروبسكايا ، التي ما توانت عن النضال في أوساط فيبورغ العمالية ، زوجها في رحلته .

*

على كل الجبهات كلل الجنود الروس هاماتهم بأكاليل المجد على حساب حياتهم . وانتصر كيرنسكي . ولكن في الوقت الذي راحت فيه المؤخرة التي يتعلق بها الانتصار النهائي تُستقطب حول البلاشفة ، اصطدمت الحكومة المؤقتة بمصاعب جديدة . فأوكرانيا ، التي ضمتها كاترين الثانية الى روسيا

بنفس الشروط التي ضمّ بها الساحل الشمالي للبحر الأسود ، والقرم وروسيا البيضاء ولتوانيا وكورلاند قد اعلنت انفصالها . ففي إبان احداث آذار شكلت الاحزاب القومية البورجوازية بالاشتراك مع الاشرائيين الثوريين في كيف الرادا المركزية ، أي برلماناً مهمته إعداد العدة للاستقلال الذاتي . وزعزعت مطالب الحركة الانفصالية الاوكرانية الحكومة من أركانها . واتصل لغوف هاتفياً بكيرنسكي وطلب إليه ان يغادر تارنوبول لينضم الى تسيريتيلي وتيريشتنكو في كيف . ولكن الوزراء وجدوا انفسهم امام حقيقة واقعة لا رجوع عنها وعادوا الى بتروغراد وكلهم اقتناع بأن ما من شيء يمكن ان يجعل الرادا تعود عن قرارها .

وكانت الحكومة المؤقتة قد اخذت على نفسها عهداً بإنشاء دولة بولونية مستقلة تضم كل الاراضي المسكونة بغالبية بولونية ويربطها بروسيا اتحاد عسكري حر وتعبر عن ارادتها جمعية تأسيسية تعقد اجتماعاتها في وارسو . وكانت بولونيا قد عقدت النية على الانعتاق نهائياً من الحماية الروسية . وطالبت فنلندا ، التي فتحها بطرس الاكبر ، بدورها بحقوقها السامية . ولكن لغوف أصدر مرسوماً بحل الدييت وباحتلالها عسكرياً .

واعلنت سائر الدول البلطيقية التي ربطها بطرس الاكبر ايضاً بالتاج القيصري : استونيا ، ليتوانيا ، لتوانيا ، استقلالها .

وفي آسيا الوسطى والقفقاس وجيورجيا كذلك ولدت حركات انفصالية . وكان لينين قد وجد لدى ماركس الحل لمشكلات الدول التابعة : « لا يمكن لشعب يضطهد شعباً آخر ان يكون حراً » . وهو يريد ان تكون روسيا حرة

واستغل الوزراء الكاديت الاربعة ، الذين لبثوا في الحكومة بعد استقالة زميلهم أ.إ. كونوفالوف ، الأزمة الاوكرانية ليقدموا بدورهم استقالتهم . فترك نيقولا نكراسوف الذي ايقظ كيرنسكي صبيحة ثورة آذار وزارة

المواصلات ، وترك اندريه شنغاريف وزارة المالية ، وترك الأمير أ. شاخوفسكوي وزارة النجيدات العامة ، وأ.أ. مانويلوف وزارة التعليم العام .

وكانت الأزمة الوزارية بمثابة تهديد مباشر لروح التحالف . واتسعت الهوة بين السياسيين البورجوازيين والحكام المنتدبين من قبل السوفييت .

واخذت الاحداث السياسية التي تنبأ بها رودزيانكو متخوفاً تتحقق . فقد أصبحت غالبية الحكومة اشتراكية بعد انسحاب الكاديت . ووردت من الجبهة أنباء سيئة . فقد تراجعت عدة وحدات الى المؤخرة هرباً من القتال . والهجوم الذي أثار موجة من الحماسة في البداية يوشك ان يتحول الى كارثة . وكرر المقنع الأول كيرنسكي زيارته للجبهة حيث التقى ببوريس سافنكوف الذي قال له بمرارة :

لعل هؤلاء الهاربين مواطنون ، ولكنهم ما عادوا جنوداً .

وعلى الصعيد الاقتصادي غاصت الحكومة المؤقتة في الوحل . فالتضخم اصبح زاحفاً . ونتاج المعادن هبط بنسبة ٤٠٪ ، ونتاج النسيج بنسبة ٢٠٪ . ولم تلتق بتروغراد في حزيران سوى ١٢٥٩ مقطورة طحين بدلاً من ٥٠٥٢ . وتضاعف سعر الخبز أمثالاً ثلاثة . وأغلقت ٢٠٦ مشاريع أبوابها ، قاضية بالبطالة على ٥٠٠٠٠ عامل . وطلب الصناعيون الذين عقدوا مؤتمراً في بتروغراد من الحكومة أن تعتبر كل مساس بحقوق أرباب العمل جريمة ضد الدولة . وارتفع التوتر . وهددت كتيبة الرشاشات الاولى ، المعسكرة في « بيت الشعب » ، بالنزول الى الشارع شاهرة السلاح . وحاول البلاشفة الذين كانت لهم قوة مرموقة في تلك الكتيبة ان يؤخروا ذلك الاضطدام السابق لأوانه . ولم يتوصل نيقولا ايليتش بودفويسكي ، الذي سمي رئيساً للجنة العسكرية التابعة لقيادة الحزب لدى خروجه من سجن كريستي ، الى تهدئة غليان الجنود . فقد قدم هؤلاء الى « بطرس وبولس » التي أصبحت قلعة بلشفية . وأراد ستالين وسفيرد洛夫 اللذان يقودان الحزب في غياب

لينين ، ان يوجها نداء في « البرافدا » لالتزام الهدوء . ولكن العمال والجنود عارضوهما وطالبوا بالثورة المسلحة . وقد مشى لوناتشارسكي وتروتسكي بالذات في مقدمة الجنود بأمل تهدئتهم . وإزاء خطر تمرد عفوي يهدد بتحطيم الخطط المقررة ، رجا الحزب لينين بالإسراع بالعودة .

(٤٤)

« الرصاصة الاولى لكيرنسكي » . ذلكم هو الشعار الحديد الذي ترددت اصداؤه في موكب ١٦ تموز العفوي . وقد بذل ستالين وسفيردلوف جهوداً كبيرة لمنع مرجل الغضب الشعبي من الانفجار في وقت غير مناسب . ولكن الجماهير لم تستمع الى أحد . وحاولت جماعة من المتظاهرين الاستيلاء على مقام الأمير لفوف ، وجماعة ثانية على وزارة الحرية . وأعلن الحزب البلشفي تبرؤه من العاصفة التي ارتفع عجاجها . ولكن العجاج سرعان ماتحول الى ريح صرصر ، ولم يجد ستالين بدأ من الاعتراف : « في حوالي الساعة ١٨ كنا امام حقيقة واقعة ، فالتمرد قد بدأ » .

كان قطبا الشغب قصر كشنسكايا الذي كان يأتي اليه المتظاهرون ليتزودوا بصينغ المطالب ، وقصر توريدا الذي كانوا يذهبون اليه لتسليم تلك المطالب . وفي الساعة ٢٠ اضطر بودفويسكي الى الظهور من شرفة قصر راقصة الباليه السابقة . فالحزب قد قرر ، بعد أن عجز عن لحم الجماهير ، أن يعتلي الموجة وان يتولى قيادة الحركة .

وعلى جناح السرعة عاد لينين في الليلة ذاتها . وصحيح ان زججرة ١٦ تموز لم تدم اكثر مما تدوم عادة زججرة عاصفة صيفية ، ولكن في الساعات الاولى من صباح اليوم التالي كان ٥٠٠٠٠٠ شخص قد احتلوا الشوارع . وغادرت عدة سفن كرونشتاد وألقت مراسيها على طول رصيف النيفا .

وعندما تيقن السوفييت والحكومة المؤقتة من أن لينين يعد العدة للاستيلاء على السلطة بالقوة ، قاما باستدعاء خيالة القوزاق من أقرب الجبهات . وأخذت

القوات الموالية وضعية القتال . وكان العمال والبحارة ورجال الميليشيا مسلحين هم ايضاً . وباتت العاصمة على شفا حرب أهلية .
وكان فلاديمير ايليتش ما يزال يأمل في لحم المتمردين . وخاطب الجماهير بقوله :

– إن ما نحتاجونه لـ « علقه » أصولية . !

وشتت المتظاهرين مزنة صيفية عارضة . ولكن سرعان ما عادوا الى التجمع . وحاولت فصيلتان من القوزاق تجريد الحرس الأحمر من سلاحه . فكان الصدام الاول على ضفاف النيفا . وانجبت المعركة عن ٢٠ قتيلاً و ٤٠ جريحاً من الطرفين .

*

استدعى ب.م.بيريريفرسيف ، وزير العدلية المنشفي ، الى مكتبه ألد أعداء لينين ، غريغوار الكسنسكي ، البلشفي السابق وزعيم النواب البلاشفة في الدوما الثانية ، وقال له :

– لقد تلقينا سجلاً حافلاً ضد اوليانوف . إن هذا الرجل عميل لألمانيا . وقد وافانا بالأدلة ضابط روسي ذو صلة بالمخابرات المعادية . ان لينين وزينوفييف يتلقيان أموالاً ألمانية عن طريق السويد . وبارفوس وراء العملية .
فسأل الكسنسكي :

– لماذا لا تحيلون القضية الى القضاء ؟

– ان كيرنسكي وعدداً آخر من الوزراء يعارضون ذلك . ولكني أرى من واجبي العمل على عدم اختناق هذه القضية . أفي وسعك إذاعتها عن طريق الصحافة ؟

واطلع الكسنسكي على السجل ، وقام بتوزيعه على الصحف . ولما علم فلاديمير بونتش – بروثيفيتش أن تلك الوثائق ستنشر ، نصح لينين وزينوفييف

بالاختفاء . وطلب من السوفييت ان يتدخل لدى الصحف . ولم يكن الضابط الاوكراني إرمولنكو، مخلق الاتهامات التي تم نقلها عن طريق الجنرال دينيكنين ، إلا عميلاً مزدوجاً سابقاً للاوكرانا . وخشية من ألا تكون التهمة مدعومة ببراهين مادية كافية اتخذ السوفييت نفس موقف كيرنسكي ، وحظر على الصحف نشر أي شيء من السجل الذي وزعه عليها الكسنسكي . ولكن صحيفة صغيرة ، «الكلمة الحية» ، قد استثنت من قبيل «النسيان» من هذه التعليمات .

*

مرّ جاكوب سفيردولوف على لينين في ليلة ١٧ تموز وحذره قائلاً :
— ليس من الحكمة ان تنام في بيتك .

وذهب لينين وكروبسكايا الى بيت عامل في حي فيبورغ ، وافترش فلاديمير ايليتش الارض وكانت وسادته مجموعة من الكتب .

ولم تكد الساعة تدق الساعة صباحاً حتى عاود سفيردولوف ظهوره لدى كاثيروف ، العامل الذي قضى عنده لينين ليلته . وكان النبأ الذي يحمله سفيردولوف يفيد بأن «البرافدا» قد اقتحمت من قبل الضباط التلامذة . وان سجلات التحرير قد صودرت ، والآلات الطابعة قد حطمت ، والكتب قد أحرقت . ثم اخرج سفيردولوف نسخة من «الكلمة الحية» وقد نشرت فيها التهم الملفقة . وتحولت القضية الى فضيحة . وقام الضباط التلامذة باحتلال قصر كشنسكايا . وكان الشارع ما يزال يعج بالمتظاهرين . وأصدرت قيادة البحرية أمرها الى اربع نسافات بالتوجه الى بروجراد لمنع بحارة كرونشتاد من النزول من مراكبهم وبلغراق الوحدات التي قد تحاول التدخل . ولكن هذه الأوامر لم تنفذ .

وفي قصر توريدا علقت جلسات لجنة السوفييت التنفيذية . وكان ٣٠٠٠٠٠ عامل يهتفون تحت النوافذ . وحاول تشخيدزه وتسيريتيلي المساومة . وعلى

حين بغتة دخل القاعة زينوفييف المتهم هو الآخر بالحيانة ، وخطب في النواب قائلاً :

— ايها الرفاق ، لقد جرى اقرار عمل بشع شنيع . لقد نشرت الصحافة فرية قبيحة لإثارة الجماهير . ان لجنة حزبي المركزية تطالبكم بتسمية لجنة تحقيق لإعادة الاعتبار الى زعيمنا .

وبلا حماسة ، ولكن من غير تأخير ، سمي السوفيت لجنة نقضت ودحضت سجل وزير العدالة . ولما وجد بيريفرسيف نفسه وحيداً في الساح ، قدم استقالته .

واصبح عدد الغائبين في وزارة الأمير لفوف ستة . وعلم كيرنسكي بالأحداث في مولودشنو ، لدى الجنرال دينيكين . وطلب منه لفوف العودة على عجل . وفي محطة قريبة من بتروغراد كان وزير الخارجية تيرشتشنيكو في انتظار كيرنسكي . وقد قال له :

— لقد قرر لفوف ترك السلطة . انت رجل الموقف .

*

دوت لعلعة الرصاص في كل أرجاء المدينة في ١٨ تموز . وقتل المئات . وساد المدينة الذعر .

وكانت الأمواج تلو الأمواج من العمال والجنود والبحارة تندفق باتجاه قصر توريدا ، وتطلب تشيرنوف . وعندما ظهر وزير الزراعة تحت قنطرة الأعمدة ، صاح به احد العمال :

— خذ السلطة عندما تقدم اليك يا ابن الكلبة !

وذاع داخل القصر نبأ يقول إن المتظاهرين قد اعتقلوا تشيرنوف . وأرسل لونا تشارسكي وكامينيف ومارتوف وتروتسكي لنجدته . وكان الوزير قد حبس في سيارة . وقاتل تروتسكي لإطلاق سراحه . وصاح :

– من يؤيد العنف فليرفع يده !

ولم يحرك احد ساكناً . وأطلق سراح تشيرنوف .

ونصح سفيردولوف لينين بتغيير مخبئه ونقله إلى طرف المدينة الآخر لدى عامل ، بوليتايف ، النائب السابق في الدوما الثالثة .

وسكنت ريج العصيان مع قدوم كتائب القوزاق الموالية للحكومة من الجبهة ، واستتب النظام من جديد . وعاد كيرنسكي وفي نيته ان يضع البلاشفة والمؤيدين لهم خارج القانون . وأصدر مذكرات توقيف بحق لينين وكامينيف وزينوفييف ولوناتشارسكي وتروتسكي والكسندرا كولونتايف وانتونوف – اوفسينكو وكريلنكو وديبنكو .

وفي الوقت الذي بدأ فيه امتحان القوة مع البلاشفة ، أعلن الجنرال بروسيلوف ان الألمان قد شنوا هجوماً مضاداً على طول الجبهة بعنف هائل . وسقطت تارنوبول . وكانت كتيبة ياشكا النسائية من ضمن القوات التي تراجعت . ونشرت قيادة الأركان العامة بلاغاً مأساوياً : « إن قواتنا ، المتناسية واجبها ، تهرب على طول الجبهة » . وقد كلف الهجوم الروسي ٦٠٠٠٠ جندي حياتهم .

وصرح الأمير لفوف :

– ان فشل الهجوم على الجبهة العسكرية لأقل أهمية من الصدع الذي أحدث في جبهة لينين .

وانتقل فلاديمير ايليتش الى بيت س.آ.ليلويف ، مخبأ ستالين المفضل . ولم تعد كروبسكايا تذهب الى رؤيته خوفاً من اهتداء الشرطة الى مخبئه . ودارت مناقشة حادة في اللجنة المركزية . فكامينيف ونوغين وريكو يرون الاستسلام لعدالة الحكومة المؤقتة ، بما في ذلك لينين ، حتى يتبدد وينقشع سوء التفاهم . وعارض هذا الرأي ستالين وزينوفييف وغالبية المناضلين المعرضين للقمع الرسمي . وطلب اورجو نيكدرزه من زعماء السوفييت ضمان

حياة لينين . وتهربت اللجنة التنفيذية . وجرت حملات تفتيش في كل
الاماكن التي يمكن لفلاديمير ايليتش أن يختبئ فيها . واعتقلت كروبسكايا
واخته ماريا يوماً كاملاً . ولم يعثر للزعيم البلشفي على أثر . فقد اختار
الحياة السرية لأنه ، كما كتب « لا ضماناً للعدالة في روسيا في الوقت الحاضر » .
ولم يستطع تروتسكي ولوناتشارسكي وكربلنكو وريكوف الإفلات
من قبضة الشرطة . وجرى توقيفهم في سجن كريستي . وعقد انتونوف
« الحربة » وكامينيف أوامر الصداقة من جديد في زنانتين متجاورتين في
السجن . واقتيدت الكسندرا كولونتاى الى معتقل نسائي وعزلت في زنزانة
منفردة .

*

جرى دفن الثورين الذين سقطوا صرعى في أيام تموز سراً تماماً كما
حدث في العهد القيصري بعد الأحد الأحمر في عام ١٩٠٥ . وبالمقابل اقيم
احتفال مهيب في كاتدرائية القديس إسحق للقتلى من رجال القوزاق . وكان
لفوف وميلوكوف ورودزيانكو وكيرنسكي في عداد حاملي نعوش . وفي
يوم الحداد ذاك ، في ٢٠ تموز ، قدم لفوف استقالته الرسمية واضعاً بذلك
حداً لمستقبله كسياسي . وسمي كيرنسكي خلفاً له في المنصب الذي لم يمار
أحد في حقه فيه .

ان البورجوازية الليبرالية لم تقدم سوى ديموقراطية عابرة للشورة
الروسية . وكيرنسكي لا يريد لإقصاء تلك البورجوازية نهائياً وكلياً . وصحيح
ان حكومته ستكون ذات غالبية اشتراكية ، ولكنها ستكون حكومة تحالف
وائتلاف . وقد بقي تيرشتشكو وف.ل. لفوف في منصبيهما ، الاول في
وزارة الخارجية والثاني في وزارة المجمع المقدس . وبقي تسيريتيلي ، الخطيب
المفوه ، في وزارة البريد والبرق ، وتشيرنوف ، صديق القرى والمدن ، في
وزارة الزراعة ، وسكوبيليف في وزارة العمل . وجمع كيرنسكي بين

ألقاب رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية والبحرية . وتولى افكسانتييف ، الذي دخل الحكومة متأخراً بضعة أيام ، وزارة الداخلية . وتولى نكراسوف ، الذي كان قد اعتبر المطالب العمالية مشتتة ، وزارة المالية عن حزب الكاديت . واستلم البورجوازي ف.ف كوكوشكين ، عن الكاديت أيضاً ، جهاز رقابة الدولة .

ان كيرنسكي البالغ من العمر ٣٦ عاماً هو أصغر رئيس وزراء في تاريخ روسيا . وكان وجوده شاذاً بين تلك المجموعة من الوزراء الناضجين في السن ، المرسلين لحاهم . وكان أول ما فعلته السلطة الجديدة هو انها أجهزت على المعارضة البلشفية ، او خيل إليها انها أجهزت عليها . وكان قسم كبير من الجيش ما يزال موالياً . وامكن لكيرنسكي ان يعلن :
- اني أشكل حكومة سلامة ثورية . اني اريد سلطة حديدية .

وكان المطلوب اولاً وقبل أي شيء إعادة الأمور الى نصابها وتوطيد النظام في كل مكان . وسوف تتولج الجمعية التأسيسية ، بشكل ديموقراطي ، معالجة المشكلات الزراعية والصناعية والحربية التي أوجد كل حزب برنامجاً لها وخطة لحلها .

ولسوف يمارس كيرنسكي تلك السلطة الحديدية بالأبعاد التي تستحقها . وسوف يحتل مكتب القيصر الفخم في قصر الشتاء ليدير منه شؤون الدولة ، بدلاً من قصر ماريا الذي بدا له أضيق واقل فخامة مما ينبغي ويليقي .

(٤٥)

- ايه ايها الرفيق سيرجو ، ألم تتعرفني ؟

إن هذه العبارة التي رافقتها وخزة ودية على كتف سيرج اورجونيكدزه قد لفظها حصّاد قصير القامة في حقل قريب من رازليف على بعد عدة فراسخ من الحدود الفنلندية . وهذا العامل الزراعي الذي لم يتعرفه اورجونيكدزه

لم يكن غير لينين نفسه الذي وضعت الحكومة ثمناً لرأسه .

ففي ليلة ٢٤ تموز تولى ستالين بيده حلق لحية وشارب حبر البلاشفة ، وأتاه بملابس مستعملة ، وزوده بقبعة عمالية وبأوراق مزيفة باسم كونستانتان بروفيتش ايفانوف . ورحل لينين المتنكر على هذا النحو ، بصحبة ستالين ومضيفه آللويف ، الى قرية صغيرة بالقرب من سيستروريتسك حيث سيتوجب عليه ان يستقل من جديد قطار المنفى برفقة صديقه زينوفيف .

ويروي آللويف ان لينين ، قبل أن يفرع جرس المحطة للمرة الأخيرة ، قفز الى آخر عربة من عربات القطار ، بينما وقف ستالين وآلويف يتابعان بعيونهما الوجه العزيز الذي راح يتعد .

واستقل القطار شخص ثالث ، الفلاح البلشفي ايميليانوف الذي سيختبئ لينين وزينوفيف في بيته .

وفي كوخ ايميليانوف المتواضع ، وعلى فراش من القش ، عاش لينين متنكراً في زي حصّاد ، يقضي معظم اوقاته في الكتابة ، ولا يعرض نفسه لأنظار المتطفلين إلا عند الضرورة القصوى خوفاً من الدوريات والكلاب التي أطلقت في إثره . ولما كانت رازليف تعج بالمصطافين فقد اضطر لينين وزينوفيف الى الالتجاء الى مجاهل الغابة على الطرف الآخر من البحيرة حيث شادا كوخاً من أغصان الاشجار . وفي تلك البقعة الخضراء النائية كان لينين يكتب رسائله ، ومنها يرسل أوامره . وفي كل مساء كان يسمع صوت تجذيف ، معلناً عن وصول عضو من اللجنة المركزية من بتروغراد حاملاً أخبار الحزب والبريد والصحف ، ممضياً الليل مع لينين وزينوفيف . وكان سفيردولوف واورجونيكدزه هما اللذين يقومان بهذه المهمة في غالب الاحيان .

*

دعا كيرنسكي كبار القادة العسكريين الى الستافكا ، وعلى رأسهم

لافر كورنيلوف الذي حلّ محل بروسيلوف بعد هزيمة تارنوبول . وحضر الاجتماع تيرشتشكو وسافنكوف . وصاح الجنرال روسكي :

– كان الجنود يسيرون خلف راياتنا القديمة كما لو أنها مقدسة ، ولا يحجمون عن الاستشهاد ، أما خلف الرايات الحمر فإنهم يستسلمون .
وطالب الكسييف بجل اللجان السياسية . وهاجم دينيكين الوزراء بلا شفقة :

– لقد مرغتم في الوحل راياتنا الماجدة ، وعليكم أنتم ان تنتشلوها منه اذا كان فيكم وجدان .
وهزّ الجنرال يده هزاً عنيفاً . وصاح كيرنسكي صيحة هستيرية وغطى وجهه بكفيه .

لقد مني الجيش الروسي بـ ٢٥٠٠٠٠٠٠ قتيل منذ عام ١٩١٤ ، اي بما يقدر بـ ٤٠٪ من خسائر الحلفاء . ثم إن معنوياته في تدهور مطرد . والشروط التي يضعها كورنيلوف قاسية : إعادة العمل بعقوبة الإعدام وتشكيل مجالس حربية في الجبهة . وقال مهدداً :

– اذا رفضت الحكومة ، استقلت .

والحق ان الجيش قد أمسى من الآن فصاعداً بين اليدين القويتين للجنرال الآسيوي العينين ، ولاسيما الجناح اليميني المتطرف منه . وبعد انصراف كيرنسكي قدم الصناعي غوتشكوف ، وزير الحربية السابق في حكومة الأمير لفوف ، ليقترح على قيادة الأركان العامة ، الستافكا ، باسم اتحاد بوتيلوف ، إعداد العدة لانقلاب عسكري . واقترح ان تزحف القوات على تبروغراد بقيادة الجنرال كريموف بحجة مقاومة البلاشفة ، وتقوم باعتقال اعضاء الحكومة المؤقتة وبإعدام الزعماء الاشتراكيين – الديمقراطيين والاشتراكيين – الثوريين على حد سواء .

وفي نهاية تموز فاتح كورنيلوف الجنرال انطوان دينيكين بمشاريع اتحاد

بوتيلوف ، فما كان من دينيكن إلا أن قبلها واعدأ اياه بمساعدته . وكان من ضمن عداد المتأمرين ايضاً باسيل شولغين الذي سلمه نيقولا الثاني في محطة بسكوف صك تنازله . وقد نصح صديقه الشخصي ، وكيل المجمع المقدس ، ف.ل. لفوف بقوله :

– انسحب من حكومة كيرنسكي . فلسوف نطرح بها بالقوة . فأجاب لفوف :

– لا أستطيع ، طالما لم ينعقد المجمع القادم الذي سيعلن انفصال الكنيسة والدولة .

– ومتى سينعقد؟

– في نهاية آب .

– حسناً . ولكن تذكر ، عليك ان تستقبل قبل ذلك التاريخ .

وكان كيرنسكي يصرّف الأمور الجارية ويعد العدة لانتخاب جمعية تأسيسية يفترض فيها أن تنعقد في أيلول لتحل المشاكل التي أوجدتها الثورة والتي عجز الائتلاف الحكومي عن حلها . وقد صدر مرسوم بجرمان الامبراطور والامبراطورة من حق الانتخاب . وكانت الأسرة المالكة المخلوعة ما تزال تعيش حبيسة قصر تساركوي – سيلو ، بينما كان كيرنسكي يحتل غرف قصر الشتاء الامبراطورية محاولاً تدعيم هيبة السلطة . وتحت ضغط كورنيلوف وبوكانان سفير انكلترا أعاد العمل بعقوبة الإعدام في الجبهة وأنشأ محاكم عسكرية . والى يساره كان صديق طفولته في سميرسك الذي ينام الآن في كوخٍ بسيط يعد العدة لانقلاب على سلطته « الحديدية » كما كان يعد العدة لمثل هذا الانقلاب ، ولكن من اليمين ، صديق حدائته في طشقند الذي عينه في الستافكا .

*

خرجت من قصر توريدا أطنان من الوثائق والبلاغات والمنشورات

والكتب . فقد قرر السوفييت ان يغيّر مقره . والحقيقة ان الدوما قد استغلت فرصة الدعوة الى انتخاب الجمعية التأسيسية لترجو من « التسيك » ، اي اللجنة التنفيذية لسوفييتات عموم روسيا ، ومن سوفييت بتروغراد والاحزاب السياسية ولجان الجنود والعمال والنقابات ان تغادر قصر بوتمكين القديم . وبذلك تمّ انتقال نواب الدوما من جديد الى ذلك القصر الذي بني على الطراز الروماني والذي اصبح من جديد ايضاً بؤرة اليمين .

ووضعت الحكومة تحت تصرف هيئات السوفييت معهد سمولني ، المبني الضخم الذي بني في عام ١٧٤٨ في الضاحية الشرقية من المدينة ليكون مدرسة لبنات النبلاء . وكانت التلميذات في عطلتهن الصيفية . ولن يرجعن ابدأ الى سمولني الذي أصبح مقر الاشتراكية الروسية بانتظار ان يحوله البلاشفة الى حصن الثورة الأول .

*

« ان قوس الحزب لن ينكسر . فهو مصنوع من تلك المادة البروليتارية التي لا تنقص . أما الوتر البلشفي فينبغي ان يشد اكثر واكثر واكثر ، لأن علينا أن نطلق السهم الثقيل الى مسافة بعيدة جداً . .

بهذه العبارة حيا لينين من بعيد البلاشفة المجتمعين سراً في مقر في حي فيبورغ . لقد حضر ١٧٥ مندوباً من بتروغراد الأقاليم الى مؤتمر الحزب السادس ، وقد جاء البعض منهم تحت أسماء مستعارة . وقد تولى يعقوب سفيردلوف ، الرفيق اندريه الذي رسخ اقدام البلشفية في الأورال ، رئاسة المؤتمر السري ، وانتخب المندوبون رؤساء فخرين للحزب الثوريين الكبار المحرومين من الحرية : لينين ، زينوفييف ، الكسندرا كولونتاي ، كامينيف ، لوناتشارسكي وتروتسكي .

ان الحزب يضم ٢٤٠٠٠٠ عضواً ، ٤١٠٠٠ منهم في العاصمة ، و٤٢٠٠٠ في موسكو ، و٢٥٠٠٠ في الأورال . وقد قضى ١١٠ من المندوبين

الحاضرين ما مجموعه ٢٤٥ سنة في السجن . وقد نفي ٥٥ منهم لمدة ١٢٧ عاماً ، كما اعتقل ١٥٠ منهم ٥٤٩ مرة ...

وكان ستالين وجهاً بارزاً في المؤتمر . وقد أيد اطروحات فلاديمير ايليتش :
- إن ثنائية السلطة لم تعد قائمة . فقد تركزت السلطة كلها بين يدي الحكومة المؤقتة الممثلة للطبقة البورجوازية وحدها . ومن الواجب الإطاحة بها بالثورة المسلحة . لقد انتهت المرحلة السلمية ، وجاءت المرحلة اللاسلمية ، مرحلة الاصطدامات والانفجارات .

وبالرغم من أن لينين كان غائباً ، إلا انه كان موجوداً بصورة غير منظورة وهو الذي أضفى على المناقشات روح المسؤولية والجرأة ، وهو الذي دفع بالبعض الى اقتراح سحب شعار « كل السلطة للسوفييتات » ! لأن « المطالبة بنقل السلطة الى السوفييتات ان هي إلا دون كيشوتية او مهزلة » وأضاف ستالين :

- ليس ذلك لأننا نوجد السوفييتات ، ولكننا لا نستطيع تسليم السلطة الى سوفييتات يوجهها أصدقاء كذبة للشعب ، سوفييتات رفضت السلطة التي قدمها اليها الشعب . إن القول بأن السوفييتات تستطيع استلام السلطة بالطريق السلمي في الوقت الذي تتوطد فيه الثورة المضادة ان هو إلا قول خادع وخاطيء .

وزايد عليه مولوتوف بقوله :

- لقد انتصرت البورجوازية المناوئة للثورة التي تلغي الحريات كلها . واستلام السلطة غير ممكن إلا بالقوة . لقد كفت السوفييتات عن ان تكون جهازاً للثورة . ونحن بأمرس الحاجة الى تحالف البروليتاريا والفلاحين .

ان الدعوة الى شهر السلاح هي الهدف الحقيقي للمؤتمر . هكذا شاء لينين . وبذلك تم إنشاء اتحاد اشتراكي للشبيبة الثورية برئاسة كروبسكايا . والشيء الأخطر من ذلك ان أنصار تروتسكي من دعاة وحدة الحزب قد

طلبوا الاندماج بالبلاشفة متخلين عن موقفهم الوسطي الذي أملاه عليهم
انشقاق الاشتراكيين - الديمقراطيين . ولم يكن حزب المترددين يضم أكثر
من ٤٠٠٠ عضو ، ولكنه كان يملك قيادة أركان لامعة : تروتسكي
ولوناشارسكي واوريتسكي وفولودارسكي ولإيوفي ...

وفي السادس من آب جرى انتخاب اللجنة المركزية التي ستكون دماغ
الثورة . وكانت تضم ٢١ عضواً . لينين ، سفيرد洛夫 ، ستالين ، كامينيف ،
زينوفيف ، دزرجنسكي ، الكسندرا كولونتاى ، تروتسكي ، اوريتسكي ،
بوبنوف مؤسس سوفيت ايفانوفو الأول في عام ١٩٠٥ ، بوخارين ، سميلغا ،
سوكولنيكوف ، شاؤولميان ، نوغين ، آرتم ، برزين ، كريستنسكي ،
ميليوتين ومورانوف .

*

في ليلة ١٤-١٥ آب أحاطت فصيلتان من خيالة القوزاق برصيف محطة
تساركوي - سيلو الصغيرة المنارة إنارة خافتة . وكان نائبان سابقان ، فيرشينين
وماكاروف ، يشرفان شخصياً على حسن تنظيم القطار الذي سيتحرك بعد
بضع لحظات حاملاً الى جهة مجهولة ٣٣٠ رجلاً من قوات الأمن و ٣٩
شخصية . وكان كيرنسكي قد جاء في الليلة السابقة ليعلن لنيقولا الثاني أن
سلامته تقتضي انتقاله بعيداً عن بتروغراد . وقد أوصاه قائلاً :
- خذ ثياباً دافئة .

فأجابه الامبراطور السابق :

- لا أعرف الى اين سترسلني ، لكنني أثق بك .

وفي الساعة ٦ صباحاً كانت الشخصيات التسع والثلاثون تستقل عربات
عادية باتجاه المحطة بين صفيين من الجنود الجمهوريين . وكان نيقولا حزياً
وجليلاً ، أما الكسندرا فيودوروفنا فقد سالت دموعها وهي تودع أشقاء
زوجها ، ثم التفت نحو كيرنسكي محتجة :

– لماذا تكرهوني ؟ إنني لم أأخذ روسيا قط !

وتحرك القطار باتجاه سيبيريا حاملاً الأسرة الامبراطورية وعدداً من مساعدي الامبراطور والخدم و ٣٣٠ جندياً لحراسة المنفيين . وكانت وجهة القطار طوبولسك ، فيما وراء الأورال ، وكانت الرحلة طويلة إذ دامت ثلاثة عشر يوماً . وسوف يعيش آل رومانوف في دار حاكم طوبولسك عيشة بورجوازية ، ميسورة ، ولكن تحت رقابة الحرس المستمرة . وقد أوجد القيصر لنفسه هواية جديدة ، فقد أصبح يجمع المسامير القديمة .

(٤٦)

موسكو . الساحة الحمراء تعج بجمهور لجب لم تشهد الساحة مثله قط منذ تنويع نيقولا الثاني . وكان هذا الجمهور ينتظر في حرارة ٢٦ آب الحانقة الرجل الذي وصفته الصحافة منذ كارثة تارنوبول بأنه منقذ الوطن : لافر كورنيوف . وقد وصل الجنرال ، المربوع القامة ، الثاقب النظرة ، الى محطة الكسندر في الساعة ١٥ ، تحيط به كوكبة من الضباط . وأدت له التحية فصيلة من فرسان التركمان ، وأغرقتة الموسكوفيات بالأزهار . وحملته الجماهير كبطل مظفر . وهتف روديتشيف عضو حزب الكاديت :

– أنقذ روسيا يتوجك الشعب المعترف لك بجميلك .

وتحرك موكب طويل باتجاه الساحة الحمراء حيث تعالت هتافات الترحيب بـ « المنقذ » .

وكما كان يفعل القياصرة رقع كورنيوف امام ايقونة إيبيريا المرصعة بالماس والجواهر في قصر الكرملين . وبارك خمسون كاهناً جندي روسيا الأول . ثم شقّ له الضباط طريقه الى مسرح بولشوي حيث كان بانتظاره ألفان وخمسمئة شخص . وكان هذا الجمهور صورة طبق الأصل عن روسيا . فعلى خشبة المسرح المفروشة بالمخمل الأحمر كانت تصطف مقاعد الوزراء . وكان زعماء التشكيلات السياسية يحتلون الصفوف الأولى : بول

ميليوكوف وباسيل ماكلاكوف عن الكاديت ، والأمير اوجين لفوف بصفته رئيس اتحاد الزيمستفويات ، وجورج بليخانوف الوالد الروحي للماركسية الروسية وفيرا زاسوليتش ، والكبار الخمسة في سوفيت بتروغراد : نيقولا تشيخزه ، وهيراكليون تسيرييلي وجول مارتوف (عن المناشفة) وفلاديمير تشيرنوف ونيقولا افكسانتييف (عن الاشتراكيين - الثوريين) ، وعمداء الإرهاب الأمير كروبوتكين الفوضوي الطاعن في السن ، وكاترين بريشكو-بريشكوفسكايا ، واصحاب الملايين بوتيلوف وربا بوتشنسكي ورودزيانكو وبوبليكوف وفلاديمير بوريشكيتش ، الروح المحركة لـ « المثة السود » وقاتل راسبوتين ، وبوريس سافنكوف الذي قتل قبل اثني عشر عاماً حاكم مدينة موسكو ، الدوق الكبير سيرج ، سافنكوف الملقب بـ « الجسيم » والذي ألحقه كيرنسكي كمساعد له في وزارة الحرب ، والجنرالان الكسيس كاليدين الذي انتخب مؤخراً قائداً للقوزاق وميشيل الكسييف ، القائد السابق لهيئة أركان نيقولا وكبير الجنرالات سابقاً .

أما القاعة فكانت تضم نواب الدوما وممثلي شتى الطبقات والمؤسسات والهيئات في روسيا واللجنة التنفيذية الدائمة لسوفيئات عموم روسيا والبلدان الخاضعة لها .

وقد خصصت مقصورة خاصة للسجناء السابقين في سجن شلوسلبرغ الرهيب ، وفي مقدمتهم الإرهابيتان الأسطوريان ماريا سيريدونوفا التي أسلمت للقوزاق بعد اغتيالها حاكم طامبوف في عام ١٩٠٢ وفيرا فغز التي رأت العديد من إخوتها في الكفاح يشقون من خلال قضبان زنزانتهما . وقد هبت الصالة على بكرة ابيها لتحييها .

واخيراً كان الدبلوماسيون يجتلون المقصورة الملكية .

إن روسيا قاطبة حاضرة اذن في ذلك الاجتماع الكبير الذي نظمته حكومة كيرنسكي محاولة منها للحصول على تأييد مجمل الرأي العام . روسيا

قاطبة باستثناء لينين ، لينين الذي تحدث عنه بليخانوف من فوق المنبر على أنه عدو قد جُرد من سلاحه الى الأبد .

وفي كوخ رازليف كان لينين وأصدقاؤه قد قرروا التظاهر إبان انعقاد الاجتماع تدليلاً على ان البلاشفة اقوياء في موسكو قوتهم في بتروغراد . وكان قد اندلع في ٢٥ آب لإضراب عام . وقد شارك فيه معظم الموسكوفيين بتحريض من الفرنسية الضائعة في عباب الثورة الروسية ، اينيس آرمان التي أرسلها لينين إلى موسكو خصيصاً . وكان انقطاع التيار الكهربائي وتوقف المواصلات هما الطريقة التي اختارها البلاشفة ليكونوا حاضرين في الاجتماع الكبير .

ولقد دار جوهر النقاش بالطبع حول مسألة الحرب ، ولقد كان الضباط من ذوي الرتب العالية موجودين ليدنوا السياسة الانهزامية ، سياسة عدم الانضباط والصلح بأي ثمن ، وموجودين ايضاً ليعدوا العدة لانتقال السلطة الى أيديهم . ولقد قال كاليدين :

– اني اتكلم باسم القوزاق الذين كنتم بحاجة اليهم ، انتم السوزراء الاشتراكيين ، لقمع الفتن البلشفية في تموز الماضي .

ثم صاح وهو ينظر باتجاه تشيرنوف :

– ان الانهزاميين لا مكان لهم في الحكومة .

واحتج تشيرنوف ، صديق المويك . ولكن كاليدين تابع كلامه :

– اني أوجه الكلام إليك ، انت الذي كنت شخصياً في زيمروالد وكييتال .

وكان برنامج كاليدين قاسياً بالنسبة الى الاشتراكيين : إلغاء اللجان السياسية في الجيش ، إعادة الهية ، إلغاء كل الحقوق الممنوحة للجنود ، إعادة المساواة بين المؤخرة والجهة ، ودعوة الجمعية التأسيسية للانعقاد في موسكو

حتى يتاح لها عمل هادىء ومنظم .

وكان كورنيلوف أشد ضراوة وتهديداً :

— إن العدو يقرع ابواب ريغا . واذا لم يمكننا عدم استقرار جيشنا من الصمود في جبهة ريغا ، فإن طريق بتروغراد سيصبح مفتوحاً . ان الجيش قد أمسى مجرد فوضى هلعة لا تفكر بغير إنقاذ حياتها . دعوني أعمل وسوف أنقذ بتروغراد .

وفي اليوم التالي تساءلت صحيفة موسكو البلشفية : « أتحذير ام تهديد؟ لقد جعلت هزيمة تارنوبول من كورنيلوف كبيراً للجنرالات . ومن الواجب ألا يجعل منه تسليم ريغا دكتاتوراً » .

والحقيقة ان التمثيلية السياسية التي مثلت على مسرح البولشوي كانت مسرحية الانقسام . فقد فضح الاشتراكيون أرباح الحرب الأسطورية ، كما فضح الصناعيون تدهور المردود المستمر . لكن المشهد النهائي بعث الطمأنينة في أوصال كيرنسكي : فقد تصافح الرأسمالي بوبليكوف الذي كان قد أرسل في شهر آذار البرقية المشهورة : « الى الجميع ، الى الجميع ، الى الجميع ، الى الجميع ، اوقفوا القطار الامبراطوري أينما وجد » والمنشفي تسيريتيلي ، وقوبل تصافحهما بالتصفيق الحاد باعتباره رمزاً لتصاهر الرأسمال والعمل .

بيد ان العمل الحقيقي الذي أنجزه الاجتماع الكبير قد جرى بين الكواليس . فاليمين قد جعل من كورنيلوف الزعيم الشعبي الحقيقي لروسيا ورمز فكرة الوطن تمهيداً لوضعه على رأس السلطة . وقد وقع كبير الجنرالات تحت سيطرة بوريس سافنكوف ومساعدته ف.س. زافويكو ممثل شركات نوبل البرولية ورجل ثقة بوتيلوف . وقد تحدد موعد الانقلاب الذي يعده اتحاد بوتيلوف الجمهوري في ٩ أيلول ، وذلك اثناء لقاء سري بين كورنيلوف وبوتيلوف . وقد أبلغ وزراء الكاديت بضرورة الاستقالة قبل ذلك التاريخ .

وحذر جنرال ليبيرالي كيرنسكي من أن مؤامرة عسكرية تحاك ضده
وقال له :

— ينبغي اعتقال كورنيلوف وكاليدين .

وكان هذا الجنرال هو الكسندر فيرخوفسكي الذي كسر نيقولا الثاني
رتبته في عام ١٩٠٥ . ولم يصدق رئيس الوزراء خبر المؤامرة . فهو يثق
في كورنيلوف ثقته في سافنكوف ويؤمن بإخلاصهما لسلطته .

وفي هذا الجو المتفائل تمّ افتتاح المجمع الكبير غداة الاجتماع الكبير
بهدف تحرير الكنيسة . وكان الكهنة الذين ألزموا جانب الصمت في ظل
الامبراطورية قد فقدوا المزيد من حظوتهم منذ الإطاحة باللاتوقراطية . فقد
أبعدوا عن حياة الجيش ، ولم يعد الفلاحون في الأرياف يعيرونهم اهتماماً
إلا اذا اهتموا هم انفسهم بالمشكلات الزراعية . ومع ذلك حضر كيرنسكي
ورودزيانكو وافكسانتييف القداس الاحتفالي الكبير واستمعوا الى الاشتراكي
— الثوري رودنيف عمدة موسكو يُخطب قائلاً :

— ما دام الشعب الروسي حياً فإن العقيدة المسيحية ستظل متأججة في روحه .

ان الكنيسة تجتمع ، بعد مئتي عام من وفاة بطرس الاكبر ، لتحوي
النظام البطريركي من جديد .

*

ازداد عدد الدوريات في منطقة رازليف . واتخذت اللجنة المركزية
البلشفية ، الحريضة اكثر من أي شيء آخر على حرية رئيسها ، قراراً بتسفير
لينين الى فنلندا ، وكلفت اورجونيكدزه لتنظيم الرحلة . وقد اجتاز لينين
الحدود متكرراً في زي سائق قطار . وفي فنلندا اخذ اسم كونستانان بترفيتش
ايفانوف ، الكاتب . وقد نزل في مدينة هلسنغفور في بيت مدير البوليس
المحلي ، غوستاف روفيو . وكانت الصحف تصل اليه بانتظام . وقد قدمت
كروبسكايا لزيارته مرتين تحت اسم مستعار . وقد استفاد من اوقات فراغه

ليشرح في تأليف كتابه الجديد « الدولة والثورة » وكان على صلة دائمة بنشاط الحزب . أما زينوفيف الذي عاد مباشرة من رازليف الى بتروغراد ليعيش فيها سراً ، فقد استعاد مكانه في اللجنة المركزية التي انتخبته إبان مشاطرته فلاديمير ايليتش حياة الكوخ .

(٤٧)

سقطت ريغا في ٣ أيلول بدون مقاومة . وعندما سئل كورنيلوف عن تسليم المدينة اجاب قائلاً :

– ينبغي ألا نعلق أهمية على سقوط ريغا . فقد غادرتها القوات بأمر مني ، لأنني أفضل خسارة مدينة على خسارة جيش .

وكانت هزيمة ريغا ذريعة سحرية ، كورنيلوف بأمس الحاجة اليها لتبرير انقلابه :

– لقد آن الأوان لشنق الجواسيس الألمان وعلى رأسهم لينين ، ولحل سوفيت الجنود والعمال حتى لا يعود في وسعه الاجتماع في اي مكان : وسوف ألقى بفرقة من الخيالة على بتروغراد لعقاب خونة الوطن كما ينبغي . وقد عهد بهذه العملية الى الجنرال القوزاكي الكستدر كريموف الذي أمسى طرفاً في كل المؤامرات منذ نحو عام من الزمن :

– انني أعلم انه لن يتردد في تعليق مشنقة جميع السوفييتات اذا ما اقتضت الضرورة . لا بد من ضرب البلاشفة . وذلكم هو السبيل الوحيد لتوطيد دعائم سلطة قوية .

وكانت المؤامرة اليمينية قد اصبحت جاهزة تماماً للتنفيذ . وكان اتحاد بوتيلوف قد فكر ، حتى قبل انعقاد اجتماع موسكو الكبير ، باستبدال الحكومة المؤقتة بمجلس دفاع وطني مؤلف من كورنيلوف رئيساً ، وكيرنسكي نائباً للرئيس ، ومن الجنرال الكسييف والأميرال كولتشارك وجورج بليخانوف

وبوريس سافنكوف وآخرين . ولكن بليخانوف رفض المساهمة قائلاً :

– سأبقى مع العمال حتى ولو كانوا على خطأ .

وقد دار النقاش التالي بين نائب الكاديت باسيل ماكلاكوف المؤيد لحكم ملكي برلماني وبين الجنرال الكسييف المتخوف من مثل ذلك الحكم . فقد قال الأول :

– أليس هذا غريباً ؟ ان ادوارنا تبدو وكأنها قد انعكست . فإنك ، انت الجنرال ومساعد الامبراطور سابقاً ، تعارض الملكية ، في حين اني أنا اطالب بها رغم اني من المعارضة .

فأجاب كبير الجنرالات السابق :

– إنك لعلى حق . ولكنني لست ضد الملكية إلا لأنني أعرفها .

– هذا ممكن ، ولكنني أعرف سياستنا خيراً منك ، ولهذا فإنني لا أنتظر شيئاً من مغامرتكم .

ولقد بدأ بالفعل تنفيذ تلك المغامرة . فكاليدين ودينيكين على استعداد للتدخل . وقد قدم الى بتروغراد سراً ستة وأربعون ضابطاً متآمراً . وتحرك كريموف باتجاه العاصمة على رأس « الفرقة المتوحشة » . وكان سافنكوف هو الروح المحركة .

وفي السابع من ايلول تسربت الى كيرنسكي أنباء عن الحركة . ولما حاصر سافنكوف بالأسئلة ، قال له هذا الأخير :

– اعتقني كمتآمر اذا كنت تصدق الشائعات . لكن اذا كنت تثق فيّ ، فإنني أرجوك ان تعطيني إمكانية البرهان للشعب على انه لا صلة لي بالمتآمرين .

وصدق رئيس الوزراء سافنكوف وعينه جنرالاً حاكماً لبتروغراد ومفوضاً بكل السلطات .

وفي الثامن من ايلول بادر كورنيلوف الى العمل . ففي الساعة ١٩ أرسل إنذاراً شفهيّاً الى كيرنسكي بواسطة وكيل المجمع المقدس فلاديمير لفوف طلب فيه : إعلان القوانين العرفية ، واستقالة الوزراء جميعاً ، ونقل السلطة الى نواب الوزراء مؤقتاً بانتظار تشكيل الحكومة من قبله هو (كورنيلوف) . وتردد رئيس الحكومة في تصديق ما نقله اليه لفوف . ورجاه أن يعود في الساعة ٢٠,٣٠ . ولما تأخر لفوف قرر كيرنسكي ان يتصل هاتفياً بكورنيلوف مدعياً انه وكيل المجمع المقدس . وبذلك تيقن من أن المؤامرة قد قطعت شوطاً في التنفيذ .

بعد انتهاء المكالمة التقى كيرنسكي بلفوف على درج قصر الشتاء . فدعاه الى الاجتماع به في مكتبه ، وكان قد وضع في الغرفة المجاورة ، تماماً كما كانت تفعل الامبراطورة عندما تريد الاستماع الى زوار زوجها ، بالافنسكي ، نائب رئيس ميليشيا بتروغراد . وقصّ لفوف على مسامع رئيسه كل تفاصيل المؤامرة . ولقد صعق بكل ما في الكلمة من معنى عندما وجد نفسه وقد اصبح رهن الاعتقال . وهرع كيرنسكي ، « السريع » ، الى مبنى الحكومة ودلف وهو يصيح :

— لن أسلمهم الثورة .

وأدلى رئيس الوزراء بالمعلومات التي توفرت لديه فكان لها وقع الصاعقة . وبادر نواب الكاديت الى الاستقالة ، منفذين خطة كورنيلوف . وارتفعت الاسعار في البورصة . وأمضى لفوف ليلة بيضاء تحت الحراسة في إحدى حجرات قصر الشتاء . كما تمّ اعتقال بوريشكفيتش في شقته وسميت لجنة تحقيق . وأستدعي رجال الطراد « اورورا » لحراسة قصر الشتاء . وطلب كيرنسكي مساعدة بحارة كرونشناد لوقف زحف القوات على بتروغراد . وشكل البحارة وفداً طلب الاجتماع بتروتسكي في زنزانه بسجن كريستي ونصحهم « الريشة » بالدفاع عن كيرنسكي ضد الجنرال الذي يريد ان

يضع انشودة في عنق الثورة . وأطلق سراح تروتسكي بكفالة ألفي روبل ،
ومعه عدد آخر من البلاشفة . واتخذ لينين الموقف نفسه :

– اننا نقاتل وسنظل نقاتل كورنيلوف بجانب قوات كيرنسكي ، ولكننا
لا نؤيد هذا الأخير الذي علينا ان نفضح رشاوته وتردده . اننا نفضح الحكومة
الموقته على انها متواطئة في مؤامرة كورنيلوف .

وتسلح المقاومون الشعيون من الحزب البلشفي حتى الأسنان . وتمت
تعبئة الحرس الأحمر على الفور لمواجهة « الفرقة المتوحشة » . وصدرت الأوامر
لكل خلايا الحزب بمنع كرىموف من التقدم . وقد حاول هذا الأخير ان
يكسب الوقت وينقل قواته بالقطار ، ولكن الحمر من عمال السكك الحديدية
أحبطوا خطته . وتم اعتقال دينيكين على يد رجاله بالذات . ولعب البلاشفة دوراً
حاسماً في تجريد قوات كرىموف من سلاحها . وقد حاول كرىموف في
البداية ان ينفي علمه بالمؤامرة وادعى انه انما كان ينفذ أوامر كبير الجنرالات
ولكنه لما لم يجد مناصباً من الاعتراف انتحر باطلاقة رصاصة على دماغه .
وقام الجنرال الكسييف باعتقال كورنيلوف في الستافكا في ١٤ ايلول وجرده
من رتبه وسجنه مع اربعة ضباط كبار آخرين بينهم دينيكين .

وفي ١٤ ايلول ايضاً اعلن كيرنسكي قيام الجمهورية رسمياً وسط جو
من اللامبالاة العامة ومن حيرة الشعب ازاء كل ما حدث ، وسمى نفسه
كبيراً للجنرالات . واذا كان ماركس قد كتب : « إن الثورة بحاجة الى
أن تشحذها من حين الى حين الثورة المضادة » ، فإن ستالين قد تبني الحجة
نفسها وكتب يقول : « إن تمرد كورنيلوف لم يفعل من شيء سوى انه
فتح صمام الغليان الشعبي المتراكم ، لم يفعل من شيء سوى انه فك الثورة
من الاغلال التي قيدت بها لحين من الزمن ، فحفظها ودفع بها الى الأمام » .
لقد تحرر كيرنسكي على يمينه من مشاريع صديق حدائته . ولكن صديق
طفولته الى اليسار يشعر بأن ساعة المعركة الحاسمة قد أزفت . فقد هرعت

الجماهير الى الحزب البلشفي الذي أنقذ الثورة من الدكتاتورية الرأسمالية .
وفقد الزعماء الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة الكثير من نفوذهم في
منظمات السوفييتات . ويشس جورج بليخانوف نهائياً من حكمة البشر .

(٤٨)

إزاء انقلاب كورنيلوف الفاشل أدرك كيرنسكي انه كان دون كيشوت
مهرجان موسكو الكبير . وإزاء تأمر اليمين المالي وتهديد اليسار البلشفي لم
يق امام رئيس مجلس الوزراء إلا الاعتماد على الاحزاب المتمتعة بالغالبية
في سوفييت بتروغراد . وهذه الاحزاب هي احزاب الاشتراكيين - الثوريين
والمناشفة والعماليين . وستبقى البورجوازية ممثلة في السلطة ، ولكن من
خلال شخصيات يحضها كيرنسكي ثقته . والحقيقة ان روسيا بعد محاولة
كورنيلوف الفاشلة ادركت تلك الدرجة من الفوضى التي تصبج معها البلاد
مرتعاً للمتطرفين . وهكذا سار كيرنسكي في طريق التداير الاستثنائية . ففي
١٩ أيلول أعلن تشكيل حكومة مديرين من خمسة وزراء . وكان تيرششنكو ،
ملك السكر ، العضو البورجوازي الوحيد فيها ، وقد عهد اليه بوزارة
الخارجية . أما الجيش فقد سلم أمره الى ضابطين ، الأول هو الكسندر
فيرخوفسكي الذي حذر بلا جدوى كيرنسكي من المؤامرة التي تحاك ضده
في موسكو ، والثاني هو فيديريفسكي الذي سجنه كيرنسكي فيما مضى والذي
خرج لتوه من السجن ليتولى قيادة البحرية . وكان فيديريفسكي هذا حائزاً
على ثقة جنود البحرية ، وقد أمل كيرنسكي من وراء تعيينه في هذا المنصب
أن يسيطر نهائياً على البحرية ، بوثة الثورة .

اما العضو الخامس في حكومة المديرين فمندفي مجهول تقريباً من الجماهير ،
محامٍ موسكوفي في الخمسين من العمر ، وزير البرق والبريد في الحكومة
السابقة ، أ.م.نيكيتين المكلف بوزارة الداخلية ، الذي سبق لكيرنسكي أن

ذهب معه في عام ١٩١٢ للتحقيق في مأساة مناجم الذهب في اللينا .
 والسلطة الجديدة لا بد لها من برلمان جديد . وكيرنسكي عاقد العزم ،
 بهدف تدعيم حكومته ، على ان يجعلها مسؤولة امام هيئة نيابية غير السوفيت .
 وبين عاصفة من التصفيق المدوي دخل في ٢٧ ايلول إلى صالة مسرح الكسندرين
 وقد رفض المعارضون البلاشفة والكورنيلوفيون مصافحته . وكان في المسرح
 ١٧٧٥ مندوباً عن شتى الاحزاب لانتخاب الهيئة النيابية التي يريد كيرنسكي
 واحتدمت المناقشات العاصفة . وانقسمت التشكيلات الحزبية ، باستثناء
 البلاشفة ، الى أجنحة وتيارات . ولكن في النهاية جرى انتخاب هيئة من
 ٥٥٥ عضواً سميت بالبرلمان التمهيدي وعهدت اليها مهمة التحضير لانتخاب
 جمعية تأسيسية معقودة عليها الآمال لتحرير البلاد من معضلاتها الكبيرة .

*

لم يكف لينين منذ شتاء ١٨٩٨ ، حينما كان يفصل بيادق الشطرنج
 من قشرة الأشجار في سيبيريا ، عن تأمل الرقعة السياسية الروسية بعين الرياضي .
 وفي هلسنغفور ، في شقة قائد البوليس المحلي ، كان يستعلم بواسطة الصحف
 والرسائل الحزبيين عن كل ما يجري في بتروغراد ويعمل مع الصحفي الفنلندي
 الشاب المتواضع ايفار سميلغا ، رئيس اللجنة المحلية لسوفييتات فنلندا . وعن
 طريقه كان على صلة دائمة بلجان البحارة وباللجنة المركزية لأسطول البلطيق .
 وقد انضم انتونوف الحربة الذي اطلق سراجه من سجن كريستي مع تروتسكي
 الى المعلم في هلسنغفور . وكان لينين يردد دوماً في رسائله : « ايها البلاشفة ،
 اجعلوا الجيش والبحرية في حالة تأهب للكفاح . شكلوا مع الجنود المجازين
 لجان تحريض للقيام بجولات دعائية » . وكان فلاديمير ايليتش يملك حس
 انتهاز الفرص ، ذلك الحس الضروري لكل لاعب شطرنج حاذق . وكانت
 الفرصة المتاحة هي تفتت القوى المواجهة له . ففي أقصى اليمين اختفى
 كورنيلوف مع كواكب فرسانه وفي الوسط واليسار تقف التشكيلات السياسية

متناقضة ، منقسمة ، عاجزة عن الحكم . وفي أقصى اليسار فراغ كبير خلفه البلاشفة بعد أن عادوا الى الحياة السرية . وإنما من هذه الجبهة المفتوحة سيشن هجوماً جريئاً وشاملاً ، فساعة موت الشاه قد اقتربت .

*

في ٢٧ ايلول تلقت ناديا كرويسكايا رسالتين من هلسنغفور كان عليهما ان تبلغهما على جناح السرعة الى اللجنة المركزية : « إن البلاشفة يستطيعون ويجب عليهم ان يستلموا السلطة . إن وراءنا غالبية العمال والجنود . وقد أدرك الشعب آخر درجات اليأس . وحزبنا وحده سيكون قادراً ، بعد ثورة مظفرة ، على إنقاذ بتروغراد ، لأننا نحن الذين سنتولى الدفاع الوطني إذا ما رفض عرضنا للصلح و اذا لم نحصل حتى على هدنة . وأنداك سنحارب عن حق ، ثورياً » .

ولقد قال بوخارين :

– لقد صعقنا جميعاً . فالمسألة لم يسبق لها قط أن طرحت بمثل هذه الفعاجة .

لقد دعا لينين الى الثورة . واقترح ستالين لإرسال الرسالتين الى جميع منظمات الحزب ، حسب أمر لينين . ولكن اللجنة المركزية ليست مجمعة على رأي . فقد اقترح ليف كامينيف حرق النسخ والاحتفاظ بنسخة وحيدة . وعارض ستالين وسفيردلوف وذرجنسكي وبوبنوف هذا الاقتراح . ولكن لم يتم مع ذلك التوصل الى قرار . وأدرك لينين أن حضوره وحده هو الذي يتيح له حسم الأمور . فاستقل القطار بالرغم من حظر اللجنة المركزية الى أقرب المدن الفنلندية الى الحدود ، فيبورغ ، المدينة التي أعطت اسمها لأكثر أجياء بتروغراد خضوعاً للبلاشفة .

في ٨ تشرين الأول مثل تروتسكي في سوفيت بتروغراد امام ألف نائب من العمال والجنود ، وذلك لأول مرة منذ إطلاق سراحه . وكان

مكتب البرلمان البروليتاري حكراً منذ شهر آذار على تسيريتيلي وتشبخدزه وتشيرنوف وغرتز ودان وسكوبيليف . وسأل تروتسكي :

— أما يزال الرفيق كيرنسكي عضواً في مجلس رئاستكم ؟

وعندما اجابت اللجنة التنفيذية بالايجاب ، صاح تروتسكي :

— اني اطلب بتجديد المكتب .

واستطاع الزعماء الاشتراكيون — الثوريون والمناشفة بعد لأي السيطرة على انفعالهم ، من غير ان يغادروا مقاعدهم . ولم يكن من الممكن التملص من المشكلة التي طرحها تروتسكي . وأجرى الرئيس تشبخدزه عملية التصويت . وكان على من يؤيد التجديد ان يترك القاعة . وخرجت غالبية العمال والجنود . وجاءت نتيجة الاقتراع ٥١٩ صوتاً مع التغيير و ٤١٤ ضده .

وسقطت القيادة المشفية والاشتراكية — الثورية لسوفييت بتروغراد .

وخطب تسيريتيلي قائلاً :

— اننا نزل عن هذه المنصة ونحن مدركون اننا حملنا طيلة شهور ستة ، عالياً وبشمم ، راية الثورة . وقد انتقلت الراية الآن الى ايديكم . وإنسا لنتمنى ان تحافظوا عليها لنصف هذه المدة على الأقل .

وغادر أعضاء اللجنة التنفيذية السابقة القاعة . وانتخب ليون تروتسكي رئيساً لسوفييت بتروغراد في جو يهذي بالحماسة . وتحول لقبه من «الريشة» الى «النمر الجنوبي» . وأعيد للبلاشفة حقهم في الوراثة . ونالوا ثلثي المقاعد في مجلس رئاسة السوفييت .

وفي موسكو انتقلت رئاسة السوفييت بطريقة ماثلة الى بلشفيين من الساعة الاولى : بخارين ونوغين . وانتقلت العدوى الى العديد من المدن . وفي كل مكان كانت حركة الانسياب الى اليسار ظاهرة واضحة .

اقام البرلمان التمهيدي ، وليد الكورنيلوفية المجهض كما يقول البلاشفة ، في قصر ماريا الذي أخلته الحكومة المؤقتة . وقد انتخب الاشتراكي - الثوري افكسانتييف رئيساً له ، والكاديت فلاديمير نابوكوف نائباً له . وكان تسيريتيلي ، الخطيب المنشفي المفوه ، غائباً : لقد رحل الى القفقاس ليستريح من عناء الشهور السابقة ، وسوف لن يعود ابداً .

وافتح كيرنسكي بوقار أعمال البرلمان في ٢٠ تشرين الاول ، الساعة ١٧ . وكان وابل غزير يقرع النواقد . وكان جميع النواب حاضرين ، بما فيهم ٦٦ بلشفيًا من أصل ٥٥٥ . وكان لينين قد أصدر الأمر الى نوابه بالانسحاب من الجلسة الاولى . وكتب يقول : إن هذا البرلمان التمهيدي لن يكون غير مجمع ببغاوات لعموم روسيا .

وكان من المتفق عليه ان يتم الانسحاب بعد انتهاء خطاب تروتسكي . ولقد كان خطاب تروتسكي لاهباً :

— لقد دخلت العناصر المالكة الى هذا المجلس المؤقت بأعداد ليس لها من حق بها البتة ، وذلك لتشويه تركيب الجمعية التأسيسية سلفاً .

وساد هرج ومرج . وتساعدت الشتائم من القاعة الغاصّة بالمتقفين والصناعيين والاشتراكيين المصالحين :

— خائن ! المقطورة المرصصة ! أكاذيب !

واستأنف تروتسكي كلامه :

— اننا نعلم ان الحكومة تفكر بالانسحاب الى موسكو لتسلم العاصمة الثورية .

وصباح احد النواب بين اللفظ العام :

— كذاب حقير !

وانتصب النواب جميعاً واقفين .

– اننا نعلن ، نحن الجناح البلشفي في الحزب الاشتراكي–الديموقراطي ،
ان هذه الحكومة خائنة للوطن ...

واضطر الرئيس افكسانتييف الى فرض النظام . وأعطى الكلام من
جديد للزعيم البلشفي :

– بتروغراد في خطر ! الثورة في خطر ! عاش الصلح الفوري ! كل
الارض للفلاحين ! عاشت الجمعية التأسيسية !

ونزل تروتسكي من المنصة واختلط بسائر نواب حزبه ، وخرجوا جميعاً .
وصاح النواب الكاديت ؛

– رحلة سعيدة !

فرد رجال لينين :

– سوف نلتقي ثانية .

وراح نفوذ المناشفة يتهاوى بسرعة . ولم يحافظ الاشتراكيون – الثوريون
على قواهم إلا في سوفيت النواب الفلاحين . واحتفظ افكسانتييف وتشيرنوف
وبريشكو – بريشكوفسكايا وكيرنسكي وفيرا فغز بهالتهم . ولكن الريف
كان ما يزال مسرحاً لأحداث خطيرة . ولقد كان من الواضح بعد ذلك
ان الثورة ستندلع اولاً في المدن التي تسقط الواحدة تلو الأخرى تحت نفوذ
البلاشفة .

*

اخذت التدابير الاستثنائية التي لجأ اليها كيرنسكي توّتي ثمارها في كل
مكان . وكلف القوزاق بحملات تأديبية في المناطق التي يسيطر عليها البلاشفة .
وفي مختلف أرجاء روسيا وقعت حوادث عنف وصدامات ، وقتل عدد من
نواب السوفييتات والعمال برصاص القوزاق . رصاص حكومة كيرنسكي كما
قالت الصحف البلشفية .

من مدينة فيبورغ الفنلندية أرسل لينين رسالة عاجلة ، كلمات تاريخية
اقتبس بعضها عن شعارات القيصر الجبار بطرس الأول :

– الإرجاء يعني الموت . ينبغي على السوفييت الذي أصبح أخيراً جهاز
البروليتاريا الثورية أن ينتزع ثورياً السلطة . ولما كان هذا الاستيلاء على
السلطة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الثورة المسلحة ، إذن فلتعش ثورة
العمال والجنود المسلحة ! إن شعارنا قد عاد من جديد : « كل السلطة
للسوفييتات ! » . إنها مسألة أيام .

(۳)

هجوم المساء الاخير

امتلأت الخنادق بالوحل وتهدمت حوافها بفعل الامطار الغزيرة . وبات الملايين من الرجال المنهارين معنوياً ينتظرون أذنى الذرائع للهرب من شتاء الحرب الرابع ذلك ، ويرسلون الوفود تلو الوفود الى بتروغراد للمطالبة بالصلح والسلام .

وأضاعت الحرائق سهول روسيا الفسيحة وأمست مزارع السادة والنبلاء طعمة للنيران من جديد وجرى تقاسم الاراضي والثروة الحيوانية .

وفي بتروغراد بهتت ألوان الأعلام الحمر الخافقة منذ شهر آذار على الأنصاب والمباني العامة بفعل أمطار الخريف . ومن شدة البرد القارس بدت الجماهير وكأنها أخلدت الى السكينة . واستعادت الشوارع هدوءها كما في الأيام الخوالي . ولم تكن الحياة تدب فيها إلا مساء عند انصراف الرجال والنساء من اعمالهم وتجمعهم حول باعة الصحف . وفي الأزقة كان الظلام شبه تام ، فيعطي عصابات اللصوص مجالاً واسعاً للحركة ، ولقد كانت اللصوصية نتيجة طبيعية للفوضى السياسية . وكانت جماهير الجنود والمدنيين تسحل دونما رحمة كل لص يلقي القبض عليه . وفي قلب المدينة كانت المحلات العامة المحدثه الطراز تفتح أبوابها ، متألفة بأنوارها ، حتى الفجر . وكانت الأحياء الغنية تربل بالغانيات المتبرجات بأنفس المجوهرات . نهارات كثيبة ، وليالٍ قلقة ، ونذر عاصفة لا يدري أحد متى ستهب .

وفي مكتب نيغولا الثاني كان كيرنسكي ووزراؤه يحاولون فك الطوق البلشفي ، وقد عقدوا العزم على تبديل حامية بتروغراد ونقل مركز الحكومة الى موسكو بحجة الخطر الألماني .

وفي كل يوم كان البلاشفة يشدون القوس اكثر حتى ينطلق السهم الثقيل بعيداً . وكانت صحافتهم تلهب الشككات والمصانع وتعلق الانفاس في الصدور : ان بتروغراد الثورية في خطر ، هكذا كانت تكتب « الصوت العمالي » و « الجندي » . وقد أصدر لينين صحيفتين جديدتين : « الفلاحون الفقراء » وهي موجهة الى ساكني الاكواخ وتطبع نصف مليون نسخة يومياً ، و « العامل والجندي » التي تهدف الى تأخي مقاتلي الحرس الأحمر ومقاتلي الشككات . وكان زعماء الحزب ينتقلون يومياً من مصنع الى مصنع ومن وحدة عسكرية الى وحدة عسكرية لإقناع الجماهير بأن الحكومة المؤقتة تخون الثورة وبأن على السوفييتات ان تستولي على السلطة ، وعند الضرورة بالقوة . وقد استقرت قيادة الأركان السرية في شارع « فورشتاد سكايا » في مقر اخوية القديس سيرج وتحت ستار دار « بريوي » للنشر . وقد لقيت « قيادة الأركان الصليبية » نظراً الى تجاوزها مع كنيسة الأخوية . وكان الرفيق اندريه ، يعقوب سفيرد洛夫 ، صلة الوصل بين كل أجهزة اللجنة المركزية . ومن كل مدن الأقاليم كان ممثلو الحزب يأتون سراً لاستلام الأوامر منه . وكان من بينهم إينو راهيا ، رسول لينين الذي جاء حاملاً رسالة هامة : « نصائح غائب » :
- لا يجوز اللعب مع الثورة ابدأ ، وعندما نبدوها يجب ان نكون مقتنعين تماماً بأننا سنقودها حتى النهاية .

- يجب أن نكتل تفوقاً كبيراً في المكان الحاسم وفي الزمان الحاسم وإلا أباد المتمردون العدو المتمتع بتفوق في الإعداد والتنظيم .

- عندما يبدأ التمرد ينبغي العمل بأكبر قدر من الحزم والانتقال الى الهجوم مهما يكن الثمن . ان الدفاع حتف الثورة المسلحة .

– ينبغي العمل على مباغته العدو وانتهاز الوقت الذي تكون فيه قواته ما تزال مشتتة .

– من الواجب ان نحجز في كل يوم نصراً ولو ضئيلاً (وفي كل ساعة في المدن) ومن الواجب ان نحفظ بأي ثمن بارتفاع المعنويات .

– عند بتروغراد وفي بتروغراد نستطيع ويجب علينا أن ننجز التمرد بأكبر قدر من الجهد ومن الإعداد والسرعة والقوة .

والحق ان لينين يريد بعد ١٩٠٥ و آذار ١٩١٧ ان يحول دون اندلاع الثورة الروسية الثالثة بلا نظام وبلا هدف . ولقد حدد هذا الهدف حتى يكون الوصول اليه في حكم المؤكد : كل السلطة للسوفييتات ، لأن الثورة ستخفق اذا لم نستول على السلطة . ولقد كان حسن انتهاز الفرص الذي لا يمكن لأي رجل بدونه أن يسيطر على مجرى الأحداث بارزاً لدى فلاديمير ايليتش . فقد قال : « إن الحكومة لا تسقط ، بل تُسقط » .

*

إن مئة فرسخ فقط تفصل لينين من بلحته المركزية ، ولكن فلاديمير ايليتش ، بحكم نفاذ الصبر الذي يمدد المسافات كما يمدد الزمن ، يرى ان فيبورغ في أقصى العالم وعلى بعد أبدية كاملة من الثورة . ولقد كتب : « ان الازمة ناضجة » وما عادت العودة تحتمل انتظاراً . ولقد قرر لينين العودة من دون علم اللجنة المركزية ، وكلف ابنو راهيا بتنظيم رحلته وكروبسكايا بتدبير مخبأ مأمون . ولقد وجدت كروبسكايا هذا المخبأ في فيبورغ ، وكان اختيارها موفقاً لأن فيبورغ لا تصلح لأن تكون مخبأ فحسب ، بل هي ايضاً حصن منيع . وفي يوم ٢٠ تشرين الاول كان لينين يقرع الباب ثلاث دقائق منفصلة حسبما تم الاتفاق . وكانت كروبسكايا في استقباله . ولسوف يقضي لينين في هذا المخبأ السري ١٧ يوماً و ١٧ ليلة ، ومنه سيقود ثورته المظفرة ، المظفرة لأن الغلبة ستكون في النهاية ، كما قال ، لمن يؤمن بالشعب ويستمد

قوته من عبقرية الشعب المبدعة .

(٥٠)

كان سفيردولوف وستالين أول من أخطر بوصول القائد البلشفي الى العاصمة . وفي ٢١ تشرين الأول التقيا به في منزل عمالي . وأبدى فلاديمير ايليتش اهتماماً بمعرفة درجة إعداد الهجوم المسلح والحالة المعنوية للجماهير المتمردة . وكلف الرجلين بتنظيم اجتماع للجنة المركزية في أقرب موعد ممكن وعلى أوسع نطاق ممكن حتى تتناول المناقشات مجموع المشكلات التي يطرحها مشروع استلام السلطة وحتى يحظى هذا المشروع بالقدر الأكبر من الأصوات . وفي مدى ٤٨ ساعة تمكن سفيردولوف وستالين من الاتصال بأحد عشر عضواً من أصل واحد وعشرين من أعضاء اللجنة المركزية . أما سائر الأعضاء فكانوا متفرقين في الأقاليم يزرعون ربح العاصفة . وتحدد موعد الاجتماع التاريخي في ٢٣ تشرين الأول بعد غروب النهار . اما مكان الاجتماع ففي منزل نيقولا سوخانوف ، الموظف في مكتب تركستان تحت اسم هيمز المستعار . ولم يكن سوخانوف قد بدل رأيه منذ شهر آذار . فقد كان ما يزال يؤكد على صفحات الجريدة المنشفية « الحياة الجديدة » ان تربية الجماهير لم تبلغ بعد المستوى المطلوب للاستيلاء على السلطة . ولكن اذا كان سوخانوف ضد التمرد المسلح ، فإن زوجته مناصرة له بجرارة . وغالينا سوخانوفا هي الزوجة البلشفية للزعيم المنشفي ، وهي التي ستستقبل اللجنة المركزية .

وفي يوم ٢٣ تشرين الأول قالت لزوجها :

— إن الشارع غير مأمون . وطالما انك ستمضي السهرة كلها في « الحياة الجديدة » ، فارقد اذن في الجريدة .

وكأنت الأوامر قد صدرت إلى أعضاء اللجنة المركزية بالحضور فردياً وبخطبة بالغة . وكان لينين آخر من وصل ، حليق اللحية والشارب ومستعار الشعر . ولم يتعرفه الأحد عشر قائداً الا بصعوبة . ولم يذكر اسمه في محضر

ضبط الاجتماع حتى لا تعلم السلطة بوصوله الى بتروغراد . وكان في مقدمة الحضور تروتسكي وذرجنسكي وكامينيف وزينوفييف . وكان هناك ايضاً بوبنوف واوريتسكي من جناح دعاة وحدة الحزب السابقين . وكان غريغوار سوكونليكوف ، رئيس تحرير « البرافدا » مع ستالين ، أصغر الحضور سنأ . وكان هناك ايضاً اوموف ، أقل اعضاء اللجنة المركزية شهرة ، والى جانبه الكسندرا كولونتاي ، المرأة الوحيدة في الاجتماع . واخيراً كان هناك سفير دلوف وستالين اللذان انفردا بمقابلة لينين بعد عودته . وكان لينين اكبر الحضور سنأ . ٤٧ عاماً . ويليهِ ستالين وتروتسكي : ٣٨ عاماً . ثم سفير دلوف وبوبنوف وزينوفييف وكامينيف : ٣٢ عاماً . واخيراً سوكونليكوف : ٢٩ عاماً . وكان اينو راهيا يتولى حراسة المني . وترأس سفير دلوف المداولات ، وقال لينين وهو يسوي شعره المستعار :

— ان التمرد المسلح محتم . وعلى اللجنة المركزية ان تحض كل منظمات الحزب على الاستعداد له وعلى مناقشة وحل جميع المشكلات العملية انطلاقاً من وجهة النظر هذه . وغداً ، سوف يجتمع في بتروغراد مؤتمر سوفيينات منطقة الشمال . وعلينا إقناعه بالمساهمة في حركتنا . وعلينا ، بدون إضاعة دقيقة واحدة ، ان ننظم قيادة أركان الفصائل المتمردة ونوزع القوى ونجعل الكتائب الموالية لنا تحتل النقاط الهامة وتطوق قصر ماريا مقر البرلمان التمهيدي وتحتل قلعة « بطرس وبولس » وتعتقل قيادة الاركان العامة والحكومة ، ونرسل الى الضباط التلامذة (الجنكر) فصائل مستعدة للاستشهاد ، ونحتل المراكز التلغرافية والمحطات ...

ووقف زينوفييف يحنج :

— امام التاريخ ، امام البروليتاريا الأهمية ، امام الثورة الروسية والطبقة العاملة الروسية ، لا يحق لنا أن نقامر بكل مستقبلنا على خريطة تمرد مسلح .

وزاود كامينيف :

– اننا نرفع صوتنا بالتحذير ضد هذه السياسة الضارة . يجب ألا نحاول أي شيء قبل اجتماع الجمعية التأسيسية . يقيناً ، إن التاريخ يعرف حالات لم يكن فيها للطبقة العاملة من خيار واضطرت فيها الى القتال مع علمها بأنها صائرة الى الهزيمة . فهل الطبقة العاملة الروسية اليوم في مثل هذا الموقف ؟ لا ، وألف مرة لا ! إننا نتمسك بالبورجوازية تحت تهديد ماسورة مسدس موجه الى صدغها . وهذا المسدس هو الجيش والسوفييتات .

وجاء جواب ستالين لاذعاً :

– مسدس بلا رصاص .

وأضاف لينين :

– واذا كان فيه رصاص ، فهذا يعني التمرد المسلح .

وأردف تروتسكي :

– ان الاستيلاء على السلطة ضرورة . ولكن هذا الاستيلاء يجب ان يتم على يد السوفييتات التي نوجهها ، لا على يد الحزب وحده . وفي مدى بضعة ايام ، في ٢ تشرين الثاني على الأرجح ، سينعقد المؤتمر الثاني لسوفييتات عموم روسيا . فلننتظر هذا الاجتماع القومي لنعلن أن السلطة تخصه . ولن يكون امام حكومة كيرنسكي غير طأطأة الرأس .

ولإزاء موقف زينوفيف وكامينيف وتردد تروتسكي المبطن ، ثارت

ثائرة لينين وراح يذرع الحجرة بعصية ، وقال :

– إن التردد لجريمة . إن على البلاشفة ان يستولوا على السلطة فوراً . وانتظار مؤتمر السوفييتات لعبة شكلية صبيانية ، لعبة منحجلة ، خيانة بحق الثورة . ينبغي إعلان التمرد حالاً . واذا ما تصرف القيادة بحزم ، فسوف تتكفل القاعدة بتأمين العدد . وقرار بمثل هذه الأهمية لا يمكن ان يصدر عن اجتماع واسع كمؤتمر سوفييتات عموم روسيا . لقد أنشأ سوفييت بتروغراد

لجنة عسكرية ثورية ، فلنستفد منها .

وقطعت غالينا سوخانوفا المناقشات آتية بالشاي والسندويشات . ثم استؤنفت المناقشة حول « اللجنة العسكرية الثورية » التي أنشأها سوفيت بتروغراد غداة انقلاب كورنيلوف ، في الوقت الذي كانت فيه الغالبية للحزب المصالحة . ولقد كان هدفها مقاومة القوى اليمينية المناهضة للثورة . ومنذ حركة تروتسكي المسرحية المطالبة بتجديد مجلس الرئاسة ، أصبحت الغالبية للبلاشفة . واللجنة العسكرية الثورية تابعة لمجلس الرئاسة ، وعليها ان تنصاع لأوامره . ولقد كان من ضمن أعضائها رجال من طراز كريلنكو ، الرقيب الذي داس بقدميه رتبه وأوسمته . واذا ما تولت اللجنة العسكرية الثورية التمرد المسلح ، فإنه لن يكون من صنع البلاشفة وحدهم ، بل ايضاً من صنع سوفيت العاصمة ، المصدر الطبيعي للسلطة الثورية .

وبإملاء من لينين كتب سفيردولوف القرار الذي سيطرح للتصويت . وقد تُرك موعد التمرد المسلح ابيض في النص ، حتى يحظى بتأييد الأصوات التروتسكية . والحق ان ما يريده لينين هو ان ينقل التمرد من صعيد المشاريع التأميرية الى صعيد الوقائع .

وارتفعت عشر أذرع للموافقة على استلام السلطة فوراً . وتمسك زينوفييف وكامينيف بموقفهما . وقالوا :

— اننا نطالب باجتماع عام للجنة المركزية وبإعادة التصويت .

كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً . وراح ضيوف السيدة سوخانوفا يغادرون الدار فرادى . وعندما جاء دور لينين ، سمع صوتاً يناديه في الظلام :

— الليل بارد ، يا رفيق ، خذ معطفي .

فرفض لينين ، ولكن فيلكس الحديدي أقنعه بجملة واحدة :

— انه أمر من اللجنة المركزية ، يا رفيق .

على بعد ٢٥٠٠ كيلومتر جنوباً كان سيرج كيروف يحاول اكتساب القفقاس الشمالي الى قضية البلاشفة . وكان بذلك ينفذ خطة لينين القاضية بتحقيق نصر يومي مهما يكن بسيطاً . وكانت بلاد القفقاس مهددة بحرب قوميات بين المسلمين وغير المسلمين من السكان بنتيجة سوء سلوك الجنود الذين نفتهم الى هناك الحكومة المؤقتة . وقد أفلح كيروف ، ببسالته وجرأته ، في اكتساب ود قبائل الإنغوش المسلمة ، وأقنعها بإرسال مندوبها الى مؤتمر سوفيات القفقاس الذي فاز فيه البلاشفة بالغالبية .

وفي قلب روسيا كما في أقاليمها كان لحزب لينين رجال يعملون على توفير اسباب النصر للثورة الاشتراكية ، وكان مرجعهم وصلة وصلهم سفيردولوف . وكانت موسكو قد تلبست مظهراً مختلف كل الاختلاف عن مظهر بتروغراد . فقد كان تحريك الجماهير يتطلب مهارة اكبر وأعد بالانظر الى وجود سوفيتين منفصلين : سوفيت الجنود وسوفيت العمال . وعلاوة على ذلك كان أعيان الدون وجنوده القوزاقيون يراقبون بعين ساهرة العاصمة الثانية ، كما ان ضباط موسكو وطلابها شكلوا ميليشيا مناهضة للبلاشفة . وقد أعلن قائد المدينة ، الكولونيل ريباتسيف أن « أعمال العنف ستقمع بلا رحمة من قبل القوات الوفية للشعب وللثورة » .

ولكن سوفيت العمال ذهب على بكرة ابيه الى سهل خودنكا حيث قتل ألفا شخص يوم تتويج نيقولا الثاني ، ليزور ضريح البلشفي بومان الذي سقط صريعاً برصاص المئة السود في عام ١٩٠٥ ، وليقسم اليمين على النضال حتى الظفر البروليتاري . وكان قائدا الحزب في المدينة نوغين وريكوف ، ابني أسرة فلاجين ، وعضوي اللجنة المركزية منذ عامهما الرابع والعشرين . وكثير ما كان ريكوف ، الذي اعتقل مع سائر اعضاء سوفيت بتروغراد في عام ١٩٠٥ ، قد وقف موقف المعارضة من لينين . ولقد حارب « اطروحات

نيسان » وتمنى لو أن لينين ، بعد ايام تموز ، يسلم نفسه للسلطة . ومع ذلك فإن فلاديمير ايليتش سيجعل منه واحداً من أقرب معاونيه .

وفي باكو أرغم الاضراب الذي حرض عليه ستيان شاووميان ، وزير العمل ، كوسما غفوسديف ، على المجيء الى المدينة وعلى منح عمال البترول الحق في توقيع عقود جماعية . كما ارغم شاووميان غفوسديف على الموافقة على انتخابه رئيساً لسوفييت باكو .

وفي مدينة ايفانوفو - فوزنيسنك ، مهد المجالس العمالية ، تمكن ميشيل فرونزه من إعلاء وفرض شعار « كل السلطة للسوفييتات ! » . وفي الأورال حلّ اندريه جدانوف نهائياً محل سفيردلوف . وتهدت مدينة أوفا بتموين العاصمة بالقمح فور إعلان التمرد المسلح . وكان الرقيب جدانوف قد جعل مقر القيادة البلشفية في بيرم حيث تعسكر الكتيبة ١٣٩ التي ينتمي اليها .

وفي سييريا كانت لجنة السوفييتات التنفيذية خاضعة لنفوذ رجلين سيكون مصيرهما من أفجع المصائر ، إياكوفيلف رئيس سوفييت الجنود والعمال وسيرج لازو . ولسوف يقع الأول اسيراً في ايدي بحارة كولتشاك ويعدم رمياً بالرصاص إبان الحرب الأهلية ، ولسوف يقع الثاني اسيراً في ايدي اليابانيين في عام ١٩٢٠ ويحرق حياً في مرجل قطار .

والى الجنوب ، في طشقند ، هدد كيرنسكي بإرسال حملة تأديبية ضد اللجنة العسكرية الثورية المحلية . وقد حاصر قائد المدينة مقر اللجنة . بيد ان اعتقال البلاشفة أدى الى اندلاع إضراب عام ، وأرغم الحرس الأحمر القائد على الهرب . وقد ظل ليلة بكاملها مختفياً في حفرة ، ثم ألقى القبض عليه . وعلى ضفاف الدون كان كاليدين ، المتولي إمرة ثلاثة جيوش قوزاقية ، يقود حملة رادعة ضد البلاشفة . وكان كاليدين قد أطلق سراحه بعد إحباط انقلاب كورنيلوف ، وقد التقى في روستوف برئيس الدوما السابق ، وردزيانكو ، ومنحه لقب فارس قوزاق فخري مع إقطاعة من الارض . وقد

اثارت هذه البادرة استنكار الفلاحين . واستغلها البلاشفة وأفلحوا في التآخي مع القوزاق الذين قرروا إرسال مندوبين الى مؤتمر سوفيات عموم روسيا ، مخالفين أوامر قائدهم . وفي حوض الدونز تطوع عامل مناجم شاب في الحرس الأحمر : نيكيتا خروتشيف .

وامتدت عدوى التنظيم الثوري الى مدن الأقاليم قاطبة . وكان لازار كاغانوفيتش ، المنتسب الى كتيبة المشاة ٤٢ المعسكرة في ساراتوف ، خطيباً مفوهاً يسكر الجنود صدقاً لا مجازاً بكلماته . وساراتوف ، التي التقى فيها نيقولا الثاني ببير ستوليبين ، ساراتوف التي انتخبت كيرنسكي للدوما الرابعة ، لها الآن سوفيت يتألف من ٣٢٠ بلشفيًا مقابل ١٠٣ من الاشتراكيين - الثوريين و ٧٦ من المناشفة .

وفي سمارى ، التي أبعد اليها لينين بعد مشاركته في مهرجان خطابي في جامعة قازان ، تولى قيادة الحركة البلشفية عامل خراط ، فاليريان كوبيشيف الذي هرب من سيبيريا في عام ١٩١٦ ثم اعتقل من جديد وحكم عليه في العام نفسه بالنفي الى توروخانسك .. وعندما انطلقت سراحه ثورة آذار استقبل استقبال الأبطال في سمارى وسط خضم من الأعلام الحمر وانتخب رئيساً لسوفيت تتألف غالبية أعضائه العظمى من الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة . وكان كليمان فوروشيلوف ، « الماريشال الأحمر » الذي كان له من العمر ١٨ عاماً عندما قاد ثورة العمال في لوغانسك ، ينشط في تساريتسين ، مدينة القيصر التي فيها مصنع ضخّم للمدافع والتي ستسمى في المستقبل بستالينغراد . وكانت حالة الطوارئ قد أعلنت في المدينة ، وأرسلت اليها حملة تأديبية ، وحلت الدوما البلدية التي فاز فيها البلاشفة ب ٣٩ مقعداً . ومع ذلك حصل البلاشفة في سوفيت المدينة على ٣٥٠ مقعداً مقابل ٣٠ للمناشفة . وفي الغرب ساد السكون في الجبهة . فالألمان ينتظرون أن ينهار العدو من الداخل . وقد وقعت لديهم ايضاً حوادث عصيان . فقد تمرد بحارة اربع سفن حربية في خليج جاد وشهروا السلاح على ضباطهم وألقوا بعدد منهم

الى البحر . وطالبت منظمة سبارتاكوس البروليتارية التي أسسها كارل ليكننت وروزا لوكسمبرغ بصلح عام بلا ضم ولا تعويضات . ولكن قيصر الألمان كان يعلم أن الانتصار في الشرق مرهون بتفسخ الجيش الروسي وأن خير ما يفعله هو الانتظار . وكان التحريض البلشفي على قدم وساق في الخنادق ، وكان خير المحرضين هم المنفيين القدامى الذين طلبت اليهم اللجنة المركزية ألا يؤجلوا خدمتهم العسكرية ، مع أن هذا كان من حقهم ، حتى ينشطوا في الخطوط الاولى .

وكما كان على عمال الأورال أن ينجدوا بتروغراد وعلى الحرس الأحمر في ايفانوفو أن يهب لمساعدة موسكو ، كذلك كان على عمال روسيا البيضاء ان يجردوا من السلاح الجنود الذين قد ترسلهم الحكومة من الجبهة الى العاصمة . وتلافياً لكل مباغته ، زرع لينين في كل المدن الرئيسية الواقعة على طرق السكك الحديدية في المنطقة العسكرية المتقدمة لجائاً موثوقة ومخلصة : فيتيسك ، غومل ، اورشا ، موغيليف ، ومينسك حيث اكتشفت اللجنة زافويكو ، تابع كورنيلوف ، واعتقلته .

وتسرب النفوذ البلشفي الى الاراضي المحتلة . ونشطت الخلايا الشيوعية في البلدان البلطيقية الثلاثة وانصب جل نشاطها على الوحدات العسكرية .

وفي كل مكان شكلت وحدات للحرس الأحمر . وانتقلت آلاف قطع السلاح من الثكنات الى المصانع . ولم تفلت من النفوذ البلشفي سوى مدينة واحدة : نيني - نوفغورد ، مسقط رأس سفيردولوف ومكسيم غوركي .

(٥٢)

تشرين الأول مشرف على نهايته . والسماء واطئة فوق بتروغراد ، المدينة المروية من كل جنباتها بالماء . والليل يخيم في الساعات المبكرة ، الحلوة ، من المساء ، ويسرق من النهار ضحاه . والرطوبة تثقل على الصدور وقد جمدها

ريح خليج فنلندا . وفي الشوارع ترسم آثار الخبزات الموحلة .

لقد تقلصت جرابيات الخبز اليومية الى ٢٥٠ و١٢٥ غراماً ، وجرابيات السكر الى كيلوغرام واحد شهرياً . والاسعار لم ترتفع قط الى هذا المستوى . والنساء ينتظرن امام المخازن قبل مطلع الفجر بفترة طويلة . وعجزت حكومة كيرنسكي كما عجزت من قبلها حكومة لفوف عن قهر الفقر . واختفت العملة الجيدة من السوق بعد أن طردها نقود معدنية صغيرة بنحسة سميت بشيء من الاحتقار بالكيرنسكيات . وبرز في زوايا الشوارع باعة جدد يبيعون غذاء يجدر بالانسان ان يمضغه علناً لتوكيداً لأفكاره الاشتراكية : حب عباد الشمس . وفي خليج ريغا أطلقت البحرية الروسية طلقات الوداع ضد الأسطول الألماني . شعب منهك ، جيش مهزوم ، سلطة ضعيفة .

وعند منتصف الليل يقطع التيار الكهربائي عن كل الدور ، والغاز لا يسيل إلا للإنارة العامة . أين هي أبهة بتروغراد؟

ثمّة بناءان ، قصران يظلان مضامين طيلة الليل : قصر الشتاء حيث يقيم كيرنسكي ويخطط لقمع بؤرة التحريض البلشفي ، ومعهد سمولني الذي راح الحزب البلشفي يستولي عليه مكتباً تلو المكتب استعداداً للهجوم على قصر الشتاء والاستيلاء على السلطة . معهد سمولني ، مملكة تروتسكي ، الذي تتحدث عنه « الازفستيا » ، صحيفة الاشتراكيين المحافظين ، وكأنه فولكان ، إله النار ، الذي يعد الأصفاد للعالم .

قصران ، قوتان ستهجم كل واحدة منهما على الأخرى .

— ليس معك بطاقة ، لن تدخل .

هذا ما قاله جندي يجرس بوابة المعهد .

— اني تروتسكي ، رئيس سوفيت بتروغراد .

— اذا كنت هاماً الى هذه الدرجة ، فلا بد ان تكون معك أوراق .

— ادع قائد حرس المعهد .

— حسناً ، يخيل إلي أنني اعرف اسمك . ادخل .

وفي إحدى القاعات توجه فيدور دان ، رفيق لينين القديم أيام الهجرة إلى سويسرا والمنشفي اليميني ، بالخطاب إلى التسيك ، المكتب الدائم لسوفييتات عموم روسيا :

— ان البلاشفة يقومون بتحريض يزرع الفوضى في صفوف الجماهير .
اننا نسألهم بصراحة لم ينتهجون هذه السياسة . ألا فليجيبوا .
فأجابه ريازونوف ، العضو البلشفي في التسيك :

— تسألون عم اذا كنا نهيء ثورة ، والله أعلم بأننا ماركسيون وبأننا لا نهيء تمرداً . فالتمرد انما يهيئه اولئك الذين يوردون الجماهير موارد اليأس .
ولكن اذا أفضى الوضع الراهن إلى ثورة ، فإننا سنكون بالطبع وفي الصف الأول من المتمردين .

فقال بوغدانوف ، احد قدامى المهاجرين إلى سويسرا ايضاً :

— الجواب ليس واضحاً ، ولكن من الجلي أن البلاشفة يعدون العدة لعملية عنف .

وكان سوفييت الشمال مجتمعاً في طابق أعلى ، وكان لينين قد كتب إلى المؤتمرين :

— من المستحيل انتظار مؤتمر سوفييتات عموم روسيا الذي يرجئه التسيك من يوم إلى آخر . لقد دقت ساعة العمل . وينبغي ان تقوم الثورة في العاصمتين .
وعاد تروتسكي يؤكد :

— ان مصير بتروغراد في خطر . يجب ان نستعد ..

فقاطعه المنشفي سوخانوف :

– في هذه الشروط لا يجد حزبنا بدأ من الانسحاب .

وأعلن الجندي البلشفي غولوفوف :

– ان السلطة في فيبورغ ، في فنلندا قد أمست في يد السوفييتات . وقد

استولى السوفييت على مركز البرق وأقال قائد الجيش المحلي وقائد الحصن .

وقبل اختتام جلسات المؤتمر ، وصلت وفود اخرى . وغابت المنصة

تحت غابة من الحراب . وطلب ممثلوا القناصة الليتونيين الكلام :

– اننا نحمل ٤٠٠٠٠ حربة لمساعدتكم على منح السلطة للسوفييتات .

وكانت هزيمة المصالحين .

*

لخص فولودارسكي ، آخر من عاد من المهجر ، وصديق تروتسكي اثناء

ايام نيويورك ، والوحدوي المنضم الى الجناح البلشفي ، لخص الروح المعنوية

العامة في العاصمة على النحو التالي :

– ان الانطباع العام هو أن ما من أحد يتحرق تحرقاً الى الزول الى

الشارع ، ولكن الجميع سيلبون نداء السوفييت اذا ما وجه اليهم مثل هذا

النداء .

والسوفييت المقصود هو سوفييت بتروغراد الذي يرأسه تروتسكي .

تروتسكي الذي لا يني يخطب ويلقي المزيد من الخطب ليضمن للبلاشفة الغالبية

في كل مجالس رئاسة سوفييتات روسيا . ومعهد سمولني هو ميدان قتاله ،

سمولني الذي تعيش تحت سقفه كل الميول الاشتراكية وكل الاحزاب وكل

الأجنحة وكل اللجان العسكرية . واذا كان البلاشفة قد اكتسبوا الى جانبهم

سوفييت بتروغراد وبلخته العسكرية الثورية ، فإن الاشتراكيين – الثوريين

ومناشفة بليخانوف المسن وعمالي تروتسكي يناضلون شبراً شبراً للحفاظ على

مواقعهم ومواقفهم المصالحة . وكان تروتسكي يلقي خصماً عنيداً في التسيك

الذي انتخب في حزيران والذي احتفظ بغالبية من المناشفة والاشتراكيين - الثوريين . ولخصوم تروتسكي ماضٍ مجيد من الشجاعة والآلام : تشيرنوف وماريا سيريدونوفا ومارتوف وبوغدانوف وسكوبيليف ولاير ودان وغرتز وافكسانتييف . والحال ان التسيك هو الذي يعد العدة للحدث الذي سيليه ، كل شيء من حوله : المؤتمر الثاني لسوفييتات عموم روسيا المتوقع انعقاده في مستهل تشرين الثاني .

ولقد شنّ سفيرد洛夫 حملة انتخابية حقيقية . وفي كل مدينة وفي كل مصنع كانت التعليمات صارمة قاطعة : « أرسلوا البلاشفة بأعداد كبيرة . النصر مضمون اذا حصلنا على الغالبية في مؤتمر عموم روسيا » .

وفيما كان تروتسكي يتكلم ويتكلم بلا انقطاع من مهرجان خطابي الى آخر بهدف تأمين النصر السياسي ، كان لينين يكتب ويكتب من مخبئه بلا توقف لضمان انتصار الثورة البروليتارية المسلّحة . وكان يبعث برسائله الى اللجنة المركزية التي تتولى ضربها على الآلة الكاتبة وتطلع عليها رؤوس المحرضين الذين كانوا ينسخونها بدورهم ويصرفونها عبر أرجاء روسيا كلها . إن الثورة الثالثة تتقدم ، ثورة مدروسة على أنها فن ، ثورة صاحبة لا تريد ان تترك شيئاً للصدف . وكان لينين يخرج من حين الى آخر من عرينه في فيبورغ ليدرس ويحدد النقاط الاستراتيجية في بروجراد التي ينبغي احتلالها من الساعة الاولى . وقد استقبل بياتنسكي مبعوث موسكو التي عليها أن تتمرد مع العاصمة . وقد دعا اكثر من مرة اعضاء اللجنة المركزية الى الاجتماع .

*

من جانب السلطة ايضاً كان الكلام غزيراً ، ولكن الفعل قليل . وكيرنسكي المقيد بغالبية الاشرائية ، عاجز عن وضع السلطة الحديدية التي وعد بها موضع تنفيذ . ولقد نصحه التسيك بعدم اعتقال اعضاء اللجنة العسكرية الثورية . ونداءاته الحارة الى البرلمان التمهيدي لم تجد نفعاً ، فأعضاؤه مشغولون

بالمجاملات وبتقسام الامتيازات . وكان سينعقد في باريس في ١٥ تشرين الثاني اجتماع عسكري لدول التفاهم . وقد سمي كيرنسكي رجلين للسفر الى فرنسا : نيرشتشكو وزير الخارجية ، والجنرال المسن الكسييف ، القائد السابق لهيئة أركان نيقولا الثاني . ولكن الوزراء الاشتراكيين رفضوا الموافقة على تشكيل هذا الوفد الذي لا يمثل في رأيهم روسيا الجديدة ، وطالبوا بإرسال المنشفي ماتيو سكوبيليف الذي كلفه التسيك بمطالبة الحلفاء بالتفكير بصلح بلا ضم ولا تعويض . ثم استدعى كيرنسكي عضو الكاديت باسيل ماكلاكوف الذي ما يزال اخوه نيقولا ، وزير القيصر السابق ، نزيل السجن ، وقال له :
- ان باريس بحاجة الى الطمأنة . وإنني اطلب اليك ان تذهب اليها سفيراً .
وحزم ماكلاكوف حقايبه ، ووضع فيها المطرقة وقارورة السم اللتين قدمهما الى بوريشكيفيتش لاغتيال راسبوتين .

*

مع اقتراب شهر تشرين الثاني التقى السياسيون المخلوعون في موسكو بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه من خطة كورنيلوف المحبطة . وقد ترأس رودزيانكو ، رئيس الدوما المتوفية ، هذه الاجتماعات اليمينية الجديدة ، وقال :
- إن بتروغراد في خطر ، ولكن استيلاء الألمان على بتروغراد لا يعني البتة نهاية الحرب . فالعاصمة التي شلتها الدعاية البلشفية ما عادت تساهم بشيء في الدفاع القومي .

والحق ان بول ميلوكوف ، زعيم البورجوازيين ، والرأسمالي بوتيلوف ، وبوريشكيفيتش ، صحفي المثة السود ، والجنرالات الكسييف وروسكي وبروسيلوف انما كانوا يحاولون دفع السياسة الروسية الى المواقع التي كانت عليها في عهد آذار ، ولكن الأوان كان قد فات . فانقلاب كورنيلوف الفاشل قد قضى على جميع حظوظ المربع الأخير من الرأسمالية الروسية ،

ورفد حزب لينين بأربعمئة ألف منتسب جديد ، ودمر سمعة كيرنسكي والبورجوازيين الثورية .

وفيما كان زعماء الاقتصاد الروسي مجتمعين في موسكو ، كان جنود عاديون يخطبون في ألوف الناس :

— اننا في حرب مع ألمانيا . فهل نطلب من الجنرالات الألمان ان يعملوا في الستافكا؟ ونحن ايضاً في حرب مع الرأسماليين ، فهل نرضى بأن يحكمونا؟

(٥٣)

أرخی الليل سدوله وتقدم لينين بحذر ، تحت حماية اينو راهيا وشقيقة ، نحو دار الخدمات البلدية لمنطقة لونوا التي وقع الاختيار عليها لتكون مقر الاجتماع السري الكبير الأخير قبل الهجوم . وتحت المطر العاصف تقدم ثلاثة وعشرون بلشفياً آخرون ، بينهم تسعة من اعضاء اللجنة المركزية . ووصل لينين في الساعة ١٩ . فخلع شعره المستعار وأخرج حزمة من الاوراق وشرع يقول :

— اننا متفقون على هذه النقطة : سوف يتحرك العمال بمجرد ان يصدر سوفيت بتروغراد نداءه حركة رجل واحد . فإما ان تكون دكتاتورية كورنيلوف ، وإما ان تكون دكتاتورية البروليتاريا . لقد اخترنا . وينبغي ان نتنصر من الإشارة الاولى ، قبل أول بادرة من بوادر انهيار المعنويات .

وتدخل مولوتوف قائلاً :

— يجب ان نكون مستعدين لإشعال نار التمرد في أية لحظة .

وألح كالينين :

— الشيء الأساسي هو اختيار اللحظة المناسبة للهجوم الاستراتيجي .

وأيد التمرد كل من سفيردلوف وذرجنسكي واوريتسكي وكريلنكو

وستالين . ولكن كامينيف وزينوفييف أصرا على معارضتهما :

– انكم تهولون من قوانا وتهونون من قوى الحكومة المؤقتة .

وقال شوتمان ، وهو فنلندي متروس نَظَم مع راهيا نجباً لينين لدى مدير شرطة هلسنغفور :

– ليس لدينا ما فيه الكفاية من الخيل للارتباط والاتصال .

وارتأى إيوفي وسوكولنيكوف ، مثل تروتسكي ، انه من الواجب انتظار اجتماع المؤتمر الثاني لسوفييتات عموم روسيا .

وتدخل ستالين :

– إن ما يقترحه خصوم التمرد يعني منح الثورة المضادة فرصة للاستعداد والتنظيم .

وكان تروتسكي غائباً . فقد بقي في سمولني يتكلم ويتكلم ، ذراً للرماد في العيون . وعندما سأله أحدهم :

– أصحيح ان العدة تعد للتمرد ؟

اجاب جواباً غامضاً ، ولكن مثقلاً بالتهديد :

– ان سوفييت بتروغراد لم يصدر أي أمر بهذا المعنى على حد علمي . ولكن من الواضح انه اذا ما توجب إصدار أمر كهذا ، فإن البلاشفة سيكونون في الصف الأول . واذا كان ما من الموت بد ، فلننت كمواطنين واعين يعرفون ابن ولماذا يسرون الى الموت .

وفي لونا كان كامينيف وزينوفييف يعاندان في موقفهما :

– انكم لتتعللون بالأوهام عن قرب اندلاع الثورة البروليتارية في اوروبا الغربية . فلنتنظر الجمعية التأسيسية لإنشاء نظام برلماني منبثق عن السوفييتات . وناضل لينين حتى الفجر ليجهز على تردد المترددين . وكان الفوز حليفه

بعد اثني عشرة ساعة من النقاش . فقد تمت الموافقة على التمرد بغالبية ١٩ صوتاً ضد اثنين واستنكاف ثلاثة .

واجتمع اعضاء اللجنة المركزية في جلسة مغلقة وشكلوا هيئة جديدة ، « مركز الحزب » ، لتولي قيادة الثورة المسلحة من خمسة اعضاء : سفيردولوف ، اوريتسكي ، ستالين ، دزرجنسكي وبوبنوف ، واتخذ قرار آخر بوجوب دخول الأعضاء الخمسة فوراً الى اللجنة العسكرية الثورية التابعة لسوفييت بـر و غراد ليكونوا نواتها بالاضافة الى الأعضاء البلاشفة الموثوقين فيها : بودفويسكي ، انتونوف - اوفسينكو ، كريلنكو ، نفسكي ولاشيفيتش . وبذلك سيكون التمرد من صنع سوفييت بـر و غراد قاطبة ، لا من صنع الحزب وحده . وبفضل تروتسكي سيتم تعيين بودفويسكي رئيساً للجنة العسكرية الثورية وانتونوف سكرتيراً عاماً في اليوم التالي :

وقدم كامينيف استقالته من اللجنة المركزية لحظة اختتام اجتماع لونوا الحاسم . ولكن لينين كان قد نهض ليغادر الدار . بيد ان سفيردولوف أوقفه : - لا يا رفيق ، ليس قبل ان ننشد معاً نشيد « الأمية » .

ووقف المجتمعون وأنشدوا بصوت خافت حتى لا يُسمع من الخارج النشيد الثوري الخالد .

*

بعد أن استسلم لينين للرقاد بضع ساعات ، علم أن التسليك قد أرجأ مرة أخرى موعد انعقاد مؤتمر السوفييتات . فقد دعي المؤتمر الى الاجتماع في ٧ تشرين الثاني ، بدلاً من ٢ ثم من ٤ . وهذا يعني على كل الأحوال انه لم يبق غير ثمانية أيام للحدث العظيم ، والمشكلة التي يواجهها لينين وحزبه أن الاستعدادات لم تكتمل بعد ، ناهيك عن تردد التيار الذي يمثله زينوفيف وكامينيف .

والحقيقة ان زينويفيف وكامينيف قد عقدا العزم ، تلافياً لحرب أهلية
يخشيان ان تكون دامية ، على طرح القضية علناً . وفي ٣٠ تشرين الأول
كشفا البقاب عن كل تفاصيل الخطة البلشفية . وتشاء سخرية الأقدار ان
يتوجها الى المنشفي نيقولا سوخانوف ليطلبا منه فضح المؤامرة التي حيكت
في منزله وبضيافة زوجته قبل ثمانية ايام . وكان سوخانوف مديراً لجريدة
« الحياة الجديدة » التي يملكها مكسيم غوركي . وقد نشرت الصحيفة مقابلة
مع كامينيف وزينويفيف كشفت فيها عن مشاريع التمرد المسلح . وقد علق
لينين على ذلك بقوله :

— ايام صعبة ، مهمة ثقيلة ، خيانة باهظة .

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يخونه فيها أتباعه ، إذ كان قد أرسل
قبل شهر رسالة سرية الى اللجنة المركزية جاء فيها قوله : « نظراً الى ان اللجنة
المركزية لا ترد على تعليماتي ، والى أن « البرافدا » تحذف من مقالتي كل
إشارة إلى أخطاء البلاشفة الصارخة ، وإلى انني ألاحظ وجود ميل لدى اللجنة
المركزية حتى الى عدم مناقشة اقتراحي ، لذا فإنني أرى نفسي ملزماً بتقديم
استقالتي من اللجنة . وهذا ما افعله ، محتفظاً في الوقت نفسه بحقي في حرية
العمل التامة في صفوف القاعدة الحزبية وفي المؤتمر القادم » . وقد وقفت
المشكلة عند هذه الحدود . وكان مدير البرافدا الذي يخضع مقالات لينين
لرقابته ومقصه هو ستالين .

وقد ثارت نائرة لينين إزاء « خيانة » كامينيف وزينويفيف :

— انني أعتبر أن شرفي قد مسّ اذا ما ترددت ، نظراً الى علاقتي السابقة
مع رفاق قدامى ، في إدانتها . انني اقول بكل وضوح انني ما عدت أعتبرهما
رفيقين ، وانني سأناضل بكل قواي في اللجنة المركزية لفصلهما من الحزب .
ولكن الفصل من الحزب يقتضي انعقاد المؤتمر ومناقشة حامية متناقضة
قد تجر المترددين الى صفوف خصوم التمرد . ومن الممكن ان يحدث انشقاق

ليس الأوان أو انه بأي شكل من الأشكال . وسفير دلوب متخوف من مثال هذا الانشقاق . وستالين لا يتمناه . وقد حاول ، على صفحات البرافدا ، التخفيف من غلطة الرفيقين الطاشين ، مثيراً من جديد غضب لينين .

وقبلت اللجنة المركزية استقالة كامينيف ، ثم أعادته إليها بعد ثلاثة ايام ، وكلفته علاوة على ذلك بالمسؤولية السياسية المتعلقة بصلات البلاشفة مع سائر الاحزاب الاشتراكية . أما زينوفيف فلم يقرب أحد صوبه . وكتب لينين :
- إنني أعلن عدم موافقتي على قرار اللجنة المركزية .

*

كان لفضح مخطط التمرد البلشفي وقع الصاعقة على قصر الشتاء . وفكر كيرنسكي باتخاذ تدابير عاجلة بالتعاون مع الجنرال فيرخوفسكي وزير الحربية ، ونيكيتين وزير الداخلية ، والجنرال باغراتوني رئيس هيئة أركان المنطقة ، والكولونيل بولكونيكوف ، قائد منطقة بتروغراد العسكرية . وفي ٣١ تشرين الاول وضع بولكونيكوف مدافع رشاشة امام القصر وأرسل دوريات من القوزاق عبر المدينة . وصرح كيرنسكي :

- إن البلاشفة يخونون الحكومة والثورة . ولينين ملاحق قضائياً منذ شهر تموز . ينبغي اعتقاله .

وكلف بولكونيكوف بإبلاغ الحامية التدابير المتخذة : على كل وحدة أن تهب لنجدة المؤسسات العامة وأن تمتثل العناصر المجرمة والفارة ، والمظاهرات ممنوعة منعاً باتاً وكل عمل مسلح سيقمع بقوة السلاح .

*

إن البحارة وجنود حامية بتروغراد والحرس الأحمر هم القوى الثلاث الرئيسية التي يعتمد عليها لينين الذي استدعى كلاً من انتونوف وبودفويسكي ونفسكي :

— إن الجماهير تقف على أتم استعداد . وفروا لها القيادة العسكرية واكبر قدر ممكن من السلاح .
فقال بودفويسكي :

— في وسعنا الاعتماد على ١٢٠٠٠ رجل من الحرس الأحمر . وقد تبرع معظم العمال بأجرة يوم واحد لشراء أسلحة . وقد نظم الحرس على شكل كتائب من اربعمئة رجل .

وصرح انتونوف الذي قدم لتوه من كرونشتاد :

— إن البحارة أيضاً على أهبة التمرد . ومن الواجب اعتقال الضباط .
ومن المفضل نقل البحارة بالقطارات .

وأصدر لينين أمره الى نفسكي بالرحيل فوراً الى هلسنغفور لضمان تأييد وحدات المدفعية . وانتهى الاجتماع في منتصف الليل . وقال بودفويسكي :
— يجيل إلي انه قد نبتت لي أجنحة .



أراد تروتسكي ان يختبر نفوذ سوفيت بتروغراد وبلجته العسكرية الثورية . فكتب رسالة الى ترسانة سيسروريسك يطلب فيها تسليم ٥٠٠٠ بندقية الى الحرس الأحمر . وتمّ تسليم البنادق دونما صعوبة وشحنت بالسيارات الى المصانع . وإزاء هذا النجاح المشجع أصدرت لجنة السوفيت العسكرية أمراً الى جميع وحدات العاصمة بالامتناع عن كل مبادهة ورفض الانصياع لأي أمر حكومي غير موقع من اللجنة العسكرية . وباستثناء كتيبة الخيالة والجنكر ، اعترف الجنود باللجنة العسكرية الثورية سلطة عليا . وقامر تروتسكي آنذاك بالكل في سبيل الكل . فقد أعلم الكولونيل بولكونيكوف ان مفوضاً سياسياً سيعين في هيئة الأركان العامة لمراقبة قراراتها . وعندما رفض بولكونيكوف كل تعاون مع السوفيت ، وجه تروتسكي نداء الى الجنود قاطبة :

— إن هيئة الأركان العامة تحاول التملص من رقابة اللجنة العسكرية الثورية التي عاهدتها لجانكم على الولاء . وقد أصبحت هيئة الأركان اداة في يد القوى المضادة للثورة . واللجنة العسكرية الثورية تعلن عدم مسؤوليتها عن أفعال هيئة الأركان . ايها الجنود الثوريون ، إن حماية النظام الثوري تقع على عاتقكم !

وهكذا تمّ خلع هيئة الاركان من قبل السوفييت المتمتع بتأييد الجماهير واستنجدت الحكومة بالبرلمان التمهيدي ، وتداولت طويلاً ، ولكنها لم تتخذ أي قرار .

*

عقد البلاشفة جلسة مغلقة في احدى قاعات سمولني . وعلى حين فجأة خرج فولودارسكي كالسهم ، ولكن الصحفي الاشتراكي الاميركي جون ريد أوقف اندفاعه ، مستفهماً اياه . فقال فولودارسكي :

— لقد قرر لينين . إن يوم ٦ تشرين الثاني سابق لأوانه ، ومن الواجب ان يلقي التمرد التأييد من روسيا قاطبة . والحال ان أعضاء المؤتمر لن يكونوا قد وصلوا جميعاً في يوم ٦ . ومن جهة اخرى فإن يوم ٨ تشرين الثاني فائت لأوانه ، إذ سيكون المؤتمر قد تنظم في ذلك التاريخ وسيكون من الصعب على هيئة كبيرة ان تتخذ تدابير سريعة وحاسمة . إذن فعلينا ان نعلنها في ٧ تشرين الثاني ، يوم افتتاح المؤتمر .

وحاول كيرنسكي ان يبعد الطراد « اورورا » الراسي في الورشة البحرية الفرنسية — الروسية عند مصب النيفا . وكانت السفينة ، شأن معظم قطع الأسطول الروسي ، تحت قيادة ضابط سويدي ، القبطان إريكسون . وقد أعلن هذا عن إجراء مناورات في عرض البحر . ولكن البحارة الذين يطبقون منذ شهر آذار مرسوم السوفييت رقم ١ بكل حدافيره ، ردوا على الضباط قائلين :

— ليس قبل ٧ تشرين الثاني ...

— لا يكفي ان تذلل هذه القملة ، بل ينبغي ايضاً سحقها وإغراقها في الدم . بهذا الثمن وحده نضمن خلاص روسيا .

ان الرجل الذي يتحدث عن البلاشفة على هذا النحو من فراش مرضه هو جورج بليخانوف الذي انكفأ على نفسه في احدى شقق تساركوي—سيلو وكان يوجه كلامه الى المحامي الاشتراكي الفرنسي جاك سادول والى فيرا زاسوليتش التي لبثت على وفائها له ، شأنها في ذلك شأن فيرا فغزر . ولقد تصورهم ستالين منذ ذلك العهد على أنهم اشباح : « ان بليخانوف وزاسوليتش وسائر الثوريين القدامى غير جديرين بالاحترام إلا من حيث أنهم طاعنون في السن » .

بيد أن هؤلاء الاشباح ما يزال لهم شيء من التأثير على مجرى الاحداث . وقد قال ستالين :

— اننا لنخشى ان تحرم أكاليل غار هؤلاء المشاهير غوركي من النوم . اننا لنخشى ان تكون هذه الآثار التاريخية قد أجهزت نهائياً على غوركي . على كل الأحوال ، إن كل انسان هو سيد نفسه ...

ان غوركي يجب الثورة ، ولكنه لا يجب العنف وأخشى ما يخشاه ان تتكرر احداث تموز الدامية . وبالمقابل فإن ملك البترول ، ستيفان ليازونوف يرى أن الحل الوحيد هو إخلاء بتروغراد وإعلان حالة الحصار حتى يتاح للقائد العسكري تخلص البلاد من البلاشفة دونما تقييد بشرعية القانون .

أما بوريس سافنكوف ، الزعيم السابق للإرهاب الاشتراكي — الثوري الذي ألفت به الحرب في معسكر الرجعية ، فهو يتأمر مع الجنرالات . وقد كتب بليخانوف يقول : « إنه أملنا الوحيد ، لأنه الوحيد القادر على إنجاز عملية التطهير بالوسائل العقوبية » . ولكن سافنكوف يلاتي في الواقع صعوبات

جمعة في توفير القوة القادرة على تجميد البلاشفة .

وبالاعتماد على ضباط ملكيين تزعم فلاديمير بوريشكيفيتش مؤامرة صدرت لنفسها أهدافاً ثلاثة : تحطيم الحركة البلشفية ، الاطاحة بكيرنسكي ، وإعادة الامبراطورية .

ولم تتخذ حكومة المديرين أي إجراء . وكل ما هنالك انها اكتفت بإقالة فيرخوفسكي ، وزير الحربية ، نظراً الى عدم استعداده لإطلاق النار على أشقائه الروس وعيّنت مكانه الجنرال مانيفسكي .

*

نظم تروتسكي في « بيت الشعب » في الرابع من تشرين الثاني مهرجاناً لجمع التبرعات للصحافة الثورية ولإعداد الجماهير وشحنها ثورياً لليوم العظيم . وبعد أن تكلم عن الحرب وفظائعها قال :

— اننا سندافع ، نحن السوفييتات ، عن العمال والفلاحين حتى الموت . فمن معنا ؟

وارتفعت ثلاثة آلاف ذراع بحركة واحدة تأييداً . وأعلن تروتسكي امام هذه الغابة من الأيدي المرفوعة :

— ليكن هذا قسمكم على تأييد السوفييت الذي أخذ على عاتقه مهمة قيادة الثورة حتى النصر النهائي وتوفير السلم والارض والحبز للشعب .

وعقدت مهرجانات مماثلة في كافة أرجاء المدينة، خلافاً لأوامر بولكونيكوف. وكان يوم الرابع من تشرين الثاني هو ايضاً يوم الجنود القوزاق ، وكانت العادة قد جرت بأن يسيروا في موكب ديني لتكريم ايقونة عذراء قازان العجائبية التي تقول المعتقدات الشعبية انها طردت نابليون من موسكو في عام ١٨١٢ . وقد وجه السوفييت بهذه المناسبة نداء الى القوزاق :

— يراد لكم ان تتألبوا علينا . وقد خطط مخطط قاين هذا اعداؤنا

المشركون : طغاة الطبقة النبيلة واصحاب المصارف والملاك العقاريون وخدم
القيصر السابقون . اننا مكروهون من المرابين كافة ، والأثرياء كافة ، ومن
الأمرء والجنرالات بما فيهم جنرالاتكم يا فرسان القوزاق ..
وقد تدخل كيرنسكي شخصياً حتى لا يقام الموكب . وقد لبي رجاؤه .

*

خرج جوزيف نولنس ، سفير فرنسا ، مستاء من قصر الشتاء :

— قال لي كيرنسكي إن عدة فرق تتحرك باتجاه بتروغراد ، ولكنني
ادركت من كلماته وحركاته المبهمة انه لم تؤخذ الحيطه لأي شيء كان .
انه ما يزال يعتمد بلا شك على مصادفة سعيدة كتلك التي سنحت له في شهر
تموز .

وبينما كان أفراد الحرس الأحمر البالغ تعدادهم اثني عشر ألفاً ينامون
محتضنين بنادقهم ، كانت ميليشيا الحكومة المؤقتة تحاول ، دونما جدوى ،
وضع حد للسرقات والجرائم التي ملأت أخبارها أعمدة الجرائد . ولم يكن
البرلمان التمهيدي يملك ان يفعل شيئاً غير إلقاء الخطب الفارغة . وكان يتردد :
هل يتبع الحكومة ويناصب البلاشفة العداة ؟ وكان من بين الذين ارتقوا المنصة
مارتوف ، الأعرج ، المسلول ، صديق لينين الذي سيظل هذا الأخير يتحسر
دوماً على فقدانه ، وقال بصوت ضعيف :

— ان الهجوم الفوري وتصفية الكيرنسكية على حد سواء أمران لم يحن
أوانهما بعد .

وأصبح معهد سمولني مرجلاً يغلي . ولم يكن من الممكن اجتياز أبوابه
بدون إذن مرور . وكانت الحركة فيه أشبه بخلية نحل : حرس احمر ، وسيارات
مصادرة ، ورسل ينطلقون في كل الاتجاهات . وكانت عينا دينيكو ، القادم
من هلسنغفور ، محمرتين من السهاد وكريلنكو سكران من التعب . وانتونوف

لم يخلق ذقنه منذ ايام . وبودفويسكي يرتدي قميصاً مدعوكاً متسخاً .

وفي الوقت الذي كان فيه سكان بتروغراد يكتشفون الوجه التاريخي للحرس الأحمر ، كان كامينيف يكفر عن خطيئته بمساعدة تروتسكي في اللجنة العسكرية الثورية .

*

كانت قلعة « بطرس وبولس » ، المشادة على « جزيرة الأرناب » ، أهم موقع استراتيجي في بتروغراد . وكانت تطل على قصر الشتاء عن بعد ١٢٠٠ متر . وكان يتمركز فيها خلف الأسوار المشادة على شكل نجمة سداسية ثلاثة آلاف رجل . وكان البلاشفة قد أسسوا لأنفسهم فيها خلية منذ شهر آذار ، ولكن رجالها لبثوا بشكل عام على ولأهم للسلطة . وكان فيها ايضاً ستمئة رجل من راكبي الدراجات النارية أوكلت اليهم مهمة حراسة قصر الشتاء ، وكانوا يرفضون أي احتكاك سياسي . وعلاوة على هذا ، كانت « بطرس وبولس » مخزناً للأسلحة التي كان سفيردولوف بأمس الحاجة اليها لتوزيعها على العمال . فقد كان في مستودعاتها مئة ألف بندقية ومسدس ، علاوة على ثمانين مدفعاً رشاشاً وبطاريات مدفعية بحرية . وبالإضافة الى قيمة الحصن الاستراتيجي ، كانت له قيمة رمزية . ذلك أن « بطرس وبولس » ، التي كانت ساعتها الكبيرة تعزف كل ربيع ساعة ترانيل كنيسة ، وكل اثني عشرة ساعة نغمة « ليحفظ الله القيصر » ، كانت بمثابة باستيل روسيا ، قلعة الصمت . فقد كانت زرنانها أشبه بالقبور ، مظلمة عفنة ، رطبة بفعل رشوح مياه النيفا ، ولم يكن لنزلاتها من السجناء حق الكلام . و« بطرس وبولس » التي كلف بناؤها حياة الآلاف من الأفتان والجنود ، قد بدل قائدها اربع مرات منذ ثورة آذار . وآخر من عينته هيئة الأركان العامة المقدم فاسيليف الذي يكنّ للبلاشفة حقداً مورثاً . وكان سفيردولوف قد كلف مفوضاً سياسياً بمراقبة الأسلحة : تير آروتشيان . ولكن هذا الأخير لم يفلح في إقناع الجنود بالاعتراف باللجنة العسكرية العليا سلطة عليا . وقد استدعاه

المقدم فاسيليف في ٥ تشرين الثاني وقال له :

– انني أطرّدك من القلعة .

وقررت اللجنة العسكرية الثورية التصرف بحزم فاستبدلت آروتشينان بضابط بلشفي ، جورج بلاغونرافوف ، يمتاز على سلفه بمهية الشخصية ، ودعا من فوره الى اجتماع عام بعد ظهر ٥ تشرين الثاني . وقد قرر تروتسكي حضور هذا الاجتماع شخصياً . وكان تروتسكي يعرف «بطرس وبولس» معرفة جيدة ، فمن خلف قضبانها وضع مع بارفوس قبل اثني عشر عاماً مخطط نظرية الثورة الدائمة . وخطب في ممثلي الجنود :

– اننا نعي أن الحكومة الراهنة هي حكومة عاجزة لا تنتظر غير مكسنة التاريخ . واذا ما حاولت أن تهاجمنا في الزر اليسير الذي تبقى لها من الحياة فإن هجومنا المضاد لن يتأخر وسنزد الصاع صاعين وسنواجه الحديد بالفولاذ .

وكانت الغلبة في «بطرس وبولس» لتروتسكي كما هي الحال في كل مرة تصل فيها كلماته الى الآذان والقلوب . وراكبو الدراجات ؟ انه لا يجهم ، فهم سليلو البورجوازية المتوسطة وهم الذين هاجموا في تموز قصر كشينسكايا ، مقر قيادة الحزب البلشفي . ورفاقهم هم الذين يزحفون على العاصمة الآن بأمر من كيرنسكي . ومع ذلك لا يجوز إهمالهم . فهم إذا لم ينضموا الى معسكر الثورة اليوم ، فإنهم فاعلون غداً .

وعاد تروتسكي أدرجه الى سمولني . كان الجو في المدينة ثقيلاً . فقد ضاعف كيرنسكي عدد الدوريات . والسيارات المصفحة تجتاز الشوارع ببطء ، يحيط بها الجنود الشاهرون بنادقهم باتجاه المارة .

وأصدر بولكونيكوف أوامر جديدة : « بالنظر الى الأعمال اللامشروعة التي قام بها ممثلو سوفيت بتروغراد الذين قدموا الى الوحدات والمكاتب بصفة مفوضين ، فإنني أرسم ما يلي :

(١) - يُبعد جميع مفوضي السوفييت بانتظار تثبيتهم من قبل مفوض المنطقة الحكومي .

(٢) - يُجرى تحقيق بصدد الأعمال اللامشروعة حتى يقدم المسؤولون عنها الى المحاكم .

(٣) تبلغ إلي دونما تأخير كل مخالفة مع ذكر كنية المفوضين .

وفي الوقت نفسه خاطب انتونوف - اوفسينكو جنود الحامية :

- لقد بدأت اللجنة العسكرية الثورية بممارسة عملها رسمياً . وقد طبقت التدابير التالية : تُخضع كل الأوامر المطلوب طبعها لمراقبتها ، ويطلع المفوضون في كل الوحدات على أوامر هيئة الأركان ، وقد عُين في «بترس وبولس» مفوض هو في سبيله الى تولى مسؤولية ترسانة الأسلحة ، ولن توزع أسلحة المستودعات والمصانع إلا بتفويض من اللجنة العسكرية الثورية .

ولإزاء هذه التطورات وهذه الأوامر التي حركت عجلة الثورة فعلياً ، دبّ القلق في صفوف المناشفة والاشتراكيين - الثوريين . فقام أحدهم باستجواب انتونوف في سمولني ، ولكن تروتسكي الذي كان قد عاد لتوه من «بترس وبولس» تولى هو الإجابة :

- بلى ، هناك تمرد ، وسوف يستولي البلاشفة ، باعتبار ان الغالبية لهم في مؤتمر السوفييتات ، على السلطة . وليس لتدابير اللجنة العسكرية الثورية غير هذا الهدف الصريح المحدد .

(٥٥)

هجر مندوبو التسيك الدائمون معهد سمولني . وأعلنت الفئات المصالحة تضامنها مع الحكومة بانقائها الى مقر هيئة الأركان العامة ، تجاه قصر الشتاء . واصبح سوفييت بتروغراد سيد سمولني بلا منازع .

وفكر الكسندر كيرنسكي بأن الأوان قد آن للعمل . فدعا مجلس الوزراء

الى اجتماع طارئ في ليلة ٥ تشرين الثاني لبحث مشروعه في احتلال معهد الطالبات الارستقراطيات واعتقال القادة البلاشفة؛ ولكن خطورة هذا التدبير، والخوف من انتفاضة شعبية جعلتنا اعضاء الحكومة يرفضون المشروع .

واقترح ماليانتوفيتش ، حامل الأختام ، اعتقال البلاشفة الذين أطلق سراحهم بكفالة في شهر ايلول . وكان هذا التدبير ، الذي تمت الموافقة عليه ، يستهدف بوجه رئيسي تروتسكي ، روح سوفيت العاصمة . وكان ماليانتوفيتش ، الوزير المنشفي والمحامي الذائع الصيت ، يعرف قيمة تروتسكي ، إذ انه هو الذي تولى الدفاع عنه اثناء محاكمة ١٩٠٥ المشهورة .

وكان سيتم في الوقت نفسه اعتقال الكسندرا كولونتاوي ولوناتشارسكي وكريلنكو وريكوف وانتونوف وكامينيف . وقد أصدر مجلس الوزراء أوامر هاتفة بذلك . ولكن جنود حراسة كتبية بافلوفسكي ، المجاورين لمقر هيئة أركان العامة ، التقطوا المخابرات الهاتفية وأبلغوها اللجنة العسكرية الثورية . وفي الساعة الثالثة صباحاً حوّل البلاشفة سمولني الى معسكر حصين منيع ، وأشبعوه بالخرس الأحمر والمدافع . وتولى التخطيط للعملية « الرفيق اندريه » المسؤول عن اللجنة العسكرية الثورية وعن « مركز الحزب » معاً . والواقع ان مهمة اللجنة العسكرية كانت تنفيذية ، والقرارات العامة انما تصدر عن « مركز الحزب » . وفوق الجميع ، كانت اللجنة المركزية التي تخطط لمجموع العملية . وقد تولت بنفسها توزيع المسؤوليات الفردية ، فكلفت سفيردلوف بمراقبة قصر الشتاء والاتصالات كافة وبنشاء قيادة أركان احتياطية في « بطرس وبولس » في حال غزو قوات كيرينسكي لمعهد سمولني ، وسمت لاشيفيتش وبلاغونرافوف عضوين مؤسسين في تلك القيادة الاحتياطية . كما عهدت الى دزرجنسكي بقيادة عملية الاستيلاء على مراكز البريد والبرق ، وبونوف بالاستيلاء عسكرياً على السكك الحديدية ، وميليوتين بالاشراف على مسائل التموين ، ونوغين باطلاع موسكو على تطورات الأحداث في بتروغراد لتوقيت العمليات في

كلنا عاصمتي البلاد ، وكامينيف بمحاولة اكتساب تأييد الاشتراكيين-الثوريين اليساريين ، وستالين بمتابعة إصدار «رابوبتشي بوت» التي حلت محل البرافدا ، ومولوتوف وكالينين وكروبسكايا بتركيز جهود حي فيبورغ الرائد، وفولودارسكي ولوناتشارسكي وشليا بنيكوف ونفسكي وكريلنكو وكولونتاى وتشودنو فسكي بتعبئة وحدات الحامية التي أمضوا عدة أشهر في تثقيفها وتلقينها المبادئ البلشفية . أما زينوفيف فلم يعاود ظهوره ، في حين تلقى اعضاء اللجنة المركزية أمراً بعدم مغادرة سمولين بدون إذن خاص .

إن كل شيء هو الآن في محله والمسألة لم تعد مسألة ايام بل مسألة ساعات . وكتمهيد للعمل امتلأت المدينة بإعلانات تبريرية .

الى سكان بتروغراد

ايها المواطنون

لقد رفعت الثورة المضادة رأسها المجرم من جديد . فأنصار كورنيلوف يعبثون قواهم لسحق مؤتمر سوفيات عموم روسيا . إن حامية بتروغراد لن تسمح لا بالعنف ولا بالفوضى . والسكان مدعوون الى اعتقال «أوباش» وعملاء المئة السود والى اقتيادهم الى مفوض سوفيت أقرب ثكنة . إن مثيري الشغب ومجرمو السلب والنهب سيعدمون فوراً وبلا شفقة .

اللجنة العسكرية الثورية

لسوفيت بتروغراد

وقدم عمدة بتروغراد ، الاشتراكي-الثوري المسن شرايدر ، الى سمولني يطلب تفسيرات ويعلن ان الدوما البلدية تعارض كل حركة هدامة . وسأل :

— منذا الذي سيتولى الحفاظ على النظام ؟

فأجابه تروتسكي :

— اللجنة العسكرية الثورية .

– إلامَ ستصير الدوما؟

– في حال نشوب نزاع ، سنحكّم بيننا القانون الديمقراطي : حل وإعادة انتخاب .

(٥٦)

٦ تشرين الثاني – الليل ما يزال قتيماً . مطر ناعم يهدد بتروغراد النائمة . في سمولني ، الخط الهاتفي مقطوع . فقد أصدرت الحكومة أمرها بقطع كل الخطوط التي تصل سمولني بالعالم الخارجي .

وقدم عامل وعاملة لاهثان الى مقر قيادة التمرد وقالا :

– لقد احتل مقرا « رابوتشي بوت » و « الجندي » .

وأبلغ تروتسكي وبودويسكي الخبر حالاً ، فطلبوا المزيد من التفاصيل .

– جاء مفوض الدائرة الثالثة في الساعة ٥,٣٠ صباحاً . وكان يحمل أمراً موقعاً من قبل بولكونيكوف بإغلاق المطابع . فرفضنا تنفيذه لأنه غير مصدق من قبل اللجنة العسكرية الثورية . وبإشارة من المفوض ، احتل الجنكر المقر وحطّموا الصفائح الحديدية والكليشيات وكسروا بعض الآلات وأفرغوا الخزائن كلها وألقوا بها أرضاً . وقد طردوا كل العمال الذين كانوا على وشك طبع العدد . وقد امكنا نحن أن نهرب .

فقال بودفويسكي :

– لا غنى عن صدور الصحف .

– في وسعنا إصدارها متأخرة بضع ساعات إذا وفرّ لنا الجيش الحماية .

وأرسل تروتسكي أوامر فورية الى الكتبية الليتوانية والى سرية حاملي البلطات السادسة المجاورة للمطابع . وتحركت القوات وأحدقت بمقر المطابع وفكّت أختام الشمع ووزعت الحراس في كل مكان . واستؤنف العمل

وأعيد تنضيد الحروف . ثم قدم ستالين وكتب مقالاً للطبعة الجديدة قال فيه : لقد حان الأوان الذي يصبح فيه كل تأخير تهديداً مباشراً بفناء مشروع الثورة .

واجتمعت اللجنة العسكرية الثورية بكامل عددها لدراسة الموقف . ورات أن أول الواجبات التنديد على أوسع نطاق ممكن بعدوان الحكومة . وكلفت إذاعة « اورورا » بإبلاغ كل دوائر العاصمة بالبلاغ التالي :

— لقد شنّ اعداء الشعب هجوماً اثناء الليل . واللجنة العسكرية الثورية تقود المقاومة ضد هجوم المتآمرين .

ثم جرى توجيه نص آخر الى جميع الثكنات : تُستنفر الكنايب وتكون على أهبة الاستعداد لتلقي التعليمات .

واستيقظت بتروغراد على جو مشحون عاصف . فقد تضاعف عدد الدوريات وألصقت على الجدران بيانات اشتراكية — ثورية مضادة لبيان اللجنة العسكرية الثورية : « قد تدعو بعض الرؤوس الحارة في الشارع قسماً من العمال والجنود وتدفع بهم الى الفتنة . إن كل محاولة من هذا القبيل ستتحول بسهولة الى حرب أهلية ، وسيكون من نتائجها تدمير كل المنظمات البروليتارية التي شيدت بثمن باهظ من الآلام » .

ولم يقف سمولني مكتوف الأيدي امام مصادرة صحفه . فقد هاجم الحرس الأحمر مطابع الجرائد البورجوازية واليمينية وأغلقها بالقوة ، وفي مقدمتها مطبعة جريدة المئة السود « الحرية الروسية » .

وفي عرض البحر تقدمت نسافتان باتجاه بتروغراد قادمتان من هلسنغفور . ولم يكن أحد ينتظرهما . فقد قرر بحارتهما من تلقاء أنفسهم الإقلاع لتحية مؤتمر السوفييتات .

– إن أعداء الثورة ، من اليمين واليسار ، يوردون البلاد موارد التهلكة بدعوتهم الى الدكتاتورية والعصيان . إن الحكومة تؤثر الموت على خيانة شرف الدولة .

وقوبلت كلمات كيرنسكي هذه بعاصفة من الهتاف دوت بها القاعة البيضاء في قصر ماريا حيث ألقى رئيس الوزراء خطابه في الساعة الحادية عشرة من يوم ٦ تشرين الثاني . وكان جميع نواب البرلمان التمهيدي واقفين باستثناء مناقشة مارتوف وسوخانوف الأيمن . ولقد جاء كيرنسكي الى البرلمان لنيل موافقته على اعتقال اعضاء اللجنة العسكرية الثورية ، رغبة منه في عدم ممارسة « سلطته الحديدية » بدون معرفة البرلمان التمهيدي . وبعينين محمرتين من السهاد ، وبوجه شاحب ينضح عرقاً ، طلب اقتراع ثقة على سياسة حازمة الى أبعد الحدود :

– ثمة من يلوم الحكومة المؤقتة ...

– على بلاهتها !

صاح بذلك مارتوف . وتابع كيرنسكي :

– ألا فليعرف سكان بتروغراد أن سلطة حازمة ستدافع عنهم ضد الغوغاء .

وقوطع الخطاب مرة ثانية . فقد مرّر كونوفالوف ، وزير التجارة والصناعة الكاديت ، بطاقة مقتضبة الى رئيس الحكومة ، فقرأها هذا الأخير بلهفة ثم قال :

– لقد استنفر البلاشفة وحدات الحامية . ولقد قرأت لتوي نداء اللجنة العسكرية الثورية . إن هذا يشكل ، في لغة القانون ، فعل تمرد . ان لينين مجرم دولة . إنني أسأل باسم البلاد : هل يمكن للحكومة ان تقوم بواجبها

مع يقينها بأنها مدعومة من قبل هذه الهيئة السامية ؟

وهرع « السريع » الى مقر قيادة الأركان تتبعه جمهرة من الضباط ، تاركاً المناقشة مفتوحة . ونهض النواب وانسحبوا جماعات ليشاوروا . وأصدر كيرنسكي أمره الى الجنكر باحتلال المحطات وبمصادرة كل وسائل النقل ذات المحركات .

*

ساد الهرج في الشوارع . واحتلت الدوريات الجسور . وتمركزت سرية من كتيبة الموت النسائية امام قصر الشتاء ، مثيرة سخرية الغلمان . وتحصن راكبوا الدراجات داخل القصر وفي الباحات .

وفي « بطرس وبولس » وجّه المتمردون فوهات المدافع الرشاشة الثمانية الى قصر الشتاء وجسر ترويتسكي . وحاول المقدم فاسيليف معارضة التعبئة البلشفية ، ولكن بلاغونرافوف قطع عليه الطريق واعتقله ، وأبلغ هيئة الأركان أن القلعة لن تنفذ بعد الآن غير أوامر اللجنة العسكرية الثورية .

وخطب تشودنوفسكي في كتيبة بريوبراجنسكي طالباً من الجنود السير مع العمال جنباً الى جنب . فأعلن الجميع موافقتهم وشهروا بنادقهم تأييداً . وفي سمولني تدفق المئات من مندوبي مؤتمر سوفيات عموم روسيا . وقد وصفتهم فتاة تعمل في هيئة تحرير «إدفنستو» ، جريدة بليخانوف ، بأنهم أجلاف وجاهلون !

ولما شعر المناشفة والاشتراكيون - الثوريون بأن موجة المتخمين البلاشفة قد أغرقتهم ، بعثوا ببرقيات عبر روسيا كلها مقترحين عقد مؤتمر لسوفيات الفلاحين في مطلع كانون الاول . ولما كانت الغالبية في هذه السوفيات للاشراكيين المعتدلين ، فقد كان من المأمول أن توازن كفة سوفيات العمال والجنود الراجحة . ولكن في حين كان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون

يفكرون بالغد ، كان البلاشفة قد أمسكوا بناحية الحاضر .

وفي المدينة نشبت معارك على الجسور بين الحرس الأحمر وجنود كيرنسكي . ولكن هذه المعارك لم تتعد كونها مناوشات أُطلق فيها الرصاص من قبيل التهديد ومن دون ان يقع ضحايا . وقد تمكن المتمردون من احتلال بعض النقاط التي توجد فيها روافع الجسور الكهربائية . ويمكن القول بشكل عام ان الحرس الأحمر والجنود الحكوميين قد تقاسموا الجسور : هؤلاء من جانب وأولئك من الجانب الآخر . وقد أفلح الحرس الأحمر في إحدى المرات في اعتقال كارتاشيف ، وكيل المجمع المقدس ، ولكنه تلقى الأمر بإطلاق سراحه ، وهذا بالرغم من ان اللجنة العسكرية الثورية قد قررت الاستيلاء على السلطة في مدى بضع ساعات حتى تتمكن من تسليمها الى مؤتمر السوفييتات صبيحة السابع من تشرين الثاني .

وجاء الى سمولي بلاغونرافوف ، المشرف على قلعة «بطرس وبولس» ليطلب مساعدة تروتسكي :

– لقد أُنعت راكبي الدراجات النارية بالاجتماع في الساعة ١٦ . وقد رفضوا الاجتماع في القلعة ولكنهم قبلوا بالمجيء الى «السيرك الحديث» . لا مناص من أن تأتي ، لأنك إذا أفلحت في إقناعهم فستكون القلعة لنا بتمامها . ولم يكن السيرك الحديث إلا الحلبة التي عقد فيها فولودارفسكي واوريتسكي وكريلنكو العشرات والعشرات من الاجتماعات خلال الشهور الأخيرة . وقد اجتمعت فيه سرية راكبي الدراجات النارية بكامل عددها في الساعة ١٦ للاستماع الى اوريتسكي وتروتسكي .

وأهبت حماسة الخطيبين المترددين . فصوتوا بالإجماع ، باستثناء ثلاثين صوتاً ، لصالح اللجنة العسكرية الثورية . بل إنهم قرروا التخلي فوراً عن الحراسة التي توفرها كتبتهم منذ شهر تموز لقصر الشتاء . وعلى الفور ايضاً استدعت الحكومة الجنكر ، فاحتل أكثر من ألف ضابط تلميذ ضواحي قصر

الشتاء ، بينما نصبت المدافع الخفيفة لحماية معقل الحكومة .

ولكن اذا كان تروتسكي قد اكتسب ود راكبي دراجات « بطرس وبولس » ، إلا أن راكبي دراجات الفوج الخامس يقتربون من العاصمة . وقد تلقى اورجونيكندزه الذي قدم لتوه من القفقاس أمراً من سفيردولوف بمحاولة إيقاف زحف الفوج الخامس بأي ثمن . وكانت الساعة ١٧ عندما وصل اورجونيكندزه الى محطة بيريدولسكايا التي تجمع فيها راكبو الدراجات على بعد ٧٠ كيلومتراً من هدفهم . وفيما كان المناضلون البلاشفة يفكرون السكة الحديدية ، راح اورجونيكندزه يؤتب الجنود :

— إن السلطة ستسلم غداً للسوفييتات . وقد انتقلت الحامية كلها الى صف الثورة . إن تدخلكم لن يكون له من فائدة غير وقوع عدد من الضحايا . وقرر الرجال الذين تنتظرهم الحكومة ألا يتقدموا اكثر من ذلك .

*

استدعى فيلكس دزرجنسكي مناضلين بلشفيين ، لشنسكي وبستوفسكي ، وسلمهما ورقة مدعوكة :

— هوذا تفويض من اللجنة العسكرية الثورية . ستذهبان حالاً الى المركز البرقي وتحتلانه وتعيدان الاتصالات الهاتفية الى سمولني .
فسأل المناضلون :

— من يدافع عن المركز ؟

— قوات كتيبة كيكشولم التي تؤيدنا .

وانطلق الرجلان بلا سلاح ، ودخلا المبني ، وبعد مفاوضات طويلة توصلوا الى اتفاق تمّ بموجبه إعادة الاتصالات الهاتفية وانتداب مفوض بلشفي الى مركز البرق .

*

بعث لينين برسول الى اللجنة المركزية لاستشارتها وللحصول على اكبر قدر من المعلومات . وكان يطلب بشكل خاص موافقتها على مغادرة نجبشه والمجيء لاستلام مصائر الثورة بيده .

في شوارع بتروغراد كان السباق على أشده على مصادرة السيارات : فبعضها يقاد الى قصر الشتاء والبعض الآخر الى سمولني . وقد عثر الحرس الأحمر في إحداها على بروكوفيتش ، وزير التموين ، ولكنه أطلق سراحه بعد أن اقتاده الى سمولني لأنه لم يكن هناك أمر باعتقاله .

وأمام الترسانات اصطفّ العمال في صفوف طويلة للحصول على أسلحة.

وفي قصر ماريا استمرت المناقشات العقيمة طوال بعد الظهر . وقد تسابق خطباء شتى الأحزاب على إلقاء مسؤولية الجمود السياسي على كواهل غيرهم . فالجمعية التأسيسية لم ترَ النور حتى الآن ، ولم تُوزع اي أراضٍ على الفلاحين ، ولم يُبذل أي مجهود لا للحرب ولا للسلم . واعتلى المنبر غوتز ، الناطق بلسان الاشتراكيين – الثوريين :

– إن البلاشفة ينتهجون سياسة ديماغوجية ومجرمة باستغلالهم الاستيلاء الشعبي . ولكن ينبغي ان نعترف بأن العديد من المطالب لم يُلب . وليس في وسع أي عامل وأي فلاح وأي جندي أن يشعر بأن الحكومة تبذل جهدها لتلبية تلك المطالب .

ولم يكن الطبيب دان أكثر مجاملة لكيرنسكي :

– إننا ، نحن المناشفة ، على استعداد للدفاع حتى القطرة الأخيرة من دمائنا عن الحكومة المؤقتة ، ولكن لتتح هذه الحكومة للديموقراطية إمكانية التجمع حولها .

وجاء دور مارتوف ليتكلم . وصاح أحدهم في القاعة :

– وزير قادم في حكومة البلاشفة !

فردّ الديموقراطي – الاشتراكي العجوز :

– انني ضعيف النظر ، ولست أعرف ان كان من يقول هذا الكلام وزيراً سابقاً في وزارة كورنيوف .

وتابع :

– لقد تجرأ رئيس الوزراء على الكلام عن الغوغاء ، من هذا المنبر في الصباح ، مع أن المقصود بذلك جزء هام من البروليتاريا . إن هذه الكلمات تحض على الحرب الأهلية . ينبغي أن نرغم الحكام على انتهاج سياسة ديموقراطية . يجب ألا نكون أداة في يد الثورة المضادة .

وفي خاتمة المطاف ، وفي الوقت الذي كان فيه كيرنسكي ينتظر من « الهيئة السامية » تصويماً إجماعياً يخوله السلطات المطلقة ، اقترح نواب البرلمان التمهيدي على نص قرار وضعه مارتوف ، مؤلف من ثلاث نقاط :

– إن تظاهرة البلاشفة المسلّحة واجبة الإذانة .

– ينبغي البحث عن اسباب نجاح التحريض البلشفي . ومن الضروري قبل كل شيء ، إصدار مرسوم بتسليم الأراضي الى اللجان الزراعية ، وإقناع الحلفاء بإعلان شروطهم للصلح وبالدهول في مفاوضات .

– من الضرورة الماسّة إنشاء لجنة سلامة عامة في بروغراد ، مؤلفة من ممثلي البلدية وأجهزة الديموقراطية الثورية لعرقلة تقدم التحريض .

وبذلك يكون البرلمان قد رد بتحذير على الثقة التي كان يطلبها كيرنسكي . والحق ان رئيس الوزراء لم يستطع قط ان يكون اكثر من خطيب ناجح . ولقد كتبت عنه احدى الصحف الباريسية : « إن كيرنسكي يتكلم ثورته بدلاً من ان يفعلها » .

غادر رسول لينين سمولني حاملاً رأي اللجنة المركزية . إن حضور لينين في المعهد سابق لأوانه . وجلس فلاديمير ايليتش الى مكتبه الصغير وحسّر

رسالته السرية الأخيرة :

« أكتب هذه السطور في مساء ٦ تشرين الثاني . ان الموقف حرج للغاية . ومن الواضح كالنهار أن كل شيء مرهون بأوهى من شعرة ، وأنه تنطرح على جدول الأعمال مسائل لا يمكن البت فيها لا عن طريق الاجتماعات ولا عن طريق المؤتمرات ، وانما فقط عن طريق الشعب والجماهير ونضال الجماهير المسلحة . إن لمن الضروري ، بأي ثمن ، اعتقال أعضاء الحكومة هذه الليلة . ان التاريخ لن يغفر اي تأخير للثوريين الذين في مقدورهم الانتصار اليوم (والذين سينتصرون بالتأكيد) ، والذين يجازفون بأن يخسروا الكثير غداً ، بل يجازفون بخسارة كل شيء » .

(٥٨)

كانت مرغريت فوفانوفا ، الأرملة البلشفية التي يحتجىء لينين في مسكنها بحي فيبورغ ، هي رسولته الى اللجنة المركزية ، ولينين مهتاج ، مغتاض لانتقطاع الأخبار عنه :

— مرغريت ، اتصلي باللجنة المركزية واسألهم جدياً لماذا لا يسمحون لي بالخروج من مخبئي ؟ لماذا لا يريدون ذلك ؟ ممّ يخافون ؟ لمّ لا يمكنني الخروج ؟ هيا ، لا تتأخري . لن أنتظر أكثر من ٢٣ ساعة .

ومضت فوفانوفا للمرة الثالثة . ولبت فلاديمير ايليتش وحيداً كما كان دوماً في اللحظات الحاسمة . لم يعد يملك الصبر على الكتابة . انه يذرع حجرته ، ويخرج في كل لحظة من جيب صدره ساعته القديمة التي لم يتخل عنها قط ، ساعة مستديرة ، فضية ، قديمة الطراز .

في اللجنة العسكرية الثورية كان سفيردولوف وانتونوف وبوبنوف واوريتسكي وبودفويسكي وتشودنوفسكي منحنيين على خريطة مفصلة

لبروغراد ، رسمت عليها دوائر حمرة تشير الى النقاط الاستراتيجية التي يشرف عليها البلاشفة . وبالنظر الى أن الاستيلاء على قصر الشتاء يجب ان يكون المرحلة الأخيرة في التمرد ، لذا فإن حصاره من كل الجوانب هو المهمة الأولى الواجبة . وبناء على هذا ، فقد طلب سفير دولوف أن يصعد الطراد « اورورا » نهر النيفا حتى يحتل جسر نيقولا المطل على القصر من الغرب ويوجه مدافعه الى مقر القياصرة السابق . وسأل دزرجنسكي :

— إلى من سنعهد بقيادته ؟

— ان مفضنا على منته هو الميكانيكي بيليشيف .

فاعترض أحدهم :

— إن بيليشيف لم يتجاوز الثالثة والعشرين .

فرد دزرجنسكي :

— لم يتجاوز الثالثة والعشرين ، ولكن قلبه عامر بالايان .

وقرّر سفير دولوف .

— بيليشيف سيتولى القيادة .

ووقع الأمر بتسميته بودفويسكي ، رئيس اللجنة العسكرية الثورية ، وأرسلت التعليمات بالراديو الى الطراد الراسي في الورشة البحرية الفرنسية— الروسية .

وبالفعل ، ما كاد بيليشيف يتسلم الأمر حتى قدّمه للقبطان إريكسون . وقال :

— هي ذي الأوامر .

وقرأ إريكسون الإشارة البرقية وقال بجفاء :

— هذا مستحيل . إن الرمل لم يجرف من ممر النهر منذ عام ١٩١٤ .

إن السفينة ستجنح حتماً .

فأجاب بيليشيف :

– حجتك في محلها ، ولكن ليس لنا الخيار .

وما كاد يتم جملته حتى اهتزّ الطراد بقوة . وسأل إريكسون :

– هل أوقدت المراجل ؟

فأجاب المفوض البلشفي :

– اجل .

– بأمر من ؟

– بأمر اللجنة العسكرية الثورية . انني أطلب اليك للمرة الأخيرة ان

تنفذ تعليماتها .

ورفض القبطان ورفض معه سائر الضباط . فاستدعى بيليشيف البحارة

وقال لهم :

– رافقوا الضباط الى قمراتهم .

وأقلع الطراد بحذر بالغ . وعند كل نائمة كان الضباط يتوقعون ويأملون

أن يغوص في الرمال المترسبة في سرير النهر . وكان يتقدم الطراد زورق

يقوم بسبر الأغوار ويتولى قيادته البحار زاخاروف . واستدعى القبطان

إريكسون البحارين اللذين كانا يحرسان قمرته وقال :

– إن مكاني ليس هنا .

وأفسح له البحاران الطريق واقتاده الى الجسر . وقال إريكسون لبيليشيف :

– سأتولى توجيه الطراد .

وانساب « اورورا » على النيفا ، حاملاً الى قلب الثورة الرجال أنفسهم

الذين دافعوا في أيلول عن الحكومة ضد كورنيولوف .

الساعة ٢٣ . دستت فوخانوفنا المفتاح في قفل شقتها . الظلام تام شامل .
أعواد الثقاب اختفت . فتشت عن العلبة لتشعل مصباح النفط في المطبخ ،
ثم جالت في الغرف . كان زجاج مصباح قاعة الطعام ما يزال حاراً . والمشجب
خاوٍ . وعلى مائدة الطعام لحظت فوفانوفنا ورقة مكتوبة :

— لقد ذهبت الى حيث لا تريدون أن اذهب . الى اللقاء ، ايليتش .

ومع أنها فرحت لأن ضيفها السري قد وقع لأول مرة باسمه الحقيقي ،
إلا أن فرحها كان مشوباً بالقلق .

لقد ذهب لينين الى سمولني . فقد رجع ابنو راهيا في حوالي الساعة
٢٢,٣٠ حاملاً تقريراً من اللجنة المركزية التهمه لينين التهاماً ، ثم خلص الى
القول :

— لنذهب الى سمولني ، ما عاد الانتظار ممكناً .

ووضع شعره المستعار وعقد مندبلاً حول وجهه وكأنه يشكو من ألم
فطيع في الأسنان ولبس قبعته العمالية القديمة ومعطفه البالي وهبط طوابق محبته
الأخير الأربعة وراء راهيا المتسلح بمسدسين . وتقدما قليلاً في شارع مقفر .
ثم مرّت حافلة كهربائية لا تحمل غير ركاب ثلاثة ، فقفزا إليها وسألا قاطعة
التذاكر :

— إلى اين تمضون ؟

— الى المستودع ، بالطبع . ألا تعرف ما يجري في المدينة ؟

فقال لينين :

— كلا .

فقالت المستخدمة :

— من أين انت قادم ؟ هوذا على الأقل عامل يجهل أن الثورة قد اندلعت .

*

لم تجرؤ الحكومة المؤقتة على مهاجمة سمولني الذي احتشد فيه آلاف الرجال . ولكن كيرنسكي أصدر أوامره بالمقابل بالفتيش في نقاط شتى من المدينة . وفي الوقت الذي كان فيه لينين يستقل الحافلة الكهربائية ، كان عدد من الجنود الحكوميين يداهمون مقر لجنة فيبورغ بحثاً عنه . وكانت كروبسكايا وخمسون عاملة أخرى يتلقين في إحدى قاعاته دروساً أولية في الإسعاف . وفي القاعات الأخرى كان تسليح العمال يجري على قدم وساق . ولما علم هؤلاء بدخول الدورية الحكومية أحدقوا بها وجردوها من سلاحها واقتادوها الى « بطرس وبولس » .

*

كان لينين وراهيا يتقدمان باتجاه سمولني عندما اعترض طريقهما في بريم الليل فارسان من الجنكر . ولم يكن ثمة مجال للهرب . واقترح اينو :
- تابع طريقك . سأحاول إلهاءهما .

وتظاهر راهيا بأنه أكثر من الشرب . وشم الضابطين اللذين هدداه بسوطيهما القوزاقيين . وأمره بأن يتبعهما .

ومضى لينين وحيداً . إن نسر الجبال على وشك أن ينهي رحلته ، مستقباً الفجر . الرحلة التاريخية التي كان في وسع أي جندي بسيط ان يوقفها . ولكن ايليتش والليل جسم واحد . رجل قصير القامة في ليل العالم . ومن بعيد كانت أنوار سمولني تتألق ، ولكنها ما تزال خافتة . وراهيا لم يلحق بالقائد المنتكر في إهاب عامل . وأوليانوف على بعد فرسخ واحد من هدفه . فهل سيصعد الشعب حتى يبلغ قمة السلطة ؟ هل ستدرك الموجة النجوم ؟ بعد بضع دقائق سيبدأ يوم جديد . الأربعاء ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ . أربعاء النصر او الموت . ومع ذلك كان لينين يتقدم بثقة وطمأنينة ، وقد دسّ يديه في جيوبه . وعلى يمينه لا أثر للفوضى . فالقوزاق قابعون بين جدرانهم . والشيوعية تستطيع التقدم باطمئنان نحو عرشها الأول . وعمّا قليل تفرّخ . ولكن الرجل الذي يقرب

من هدفه بتؤدة ما يزال يذكر النصائح التي تفوه بها هو نفسه : لا لعب مع الثورة ، وعندما تبدوها فعليك أن تكون متأكداً تماماً من أنك ستسير بها حتى نهاية الشوط . وما من قوة تستطيع إيقاف الأمل عندما يكون مصمماً على الانتصار . ولينين يحمل الأمل ومعه كل تلك الأفكار التي يدرك وحده ، هذا المساء ، مداها . وغداً ، مع مطلع النهار ، سينقسم ظهر الأرض قسمين . إن ثلاثين سنة قد انصرمت على ذلك الوعد الذي أخذه على عاتقه امام جثة أخيه القتيل ، وهي ليست الآن غير دقائق معدودات . ثلاثون سنة من التصميم والعزم والعدا . والرفاق والتلاميذ ، هناك حيث تتألق أنوار سمولني ، لا ينتظرونه . والمفاجأة بند من بنود عدم اللعب مع الثورة . وإلى اليمين ينتصب قصر توريدا ، عرين البورجوازية ، مطفاً الأنوار ، صامتاً كالقبر . ولقد استنفد التاريخ أغراض الدومات الأربع التي توالى عليه . ألا كم أريق من دم حتى ترى النور تلك الدومات ! وكم نشب من صراع ليشق هذا النائب او ذلك طريقه الى المنصة ! أما سمولني ، النجم القطبي للعالم الأحمر ، فليس إلا على بعد خمسمئة متر . والحركة والنشاط من حوله في أوجهما . والسيارات الغاصة بالرجال التي كان غوركي يخشاها تروح وتغدو . والعامل لينين يغد السير . وها هو شبح راهبا يلوح ، لاهث الانفاس . فلقد سُم الجنكر من السكر الثمل . وقطع ابنو وايليتش الأمتار الأخيرة حرقاً ، غفلين ، شبحين رماديين وسط غابة من العمال ، متشحين بالليل ، قناع الحياة السرية الأخير . غداً ، سوف يشرق الفجر على عالم جديد يعطي الجميع الكثير الذي يملكه القليل . وفي باحة سمولني كانت النيران قد أوقدت لانتقاء الزمهرير . وعلى ضوء ألسنتها بان شبح القادمين . إن لينين ، التجسيد الأمثل للزعيم البلشفي الذي لا يميزه شيء عن سائر الرجال خلا عبقريته ، سيخرج أخيراً من الظلام .

— ايها الرفيقان ، إجازة مرور كما !

وانصاع راهبا للأمر وأبرز بطاقتين بيضاوين .

— لا تستطيعان الدخول . فهاتان الإجازتان قد انتهى أجلهما . لقد اصبح

اللون أحمر ابتداء من اليوم ...

كانت الساعة قد دقت منتصف الليل منذ لحظات . وكانت اللجنة المركزية قد نسيت أن تجدد بطاقتي لينين وراهايا . ولكن الملاك الحارس ؛ اينو ، تحول فجأة إلى هرقل اسطوري . فدفع الحرس بمنكبيه وشق الطريق . إن في وسع لينين الآن ان يمضي الى الأعلى ، لينضم الى رفاق النضال ، الى اولئك الذين ينتظرهم امتحان السلطة والذين هم بحق من عرق الأطهار .

(٥٩)

رجع دان في منتصف الليل الى قصر الشتاء يصحبه افكسانتييف ، رئيس البرلمان التمهيدي . وقد حاول هذا الأخير أن يبرر نفسه :

— إن القرار لم يحسن تحريره . إن هدفنا أن نطمئن الجماهير ، لا أن نسحب منك ثقتنا .

وتدخل دان :

— يجب على الحكومة ان تلتصق في كافة أرجاء المدينة بلاغات تعلن عن المباشرة بمفاوضات صلح مع الحلفاء . إن هيمنة الحزب البلشفي ترجع الى وعده بوضع حد للحرب . ان هيئة أركانكم الرجعية تبالغ في أخطار تمرد حقيقي . أوقفوا تروتسكي .

وأضاف افكسانتييف :

— لا يجوز لك في أي حال من الأحوال ان تستقيل .

وطلب وفد من القوزاق مقابلة كيرنسكي الذي قطع المحادثة . فالفرسان المشهورون على استعداد لدعم الحكومة المؤقتة إذا ما كان عدد القوات الموالية ، ولا سيما المشاة ، كبيراً بما فيه الكفاية حتى لا يسيل الدم هدرأ . وسرعان ما أذاع رئيس الوزارة أمراً الى الكتائب القوزاقية :

— باسم الحرية وباسم شرف ومجد الأرض الأم ، سيروا لمساعدة التسيك

والحكومة المؤقتة ومن اجل سلامة روسيا التي في خطر .

ولإزاء وفاء القوزاق وإلحاح البرلمان التمهيدي والوزراء انفسهم عدل كيرنسكي عن قراره بالتخلي عن تسيير شؤون الدولة .
وعاد دان وافكسانتييف الى سمولني حيث دعا التسيك نواب مؤتمر السوفييتات الثاني إلى جلسة طارئة .

*

ارتقى لينين خلف راهيا درج سمولني الرئيسي . ومع انه نزع ضماده الكاذب وقبعته العمالية وشعره المستعار ، إلا أنه وصل الى الطابق الثاني من غير ان يتعرفه أحد . فالتفت الى راهيا وقال له :
- اذهب وجثني بواحد من اللجنة المركزية .

كان في المعهد أحد عشر عضواً من أعضاء اللجنة المركزية . ورجع راهيا مع ستالين . وجلس الرجال الثلاثة حول طاولة في حجرة صغيرة ، لينين تجاه الباب وزميلاه عن يساره . وعرض ستالين سير الأحداث . ولكن الحديث سرعان ما انقطع على إثر دخول دان ولاير وغوتز غير المتوقع . ولم يعسر المناشفة الثلاثة ، الأعداء الألداء للانقلاب ، انتباهاً لشاغلي الحجرة الذين راحوا يرقبونهم بصمت . وقدم لاير لصديقيه عشاء بسيطاً : خبزاً وزبدة ومقانيق وجبناً . ولكنهم ما كادوا يهيمون بالأكل ، حتى تعرف دان لينين . وتملك الحرج المناشفة الثلاثة ، فلملموا طعامهم وانسحبوا بسرعة مصحوبين بضحكة من لينين .

واقناد ستالين لينين عبر أروقة سمولني . وكانت الزيارة الاولى للجنة العسكرية الثورية . وكان رؤوس الحركة البلشفية ملتفين حول سفيردولوف وقد احمرّت عيونهم سهاداً . واحاطوا جميعاً بـلينين بعطف عندما انحنى على خريطة لبروغراد . ودرس ايليتش الخريطة بتمعن وقال :

— لقد نسيتم مصرف الدولة . علينا ألا نقترف الخطأ الذي اقترفته عامية باريس . إن الاستيلاء على هذا الرمز الرأسمالي سيلهب حماسة الجماهير .

ولم يكن لينين ليشك البتة في حتمية الانتصار الاستراتيجي ، ولكن مصير الحركة السياسي كان يشغل باله . فاللجنة العسكرية الثورية ، البلشفية قلباً وقالباً ، ستسلم مقاليد الثورة المضطربة الى سوفيينت بتروغراد التي تستمد منه شرعية وجودها . ولكن هل سيبقى هذا السوفيينت تحت السيطرة البلشفية لحظة الانتصار ؟ ان لينين يتحرق شوقاً الى التأكد من ذلك . ولم يكن عليه إلا ان يجتاز رواق سمولني ليلاقي ذلك الذي وصل في عربة ، ذات صباح من شتاء ١٩٠٢ ، الى منزل آل اوليانوف اللندني ، ليقول : انني الريشة . إن برونشتاين . ذلك الطالب الذي لم يكن يملك فلساً واحداً ليدفع أجر العربة ، هو الآن سيد سوفيينت بتروغراد . وهو يلقي منذ اسابيع عشرة او خمسة عشر خطاباً في اليوم الواحد ، مكتسباً تأييد المئات والآلاف . واذا كان « النمر الجنوبي » قد تردد طويلاً في الانضمام الى الجناح البلشفي ، فإنه الآن منحاز ، وبصورة نهائية ، الى معسكر لينين . وقد أقام هذا الأخير في نفس الطابق الذي يقيم فيه تروتسكي ، ولكن في الطرف الأقصى من الرواق ، في اكثر أجنحة سمولني هدوء : في المكتب رقم ٦٧ الذي كان فيما مضى مكتب المراقبات . ومنذ أن أقام فيه وتروتسكي لا يكف عن زيارته ليعلمه بأخر التطورات او ليأخذ بنصيحته . وبالنظر الى ان المسافة التي تفصل بين المكتبين تتجاوز المتي متر وتبدو بالتالي طويلة لا تطاق ، فقد قال تروتسكي مازحاً :

— يجب ان تكون لنا هنا دراجات !

*

في قاعة احتفالات التلميذات الأرستقراطيات كان المناشقة والاشتراكيون الثوريون يخوضون معركتهم الأخيرة في التسيك ، امام مندوبي مؤتمر السوفيينات الثاني المنعقد في جلسة طارئة بناء على طلبهم . كانت الساعة الواحدة صباحاً .

وكان غوتز يتولى رئاسة الجلسة . وقال دان :

– ان الساعات التي نعيشها مأساوية . اننا نتوقع سفك دماء . والمجاعة تهدد البلاد . واذا ما أراد البلاشفة محاولة تنفيذ انقلابهم ، فعلى الثورة السلام . فأنصار كورنيلوف لا ينتظرون غير هذه الفرصة ليبدؤوا المجزرة . كل السلطة للسوفييتات ، إن هذا يعنى الموت !

وتعالت صيحات عدد من المندوبين :

– أكاذيب !

– الحراب لن نخيفنا . إن للتسيك مطلق السلطات . وسوف يدافع عن الثورة بكل جسده .

وقاطعهم احد المندوبين :

– إن هذا الجسد قد أمسى جثة من الآن !

وقرع غوتز الجرس :

– الصمت وإلا طردتكم .

– حاول اذن ! (ضحك ولفظ) .

وتابع دان :

– سأتكلم الآن عن سياستنا السلمية (ضحك) . لقد اقترح البرلمان التمهيدي اليوم على قرار ...

وقاطعه أحدهم :

– بعد فوات الأوان .

واعتلى تروتسكي المنصة وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق ووجه خطابه الى أعضاء التسيك :

– عندما كنا نتكلم عن توزيع الاراضي على الفلاحين ، كنتم تعارضون .

لقد أعطتكم ثورة آذار السلطة، فسلمتموها الى البورجوازيين . واليوم تقرحون ما نادينا به منذ ستة أشهر . لقد ارفضت الجماهير عنكم . والتمرد من حق الثورين جميعاً . ولسوف تحتل السوفييتات المكانة التي تخصها حقاً ، مكانة سادة الأرض الروسية .

وتذرع لاير بماركس وانجلز :

– ليس من حق البروليتاريا استلام السلطة قبل ان تكون مستعدة . وهي الآن غير مستعدة .

ولاقي مارتوف عناء كبيراً في تهذئة اللجنة :

– إن جناحنا لا يعارض تسليم السلطة للديموقراطية ، ولكنه ينكر الطرائق البلشفية .

ووثب فولو دارسكي ووثباً الى المنبر وقال :

– الواقع ان التسليك لم يعد له وجود . ونحن ، البلاشفة ، لن نشترك في التصويت على أي قرار يقترحه هو .

وأحبط هجوم التسليك . وخرج المندوبون الى الممرات التي اكتظت بهم وبغيرهم .

*

فيما كانت الخطابات تلقي ، كان التمرد ينتشر كبقعة الزيت . فقد احتل عمال مصنع بوتيلوف محطة البلطيق . واحتلت فرقة حاملي البلطات الاولى محطة نيقولا من غير أن تطلق رصاصة واحدة . وغزا الحرس الأحمر جسر بوتمكين . وركّز بونتس – بروثيفيتش خمسة رجل حول معهد سمولني . وأعلنت شركة الكهرباء استمرارها في العمل لحساب السوفييت ، وقطعها التيار عن المباني الحكومية . وفي كتيبة غروناديرسكي تلقى الملازم روديونوف . أمراً من بولكزنيكوف بنصب رشاشات على سطوح مقر هيئة الأركان . وكان روديونوف بلشفياً ، فاتصل باللجنة العسكرية الثورية التي أجابته :

– اقبل ، فستكون في أحسن وضع لمهاجمة قصر الشتاء !

وأبرق بولكونيكوف الى هيئات الأركان الجبهوية القريبة : « الوضع في بتروغراد يبعث على القلق . لا اضطرابات ، ولكن النقاط الاستراتيجية تُحتل شيئاً فشيئاً ، والاعتقالات جارية . والجنكر يسلمون المواقع المحروسة دون قتال . والقوزاق ، بالرغم من وعودهم وأوامرنا ، لا يبارحون ثكناتهم » .

•

الساعة الثانية صباحاً . أقمع مجلس الوزراء كيرنسكي باستدعاء الجنرال كراسنوف الذي ترابط وحداته حول بتروغراد . وكانت هذه البادرة شاقة على نفس رئيس الحكومة ، لأن كراسنوف كان من أنصار مؤامرة كورنيلوف . ولكن الوقت ليس وقت الضغائن وأرسلت برقيات الى الجنرال دوخونين : أرسل جميع كتائب فرقة القوزاق الخامسة وفرقة قوزاق الدون الثالثة والعشرين وجميع الوحدات المرابطة في فنلندا . واذا ما رفض عمال السكك الحديدية المساعدة ، فلتنقل القوات بوسائلها الخاصة .

وعاد الوزراء الى بيوتهم باستثناء كونوفالوف الذي تبع كيرنسكي الى مكتبه حيث كان ينتظرهما نبأ : كارتاشيف ، وكيل المجمع المقدس ، قد اعتقل ، ولينين في سمولني .

لينين في سمولني !

وصاح رئيس الوزراء بحق :

– لقد افلت منهم ! لقد أفلت منهم !

وغادر كيرنسكي القصر تحت وابل بارد ودلف الى مكاتب هيئة الأركان . وبدا له أن موقف بولكونيكوف ملتبس وكذلك الرخاوة السائدة في المكاتب . وفي سمولني اجتمعت اللجنة المركزية حول لينين الذي طرح مسأل الحكومة العمالية الأولى وسأل :

– كيف سنسميها ؟

فاقترح تروتسكي :

– مجلس مفوضي الشعب

الساعة ٣,٣٠ . الطراد « اورورا » يسلط أضواء كشافاته على جسر نيقولا الممتد على طول ٣٣٦ متراً والقائم على سبعة أعمدة . ومن مكبر صوت خاطب بيليشيف الجنكر المتمركزين عند الجسر :

– أنزلوا الجسر او نطلق النار . معكم خمس دقائق .

وبقي التهديد بلا جواب . فتقدمت زوارق أربعة تحمل ستين رجلاً مسلحاً ، وتراجع الضباط التلامذة ، واحتل البحارة الموقع الذي يرفع منه الجسر وينزل . وبعد ربع ساعة علا صوت الصليل واتصل طرفا الجسر . وعاد بيليشيف أدراجه باتجاه إريكسون وقال له :

– ايها القبطان ، لقد تعبت ولا بد . في وسعك الرجوع الى قمرتك .
شكراً على مساعدتك .

(٦٠)

في الساعة الرابعة صباحاً وصل أول قطارات هلسنغفور الى محطة فنلندا ، ونزل منه الفوج الأول من البحارة ، واتجهوا عبر الشوارع الموحلة والمظلمة نحو أقرب الثكنات .

ولإزاء الانتشار الخفي ولكن السريع للتمرد فقد كبرنسكي هدوءه الظاهري ودعا وزراءه على عجل . كان كل شيء هادئاً ، هادئاً الى حد يبعث على القلق ، حول قصر الشتاء . واقترح كبرنسكي أن يتقدم هو بشخصه على رأس القوات الموالية عند مطلع الفجر لمهاجمة سمولني واحتلاله . وفيما كان النقاش في المجلس دائراً أضاءت نوافذ القاعة فجأة بنور حاد خاطف كلمعان البرق . ورفع احد الوزراء ستائر البروكار القرمزية ، وقال :

— انه ضوء « اورورا » الكشّاف . المدافع مسلطة علينا .

وقال كيرنسكي :

— من الواجب الصمود حتى الغد . إن القصر محروس جيداً . فعندنا ألفا رجل من الجنكر والسرية النسائية والسيارات المصفحة . ولكننا بحاجة الى قوات للسيطرة على المدينة . وان لم تأتتا نجدات ، هلكنا . وهي لن تأتي أبداً اذا لم أذهب بنفسى للإتيان بها .

والغد هو اليوم . وبعد بضع ساعات سيشل فجر بتروغراد الأبيض ظلمات الليل . واستلقى الوزراء على الأرائك ليقضوا فيها ما تبقى من الليل ، بينما كانت حزمة ضوء « اورورا » تروح وتجيء على النوافذ مثل منارة فوق المدينة .

•

كان دزرجنسكي قد قام على رأس الحرس الأحمر باحتلال مركز الهاتف والبرق الحكومي بعد ظهر ٦ تشرين الثاني . ولكن كان ما يزال عليه ان يحتل مركز البريد الرئيسي ليشل نهائياً اتصالات قصر الشتاء . وهكذا أمر كتيبة كيكشولسكي بمساعدة وحدات الحرس الأحمر لانتزاع المركز من الجنكر . وجرى الصدام الأول امام المدخل الرئيسي وولى الحراس الأدبار . واقتحم المتمردون الأبواب واستولوا في الباحة على مدفع رشاش يشرف عليه جنكر نيام . وأطلقت إشارة الإنذار داخل المكاتب التي هرع إليها الضباط التلامذة شاهرين أسلحتهم . ولكن احد المفوضين البلاشفة استغل فرصة الظلام والفوضى وأمر الجنكر قائلاً :

— فرغوا الخرطوش .

وحسب الجنكر أن الأمر صادر عن ضابط مسؤول فنفذوه . وانقض عليهم الحرس الأحمر وجردوهم من سلاحهم . وتم احتلال المكاتب في مدى بضع دقائق . ولكن المستخدمين رفضوا التعاون مع المحتلين العاجزين عن تسيير الاتصالات . وأغمي على عاملات الهاتف . وما امكن إعادة الاتصالات وقطعها

في الوقت نفسه عن قصر الشتاء إلا بعد مرور ساعة من الزمن وتوزيع كميات من الخبز والمعلبات والسكر والشاي .

*

في سمولني تمديد لينين وتروتسكي جنباً الى جنب على الأرض وقد أنهكهما التعب ، وقال ايليتش بالألمانية :

— إن الأمور تجري بسرعة كبيرة . إن رأسي يدور ...

*

شكلت سفيردولوف فصيلة مسلحة قوية لمهاجمة ذلك الحصن الرمزي الذي يعلق عليه لينين كبير الأهمية : مصرف الدولة . وكان المصرف تحت حراسة كتيبة سيمونوفسكي التي لا يمكن فصل اسمها عن ذكرى احداث القمع الدامية في عام ١٩٠٥ . ولكن الجنرال مين الذي كان يتولى قيادتها قد اغتيل . وضباطها الحاليون يريدون بأي ثمن تجنب سفك الدماء ، ولاسيما أن جنودها لا يريدون . الدفاع عن الحكومة المؤقتة . وقد دللوا على ذلك عندما قالوا لفصيلة سمولني عند وصولها :

— اننا نحرس المصرف لحساب الحكومة . ونحن مستعدون لمتابعة الحراسة باسم الثورة البروليتارية .

وفتح رجال سيمونوفسكي المكاتب للحرس الأحمر ، واحتلوا معهم غرفة الهاتف ومكاتب المدراء وقاعة الصناديق الحديدية .

*

بروغراد ما تزال تعيش تحت قبة المطر الذي لم ينقطع لحظة واحدة . وشوارعها قد اتسخت . استقلت ناديا كروبسكايا التي انقطعت عنها أنباء زوجها منذ عدة ساعات شاحنة عسكرية ذهبت بها الى بيت فوفانوفا التي أعلمتها بأن لينين قد انتقل الى سمولني ليلاً . وعادت السيارة الشاحنة أدراجها الى

المعهد مقلّة الزوجة والأخت أنا اوليانوفا . وعندما وصلت إليه كانت اللجنة العسكرية الثورية ترسم خطط تطويق قصر الشتاء الذي بدأت فيه مؤونة القوات الموالية بالنفاد .

وقد صعد أنتونوف الحربة الى ظهر « أورورا » وقال لبيليشيف :
— هوذا قصر الشتاء . ينبغي الاستيلاء عليه اليوم . هيء مدافعك . وسوف تعطى لك الإشارة من برج « بطرس وبولس » .

(٦١)

طلع فجر ٧ تشرين الثاني . و ٧ تشرين الثاني هو يوم ميلاد تروتسكي . ولكن ليس هناك من يفكر بالاحتفال ببلوغه العام الثامن والثلاثين . و ٧ تشرين الثاني هو ايضاً اليوم الذي حدّده لينين لولادة أول دولة شيوعية . وقد اختفت مع الليل دوريات كيرنسكي ، وحلّت محلها عند مفارق الطرق دوريات الحرس الأحمر التي أشعلت النيران لتتدفأ . واجتاحت مواكب العمال المسلّحين الشوارع .

وسقطت محطة وارسو في الساعة الثامنة . و آتمّ بوبنوف بنجاح كل العمليات التي أوكلت اليه . فقد تمّ احتلال كل محطات سكك الحديد ، ولكن الحركة شلّت فيها جميعاً . فقد رفضت اللجنة المركزية لنقابات عمال السكك الحديدية ، ذات الغالبية المنشقية والاشتراكية - الثورية ، الاعتراف باللجنة العسكرية الثورية وتداعت لإعلان الإضراب .

ولم يذق كيرنسكي وكونوفالوف طعماً للراحة . ففي الساعة الثامنة كانا في مقر هيئة الأركان حيث استدعيا الجنرال القيصري الكسييف لاستشارته بوصفه أعلى مرجع عسكري . وأرسلت برقيات مقلقة الى جميع هيئات الأركان . وردّ كراسنوف بأن جنوده القوزاقيين سيتحركون . ولكن لم تقرب أي نجدة من العاصمة .

ورجع سافنكوف ، الحسيم ، الى بتروغراد ، وكان الزعيم الإرهابي السابق قد منح لقب جندي قوزاق فخرياً ، مثله مثل رودزيانكو . والى كتابت قوزاق الدون الاولى والرابعة والرابعة عشرة توجه بخطابه :

— إن واجبكم أن تحاربوا البلاشفة . إنني أناشدكم الدفاع عن الحكومة المؤقتة . إن أراضيكم في خطر .

ولكن كلمات سافنكوف ذهبت أدراج الرياح . فقد قررت لجنة قوزاق الدون التزام موقف الحياد التام .

*

الساعة ٨،٣٠ . استقبلت باريس التي كانت جاهلة بأنباء التمرد ، السفير الجديد باسيل ماكلاكوف الذي صرح للصحفيين في محطة أورسي :

— ان الموقف الداخلي في روسيا لا يبعث على القلق إلى الحد الذي يمكن تصوره من الخارج .

*

الساعة ٩ . جمع كيرنسكي وزراهه في القاعة الامبراطورية وقال لهم :

— سأرحل بعد ساعة من الزمن لأكون على رأس القوات التي لا يمكننا بدونها إعادة توطيد النظام . وآمل أن أرجع معها في مدى بضع ساعات . وأقترح أن يمنح الأميرال فيرديريفسكي في غيابي سلطات واسعة على العاصمة .

ورد فيرديريفسكي الاقتراح ، ورفض الجنرال مانيكوفسكي بدوره تحمل العبء الثقيل . ولم يقبل بتولي السلطات الدكتاتورية على بتروغراد غير وزير مدني ، نيقولا كيشكين ، عضو الكاديت . وكان أول قرار اتخذه هو انه أقال الكولونيل بولكونيكوف المتهم بالتساهل وعين مكانه الجنرال باغراتوني .

استغرق إعداد رحلة كيرنسكي عدة ساعات . وكان على رئيس الوزراء ان يجتاز شوارع العاصمة المتمردة ومناريس الحرس الأحمر قبل ان يبلغ

الريف الذي كان ما يزال هادئاً نسبياً . وقد جرت مفاوضات مع السفير الاميركي دافيد فرنسيس الذي عرض على كيرنسكي بوصفه صديقه الشخصي سيارته الخاصة . وكان لفرانسيس الفضل في دفع الحكومة الاميركية الى ان تكون أول المعترفين بحكومة الأمير لفوف ، قبل ثمانية أشهر ، وكان قلقاً على مصير روسيا ، خائفاً من سقوطها في أيدي المتطرفين ، وعدواً لدوداً بالتالي للبلاشفة . ولكن لم يكن في وسع كيرنسكي أن يغادر العاصمة تحت راية أجنبية . فرفض استعمال سيارة السفير الفورد ، وإن قبل بالمقابل أن تسير خلف سيارته سيارة تحمل علم الولايات المتحدة . وكان كيرنسكي يأمل بعودة سريعة ، ولكنها كانت المرة الأخيرة التي يجتاز فيها أروقة القصر الذي ما يزال خدمه بألبستهم المزركشة يذكرون بأيام القياصرة الباذخة . وودع كيرنسكي وزراه ، وكانت الغيوم قد انقشعت ، وسيارته المكشوفة تنتظره وقد مليء خزائنها بوقود استعير من المستشفى الانكليزي . وجلس مرافقه قرب السائق ، واتخذ ضابطان آخران مكانهما على رفر في السيارة . واتخذت القافلة هيئة موكب دبلوماسي لم تحجم بعض الدوريات البلشفية عن تحيته عند مروره . واجتازت السيارتان العاصمة من شوارعها الرئيسية . وكان المشهد الذي رآته عينا كيرنسكي أشبه ما يكون بأيام آذار : ستائر المخازن مسدلة ، والإدارات الحكومية مغلقة ابوابها ، والتلاميذ يعودون أدراجهم الى بيوتهم . وعند باب موسكو ، أقصى الطرف الجنوبي من المدينة ، أطلقت عيارات نارية على السيارة الرئاسية ، التي من طراز لانسيا ، أسرع السيارات قاطبة في روسيا آنذاك . ولكن أياً من السيارتين لم تصب وأمر كيرنسكي السائق بمضاعفة السرعة باتجاه غاتشينا حيث يأمل أن يلاقي الجنرال كراسنوف .

*

في اللحظة التي كان فيها كيرنسكي يغادر بتروغراد ، في الساعة العاشرة صباحاً ، كان لينين يعلن في برقية أذاعها راديو «أورورا» :
 - إلى مواطني روسيا ! لقد أقيمت الحكومة المؤقتة . وانتقلت سلطة الدولة

الى أيدي اللجنة العسكرية الثورية التي على رأس البروليتاريا والى حامية بتروغراد.
وهكذا أعلن قيام السلطة السوفياتية في الوقت الذي كان ما يزال فيه
التحالف البورجوازي - الاشتراكي قائماً . وقد توقع لينين سرعة تطور
الأحداث ، فقد قال :

- ينبغي الاستيلاء على قصر الشتاء فوراً وقبل افتتاح مؤتمر السوفييتات ،
قبل غروب النهار ، هذا المساء كحد أقصى .
هذا المساء : المساء الكبير .

*

صدرت « رابوتشي بوت » صحيفة البلاشفة ، تحمل عناوين النصر .
وعلى يسار الصفحة الاولى كان المقال الرئيسي يحمل توقيع غريغوار زينوفييف
الذي لحق بقطار الثورة المسرع .

وراح دان وافكسانتييف وسكوبيليف ينتقلون من سمولني الى قصر
الشتاء ، ومن هيئة الأركان الى « بطرس وبولس » ، سعياً الى تجنب صدام
دموي .

*

في سمولني اقترح ليون كامينيف على اللجنة العسكرية الثورية إعلان إلغاء
عقوبة الإعدام ، لاعتقاده أن هذا التدبير كفيل بتهدئة خصوم التمرد وطمأنتهم .
ولم يعارض تروتسكي الاقتراح . ووجد لينين نفسه أمام حقيقة واقعة لا
يجبها :

- حماقة ، حماقة ! ضعف غير مقبول ، وهم سلمي . أهنك من يظن
أن الثورة ممكنة بلا إعدامات !

(٦٢)

الساعة ١٢ . أصدرت الحكومة المجتمعة حول الصناعي كونوفالوف ،

نائب رئيس الوزراء ، أمرها الى سرية النساء بالتمركز خلف المتاريس التي أقامها الضباط التلامذة . وكان على الوزارة أن توفر الحماية لنفسها بانتظار عودة كيرنسكي والقوات الموعودة . ولما كانت القوات الموالية في بتروغراد قليلة ، ووسائل الهجوم ضد البلاشفة معدومة ، والغلبة في الشارع للحرس الأحمر ، فقد اضطرت الوزراء الى تحويل مقام القياصرة الفخم الى معقل أخير للديموقراطية البورجوازية . وكان القصر واسعاً الى درجة لا تصدق : ١٠٥٠ حجرة ، ٢٠٠٠ نافذة ، ١٧٨٦ باباً ، ١١٧ درجاً ! وقد تمّ بناؤه في عام ١٧٦٢ في عهد بطرس الثالث ، وتحت إشراف المهندس الايطالي راستريلي . وقد أراد نيقولا الأول ان يعيد بناءه في عام واحد بعد أن شبّ فيه حريق هائل في عام ١٨٣٧ ، وقضى عشرات العمال نجبتهم تحت البرد القارس (٣٠ تحت الصفر) .

وفيما كانت استعدادات الدفاع تجري على قدم وساق حول قصر الشتاء ، كان كيرنسكي قد وصل الى غاتشينا بعد أن قطع خمسة وأربعين كيلومتراً بسيارة اللانسيا المكشوفة . ولكن غاتشينا كانت قد سقطت في أيدي البلاشفة ، وقد كشف بعض رجال الحرس الأحمر هوية رئيس الوزراء وحاولوا اعتقاله . ولكن السيارة الأميركية المرافقة أفلحت في خداع المطاردين وتمكنت اللانسيا من التقدم على طريق بسكوف حيث يأمل كيرنسكي بمساعدة الجنرال تشيريميسوف رئيس هيئة أركان الجبهة الشمالية وبطل هجوم تموز الأخير وبديل كورنيوف في قيادة الجيش الثامن .

*

انتشر الجنود والبحارة ورجال الحرس الأحمر في كل أرجاء بتروغراد إتماماً لاحتلال العاصمة . وتعالى من ساحة القديس إسحق حيث ينتصب قصر ماريا ، مقر البرلمان التمهيدي ، صوت عيارات نارية . فقد أصدر سفير دلوف أمره بتشتيت شمل النواب البورجوازيين الذين اجتمع مئة وخمسة وعشرون منهم برئاسة افكسانتييف . وقد تمكن البلاشفة بسهولة وسرعة من احتلال

القصر وتوجهوا الى قاعة الجلسات . ولكن افكشانتيف ظل جالساً في مقعد الرئاسة في القاعة التي أقفرت من أصحابها بمثل لمح البصر . وتقدم مفوض سياسي منه وبعثر الأوراق التي أمامه وقال له :
- لقد ارفضت الجلسة . عد سريعاً الى بيتك .

وهكذا سقط ذلك البرلمان الذي أراده كيرنسكي مقياساً لسلطته الحديدية ، والذي كتّف يديه وشلّه عن العمل آتاهم كبار الصناعيين له بأنه متطرف الى اليسار اكثر مما ينبغي ، وآتاهم البلاشفة بأنه متطرف الى اليمين اكثر مما ينبغي ايضاً . ولم يعتقل أحد من النواب الذين غادروا القصر تحت هتاف جماهير الثوريين بسقوط الرأسمالية ، باستثناء النائب بوريشكيفيتش المغرق في رجعيته الذي كان غائباً عن الجلسة والذي صدر أمر باعتقاله . وكان بوريشكيفيتش التجأ الى « فندق الشمال » حيث احتشد كل الملكيين المتطرفين .

لقد سار الانقلاب حتى الآن على أحسن ما يرام ودونما ضحايا . ودونما ضحايا ايضاً تم احتلال الوزارات ورئاسة الشرطة والأميرالية . ومن كل جانب اصبح قصر الشتاء مطوقاً . ولكن ضابطاً شاباً لم يحفظ التاريخ اسمه ظل مخفياً في إحدى غرف المؤونة بمبنى وزارة الحربية الذي احتلته اللجنة العسكرية الثورية . وكان في تلك الغرفة جهاز لاسلكي وخط هاتف سري مرتبط مع قصر الشتاء . وهكذا ، وفي الوقت الذي كان فيه رجال سمولني يعتقدون أنهم قد عزلوا الحكومة عن كل اتصال خارجي ، كان نيكيتين ، وزير الداخلية المنشفي ، يتصل عن طريق تلك الشبكة السرية بالجهة والدوما البلدية وموسكو . وقد أعلم رودنيف ، العمدة الاشتراكي - الثوري للعاصمة الثانية ، نيكيتين أن التمرد على وشك الاندلاع في المدينة ، ففوضه وزير الداخلية بمطلق الصلاحيات لقمع المتمردين وقطع دابر الثورة .

*

كان جورج بليخانوف ، في شفته بتساركوي - سيلو ، ما يزال يأمل

بإخفاق البلاشفة . وقد قال لزوجته :

— أنهم سيعودون إلنا متقهقرين .

وفي الساعة ١٤,٣٥ جمع تروتسكي وقد أحاط به كامينيف وزينويف ولوناتشارسكي وفولودارسكي ، سوفيت بتروغراد . وتحدث من منصة القاعة الكبرى في سمولني :

— باسم اللجنة العسكرية الثورية أعلن أن الحكومة المؤقتة لم تعد موجودة (تصفيق طويل) . اننا ، نحن السوفييتات ، سنحاول تجربة فريدة من نوعها في التاريخ . إننا سنؤسس حكومة لن يكون لها من هدف غير تلبية حاجات الجنود والعمال والفلاحين .

ودلف الى القاعة ذات الأعمدة البيضاء رجل أصلع حليق الوجه واتخذ مكانه في طرف المنصة . فقطع تروتسكي خطابه وأشار إليه بإصبعه وقال بانفعال « إن بيننا الآن الرفيق لينين » . ودوت القاعة بالهتاف والتصفيق وطارت القبعات والعمرات في الهواء . وبعد عودة الهدوء تابع تروتسكي :

— إن حكومة كيرنسكي لم تعد موجودة . وقد فرقت الحامية شمل البرلمان التمهيدي . كان يقال لنا إن التمرد سيؤدي الى قمع رهيب . ولقد جرى كل شيء دونما إراقة دماء ، ولم نسمع بوقوع ضحية واحدة . إن قصر الشتاء لم يحتل بعد ، ولكنه سيحتل قريباً .

وارتقى فلاديمير ايليتش المنصة ودوت عاصفة جديدة من الهتاف والتصفيق . كان ذلك أول ظهور علني له :

— ان الثورة العمالية والفلاحية التي اكّدت البلاشفة ضرورتها على الدوام قد قامت . وهذا يعني أول ما يعني انه ستكون لنا حكومة سوفييتات لن تساهم فيها البورجوازية بصورة من الصور . إن الآلة الحكومية القديمة ستحطم الى ألف قطعة . وستولد آلة اخرى ، جديدة كل الجدة ، في شكل مؤسسات سوفييتية . وأعجل المهام لإنهاء الحرب المرتبطة بالنظام الرأسمالي . ينبغي إذن

قهر الرأسمالية أولاً . وسوف تهب البروليتارية الأمية لمساعدتنا . وسوف
يمحضنا الفلاحون ثقتهم فور إلغاء الملكية العقارية ...

*

في القاعة البيضاء من قصر الشتاء اجتمع ثمانمئة من الجنكر . وكان الجو
متوتراً . لم المقاومة ؟ وهل ستصل النجيدات حقاً ؟ والحق ان المدافعين عن
القصر يريدون الحصول على تأكيدات جازمة وقد طلبوا الاستماع الى اعضاء
الحكومة . ومثل كونوفالوف أمام « المؤتمرين » يتبعه دكتاتور بتروغراد وعدد
من الوزراء . وطمان الضباط التلامذة واكد لهم على لسان بالثشنسكي—
وكيشكين وتيريشتشنكو امكانية النصر . واقتنع الجنكر بهذه الكلمات الطيبة
وقبلوا بنصب الرشاشات حول كل نقاط القصر الاستراتيجية .

*

بعد لينين عاد تروتسكي الى الكلام امام سوفيين بتروغراد :

— لقد علمت أن قوات الجبهة تزحف على العاصمة ومن الضروري
إرسال مفوضين عن السوفيين الى الجبهة والى كافة أرجاء البلاد لتحذير
الجنود .

فقاطعه أحد المناشفة :

— إنك تتكلم عن غير حق باسم الارادة القومية للسوفيينات .

فأجابه تروتسكي :

— إن إرادة المؤتمر قد تحددت بثورة عمال بتروغراد وجنودها . ولم يبق
علينا الآن إلا ان نعزز انتصارنا .

(٦٣)

انتصارنا ؟ لقد كان لينين يتمنى لو أنه كان تاماً شاملاً خلال النهار .
ولكن الغسق البارد الممطر خيم من جديد على بتروغراد والحكومة التي أعلن

عن سقوطها ما تزال ضامدة .

وئارت نائرة لينين وجدف وأرسل عشرات البطاقات الى انتونوف
وبودفويسكي وتشودنوفسكي المكلفين بتنفيذ خطة احتلال بـروغراد : إنكم
لجبناء ليس غير ، وانكم لتؤخرون المؤتمر وترزعون الشك في نفوس المندوبين .
وكانت الترويكما ، اي الثلاثي انتونوف وبودفويسكي وتشودنوفسكي ،
قد وعدت بإنجاز احتلال قصر الشتاء ظهراً ثم في الساعة ١٤ ثم في الساعة ١٦ .
وفي الساعة ١٧ لم يكن قد تم شيء . وبدأ لينين يتوجس من انقلاب في رأي
المؤتمر المقرر افتتاحه في الساعة ٢١ . فتحت تأثير الاشتراكيين الثوريين
والمناشفة الذين يجاهرون بتخوفهم من مواجهة دامية يمكن ان ينجرف المندوبون
القادمون من الأقاليم نحو تأييد فكرة الحل السلمي ، ضارين عرض الحائط
بكل ما كسبته الثورة المسلحة حتى الآن . والحقيقة ان الترويكما كانت تبالغ في
تقدير أهمية قوى القصر الذي لم يكن البتة بالحصن المنيع . فصحيح ان نهر
النيفا يحمي القصر من الشمال ، ولكن القلعة الحكومية محاطة من جوانبها الثلاثة
الأخرى بقناة مويكا نصف الدائرية ، وهذه القناة بكيلومترات الأربعة هي
في أيدي الحرس الأحمر والبحارة والجنود . وصحيح أيضاً أن قصر الشتاء
محصن بالمدافع والسيارات المصفحة والرشاشات والبنادق ، ولكن البلاشفة
كانوا يتمتعون بقوة نارية هائلة بفضل مدفعية الطراد اورورا وقلعة بطرس
وبولس . كما أن القوات الموالية لهم كانت تحاصر القصر من جميع الجهات :
بحارة « اورورا » والحرس الأحمر وبحارة مدرسة الميكانيكيين وكتائب
كيشولمسكي وبافلوفسكي وبريوبراجنسكي واسماعيلوفسكي وقد قدم عمال
بوتيلوف احدى عشرة شاحنة مجهزة بمدافع مضادة للطائرات وبنصف بطارية
من مدفعية الميدان . كما ان بحارة ريفال منتشرون على طول النيفا ، بينما
تتوالى تعزيزات مستمرة على قوة الهجوم الرئيسية من قبل عناصر كتيبي
ايغيرسكي وفولينسكي اللتين كانتا اول كتيبتين رفعتا راية العصيان في ثورة
آذار .

جرت عدة حركات للقوات في فترة بعد الظهر في داخل القصر وخارجه على حد سواء . وكان الجنكر وسرية النساء ما يزالون مرابطين خلف المتاريس الخشبية . وبالرغم من النداء شبه اليائس الذي وجهه الرئيس السابق للدوما السابقة :

— أستحلفكم بشرف روسيا ان تدافعوا عن الحكومة المؤقتة .

ترك ثلاثمئة رجل من القوزاق مراكرهم دون ان يعطوا تفسيراً . وفي اللحظة التي أزمعوا فيها على الرحيل ، استوقفهم أحد ضباط الجنكر وقال لهم :

— ان الله سيحاكمكم . ولكن اذا كنتم سترحلون حقاً فاتركوا لنا على الأقل رشاشاتكم .

فأجابه قائدهم :

— خذها . فليساعدكم الله ولتسونا

وحذت حذوهم مجموعة من الضباط التلامذة من مدرسة ميشيل ، ولكنها حملت معها أربعة مدافع من أصل ستة . وقد أوقفتها القوات الثورية في جادة نفسكي ، وعادت المدافع أدراجها باتجاه القصر ، ولكن لتسد نحو هذه المرة . وقد حاولت سرية من رجال المدفعية قادمة من خارج بتروغراد أن تتقدم لنجدة القوات الموالية ، ولكن الحرس الأحمر نصب لها كميناً في شارع موسكاييا ، ولم يستطع غير عدد ضئيل من رجالها الوصول الى ساحة القصر .

وكان تعداد القوات المولجة بالدفاع عن القصر خمسة آلاف رجل حسني التجهيز : ثلاثة آلاف رجل من مدرسة بتروغراد الثانية للجنكر ، وثلاثمئة واثنان وخمسون رجلاً من مدرسة الضباط المرشحين الثانية ، ومئة وثلاثون مجندة متطوعة ، وكتيبتان من الضباط التلامذة في مدرسة الهندسة وجبهة

الشمال . ولكن المفاجآت المسرحية لم تنته بعد ، فقد أعلن الأمير-الجنرال باغراتوني الذي سمي في صباح اليوم نفسه قائداً لمنطقة بتروغراد بدلاً من الكولونيل بولكونيكوف أنه غير قادر على الدفاع عن القصر وغادر مقر القيادة سيراً على قدميه . وقد أوقفه الحرس الأحمر واقتاده الى ثكنة البلطيق . كما أن الكسييف قد اختفى هو الآخر .

*

حرر أتونوف وبودفويسكي وتشودنوفسكي وبلاغونرافوف إنذاراً نهائياً موجهاً الى أعضاء الحكومة المؤقتة . وقد طلبت اللجنة العسكرية الثورية فيه استسلام القصر وهيئة الأركان في غضون عشرين دقيقة وإلا ذلك المبنان بمدافع القلعة وأورورا . وقد تمّ إبلاغ الإنذار في الساعة السادسة مساء . وكان رأي عسكري هيئة الأركان أن المقاومة غير مجدية ، ولكن مديني قصر الشتاء أصروا على عدم الاستسلام بانتظار وصول النجادات .

الساعة ١٨،٢٠ اختارت الحكومة سياسة الصمت ، فهي لن ترد على الإنذار . ووجهت نداء أخيراً الى الدوما البلدية عن طريق الضابط الشاب المختبئ في وزارة الحربية . ثم أصدرت الأمر الى كل القوات المتمركزة في القصر بالاستعداد للقتال .

*

وصل كيرنسكي وقد أنهكه التعب الى بسكوف في أول الليل . واتجه من فوره الى بيت زوج أخته الجنرال فلاديمير بارانوفسكي حيث استدعى الجنرال تشيريميسوف . ولكن قائد الجيش الثامن ابلغ كيرنسكي أنه لا يستطيع إرسال أي فصائل الى بتروغراد بحجة أن الدعاية البلشفية قد أثرت في الجنود فما عادوا ينصاعون لأوامر ضباطهم . وفهم رئيس الوزراء أنه لا يستطيع أن يأمل شيئاً من جبهة الشمال . واكتفى بإبداء رغبته في الانصال بكراسنوف بأسرع ما يمكن . فقال تشيريميسوف :

– كان كراسنوف اليوم هنا . وقد بحث عنك طيلة بعد الظهر ، ولكنه استأخرك ورجع الى جنوده القوزاق في أوستروف .

– ألا يمكن الاتصال بقصر الشتاء؟

– مستحيل .

ولم تدم المحادثة سوى دقائق وجيزة ، وعاد قائد الجيش الثامن أدرجه الى مكتبه حيث اتصل به فور وصوله الجنرال دوخونين ، رئيس هيئة الأركان العامة ، من ستافكا موغيليف :

– هنا نيقولا نيقولايفيتش . لقد علمت أنك أصدرت أمراً بإيقاف كل القوافل المتجهة الى بتروغراد .

فأجاب تشيريميسوف :

– هذا صحيح ، ولكنني لم أفعل غير أن نفذت أوامر كيرنسكي الذي يفكر بتسميتي كبيراً للجنرالات .

– هل تعرف اين رئيس الوزارة في الوقت الراهن؟

– ان الكسندر فيدوروفيتش هنا . وقد تركته توأ .

– هل تريد ان تصلني به؟

– كلا يا جنرال . لن أفعل ذلك لصالحه بالذات .

*

بسط كيرنسكي خريطة عسكرية واختار أفضل طريق للذهاب الى أوستروف على بعد مئة كيلومتر جنوباً . وقال لتابعيه من الضباط :

– يجب ان أستريح قليلاً . عودوا بعد ساعتين .

ولكن ما كاد رئيس الوزراء يتمدد على الأريكة حتى قرع الباب شقة بارانوفسكي . ودخل كراسنوف وهو يقول :

— لم أثق في أوامر تشيريميسوف . انه متواطىء مع السوفييتات . لقد آثرت انتظارك . فلنذهب معاً الى اوستروف . لقد جمعت بعض الضباط لحماية رحيلك . ان البلشفيين كريلنكو وديبنكو قد وقعاً أمراً باعتقالك باسم اللجنة العسكرية الثورية .

*

الساعة ١٩ . عهدت اللجنة العسكرية الثورية الى كتيبة بافلوفسكي والى بعض سرايا الحرس الأحمر بقيادة البلشفي نفسكي بمهاجمة مقر قيادة الأركان المحاذي لقصر الشتاء .

الساعة ١٩,١٥ . أطلق عيار ناري إشارة لبدء الهجوم ، وزحف المهاجمون بالمتات . وأطلق الجنكر النار على الأشباح التي تتحرك على بعد ثلاثمئة متر . وبسرعة صاعقة تم احتلال المقر وجرّد الحرس من الأسلحة واحتلت المكاتب بلا مقاومة .

وبقي مقر بطرس الاكبر الضخم عارياً امام الأعداء . وانسحب الوزراء جميعاً الى حجرة طعام صغيرة . وأصدر كيشكين أمره بقطع التيار الكهربائي عن الطوابق كافة . وانطلقت كل النوافذ في القصر باستثناء الحزمة الضوئية التي ترسلها كشافات اورورا . وخبّمت الصمت ، الصمت السني يعني أنه لم يبق للاستيلاء على مركز السلطة في روسيا الواسعة الشاسعة غير بضع مئات من الأمتار التي لا تتسع في الأيام العادية لاستقبال العربات المذهبة القادمة الى القصر يوماً .

*

في سمولني كان لينين فريسة لاضطراب شديد . فقد تحمّ لإرجاء المؤتمر من الساعة ٢١ الى الساعة ٢٢ . وانطلقت من كل المصانع فصائل جديدة من الحرس الأحمر لتعزيز صفوف المهاجمين . وقد وضع اتونوف وبودفويسكي

وتشودنوفسكي خطة زمنية دقيقة للهجوم . فإذا لم تستسلم الحكومة ، أضيء فانوس أحمر في تمام الساعة ٢١ على كبرى صواري قلعة «بطرس وبولس» . وأتذكّر أنطلق « اورورا » عدة طلقات من مدافعه في الهواء . وإذا لم يلق هذا الإنذار أذناً صاغية ، تدخلت مدفعية القلعة وانقضّ المشاة الحمر على الجنكر من الجنوب واقتحموا المبنى من كل مداخله .

وصعد انتونوف الى ظهر « اورورا » ليناقدش الترتيبات الجديدة مع بيليشيف . وذهب بودفويسكي الى خطوط هيئة الأركان المتقدمة . وكُلّف تشودنوفسكي بالتفاوض للمرة الأخيرة مع الجنكر الذين صدرت عنهم بعض بوادر التخاذل .

*

الساعة ٢٠ . تقدّم تشودنوفسكي من المتاريس التي أقامها الضباط التلامذة حول القصر ليناقدشهم في شروط استسلامهم . وسمع بالتشنسكي بوجوده وأصدر أمره باعتقاله . وقد اقتيد فعلاً الى داخل القصر . ولكن الضباط التلامذة الذين كانوا قد ضمنوا لتشودنوفسكي سلامته الشخصية هددوا بترك مراكزهم إذا لم يطلق سراحه فوراً . واضطر بالتشنسكي إلى الإذعان . وأطلق سراح تشودنوفسكي بشرط ان يقطع اتصالاته مع الجنكر وأن يعود أدراجه من حيث جاء .

*

حاولت الدوما البلدية التي تلقت رسالة اللاسلكي السريعة المفجعة ان تتدخل للمرة الأخيرة . فشكلت وفوداً ثلاثة انطلقت كلها معاً باتجاه القصر وسمولني وأورورا .

وفي قلب العاصمة كان المارة قليلين ، والواجهات مضاءة ، ودور السينما مفتوحة ، واللافات متألقة بأنوارها . وكانت راقصة الباليه الاولى سميرنوفا تؤدي دور « حناء الغابة » لتشايكوفسكي على مسرح ماريا ، ومسرح

ميشيل يقدم « كأس الماء » لسكريب . ولكن « بيت الشعب » المجاور لقلعة « بطرس وبولس » كان اكثر المسارح ازدحاماً ، فقد كان شاليابه يؤدي أروع أدواره في أروع أزيائه : « دون كارلوس » .

الحافلات الكهربائية قد توقفت . ولكن إحداها كانت تجتاز المدينة بسرعة كبيرة ودونما ركاب ، شاحنة المواد التموينية الى الحرس الأحمر . ولم تكن الشائعات تصل إلى مواقع القتال إلا بعد لأي . وكان القصر غارقاً في الظلام ، ولكن ساعات الحصار أتاحت للمهاجمين أن يعرفوا كل مداخلة ، ولم يكن هناك ما يمكن أن يخفي عن أعينهم منذ أن نجحوا في احتلال مقر هيئة الأركان .

*

الساعة ٢١ . هزّ أرجاء المدينة انفجار هائل . فقد أطلق مدفع أورورا طلقة فارغة كإندازر أخير من اللجنة العسكرية الثورية . وكان الفانوس الأحمر قد أضيء فوق صارية « بطرس وبولس » كما هو متفق . وانفجرت القنبلة كقصف الرعد فوق قصر الشتاء ، ولكنها لم تفت في عضد الوزراء المصممين على المقاومة . بيد أن الطلقة الفارغة أثارت عاصفة من الحماسة في « بطرس وبولس » حيث انتشرت شائعة تقول ان الحكومة قد استسلمت . وبدأ الهجوم على قصر الشتاء وانهمر الرصاص . ومع الساعات الاولى من الليل سقط أوائل جرحى ثورة اكتوبر .

(٦٤)

قدّم تروتسكي إلى لينين صورة بلاغ لم يخف بعد خبره : إن كل محاولة للنهب عقوبتها الإعدام . وبدرت عن فلاديمير ايليتش حركة تراجع ، تماماً كما فعل عندما اقترح كامينيف قبل بضع ساعات إلغاء عقوبة الإعدام . ثم قال :

– حسن . معك حق .

ولكن أفكاره كانت في مكان آخر . فقصر الشتاء هو شاغله الشاغل . وقبيل دقائق معدودات من افتتاح مؤتمر سوفيات روسيا ما تزال هناك سلطتان قائمتان . فكيف السبيل الى تسلم زمام الدولة في الوقت الذي ماتزال فيه الديمقراطية البورجوازية ممسكة به ؟ لقد كان لينين قد تنبأ بأن يوم الثامن من تشرين سيكون فائتاً للأوان . والحال انه لم تبق غير ساعتين حتى يلفظ يوم ٧ أنفاسه الأخيرة .

*

عندما اطلق اورورا طلقتها التحذيرية هبّ سكان سمولني الى النواذف . وكانت تلك الطلقة في نظر الأعضاء الخارجين من التسيك ، دان وافكسانتيف ولاير ، إشارة الى بدء الحرب الأهلية . أما تروتسكي وسفيردلوف فقد راحا يضغطان على لينين للتعجيل بافتتاح المؤتمر ، ولكن الاشتراكيين-الثوريين والمناشفة الراغبين في استغلال غالبيتهم المحتضرة انتهزوا فرصة الأحداث ليؤخروا تجريد المكتب وابتداء المناقشات . وكانت نتائج فرز المندوبين قد أخافت المصالحين . فقد كان ٣٤٣ مندوباً من أصل ٦٧٥ مؤيدين للبلاشفة الذين باتوا يتمتعون بالغالبية المطلقة بفضل الجهود التي بذلوها في كافة أرجاء روسيا منذ شهر تموز . وقد أعد سفيردلوف قائمة بالمرشحين لعضوية اللجنة التنفيذية ساهياً عن اسمه بالذات : تروتسكي ، كامينيف ، زينوفييف ، انتونوف ، كريلنكو ، لوناتشارسكي ، ريازونوف ، الكسندرا كولونتايف ، ريكوف ، نوغين ، مورانوف . وكانت هذه القائمة بمثابة لوحة شرف الحزب ، دونما اعتبار لحادثة العصيان ومعارضة التمرد .

وعلى رأس قائمة المرشحين المناشفة كان اسم الدكتور دان ، الرئيس السابق للجنة التنفيذية ، وتليه أسماء مارتوف ولاير وبوغدانوف . أما الاشتراكيون-الثوريون فقد رشحوا اكثر وجوههم شعبية : ماريسا

الساعة ٢٢ . في جبهة قصر الشتاء تقدم البحار جيلزنيكوف ليفاوض السرية النسائية . وبالفعل أبدت المئة والثماني والثلاثون مجنّدة استعدادهن للنكوص عن القتال بعد ان اكل السهاد وقلق الانتظار أعصابهن . وبمجة الخروج لتحرير الجنرال الكسييف الذي وقع اسيراً في أيدي الحمر انتقلت زميلات ياشكا الى معسكر المتمردين . وقد نقلن على الفور الى محطة فنلندا ليلتحقن من هناك بمعسكرهن في ليفاشيفو .

الساعة ٢٢,٤٠ . اجتمع المؤتمر أخيراً . وقرع دان ، المرتدي زي طيب عسكري ، الجرس . وكانت القاعة غاصّة حتى الممرات والنوافذ . لا ربطات عتق ولا قمصان نظيفة . سترات بلا أزرار . بنادق وحراب . جيش من رجال شعث ، جادين ، متسخين . برلمان شعبي بالمعنى الكامل للكلمة . ومثقفو آذار وحزيران قد اختفوا عملياً إلا حول المنصة . والقاعة غير مدفأة إلا بالأنفاس البشرية . ودخان الماخوركا العكر يحرق العيون . والصمت نجيم إلا عند المدخل . وأعلن دان :

— أيها الرفاق ، إن مؤتمر السوفييتات يجتمع في ظروف استثنائية للغاية رأت معها اللجنة التنفيذية أنه لا فائدة من افتتاح هذه الجلسة بخطاب . وأنتم تقدرون ذلك في الوقت الذي يضحى فيه رفاقنا الحزبيون في قصر الشتاء بحياتهم ليؤدوا واجبهم كوزراء اختارهم الشعب ... (حركة في القاعة) .

واقترح البلشفي أفانيسوف أن يجري انتخاب المكتب الجديد على اساس نسبة المندوبين الحاضرين ، فأثار بذلك حنق المناشفة الذين يريدون تمثيلاً متناسباً وعدد المنتمين الى الأحزاب . ولكن الغلبة كانت لحزب لينين إذ فاز

البلاشفة بـ ١٤ مقعداً ، والاشتراكيون – الثوريون بـ ٧ ، والمناشفة بـ ٣ ، وجماعة غوركي الأهمية بمقعد واحد . وحيا المؤتمر التسليك الحديد تحية صاخبة . وكان تروتسكي أول من اعتلى المنصة . وانتقل جرس دان الى ليون كامينيف الذي أعلن جهوده المعتاد جدول الأعمال : تنظيم السلطة ، الحرب والسلم ، الجمعية التأسيسية .

وكانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثالثة والعشرين بقليل .

*

في « بيت الشعب » كان شاليابين بمعطفه الأرجواني الفخم وصولحانه بيده وتاج فيليب الإسباني على رأسه ينشد : « إن الله نفسه قد وضع التاج على رأسي . انني العاهل الأوحده الحديده ... » .

وضاعت الكلمات الأخيرة في اللغظ واللجة . فقد دوى قصف المدفعية . وهبّ الجمهور هبة رجل واحد وقد طاش الذعر بصوابه . واهتزّ زجاج النوافذ . وأسدل الستار بسرعة . وتزاحم الناس حول الأبواب . ولكن صوت شاليابين الجمهوري تعالى فوق صرخات الفزع :

– إنكم هنا في مأمن أكثر مما في الشارع . وسوف تستمر أوبرا « دون كارلوس » .

كانت « بطرس وبولس » قد شرعت بقصف قصر الشتاء . وقد وجد الجنود صعوبة بالغة في تشغيل البطاريات بسبب صدتها . وقد أصابت واحدة من أولى القنابل أفريز قصر الشتاء الأعلى . وأصابت قبلة ثانية واجهة القصر الشمالية . وهبّ الوزراء في قاعة الطعام المظلمة وقوفاً ، ولكن من غير ان يراجعوا عن تصميمهم على المقاومة .

*

هبّ مندوبو المؤتمر هم أيضاً الى النوافذ . وما كاد كامينيف يتمكن

من توطيد النظام من جديد حتى دوى في القاعة صوت أجش لرجل مسلول :
- إنني أطلب الكلام .

وارتقى جول مارتوف ، الشقيق الحصم للنين ، المنصة وقال :

- لقد ذر قرن الحرب الأهلية ايها الرفاق ، وأشقاؤنا يُقتلون في الشوارع .
وعلينا ، لأسباب سياسية ومبدئية ، أن نبادر فوراً الى مناقشة وسائل تلافي
هذه الحرب بين الأشقاء . إن المسألة الأولى المطروحة على المؤتمر هي مسألة
السلطة ، والحال أن هذه المسألة هي في سبيلها الى أن تسوى الآن في الشارع
بقوة السلاح ...

وزجر المدفع من جديد وتعاضم الهيجان :

- يجب ان نوجد سلطة معترفاً بها من قبل الديمقراطيين جميعاً . والمخرج
السلمي غير ممكن ما لم تقم سلطة ديموقراطية موحدة .

وصفق عدد كبير من المندوبين لمارتوف ، فقد وجدت حكمة الخطيب
البشفي صدى مستحسناً . ولقد كان لنين قد اكّد بأن الأوان سيكون قد
فات يوم ٨ ...

ورد لوناتشارسكي رداً حاداً على مارتوف ، مؤيداً ضرورة التسوية
السلمية العاجلة . ولكن خنتشكوك ، المنشفي اليميني ، حطّم بسرعة مماثلة
انتصار مارتوف :

- من الضروري الدخول فوراً في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة (لجنة
في القاعة) . وقد نظمت مؤامرة عسكرية من وراء ظهر المؤتمر .
وهتف البلاشفة :

- اذهب اذن والتحق بكورني洛夫 ، يا عميل البورجوازية !

وتابع خنتشكوك :

— إن جناحنا يرفض كل مسؤولية وينسحب من المؤتمر .

— جنباء ، متخاذلون ! ثم تجرؤون على الادعاء بأنكم اشتراكيون !

وتتابع دوي الانفجارات من « بطرس وبولس » . وقوبل أبراموفيتش ،

عضو حزب العمال اليهودي « البوند » ، بالتصفير عندما أعلن :

— إن سوفيت النواب الفلاحين والدوما البلدية قد قررا الدفاع عن

الحكومة المؤقتة .

وتدخل تروتسكي :

— ان الثورة الجماهيرية ليست بحاجة الى تبرير . وما يجري الآن انما هو

ثورة ، لا مؤامرة . لقد تحركت الجماهير تحت رايتنا ، والآن يطالبنا البعض

بالنكوص عن نصرنا وبعقد اتفاق . مع من ؟ أسأل مع من ؟ مع تلك الجماعات

الصغيرة البائسة التي اقترحت هذا الاقتراح ؟ كلا ! لا مجال لاتفاق . لقد

أديتم دوركم . فغادروا اذن خشبة المسرح الى المكان المخصوص لكم من

الآن فصاعداً ، الى سلة قمامة التاريخ .

وقال مارتوف :

— إننا لذاهبون .

وفيما راح المندوبون يهتفون لتروتسكي ، شق مارتوف طريقه بصعوبة

يتبعه سوخانوف الذي أشار الى المناشفة اليساريين بمغادرة المكان . وبعد ان

استتب الهدوء قال كامينيف :

— فلنتابع عملنا ايها الرفاق .

*

منتصف الليل . ولد ٨ تشرين الثاني ، والحكومة ما تزال صامدة ، وقصف

« بطرس وبولس » ما عاد يصيب القصر الذي تهتز أرجاؤه بدوي الانفجارات .

بيد ان أربعين بحاراً تمكنوا من اقتحام احد الأبواب من جهة نهر النيفا .

وكانت ابواب الطابق الأول من المرايا . وقد انعكس على أحدها صورة
كوكبة من فرسان القوزاق . وصاح الجندي المتقدم :
- الخيالة

وحاولت سرية البحارة الانسحاب ولكنها اصطدمت بالضباط التلامذة
الذين جردوها من سلاحها .

*

في ميدان نفسكي المطفأة أنواره تقدم موكب مدني عليه علامة النعمة
أربع أربع . وكان ينشد المارسييز متقدماً باتجاه قصر الشتاء . وعند قناة كاترين
أوقفت الموكب سرية حراسة من الجنود والبحارة :
- ممنوع المرور .

- جميع هؤلاء الرفاق قادمون من مؤتمر السوفييتات . انظروا الى بطاقاتهم .
لاني أنا نفسي عمدة هذه المدينة .

- ممنوع المرور لأي شخص كان . إن أوامر اللجنة العسكرية الثورية
واضحة دقيقة .

- سوف نمر باذنكم او بغير اذنكم .

كانت الوفود الثلاثة التي أرسلتها الدوما البلدية الى سمولني واورورا
والقصر المحاصر قد ارتدت على أعقابها خائبة . فاجتمع آنذاك المجلس البلدي
في مقره بجادة نفسكي ، ملجأ كل الرسميين الموالين للحكومة . وقد انضم
الى المجتمعين معظم نواب السوفييت الذين تركوا سمولني وعلى رأسهم
افكسانتييف و ابراموفيتش و خنتشوك ، وكذلك بروكوبوفيتش ، وزير التموين
المنشفي . وقد تم اتخاذ القرار بالذهاب الى ميدان القتال تلبية لاستغاثة الحكومة
بالتصويت الاسمي . فقد أجاب كل منتخب عندما قرىء اسمه :

- اجل ، سأذهب للموت مع الحكومة المؤقتة .

وكانت الكونتيس الثرية صوفيا بانينا ، ابنة وزير عدلية الكسندر الثالث ،

أبلغ المتحدثين . فقد قالت :

— اذا لم يكن في وسع المتخبين الاقتراب من قصر الشتاء ، فإنهم يستطيعون على الأقل ان يقفوا امام المدافع وأن يعلنوا ان البلاشفة سيمرون على أجسادهم قبل أن يعدموا الوزراء رمية بالرصاصة .

كان الموكب المدني يضم ثلاثمئة شخص تقريباً . وكان على رأسه بروكوفيتش حاملاً فانوساً بيد ، ومظلة باليد الأخرى . وألحف العمدة على البحارة بالسؤال :

— ماذا ستفعلون اذا مررنا ؟

— ماذا سنفعل ؟ سرذكم على أعقابكم . وعند الضرورة سنطلق النار .
واعلى بروكوفيتش صندوقاً وشهر مظلته وقال :

— ايها الرفاق المواطنين ! إنهم يستخدمون القوة ضدنا . إننا لا نستطيع ان نترك هؤلاء الجهلة يلوثون ايديهم بدمنا البريء . وليس من اللائق بكرامتنا كنواب ان نقتل هنا برصاص المحرضين . فلنعد الى الدوما ولندرس هناك وسيلة إنقاذ البلاد والثورة .

*

خرست مدافع القلعة بعد ان أطلقت خمساً وثلاثين قذيفة في مدى ساعة ونصف ساعة . وامكن للحكومة ان تتصل للمرة الأخيرة بالجنرال دوخونين الذي أبلغها بخيانة الجنرال تشيريميسوف وبالصعوبات التي تعترض إرسال النجديات . وفي سمولني كان سيل النواب البلاشفة ما يزال يتدقق على المنبر . ولم يفلح في إثارة اهتمام المؤتمرين غير خطيب واحد من دعاة المصالحة المغمورين عندما قال :

— ايها الرفاق ، ان ثلاثة اعضاء من اللجنة التنفيذية لسوفييت النواب الفلاحين محاصرون في قصر الشتاء . ان حياتهم مهددة . ومن بينهم كاترين

بريشكو - بريسكوفسكايا ، جدة الثورة .

(٦٥)

صدر أمر وقف إطلاق النار الى جميع القوى الثورية التي يتوجب عليها ان تنقض انقضاة رجل واحد على القصر من جهاته كافة . وكانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحاً ، وكانت المعارك المتفرقة قد ادت الى وقوع بعض الضحايا : عشرة قتلى وحوالي خمسين جريحاً من الحرس الأحمر .

وخيم الليل والبرد والصمت . وتوترت الاعصاب بانتظار الهجوم الأخير . فبعد اربعين سنة من النضال السري ما يزال الماركسيون الروس أسرى ليل تطاول حتى لكأنه لن ينقضي .

متى يطلع الفجر ، ايها الرفيق ؟

*

الساعة ١،٣٠ . أفلح بحاران في التسرب الى القصر من احد الأدراج الخفية وقذفا بقنبلتين يدويتين على القاعة حيث كان الجنكر متجمعين . وسقط عدد من الجرحى منهم . وتولى الدكتور كيشكين ، دكتور بروجراد ، تضييد جراحاتهم بنفسه .

وترأس بودفويسكي شخصياً قيادة الهجوم على القصر . وقطعت حبل الصمت الرصاصية المنتظرة . وزحف آلاف الرجال . واحتجبت ساحة القتال تحت ضباب دخان الأسلحة . وسقط جنود برصاص الجنكر . وتباطأ الهجوم لهنيهة من الزمن عند الاقتراب من المتاريس . ولكن سرعان ما تراجع الجنكر الى داخل القصر يطاردهم البحارة والجنود والعمال . وأقتحمت الأبواب ، وكان التلاحم جسداً الى جسد ، وفرّ الخدم ، وتصادمت سرايا المسلحة .

الساعة ٢ . خفت دوي الطلقات حتى كاد يتلاشى . واحتتمى آخر الضباط آخر الضباط التلامذة المسلحين بباب قاعة الطعام الامبراطورية التي دلف اليها

احد الضباط ليتلقى الأوامر من الوزراء :

— هل تريدون ان ندافع عنكم حتى النهاية ؟

فأجاب كونوفالوف :

— لقد فات الأوان . علينا ان نزل عند إرادة القوة . لا تهدروا دماءكم .

وتدفق الحرس الأحمر الى القاعة ليجد الوزراء جلوساً الى الطاولة وكأنهم في حالة اجتماع . وتقدم انتونوف يرافقه تشودنوفسكي :

— باسم اللجنة العسكرية الثورية أعلن أنكم ، وزراء الحكومة المؤقتة ، معتقلون .

ورد كونوفالوف :

— ان اعضاء الحكومة يرضخون لفعل العنف ويستسلمون تحاشياً لإراقة الدماء .

وكانت عقارب الساعة الجدارية فوق المدفأة تشير الى الساعة ٢،١٠ . وكلف خمسة وعشرون رجلاً مسلحاً باصطحاب الوزراء وأمناء الدولة الى قلعة « بطرس وبولس » . وتعالّت من ساحة القصر عند ظهورهم صيحات :

— موتاً لهم ، سحلاً لهم !

وتدخل انتونوف وعزز سرية الحراسة ، ولم تكن المسافة الى « بطرس وبولس » طويلة . ولكن عند جسر ترويتسكي اطلقت عيارات نارية . وانبطح الوزراء وحراسهم أرضاً . ولم يصب أحد . ولكن لم يُعرف أيضاً من أطلق النار . ثم اقتيد الوزراء الى زنزانات حصن تروبتسكوي الرطبة . وسمع كونوفالوف حارسه ، البحار كوليين ، يناديه من ثقب القفل :

— انني عامل سابق لديك . إننا لن نفقأ أعينكم كما كان اصدقاؤكم يفعلون برفاقتنا .

فسأله الوزير السابق :

— أملك سينجارة ؟

— السجاير باهظة الثمن ، ولكني استطيع ان أقدم اليك ماخوركا .

— لا أعرف كيف ألف السجاير .

— لا بأس ، سألفها عنك .

*

تم اعتقال الوزراء جميعاً باستثناء رئيسهم الشاب ، كيرنسكي ، الذي كان ما يزال في تلك الساعة يذرع المسافة الفاصلة بين بسكوف واوستروف ذهاباً وإياباً برفقة كراسنوف .

وفي القصر الذي أمسى بلا سادة ، بدأ النهب : سجاد ، ساعات جدارية ، آنية فضية ، خناجر مرصعة ، تحف . وتدخل تشودنوفسكي الذي سمي قائداً لمقر الأباطرة السابق :

— إن هذا كله ملك للشعب ، وأنتم تسرقونه .

وعين عند مخارج القصر حراساً مسلحين لتفتيش الغالين والمغلوبين . وتراكت التحف المصادرة عند الأبواب وسرعان ما تشكلت منها كومات عالية .

ودخل تشودنوفسكي في مفاوضات مع الجنكر الذين ما امكنهم الهرب ، لتقرير مصيرهم . وأبدى البلاشفة شهامة كبيرة تجاههم . فقد اطلق سراحهم بعد ان أقسموا أنهم لن يشهروا السلاح ضد السلطة السوفياتية .

أما جدة الثورة ، كاترين بريشكو — بريشكوفسكايا ، فقد امكنها الهرب من دون ان يلحظها احد من اللحظة الاولى لاحتلال القصر . وكذلك فعل الضابط المختبىء في سقيفة وزارة الحربية بعد ان تتبع دقيقة فدقيقة احتضار الديموقراطية البورجوازية . فقد قطع أسلاك جهاز اللاسلكي واعتمر بقبعته العسكرية ونزل الدرج برشاقة واختلط بالحرس البلشفي ثم عاد الى بيته من

دون أن يعترضه أحد .

*

لقد تمّ اعتقال كل من تيريشتشنكو وكونوفالوف ...

كانت عاصفة من الهتافات تحيي كل اسم . وقد أبلغ كامينيف مؤتمر السوفييتات نبأ الاستيلاء على قصر الشتاء . والسلطة السوفياتية هي الآن بمفردها على رأس روسيا الشاسعة . ولينين مختلٍ في مكتبه الصغير يكتب ويصدر أوامر .

وانتصب في قاعة المؤتمر فلاح مديد القامة :

— اننا ، نحن الاشتراكيين — الثوريين ، نطالب بأن يُطلق فوراً سراح رفاقنا الوزراء الذين جازفوا بحياتهم في النضال ضد الطغيان القيصري ، الذين ألقى بهم الآن في « بطرس وبولس » في قبر الحرية التاريخي .

وحاول تروتسكي تهدئة المندوبين :

— ان هؤلاء الرفاق الذين ضبطوا بالجرم المشهود وهم يتآمرون ضد السوفييتات لم يترددوا في إلقاء المئات من البلاشفة في السجن في شهر تموز . ومن الضروري الآن أكثر من أي وقت مضى العمل والعمل والمزيد من العمل .

واعتلى كريلنكو المنصة لاهت الأنفاس ، مترنحاً من التعب :

— ايها الرفاق ، لقد أبرقت لنا الجبهة . ان الجيش الثاني عشر قد شكل لجنة عسكرية ثورية تولت قيادة الجبهة الشمالية ... وقد اعترف الجنرال تشيريميسوف باللجنة . وقد انتقلت حامية تساركوي — سيلو بكامل عدها وعددها الى جانبنا .

ان الموج البلشفي قد حمل النصر الى خارج بروجراد ، وها هم النواب يهبون واقفين ويهتفون لكريلنكو متناسين الوزراء المحبوسين .

*

في مقر الدوما البلدية التي تتألق نوافذها على جادة نفسكي رفض أعداء البلاشفة الاعتراف بسلطة السوفييتات « اللامشروعة » . وفي القاعة الأمبراطورية التي جللت فيها صور الأباطرة بقماش أحمر منذ شهر آذار أعلن شرايدر ، وقد أحاط به دان وسكوييليف وافكسانتييف وبروكوففيتش وغوتز ولايبر ، إنشاء لجنة عامة لسلامة الوطن والثورة .

*

الساعة ٦ . بانفعال عارم أنشد مندوبو السوفييتات بكل ما أوتوا من قوة في الصوت نشيد الأهمية ثم نشيد الثورة الجنائزي ، قبل إعلان رفع الجلسة . واقترح فلاديمير بونتش - برويفيتش على لينين ان يقضي أولى ليلة له كرجل حر في شقته القريبة من سمولني . وقد بذل بونتش قصارى جهده لتكون ضيافته لاثقة بزعم الثورة المتكتم . فأقام له في الغرفة المطلة على الشارع مكتباً كبيراً عليه ما يلزم للكتابة . ثم أقفل باب الشقة وثبت المزلاج وحشا مسدسيه وسجل أرقام هواتف اعضاء اللجنة العسكرية الثورية للاتصال بهم في حالة الخطر وتمدد على أريكة وحاول ان يقاوم الوبس حتى يكفل الحراسة الأمانة لضيغه . وبعد مضي ساعة من الزمن رأى خطأً من الضوء يتسرب من تحت باب حجرة لينين الذي انتقل الى المكتب على أطراف أصابعه . إن من سيتولى رئاسة الدولة قد استفاد من سكون الفجر لكتابة أول مرسوم يصدر عن حكومة الثورة : مرسوم السلام .

(٦٦)

ما كاد صباح ٨ تشرين الثاني يطل حتى تعالت ألسنة اللهب في الشارع . فأمام مقر « الكلمة » ، الصحيفة الناطقة بلسان الكاديت ، أحرقت آلاف النسخ من الجرائد بناء على أمر انتونوف وبودفويسكي . وكان سكان بتروغراد جزعين على معرفة ما حدث اثناء الليل الطويل الذي رنق قصف المدفع سكونه .

*

لم يجد كيرنسكي وكراسنوف عندما وصلا الى اوستروف غير ستمثة جندي من القوزاق ، وعلى رأسهم « الفرقة المتوحشة » التي كانت قد زحفت قبل شهرين على بتروغراد بقيادة الجنرال كريموف للإحاطة بالحكومة المؤقتة .

لقد احتاج كيرنسكي في ايلول للبلاشفة لإجباط انقلاب كورنيلوف ، وهو بحاجة الآن الى أعداء الأمس للإحاطة بـ « الشياطين الحمر » . لقد جاء دوره ليكون في وضع المتمرد . ووافق بيير كراسنوف ، المعتاد على المؤامرات وعلى التقلبات المستمرة في التحالفات ، على إرسال جنوده القوزاق لاحتلال بتروغراد . وسوف ترحل القوات في النهار نفسه باتجاه غاتشينا لتستولي على تساركوي - سيلو حيث توجد محطة إذاعة يستطيع كيرنسكي بواسطتها أن يخرج من عزلته .

*

ان تنظيم السلطة هو المسألة الملحة التي ينبغي على اللجنة المركزية المجتمعة حول لينين ظهراً أن تسويها قبل انعقاد الجلسة الثانية والأخيرة لمؤتمر السوفييت في الساعة ٢١ . وقد كان من نتائج العزلة التي فرضها المناشفة والاشتراكيون - الثوريون على البلاشفة بتهربهم من كل مساهمة أن هبطت أسعار الأسهم هبوطاً مريعاً في البورصة عند افتتاحها . ولكن هذه الأسهم قد باتت من الآن ، في نظر البرنامج الشيوعي ، مجرد اوراق لا قيمة لها ، والبورصة مجرد متحف للأسمالية .

*

وافقت اللجنة المركزية على اقتراح تروتسكي بإلغاء المصطلحات السياسية التقليدية مثل الوزير والحكومة . فالأمة الاشتراكية الاولى سيسوسها مجلس مفوضي الشعب الذي عرضت رئاسته بالاجماع على زعيم الثورة الذي لامنازع له : فلاديمير ايليتش اوليانوف . وما أشد ما كان ذهول المجتمعين عندما رفض لينين المشاركة في التشكيلة المولحة بشؤون الحكم ، مؤثراً ان يبقى في

الظل لتوجيه اللجنة المركزية . بيد انه اضطر في النهاية للنزول عند ارادة المحيطين به ليتسلم رئاسة الحكومة البروليتارية العالمية الاولى المشكلة من الرفاق الأوفياء في ليل المقاومة الطويل . وسوف يمارس أحد عشر مثقفاً وأربعة عمال دكتاتورية البروليتاريا بصورة جماعية :

الرئيس : فلاديمير ايليتش اوليانوف – لينين .

الشؤون الخارجية : ليون تروتسكي .

الداخلية أ.إ. ريكوف .

العمل : أ.ج. شليابنيكوف .

الحربية والبحرية : ثلاثي مؤلف من انتونوف – اوفسينكو ، كريلنكو ، دينكو .

التعليم العام والفنون الجميلة : أناتول لوناتشارسكي .

التجارة والصناعة : ف.ب. نوغين .

القوميات : ستالين .

الزراعة : ف.ب. مليونين .

المالية : إ.إ. ستيانوف .

العدلية : ج.إ. لوموف .

التموين : إ.أ. تيودوروفيتش .

البريد والبرق : ن.ب. أفيلوف .

ولم يقبل كامينيف وزينوفايف في مجلس مفوضي الشعب ، ولكن الأول سيحتفظ بمنصبه كرئيس للتسيك ، وسيتولى الثاني رئاسة تحرير الصحيفة الناطقة بلسان السوفييتات ، « الازفستيا » .

*

قطع جول مارتوف أعمال اللجنة المركزية وطلب مقابلة ممثل بلشفي مفوض . وسمي كامينيف لاستقبال زعيم المناشفة الأيمن الذي جاء مرافقاً عن الوزراء الاشتراكيين ، مطالباً بإطلاق سراحهم فوراً . وطمأنه كامينيف بعد استشارته زملاءه :

— سيغادر الوزراء « بطرس وبولس » في غضون بضع ساعات ليقيموا في منازلهم إقامة جبرية .

*

دخلت أعداد كبيرة من نواب البرلمان التمهيدي المنحل والأعضاء السابقين في التسليح والضباط الموالين للديموقراطية البورجوازية الى لجنة السلامة العامة التي شكلتها الدوما البلدية . وتهايت الثورة المضادة للضرب على الصعيدين العسكري والمدني: ودُعي الموظفون الى تخريب جهاز الدولة ، بينما نظم الجنرال الكسييف اجتماعات سرية دعا فيها وحدات الحامية الى الإطاحة بالحكومة العمالية بالقوة . واتصلت لجنة السلامة العامة ببوريكفيتش الذي يتمتع بحظوة كبيرة لدى ضباط العهد القديم . وكُلف بوريس سافنكوف بالاتصال بالجنرال كراسنوف لتوقيت تمرد العاصمة مع تدخل قوزاق «الفرقة المتوحشة» . وقد تم في مدى بضع ساعات جمع فرسان اوستروف الستمائة ونقلهم في قطار خاص . ولكن تشيريميسوف تذرع بحجة وأخرى حتى لا يجرر الطريق الضروري لمرورهم . ورجا الكسندر كيرنسكي ، الذي كان مع القوزاق ، كراسنوف بأن يصدر الأمر بالرحيل مهما تكن العقبات للإفلات من الطوق الذي ضربه المحرضون المتزايد عددهم باستمرار حول رصيف المحطة لحث القوات من نوافذ القطار على عدم شهر السلاح ضد العمال . وفي خاتمة المطاف قرر كراسنوف ان يعهد بالقاطرة الى قائد حرسه الشخصي ، الميكانيكي سابقاً ، والى اثنين من القوزاق . وتحرك القطار في الساعة ١٥ ، وحرق مرحلة بسكوف وانقضّس بأكبر سرعة له باتجاه دينو — غاتشينا .

*

اعلن المناشفة والاشتراكيون - الثوريون ، دعاة الحل الوسط كما سماهم لينين ، عن مقاطعتهم الجلسة الثانية لمؤتمر السوفييتات ، خالقين بذلك معضلة خطيرة للجنة المركزية البلشفية التي لا تستطيع الوصول الى جمهرة الفلاحين عن غير طريق الحزب الذي أسسه تشيرنوف وافكسانتييف . وعرض لينين على ماريا سيريدونوفا ، معبودة الفلاحين الفقراء ، للدخول الى مجلس مفوضي الشعب ، ليحرم بذلك الحزب الاشتراكي - الثوري من جناحه اليساري . وجلست ماريا على أريكة حمراء ، تجاه عدد من اعضاء اللجنة المركزية . ووقف لينين خلفها محاولاً إقناعها بأن تجعل من دخولها مجلس مفوضي الشعب رمزاً للاتحاد الذي لا يقهر بين العمال والجنود والفلاحين الفقراء . ولم تستطع سيريدونوفا ان تتخلي بسهولة عن حزبها ، وقالت :

- كل ما يستطيع ان يفعله الاشتراكيون - الثوريون اليساريون هو ان يبقوا معكم في اللجنة العسكرية الثورية وأن يفكروا بتعاون أوثق عندما يعرفون برنامجكم الزراعي معرفة افضل .

*

اهتزت ارض قاعة سمولني الكبرى من جديد بفعل الحماسة ، وهمت بأن تنهار . فقد افتتحت الجلسة الثانية لمؤتمر السوفييتات في الساعة ٢٠،٤٠ بعاصفة من الهتاف . وطارت القبعات وغير القبعات في الهواء عندما دخل القاعة أعضاء التسيك وعلى رأسهم لينين الذي يظهر لأول مرة للملا . وأعلن كامينيف عدداً من التدابير التي اتخذتها اللجنة العسكرية الثورية .

- لقد ألغيت عقوبة الإعدام في الجيش ، وأعيد العمل بحرية الدعاية ، وأطلق سراح الضباط المعتقلين لأسباب سياسية ، وأصدر أمر باعتقال كيرنسكي وسوف تم مصادرة مخزونات الأغذية من المخازن الخاصة .

وأعلن احد خطباء « البوند » أن حزبه سيغادر المؤتمر :

- ولكنكم قد غادرتموه أمس !

بذلك صاحت بعض الأصوات ثم تعالت الصيحات من جديد عندما
اعتلى المنصة منسفي أممي :
- أعدتم !

ان صبر المندوبين قد نفذ ، فهم انما ينتظرون لينين . وها هوذا لينين
يتقدم بقامته القصيرة ورأسه الكبير الأصلع وعينيه الخرزوين وفمه العريض .
وانتصب الموثمرون وقوفاً وتعالت هتافاتهم بلا نهاية . واستند لينين الى المنصة
مبتسماً وقد أفعمته هذه الحرارة . هذيان عفوي من الجماهير التي تحب انتصار
البشر البسطاء والنهاية السعيدة للتحديات المستحيلة . هذيان يجرف المتشككين
ويقنعهم بأنهم كانوا دوماً في صف المؤمنين المتفائلين . وكانت أولى الكلمات
التي قالها ذلك الرجل اللامنظور ، ذلك الرجل الآتي من بعيد ، ذلك الأممي
الذي يعمل في الظلام ، رجل المنفى والعرين ، الغائب الذي كان على حق ،
الغريب الذي أضحي أسطورة :

- إننا نتقل الآن الى بناء النظام الاشتراكي .

ومن جديد ضجّت القاعة بموجة عارمة من الفرح قبل ان يلج لينين
لب الموضوع :

- المطلوب أولاً اتخاذ التدابير العملية لتحقيق السلم . وإليك الإعلان الذي
سيوجهه مجلس مفوضي الشعب الى شعوب وحكومات جميع البلدان المتحاربة :
« إن الحكومة العمالية والفلاحية المنبثقة عن ثورة ٧ تشرين الثاني ١٩١٧
والمستندة الى سوفياتات النواب العمال والجنود والفلاحين ، تقترح على
جميع الشعوب المتحاربة وعلى حكوماتها الدخول حالاً في مفاوضات لتحقيق
سلم فوري بلا ضم (أي بلا غزو للبلدان الأجنبية ، بلا سلب عنيف للبلدان
الأجنبية) وبلا تعويض ...

« إن الحكومة ترى ان الاستمرار في هذه الحرب ، للإجابة على السؤال
المتعلق بمعرفة كيفية تقاسم الأمم الغنية والقوية للشعوب الضعيفة التي غزتها ،

هو اكبر جريمة تقترف ضد البشرية . وهي تبدي رغبتها في التوقيع فوراً على معاهدة صلح حدأ لهذه الحرب بالشروط المشار إليها والواجب تطبيقها على جميع الشعوب بلا استثناء ..

« إن الحكومة تلغي الدبلوماسية السرية وتعلن من جانبها عن نيتها الحازمة في إجراء مفاوضات علنية امام الشعب قاطبة ، وتبادر فوراً الى نشر جميع المعاهدات السرية التي صادقت عليها او وقعتها حكومة كبار الملاكين العقارين والرأسماليين منذ آذار حتى ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ..

« إن حكومة روسيا العمالية والفلاحية ، بتوجيهها مقترحات الصلح هذه الى حكومات البلدان المتحاربة وشعوبها قاطبة ، توجه ايضاً وبوجه خاص الى العمال الواعين في الأمم الثلاث الاكثر تقدماً ، في اكبر الدول المساهمة في الحرب الراهنة ، الى عمال انكلترا وفرنسا وألمانيا ... » .

وتابع لينين :

— إننا لا نعلل أنفسنا بالأوهام حول طبيعة الاستقبال الذي ستخص به الحكومات الامبريالية هذا الاقتراح ، ولكننا نأمل ان الثورة ستندلع وشيكاً في جميع البلدان المتحاربة .

وضجت القاعة وهاجت . وهرع المندوبون الى المنصة لتحية لينين . ودوت الحناجر بنشيد « الأمية » ثم بالنشيد الجنائزي :

لقد سقطتم في ساحة النضال الأخير .

عرفتم المنفى تحت نير الأغلال .

آن الأوان ليستيقظ الشعب

الوداع يا أشقاء ...

وتمت الموافقة على مرسوم السلام برفع الأيدي ، في جو محموم بالهذيان .

ثم قرأ لينين ، مشرق الوجه ، المرسوم الثاني الذي حرره ليلاً .

« تلغى الملكية العقارية فوراً بدون أي تعويض (هتاف) . وتوضع أراضي الملاكين العقاريين وكل أراضي الإقطاعات والأديرة والكنيسة ، بكل ما فيها من مواش حية او ميتة (١) ، وبكل ما عليها من مبان وملحقات ، تحت تصرف اللجان الزراعية وسوفيات النواب الفلاحين في الأقاليم إلى أن تتولى الجمعية التأسيسية تسوية المسألة . وكل مساس بالخيرات المصادرة التي تخص ملكيتها من الآن فصاعداً الشعب قاطبة يعتبر جريمة خطيرة تعاقب عليه المحكمة الثورية . وتتخذ سوفيات النواب الفلاحين في الأقاليم كل التدابير الضرورية لتأمين حراسة ثورية حازمة على كل الاستثمارات الزراعية والأبنية والآلات والماشية والموئن ، الخ ، التي تنتقل ملكيتها الى الشعب .. وأراضي الفلاحين البسطاء والقوزاق البسطاء غير خاضعة للمصادرة . »

ودامت المداولات أكثر من اربع ساعات . وكانت الساعة ٢,٣٠ صباحاً عندما قرأ كامينيف مرسوم تشكيل الحكومة . وقوبل كل اسم بالهتاف : ولكن المعارضة لم تلق السلاح . فقد تهجم الصحفي المشفي آفيلوف من مقعده :
— أفي وسعكم وحدكم أن تحلوا المشكلات الكبيرة ؟ ان الثورة في المانيا مستحيلة ما استمرت الحرب . وستكون العزلة بمثابة ضربة قاضية تسدد الى روسيا والثورة . ولقد علمت ان سفراء الحلفاء على وشك الرحيل وأنه لن يعترف بكم أحد لا في لندن ولا باريس ولا برلين ولا واشنطن . وتشكل الآن عبر أرجاء البلاد لجان للسلامة الوطنية . إن حكومة ائتلاف اشتراكي هي وحدها التي يسعها إنقاذ الثورة .

وكما هي العادة تولى تروتسكي الرد :

— ان الكلام عن خطر عزلة حزبنا ليس بالجديد . فلقد كان الجميع ضدنا باستثناء الجناح اليساري من الاشتراكيين — الثوريين الذي دخل معنا

(١) : الماشية الميتة : الآلات والمباني الزراعية المؤجرة . « المترجم » .

في اللجنة العسكرية الثورية . فكيف أمكننا اذن ، من غير إراقة دماء تقريباً ، أن نطرح بالحكومة ؟ إن هذه الواقعة لأسطع دليل على أننا لم نكن معزولين . والواقع أن الحكومة المؤقتة هي التي كانت معزولة ، والواقع ان الأحزاب الديمقراطية التي تسير ضدنا هي التي كانت وما تزال معزولة ومفصولة الى الأبد عن البروليتاريا . إنهم يتحدثون عن ضرورة ائتلاف . ليس هناك غير ائتلاف واحد ممكن ، ائتلاف العمال والجنود والفلاحين الفقراء عن أي نوع من الائتلاف يريد آفيلوف ان يتكلم ؟ عن ائتلاف مع اولئك الذين أيدوا حكومة خيانة الشعب ؟ إن الائتلاف لا يعني دوماً قوة . هل كان في وسعنا ، على سبيل المثال ، ان ننظم الثورة وبين ظهرانينا دان او افكسانتييف ؟ (ضحك) . إن افكسانتييف لم يعط الكثير من الخبز . فهل سيعطي الائتلاف مع انصار متابعة الحرب المزيد من الخبز ؟ اننا ، بين افكسانتييف والفلاحين ، إن ثورتنا ستظل ثورة التاريخ الكلاسيكية ... إننا نُتهم برفض التفاهم مع الاحزاب الديمقراطية الأخرى . كلا ، ايها الرفاق . عندما يقول حزب من الاحزاب وهو في أوج العمعة الثورية ودخان البارود لما يتشع عنه بعد : « هي ذي السلطة . خذوها » ، ثم ينتقل اولئك الذين عرضها عليهم الى صف العدو ، فإن هذا لا يسمى سوء تفاهم ، إنما هو إعلان حرب ضروس . ولسنا نحن الذين أعلنها ، تلك الحرب .

ووقف رجل مربع القامة ، يرتدي زي عمال السكك الحديدية ، وألقى بقنبلة حقيقية :

— باسم منظمة عمال سكك الحديد ، أقوى منظمات روسيا ، أطلب حق الكلام . لقد كلفني النقابة بأن أنقل اليكم قرارها . اننا نرفض أي دعم للبلاشفة ما داموا مصرين على الانعزال عن سائر الديمقراطية . اعلموا جيداً ايها الرفاق أنكم بدوننا لا تستطيعون شيئاً لا ضد كورنيلوف ولا ضد كبير نسكي . إنني اعرف انكم أرسلتم فصائل لجعل السكك غير صالحة للاستعمال عند مشارف العاصمة . لقد ضحكنا من عمل فصائلكم . اننا نستطيع أن نصلح

كل ما فعلوه في عشرين دقيقة . لقد قررت النقابة أن تأخذ بيدها كل إدارة السكك الحديدية .

ورد تروتسكي رداً بسيطاً :

– اننا نقبل كل الاحزاب التي توافق على برنامجنا .

وكانت عقارب الساعة تشير الى الخامسة صباحاً عندما أعلن اختتام مؤتمر سوفيات عموم روسيا ، واستعد المندوبون للعودة من حيث جاؤوا . والتقى لوناتشارسكي بسوخانوف في الأروقة ، وقال :

– اجل ، إنها لأحداث عالمية المدى . إن أحفادنا سينحون امام عظمتها .

*

لم يلاحظ احد ، اثناء تلك الجلسة الطويلة ، حضور طالب يافع اجتذبه سمولني كما يجتذب المصباح الفراش . ففى في العشرين من العمر ، سليل أسرة غنية ومثقفة ، شاعر وطالب في مدرسة العلوم التكنيكية المتنوعة ، ومن أتباع المذهب الاشرافي : ليونيد كانوغيسر . لقد شهد عن قرب انتصار الاشتراكية من غير ان ينبس ببنت شفة . ولكنه عندما خرج من المعهد قال عن خطاب لينين انه لم يكن خطاباً سياسياً ، بل صحيحة روح انسان انتظر طوال ثلاثين عاماً تلك اللحظة ، وانه خيّل إليه انه يسمع صوت جيروم سافونارولي .

ولم يهتد كانوغيسر الى البلشفية . فهو لم يأت الى المؤتمر إلا ليغذي عقيدته الرجعية من نبع العدو ، وليستمد القوة على القتل^(١) .

(١) : سوف يقوم كانوغيسر بقتل اوريسكي ، رئيس تشيكا بتروغراد ، في ٣٠ آب ١٩١٨ ، في اليوم نفسه الذي سيتعرض فيه لينين الى اول محاولة اغتيال . وكان فولودارسكي قد سقط قبل شهرين تحت رصاص الإرهابيين – الاشتراكيين – الثوريين . وكانت هاتان الحادثتان الشرارة التي أضرمت نار الحرب الأهلية .

سقطت مدن مينسك وايفانوفو ولوغانسك ونيني - نوفغورد في يد السوفييتات في اليوم نفسه الذي سقطت فيه العاصمة . ووقعت الصدامات الاولى في موسكو حيث احتل العمال والجنود مكاتب البريد والبرق . ولكن وصلت في الوقت نفسه الى اللجنة العسكرية الثورية معلومات كثيرة عن وساعة الهجوم المضاد الذي يعده « البيض » . وفيما كان لينين يعرض مقترحات السلم وإلغاء الملكية الكبيرة ، كان عدد من المفوضين قد ذهب الى الثكنات بناء على أمر من سفيردولوف . وكانت الحامية قد اتخذت موقف الحذر خشية الاقتتال بين جنود بلد واحد . ولم يبد سوى بضع مئات من الرجال من اصل مثني ألف جندي استعدادهم للتضحية بكل شيء في سبيل القضية الاشتراكية . ولم تجد اللجنة العسكرية الثورية غير المصانع تتوجه اليها لتناشد العمال وتمهيب بهم ان يعارضوا القوات المتمرسه في القتال التي تهدد العاصمة .

لقد كسب الحزب البلشفي التمرد ، ولكنه لما يربح الثورة .

(٦٧)

بعد استراحة اربع ساعات في بيت بونتش - بروثيفيتش ، الذي سمي مديراً لمجلس مفوضي الشعب ، واجه ايليتش من جديد المشكلات الضخمة في صبيحة ٩ تشرين الثاني . ففي الليل كان الجنرال كاليدن ، قائد قوزاق الدون ، قد دعا الى شهر السلاح دفاعاً عن الحكومة المؤقتة . وأيد الوزراء الاشتراكيون المطلق سراحهم ، نيكيتين وماليونوتوفيتش وغفوسديف الذين انتقلوا الى معسكر البيض ، أيدوا الإضراب العام الذي أعلنه الموظفون والذي شل (١٦) وزارة ومصرفاً . وقد اطلق لينين على هؤلاء الموظفين المناصرين لثورة آذار ، المعادين لثورة تشرين الثاني ، لقب « الفجل » لأنهم « حمر من الخارج ، بيض من الداخل » . وبدونهم لا يستطيع البلاشفة أن يسيروا الدولة البورجوازية بدون بورجوازية . والحق ان لينين الذي لم تؤثر الأحداث على صحو فكره لم يتردد في القول :

— إن مهندساً بورجوازياً واحداً يساوي عشرة من الشيوعيين .

وأصدر مجلس مفوضي الشعب أمراً بإنهاء الاضراب ، وأعلن عن اجتماع الجمعية التأسيسية في ٢٧ تشرين الثاني . وحظر في الوقت نفسه صدور الصحف المناهضة للثورة حتى لا تضاف قنابل من الكذب إلى القنابل التي يهيتها كاليدن .

*

عند الفجر أفرغ قطار كيرنسكي حمولته من القوزاق في محطة وارسو بغاتشينا حيث ولى البحارة والحرس الأحمر الأذبار . واحتل كراسنوف المدينة التي تبعد ثلاثين كيلومتراً عن العاصمة بلا قتال . وذهب رئيس الوزراء الى قصر كاترين الثانية حيث أقام هيئة أركانه ، وقدمت إليه مدرسة المدينة الجوية طائرتين لإلقاء المناشير والأوامر فوق بتروغراد . ورجا كيرنسكي كراسنوف بأن يزحف على تساركوي — سيلو قبل أن يتاح للحمم الوقت لإقامة جبهة فيها ، ولكن الجنرال رد قائلاً :

— ليس عددنا كبيراً بما فيه الكفاية . سأستولي على تساركوي — سيلو غداً قبل مطلع الفجر حتى لا يتمكن البلاشفة من تقدير قوانا الضعيفة على حقيقتها . واذا حالقنا الحظ قليلاً فإن مشاة دوخونين سيكونون هنا هذا المساء .

*

أقام بودفويسكي ، رئيس اللجنة العسكرية الثورية ، في مقر هيئة أركان الحرس شرقي قصر الشتاء ، وعهد الى انتونوف وديبنكو بإنشاء خط دفاعي لحماية جنوب بتروغراد . وتولى تروتسكي إدارة العمليات العامة ، بينما وضعت المدينة تحت قيادة عسكري محترف ، العقيد مورافيف . ولم يكن لمورافيف رأي سياسي محدد . فقد دفع به طموحه الى مقاومة ثورة آذار ، ثم دفع به عصيان كورنيلوف الى صفوف الاشتراكيين — الثوريين . ومهما يكن ، فإن البلاشفة بحاجة الى الكوادر وليس ثمة ما يدعوهم الى الشك في إخلاصه . وقد ذهب العديد من المفوضين الى السجن ، واقترحوا على القادة

العسكريين القدامى أن يصبحوا حلفاءهم . وقد ذهب كريلنكو الى «بطرس وبولس» لهذا الغرض ، وقال للأميرال فيرديريفسكي :

— ان الثورة بحاجة إليك . ووزارة البحرية مهجورة . فهل تقبل بأن تتسلم إدارتها تحت رقابة مفوضي الشعب ؟

وقبل فيرديريفسكي ، ومثله فعل فيرخوفسكي وزير الحربية السابق وخلفه الجنرال مانيكوفسكي . كما تولى رئاسة الأركان العامة الجنرال القيصري ميشيل بونتش — بوويفيتش الذي كان واقعاً تحت تأثير أفكار أخيه فلاديمير . وعين راهايا ، الذي تشكى من أنه أصبح بلا عمل منذ أن استغنى لينين عن خدماته ، مفوضاً للجنة العسكرية الثورية في سكك حديد فنلندا ليحول دون هرب الأثرياء ومناهضي الثورة .

واخذ تروتسكي على عاتقه تحريض الحامية التي لا تريد ان تفتح النار على أشقائها في السلاح . وتمكن من إقناع بعض سرايا كتيبة بافلوفسكي بالانضمام الى الحرس الأحمر والبحارة لصد زحف كراسنوف بالقرب من تساركوي — سيلو .

وطوق الحرس الأحمر الدوما البلدية لمصادرة النداءات التي طبعتها لجنة السلامة العامة . وتمركزت سيارة مصفحة امام دار المجلس البلدي ونزل منها ريزانوف . وطلب من شرايدر للمرة الأخيرة أن يعترف بالحكومة البلشفية ، ولكن العمدة الاشترافي — الثوري رفض ، وعاد ريزانوف الى سمولني حاملاً جواباً سلبياً . وخرج العمدة من مكتبه متجهماً الأساير وقال لأصدقائه : — إجمعوا اللجنة على عجل . فالدوما ستحل وأعضاؤها سيعتقلون .

*

غطت سماء بتروغراد سحابة هائلة من المنشورات التي ألقت بها الطائفة القادمة من غاتشينا والتي تحمل توقيع كيرنسكي . وعاشت العاصمة ساعات حرجة من البلبلة . وفي الوقت الذي كان افكسانتييف يشن فيه هجوماً عنيفاً

على ماريا سيريدونوفا لتعاونها مع البلاشفة ويطلب بفصل الجناح اليساري من حزبه ، كان الجنكر الذين أطلق سراحهم بناء على كلمة الشرف التي أعطوها قد قرروا محاربة البلاشفة بالسلاح .

وخطب مندوب عن لجنة السلامة العامة برجال وحدة السيارات المصفحة الذين يبلغ عددهم ألفين والذين كانوا على وشك اتخاذ قرار مماثل لقرار الجنكر :

– ان الجنود الروس لا يمكنهم ان يطلقوا النار على الجنود الروس . من الواجب تلافي الحرب الأهلية . ولكن اذا حدث وبدأ الاقتتال ، فينبغي ان تكونوا الى جانب القانون ، الى جانب الحرية .

وحدثت مشادة عندما اراد كريلنكو بدوره أن يخطب في الألفي جندي . ثم اعتلى نفس السيارة المصفحة التي خطب منها مندوب لجنة السلامة العامة وقال :

– ايها الرفاق ، لم تعد بي قدرة على الكلام ، فأنا لم أتم منذ اربع ليال . يسألونكم ان تقفوا على الحياد أو تطلقوا النار على العمال عندما يخرج الجنكر بنادقهم ، إن كاليدن وكراسنوف وكيرنسكي يزحفون . ومجلس مفوضي الشعب هو بين ايديكم . ان الثورة ثورتكم ، فهل ستسلمونها ؟ انني أسألكم اتخاذ قرار صريح .

وقال جنود المصفحات :

– فليجر تصويت !

فصاح كريلنكو :

– ليقف من يؤيدنا الى اليسار ، ولينتقل الآخرون الى اليمين .

وتردد الجنود هنيهة من الزمن وقد لجمتهم قسوة الاختيار . ثم زحفت غالبيتهم العظمى ، فجأة نحو اليسار ، نحو كريلنكو ، مفوض الشعب لشؤون الحرب .

*

حمل رسولان من اتحاد القوزاق ، قادمان من بتروغراد ، نبأ عظيماً
لكيرنسكي ، فقد قالوا عند وصولهما الى قصر غاتشينا :

— لقد بعث بنا الكسييف . إن كتائب القوزاق الاولى والرابعة عشرة
مستعدة للانضمام الى قوات كراسنوف عند اقترابها من بتروغراد . وسيتولى
بولكونيكوف وغوتز قيادة الجنكر الذين عادوا للقتال في صفوفنا .
وكشف لهما رئيس الوزراء عن خطته :

— غداً ، ١٠ تشرين الثاني ، سنستولي على تساركوي — سيلو ، ثم سندخل
بتروغراد . وعلى المدينة ان تثور عندما تصل القوات الى ابوابها . انني أعلم
ان البلاشفة يستنفرون حرسهم . ولكنهم مجرد مدنيين مسلحين ، غير مدربين ،
بلاكوادر ولا مدفعية .

•

وردت الى هيئة أركان قاعدة هلسنغفور برقية مقلقة :

— الثورة في خطر . نحن بحاجة الى سفنكم لمقاومة كيرنسكي وكراسنوف .
ما الإمدادات التي ما يزال في وسعكم لإرسالها ؟

وأجاب البحار نيقولا اسماعيلوفيتش الذي تلقى هذه البرقية :

— اذكر اسمك .

ورسم الشريط البرقي الجواب التالي :

— لينين .

وأعلن اسطول البلطيق انه يستطيع إرسال سفن ثلاث بينها البارجة
« الجمهورية » ، وعليها خمسة آلاف رجل ، وفي غضون ثماني عشرة ساعة .
كان لينين قد أرسل برقيته من مقر هيئة الأركان الذي قدم إليه بعد الظهر
من غير ان يعلن عن وصوله . وكان ايليتش قد اقتنع من التذبذبات التي
أبرزت وجودها خلال اليومين السابقين بأنه لا مناص له من أن يتولى القيادة

بنفسه . وقد سأله بودفويسكي إذ رآه داخلاً :

— هل ينبغي ان أفسر حضورك على انه دليل على عدم الثقة ؟
فأجاب لينين بجفاء :

— ينبغي أن يجري كل شيء بسرعة اكبر . ليس لدينا مدفعية أرضية .
وعلى جميع مراكب الثورة أن ترسي على طول النيفا لتسد مدافعها الى
تساركوي — سيلو .

وعين ستالين لمراقبة تنفيذ هذه التدابير . وتولى مفوضو الشعب بأنفسهم
تنظيم الوحدات العمالية مهملين الأعمال الإدارية ، وعادوا ، كما كانوا
دوماً ، محرضين .

*

في ليلة ٩-١٠ تشرين الثاني أسرت إحدى الدوريات اثنين من الجنكر .
وثناء اقتيادهما الى « بطرس وبولس » ، حاول أحدهما ان يتخلص من قطعة
من الورق . وقد نقلت الورقة فوراً الى اللجنة العسكرية الثورية وكانت تتضمن
كل خطة هجوم البيض !

*

تحرك كراسنوف وجنوده القوزاق ليلاً باتجاه تساركوي — سيلو . وكان
في ثكنة مدينة القياصرة عشرون ألف رجل جعلتهم البليلة السياسية مترددين .
وعند الفجر حاول المشاة الحمر ان يقاوموا ، لكنهم سرعان ما اضطروا الى
الراجع . وطلب كراسنوف ، الذي كان عاقداً النية على الاستيلاء على
تساركوي — سيلو بالإقناع وبلا قتال ، من كيرنسكي ان ينتظر الأنباء في
غاتشينا . والحق ان كراسنوف كان ينتظر نتيجة المفاوضات التي بدأها
سافنكوف مع الحامية . وقد طلب « الجسم » من القوات أن تسير مع القوزاق
او تضع السلاح . وكانت الساعات تنصرم في مناقشات عقيمة . وراح كيرنسكي ،
المحرور من المعلومات ، يتشكى في قصره من بطاء العمليات ، وثار أعصابه .

*

انتصرت صلابة لينين مرة أخرى في قاعة سمولني رقم ١٧ حيث كان
اعضاء اللجنة العسكرية الثورية مجتمعين . وصحيح ان البلاشفة معزولون
سياسياً ، ولكن ايليتش ليس الآن في غابة سويسرية مع حفنة من الثوريين ،
ولا في كوخه في رازليف . انه في السلطة ، على رأس السوفييتات الشعبية
المنتشرة عبر أرجاء روسيا قاطبة . وما دام الجيش متردداً ، فليستفر اذن
العمال . وقد وجه اليهم تروتسكي وبودفويسكي نداء مأساوياً :

— اننا نأمر سوفييتات الأحياء ولجان المصانع بإرسال اكبر عدد ممكن
من العمال لحفر الخنادق ونصب المتاريس ومد الأسلاك الشائكة ، وبإيقاف
العمل في المصانع ، وجمع كل الأسلحة الحديدية البسيطة او الشائكة وسائر
الأدوات الضرورية ، وبالتسلح بكل الأسلحة الممكنة وبالوقوف على أهبة
الاستعداد لدعم جيش الثورة بكل الوسائل .

وأطلقت الصافرات عويلها المشووم في المصانع ، وفي ساعات قليلة
اتخذت بتروغراد مظهراً جديداً . فمن كل أحياء العاصمة تدفقت كتل
الرجال والاولاد والبنادق والقضبان الحديدية على اكتافهم ، وعبروا نهر
النيفا تحت إعصار المطر باتجاه الجنوب . وغصت الشوارع الموحلة بالعربات
والشاحنات المصادرة التي تحاول ان تشق طريقها وسط النهر البشري . وتحولت
النساء الى بنات متاريس ، وتولى الاولاد نقل الصناديق والبراميل والفرش .
وأخذ الرجال مواقعهم عند بوابات بتروغراد الجنوبية بانتظار الساعة الحاسمة .

وعاد لينين الى مقر هيئة الأركان ليقم فيه على نحو دائم . وانزعج
بودفويسكي من هذا « التوازي » في السلطة ، وقدم استقالته . فما كان من
لينين إلا أن رد ببرودة :

— سأقدمك الى محكمة الحزب . إنني أمرك بمتابعة عمك وبعدم عرقلة
عملي .

وانصاع بودفويسكي واستأنف عمله حالاً . ووجهت « اورورا » وسائر

السفن التي وصلت في السادس والسابع من تشرين الثاني مدافعها الى تساركووي-سيلو . ولم يبق على وصول إمدادات هلسنغفور سوى ساعات قليلة . وعززت الحراسة على « بطرس وبولس » .

لقد فقدت الثورة طابع السهولة الذي تمت به . وهي الآن تستنفر نفسها لخوض أول معركة كبيرة ضد البيض والقوزاق .

(٦٨)

شهدت موسكو في صبيحة ١٠ تشرين الثاني أفجع مأساة في تاريخ الثورة . فداخل أسوار الكرملين الحمراء سقط خمسمئة بلشفي مجردون من سلاحهم تحت رصاص رشاشات الجنكر الذين لم يتورعوا عن الإجهاز على الجرحى المترنحين الذين حاولوا الهرب من المنطقة التي تحصدها الرشاشات . وكان العقيد ريباتسيف ، قائد منطقة موسكو العسكرية ، قد دبر بعناية وبرودة دم المجزرة لتحرير حصن موسكو الرئيسي من قبضة الكنتيتين ٥٦ و ١٩٣ اللتين انضمتا عدداً وعدة الى البلاشفة ولتثبيط معنويات ثوار العاصمة الثانية .

وكان الكرملين ، المحاصر منذ ثلاثة ايام ، المقطوع عن كل اتصال بالخارج ، قد تبادل إطلاق النار عدة مرات مع الضباط التلامذة . وكانت اللجنة العسكرية الثورية قد وجهت نداء بالبطولة الحارقة الى الرقيب برزين الذي يتولى قيادة الحامية الثورية : « إن مصير الثورة مرهون بكم . إننا بأمر الحاجة الى أسلحة ترسانتكم . اصمدوا مهما يكن الثمن » .

وفي مساء التاسع من تشرين الثاني كانت متاريس الجنكر قد اقتربت وضيق الخناق على الكرملين . وقد وعدت اللجنة العسكرية الثورية بإرسال المزيد من القوات والمدفعية . ولكن الوقت لم يتح لها .

وفي الساعة السادسة من صبيحة ١٠ تشرين الثاني طُلب برزين على الهاتف . وكان هذا الطلب مثار عجب له ، فالاتصالات الهاتفية قد قطعت منذ زمن

طويل بناء على أمر العمدة الاشتراكي – الثوري رودنيف . وكان على الطرف الآخر من الخط ريباتسيف ، قائد المدينة :

– اني أندرك بتسليم الحصن فوراً . فالمدينة قاطبة بين يدي . وقد تمّ اعتقال أعضاء اللجنة العسكرية الثورية جميعاً . لديكم خمس وعشرون دقيقة لتنفيذ الأمر . وفي حال الرفض ، سأطلق المدفعية .

ولم يجد برزين ، الذي كان يستحيل عليه استشارة السلطات الثورية ، مفرأ من الإذعان . ففتح باب الحصن للجنكر الذين تدفقوا على الثكنة بأعداد كبيرة تحت حماية الرشاشات . وأصدروا أمرهم للسرايا الخمس بالخروج وبالاصطفاف بلا سلاح . وتم لهم ما ارادوا . واصطف الجنود امام دير تشودوف ، وبدأ الجنكر بتفتيشهم ضاربينهم على وجوههم بقبضاتهم او اعقاب بنادقهم . وعندما انتهت عملية التفتيش تراجع الجنكر وصدر الأمر :

– النار على العدو !

وصاح البعض :

– فلينج من يستطيع . انها لمجزرة !

وصاح أحدهم :

– انبطحوا ارضاً !

وانبطح الجنود ارضاً دفعة واحدة ، ولكن ذلك لم ينقذهم ، فقد استمر الجنكر في إطلاق النار على المنبطحين . وحصدت الرشاشات كل من حاول الاقتراب من باب الثكنة . ودامت المجزرة ربع ساعة . ويروي واحد ممن بقوا على قيد الحياة : « كنت منبطحاً ارضاً أسمع رفاقي الجرحى يصرخون ويتخبطون في فك المنية » .

ويروي آخر : « توقفت الرشاشات . وصدر أمر : وقوفاً ! فانتصب من الرجال من لم يصب وهرعوا نحو باب الثكنة . وكان يقف عنده اثنان

من الضباط التلامذة ، فقدفا بقنبلتين يدويتين » .

وعندما توقف الرمي كانت ساعة « برج المخلص » تدق التاسعة صباحاً :

– وقوفاً ايها الرعايد ! لم الاستمرار في الانبطاح ايها الجبناء !

ويصف أحدهم : « رفعت رأسي ، وشعرت انني لم أمت ، بل لم أخرج ..
وصدم عيني مشهد رهيب : رجال يتلون قبل ان يلفظوا النفس الأخير ،
جرحي يزحفون أرضاً ، يثنون ويحشرون ، موتى ... » .

وأمكن لريابتسيف ان يبرق الى جميع قيادات الأركان : « الى الجميع ،
الى الجميع ، الى الجميع . لقد سقط الكرملين . ومعارك الشوارع مستمرة
في موسكو ، ولكن المقاومة الرئيسية قد حطمت » .

*

في مساء ١٠ تشرين الثاني الدامي اكتشف أحد رجال الحرس الأحمر
في سلك حديد موسكو أربعين الف بندقية في مقطورة واقفة على خط قازان.
فقام بإبلاغ اللجنة العسكرية الثورية التي قامت بدورها بسرقتها وتوزيعها
طوال الليل .

وكانت مجزرة الكرملين قد أثارت غضب المدينة واستنكارها . فهجر
آلاف العمال بيوتهم ليحفروا الخنادق وينصبوا المتاريس . وصنع مستخدمو
الحافلات الكهربائية حافلة مصفحة . وحاصر الحرس الأحمر ، المسلح بمدافع
هاون يابانية ، مدرسة الكسيس ، عش رشاشات الجنكر . ونظراً الى افتقار
العمال إلى أجهزة تسديد فقد اضطروا الى الاقتراب من المدرسة على مسافة
أربعمئة متر قبل الشروع بقصفها . ومن جديد سال الدم ، ولكن المدرسة
سقطت وولى الجنكر الأدبار . وعندما أرخى الليل سدوله كان البيض مايزالون
مسينطرين على وسط المدينة . وقد شنّ الحمر ، الذين كانت أعدادهم تزايد
ساعة بعد ساعة ، عدة غارات مظفرة فقطعوا على الضباط التلامذة طرق
محطتي بريانسك والكسندر حيث كانت تنتظر إمدادات من الجبهة الغربية .

وانحنى ريباتسيف على خريطة لموسكو وقال لضباطه :

— إن الحمر غير مرتبطين فيما بينهم . وهم يهاجمون دونما خطة موحدة .
سوف نحدق بمواقعهم ، ونوقعهم في الشرك ونفنيهم بالمدافع ...

*

عاش كيرنسكي ، الجاهل بمأساة موسكو ، يوم ١٠ تشرين الثاني في انتظار قلق لأبناء كراسنوف . ولم تقبل حامية تساركوي — سيلو بالانضمام الى القوزاق بالرغم من ضغط سافنكوف وإلحاحه . ولما سُم رئيس الوزراء من الانتظار طلب سيارته لتقله الى خطوط « الفرقة المتوحشة » المتقدمة . وبين غاتشينا وتساركوي — سيلو صعد الى برج مرصد جوي ورننا الى الجبهة بمنظار مكبر ، فوجد القوزاق ما يزالون مرابطين بلا حراك عند مدخل المدينة . وكان كراسنوف يتفاوض مع مندوبي سوفيت القوزاق عندما انضم كيرنسكي إليه وقال له بجفوة :

— إنني أمرك باحتلال تساركوي حالاً .

ولكن كراسنوف ، المتخوف من قتال شوارع بين الأشقاء ، قابل أمر رئيس الوزراء بنفس التردد الذي قابل به تشيريميسوف كيرنسكي قبل ثلاثة ايام . وقال رئيس الحكومة الشاب :

— اعطني سرية من القوزاق وسأقوم بنفسى باحتلال المدينة .

وتقدّم كيرنسكي في سيارته اللانسيا تحديق به كوكبة من القوزاق ، واقرب من مجموعة من الجنود مرابطة عند باب المدينة الجنوبي ، وصاح بهم بعصية من سيارته :

— اذا لم تضعوا سلاحكم في غضون ثلاث دقائق ، أمرت بفتح النار عليكم .

واستسلم معظم جنود الحامية وألقوا بسلاحهم . وتراجع بعضهم الى

حديقة القصر الامبراطوري . واصبح الطريق مفتوحاً امام « الفرقة المتوحشة » التي دخلت تساركوي - سيلو واحتلت مراكز البريد والبرق ومحطة الاذاعة الثمينية والقصور الامبراطورية . ووضع كيرنسكي المدينة المحتلة تحت إمرة كراسنوف وقال له :

— غداً سنحرف على بتروغراد .

ورنا رئيس الوزراء وقلبه يشع بالآمال العريضة الى أنوار العاصمة تتلأأ من بعيد . وعاد ادراجه الى غاتشينا وكله ثقة بأنه سيقضي فيها الليلة الأخيرة من اوديسه حياته .

(٦٩)

الأحد ١١ تشرين الثاني . قبل الموعد المحدد لتبديل الحرس بقليل ، تقدمت عناصر من كتيبة سيمونوفسكي لتتولى الحراسة على مركز البريد الرئيسي في شارع مورسكايا بعد أن أعطت كالمعتاد كلمة السر . وبعد بضع دقائق كانت الاتصالات الهاتفية قد قطعت في بتروغراد كلها . ولم يكن هناك غير سبب واحد ممكن : إن عناصر من الجنكر عارفة بكلمة السر تنكرت في زي الكتيبة الاكثر إخلاصاً للبلاشفة واحتلت مركز الهاتف من غير ان تطلق طلقة واحدة ، حائثة بالعهد الذي قطعته على نفسها بعدم شهر السلاح ضد السلطة السوفياتية . وليس هذا كل شيء : فقد قدم انتونوف - الحربة ، مفوض الشعب لشؤون الحرب ، لتفتيش مركز البريد بعد تبديل الحرس ، فأحذق به الجنكر وحبسوه في سقيفة احد الطوابق العلوية . ومن تلك الحجرة التي لا نوافذ لها سمع لعلعة الرصاص الذي أنهر بغزارة عند وصول حرس سيمونوفسكي الحقيقي . وكانت حصيلة الفعل الأول من أفعال العصيان المضاد للثورة عدة قتلى من البلاشفة .

ثم توالى أعمال العنف في العاصمة تمهيداً لدخول قوزاق كراسنوف .

وقد أمر لينين ، الذي يريد رداً مناسباً ، بتطويق مركز البريد من قبل بحارة كرونشتادو « اورورا » الذين نصبوا متاريس حماية . ولم يكن أمر إعادة الاستيلاء على المبنى يستبعد امكانية الدخول في مفاوضات حفاظاً على حياة الأسير : الوزير انتونوف ، بطل فن بولونيا الأسطوري . كما قام بودفويسكي وزملاؤه في اللجنة العسكرية الثورية من جانبهم بتطويق معسكرات الجنكر الرئيسية الثلاثة : مدارس فلاديمير وبول وميشيل . وحرصاً على تجنب سفك الدماء أرسل مفاوضان يحملان العلم الابيض لتسليم قائد مدرسة فلاديمير إنذاراً نهائياً . ولكن الرجلين سقطا تحت رصاص الرشاشات عندما بلغا باحة المدرسة الصامتة . وكان لهذا الغدر الذيء أثره العميق في نفوس المحاصرين . فقد سددت فوهات المدافع الى واجهة الثكنة الرئيسية وأهمرت القنابل وسقط عشرات الجنكر صرعى بين الأتقاض . ووجه قائد المدرسة نداء هاتفياً يائساً الى قوزاق الحامية :

— سنقضي نحبنا جميعاً اذا لم تتدخلوا فوراً . إننا نناشدكم القدوم لنجدتنا .

وكان رد الناطق بلسان القوزاق :

— إننا لا نستطيع شيئاً لكم . فهناك مدفعان يسدان مخرج ثكناتنا . اننا

لا نستطيع حتى محاولة الخروج .

وقرّر الجنكر ، المعزولون تحت قصف المدفعية ، الصمود حتى الرمي

الأخير . وامتدت نار الحرب الأهلية الى بتروغراد كلها .

*

في تساركوي — سيلو أستعرض كيرنسكي على حصان ابيض قواته . ولما كانت غالبية الحامية قد أصرت على موقف الحياد ، فقد اراد كيرنسكي في صبيحة ١١ تشرين الثاني ان يضرب لها المثل . وهكذا فتح القوزاق النار على كتيبة الرماة الثانية لرفضها الانضمام الى قوات كراسنوف ، وقتلوا منها عشرة جنود . وقد كان لهذا « المثل » تأثيره على جنود الحامية البالغ

تعدادهم عشرين ألفاً ، ولكن النتيجة جاءت على نقيض ما كان رئيس الوزراء يتوقعه . فقد اجتمعت لجان الكتاب واتخذت قرارها النهائي : لن يذهب أي رجل الى بروجراد لمحاربة البلاشفة .

وفيما كانت الساعات الثمينة تفلت بلا جدوى من بين اصابع كيرنسكي كالرمال ، كان البلاشفة يبنون خطهم الدفاعي ويعززونه .

*

كان يوم ١١ تشرين الثاني يوم مناوشات في موسكو . ولم يكن نوغين وسميرنوف ومورالوف يملكون الوسائل اللازمة لشن هجوم ضد رودنيف وريانتسيف . ولكن المخربين البلاشفة أفلحوا في عرقلة تقدم قوات دوخونين في المحطات . بالرغم من أوامر نقابة عمال سكك الحديدية المضادة للثورة . ومن الدون أعلن كاليدين قائد القوزاق أنه لا يستطيع الوصول الى موسكو . ودخل الطرفان في مفاوضات واتفقا على هدنة تبدأ في منتصف الليل . والهدنة لا تعني صلحاً ، انما هي في نظر الحمر والبيض على السواء وسيلة لإعداد العدة للهجوم .

*

الساعة ١٥ . صمدت مدرسة فلاديمير طوال النهار تقريباً . ولم يتمكن الحرس الأحمر من احتلالها إلا بفضل الثغرات التي أحدثتها في أسوارها قنابل المدافع . ولم يبق على قيد الحياة من الضباط التلامذة غير الزر اليسير . واثناء اقتياد الأسرى الى « بطرس وبولس » انهالت عليهم الجماهير ضرباً حتى الموت ، وقضى ثمانية منهم نحبتهم .

وألح لينين ، الذي كان بأمس الحاجة الى عودة الاتصالات الهاتفية ليتمكن من متابعة تطور الوضع الثوري في شتى أرجاء البلاد ، ألح على اللجنة العسكرية الثورية للتعجيل باستعادة مركز البريد . وفي الساعة ١٧ صدر أمر الهجوم . وانقضت المهاجمون بالمئات على الباحة التي كان الجنكر قد نصبوا

فيها متاريس ورشاشات . ولم يكن في وسع الضباط التلامذة صدّ البلاشفة ودفع أمواجهم المتلاصقة . وقد اقترح صحفي انجلو - ساكسوني دخول المركز مع المقاتلين السوفيائين وضع حد للاقتتال الدموي وإجراء مفاوضات . وقبل دزرجنسكي الاقتراح شريطة إطلاق سراح مفوض الشعب أنتونوف . وتعهد الجنكر ، مقابل الإبقاء على حياتهم ، بإلقاء سلاحهم وبالتسليم بلا مقاومة . واحتلت القوات السوفياتية البريد للمرة الثانية ، وأغمي من جديد على عدد من العاملات .

*

فيما كان أزيز الرصاص يدوي بين جنبات مركز البريد ، كانت عناصر الحرس الأحمر تحاصر فندق روسيا ، البويرة الأخيرة للملكيين في بتروغراد وعلى رأسهم فلاديمير بوريشكيفيتش ، قاتل راسبوتين والصحفي الناطق بلسان « المئة السود » ، وأخوه ميشيل . ودارت في ممرات الفندق معركة حقيقية ، وأمكن بسهولة اعتقال ميشيل بوريشكيفيتش وسائر الملكيين المتآمرين . ولكن فلاديمير ، زعيم المتآمرين ، اختفى ولم يعثر له على أثر . وهرع الحرس الأحمر نحو القبو للتفتيش عنه . وأضاء لهم الطريق أحد خدم الفندق وهو يحمل فانوساً . وقد سألهم :

- عن تباحثون ايها الرفاق ؟

- نبحت عن بوريشكيفيتش .

- آه ! حسناً ! من الواجب اعتقاله ، هذا الوغد !

وبعد ساعة من بحث مضمّن غير مجدٍ هتف الجندي دوروغوف الذي كان قد حمل إنذار اللجنة العسكرية الثورية الى قصر الشتاء مساء ٧ تشرين الثاني ، وهو يحدّق في الخادم :

- ولكنك انت بوريشكيفيتش !

واعتقل الزعيم الملكي الذي كان قد حلق لحيته وشاربه واقتيد الى «بطرس وبولس» حيث كان قد سبقه أخوه .

*

مع إعادة الاتصالات الهاتفية وقمع الثورة المضادة في بتروغراد امكن لسفير دلوفا ان يكون فكرة شاملة عن مسار الثورة . وقد علمت اللجنة المركزية بمرارة بالغة بالهدنة التي عقدت بين لجنة موسكو العسكرية الثورية وبين قوات رودنيف وريابنتسيف التي أحرزت انتصاراً أخيراً قبل ساعة واحدة من وقف لإطلاق النار . وبالفعل وفي تمام الساعة ٢٣ أرسل البيض ضباطاً تلامذة الى محطة بريانسك لاستقبال نجدة قادمة من الجبهة تعدادها مئتا رجل . وحتى يجتازوا جسر بورودينو الذي يسيطر عليه العمال ، قدموا أنفسهم على أنهم جنود من الكتيبة ١٩٣ ، والتفوا حول الحرس الأحمر وأسروا رجاله .

وكان لينين حريصاً كل الحرص على الانتصار بسرعة في موسكو حيث يمتلك التجار والبورجوازيون والصناعيون قوة سياسية رجعية لها حسابها . وموسكو هي أيضاً العاصمة القديمة التي كان فيها دوماً للروح الروسية مدى كبير عميق صوفي كسهوب روسيا . وأخيراً فإن موسكو هي منذ شهر آب مركز المجمع المقدس الذي أخذ على عاتقه فصل الكنيسة عن الدولة وإعادة العمل بالنظام البطريركي الذي ألغاه بطرس الاكبر . وقد انتخب ليكون ، متروبوليت المدينة ، بطريركاً في اللحظة التي كان يدور فيها القتال حول الكرملين . وقد أدان فور انتخابه للمركز السامي انقلاب لينين وتأميم أراضي الكنيسة ، المصدر الأساسي لدخل الاورثوذكسية . وقد ارفض اجتماع المجمع بحدوه أمل واسع في دفع الموجة البلشفية .

*

في تساركووي - سيلو سادت بلبلة كبيرة إذ اقترح سافنكوف على كراسنوف ان يعلن نفسه كبيراً للجنرالات بدلاً من كيرنسكي الذي تدهورت حظوته:

— استلم القيادة العسكرية . وسأحاول أنا أن اعيد تنظيم رأس سياسي عن طريق الاتصال بدوخونين وتشيرنوف في هيئة أركان موغيليف .
وكان رد كراسنوف :

— إن إقالة كيرنسكي سابقة لأوانها . وليس من المناسب الآن ان نظهر فرقنا للبلاشفة . فغداً ، سوف نحاول الاستيلاء على بتروغراد .

*

ذاق لينين أول طعم للراحة في أمسية ١١ تشرين الثاني الدامي . وذهب لزيارة مضيفته مرغريت فوفانوفا التي سألته عندما وقع بصرها عليه :
— كيف أمكن ان تأتي الى هنا والحافلات متوقفة ؟
فأجاب ضاحكاً :

— إنني الآن رئيس للوزراء ، وقد أعاروني سيارة قيصرية ...
وسألت فوفانوفا :

— قل لي ، هل كانت تلك الثورة سهلة ؟

فأجاب رئيس مفوضي الشعب ببساطة :

— لم يذق أحدنا طعم النوم منذ أربعة ايام .

والمواقع أنها ليلة السهاد السادسة ، ولكن كما يقول سان — جوست ،
« من قدر اولئك الذين يصنعون الثورات في العالم ألا يستطيعوا النوم إلا في القبر » .

في القبر ؟ إن لينين أبعد ما يكون عنه عندما قال الدكتور دان لأصدقائه في الدوما البلدية :

— ما اعظمها من سعادة لو مات ا

وسئل :

– كيف بلغ بكم العجز تجاهه الى حد تضطرون معه الى الاستغاثة بالموت لنجدتكم؟

فأجاب الزعيم المنشفي الذي عرف لينين إبان السنوات الصعبة بلهجة من سقط من يده الأمر :

– لأنه لا وجود لرجل واحد في العالم أهم مثله أربعاً وعشرين ساعة في اليوم بالثورة ، ولم تخطر في ذهنه غير الأفكار التي تتعلق بالثورة ، ولا يرى غير الثورة في أحلامه عندما ينام . كيف السبيل الى التغلب على مثل هذا الرجل !

وقد قال هذا الرجل « الذي لا سبيل الى التغلب عليه » عند عودته الى مكتب اللجنة العسكرية الثورية من منزل مرغريت فوفانوفا :

– علينا ان نبادر نحن الى الهجوم ، ولا ننتظر وصول جيش كراسنوف . والحق ان الدم كان قد سال بكثرة ما عاد يمكن معها التراجع في منتصف الطريق . وقد قال لينين : « عندما تحتطب الغابة ، تسقط الأغصان » . وقد ترجم تروتسكي هذه العبارة الرمزية الى كلام واضح صريح عندما قال في جبهة بولكوفو : « مقابل كل ثوري قتيل سنقتل خمسة من أعداء الثورة » .

(٧٠)

يبلغ ارتفاع جبل بولكوفو ٧٨ متراً ، وهو في الحقيقة تل أكثر منه جبلاً . وموقعه الاستراتيجي هو الذي يعطيه اهميته الحاسمة لأنه يطل ويشرف على المواقع المحيطة به . والبلاشفة يحتلون قمته وسفوحه .

وبولكوفو ، أول معركة نظامية في تاريخ الثورة ، ستتقابل فيه قوتان غير متكافئتين : من جهة اولى سبعمئة فارس من القوزاق ، متقنون لفنون القتال ، وتدعمهم مدفعية ثقيلة ، ومن الجهة الثانية اثنا عشر ألف حربة ، أغلبها في أيدي عمال أغرار ، لا يدعمهم غير مدفعين وأربع مصفحات .

ونتيجة المواجهة ستقرر مصير بتروغراد والسلطة . فإذا ما استولى كراسنوف على بولكوفو يصبح طريق العاصمة مفتوحاً أمامه ولن يكون على قواته ان تجتاز اكثر من خمسة عشر كيلومتراً ، واذا انتصر الحمر أمكنهم الاستيلاء على تساركوي - سيلو التي تبعد مسافة خمسة كيلومترات فقط ثم على غاتشينا الواقعة على بعد عشرة كيلومترات ، مبعدين بذلك خطر الثورة المضادة .

وتلبية لرغبة لينين حددت اللجنة العسكرية الثورية صبيحة ١٣ تشرين الثاني موعداً للهجوم . وقد دشنته القوات الثورية بغارة شنها المدنيون المسلحون منقضين من السفوح تحت تغطية مدفع رشاش . ولكن رصاص القوزاق حصد المهاجمين حصداً ، بينما كانت المدفعية تحدث حفراً عميقة في الأرض الموحلة . وكان من بين اوائل الجرحى تشودنوفسكي الذي امكن نقله الى المؤخرة .

وارتدت موجة ثانية من المهاجمين على أعقابها عند اصطدامها بسرية من القوزاق المترجلين . ولكن هجوم خيالة القوزاق الذي تولى كراسنوف التخطيط له لم يستطع بدوره اختراق خط الدفاع الأحمر العميق .

*

أرسل كيرنسكي الذي بقي في غاتشينا رسالة مقلقة الى الجنرال كراسنوف :
- لقد أعلمني دوخونين ان المشاة الذين وعدنا بهم يرفضون التحرك . سأرحل على عجل لحث القوات التي يمكن أن تهب لمساعدتنا .

ولكن أنى يستطيع ان يجد مثل هذه القوات ؟ فكاليدين لم يفلح في إقناع فرسانه من القوزاق بالذهاب الى موسكو ، بعد أن كان مرسوم لينين قد طمأنهم على اراضيهم . وكورنيلوف ، الذي هرب من سجنه في بيخوف على رأس مئتي فارس مكلفين بحراسته ، يتجه الآن جنوباً بأمل تعبئة جيش أبيض بمساعدة الكسييف ودينيكين الذي فر هو الآخر من بيخوف . أما سائر القادة العسكريين الكبار فهم عاجزون عن إصدار الأوامر الى قوات ما عادت تدافع عن نفس الوطن الذي يدافعون هم عنه .

*

وكان كيرنسكي قد سلم غوتز والمفوض المشفي رسالة يعهد بموجبها
بسلطاته الشرعية الى افكسانتييف رئيس البرلمان التمهيدي ، عندما اقتحم
سافنكوف باب مكتبه في غاتشينا .

— إن رحيلك سيهدم معنويات القوزاق . ولا يمكنك ان تسافر قبل انتهاء
المعركة ، ولن تأتي معك أصلاً أي كتيبة موالية . اننا لا نستطيع الآن الاعتماد
على غير كراسنوف .

ولم يجد كيرنسكي ، رئيس الوزراء الذي ليس له وزراء وكبير الجنرالات
الذي ليس عنده جيش ، مفرأ من البقاء في قصر كاترين الكبرى الذي اتصل
منه هاتفياً بمدرسة طيران غاتشينا راجياً إياها تسليح طائريه الصغيرتين
بالرشاشات ووضعهما تحت تصرف كراسنوف .

*

لن تبدل الطائرتين مصير المعركة التي بات القوزاق على وشك خسارتها ،
بعد أن ردهم الجيش البروليتاري على أعقابهم في كل مرة عاودوا فيها
الهجوم . ومع مقدم الليل أتاحت للبلاشفة إمكانية ذلك موخرة العدو بواسطة
ثلاث بطاريات من المدفعية جرتها الخيل من بتروغراد . واستمرت المعركة
حامية قاسية . وأثناء رمي مدفعية كراسنوف على خط تموين الجيش الأحمر
توقفت بغتة سيارة مصفحة ، فانقض القوزاق عليها ليأسروا ركبها ، وكل
ظنهم أنها أصيبت وأعطبت . ولكن الجنود الثوريين كانوا يترصدون الخيالة
من كوى المصفحة ، وتركوهم يقربون ، ثم فتحوا رشاشاتهم وأجهزوا على
القوزاق وخيولهم .

وتمكن فريق من العمال بحماية حاملي الرشاشات من احتلال بولشوي—
كوزمينو وأصبحوا عند أبواب تساركوي—سيلو . واغتم تروتسكي هذا
النصر وأمر الجبهة كلها بالتقدم . واجتمعت لجان حامية تساركوي التي ظلت
على الحياد ، وألحت على كراسنوف بأن يضع حداً للمجزرة وإلا أمرت

خيالة القوزاق التابعين لها بالانسحاب وأسقط في يد كراسنوف وأصدر الأمر بالتراجع الى غاتشينا .

وأذاع ليون تروتسكي أول بلاغ صادر عن الجيش الأحمر : بولكوفو، هيئة الأركان ، الساعة ٢,١٠ صباحاً :

« إن ليلة ١٢ الى ١٣ تشرين الثاني هي من الآن فصاعداً ليلة تاريخية . فقد أخطت نهائياً محاولة كيرنسكي لإرسال قوات مضادة للثورة الى عاصمة الثورة ... المجد الأبدي للذين سقطوا . المجد للمكافحين عن الثورة ، للجنود والضباط الذين أخلصوا للشعب ! عاشت روسيا الثورية ، الشعبية والاشتراكية ! » وفي الجانب الآخر من ساحة القتال التي تجثم عليها ثلاثمئة جثة ، أسر كراسنوف بحزن لتشيرنوف القادم من موغيليف :

— على كل الأحوال اننا لا نستطيع ، نحن القوزاق ، أن نصمد ضد روسيا قاطبة . واذا كانت روسيا قاطبة مع البلاشفة ، فماذا نحن مستطيعون؟ وفي تساركوي — سيلو التي عادت الى أيدي البلاشفة اتخذت كل التدابير الضرورية لتصفية بور الثورة المضادة . وقد دخل عدد من البحارة شاهرين المسدسات لتفتيش شقة هادثة قيل لهم إن وزيراً سابقاً يختبئ فيها ويخبيء أسلحة . ولكن البحارة لم يجدوا غير رجل مسن طريح الفراش .

— قل لنا أين هي الأسلحة ؟

— لا أسلحة هنا .

— قل لنا او نقتلك .

— من السهل عليكم ان تقتلوا ، ولكن من الصعب ان تجدوا عندي أسلحة .

— أنت وزير ؟

— كلا ، لست وزيراً .

– ما مهنتك ؟

– لأنني مفكر .

– ما اسمك ؟

– جورج بليخانوف .

ولم يعن اسم أبي الماركسية الروسية شيئاً للبحارة الذين غادروا الشقة من غير ان يفهموا شيئاً كذلك .

*

بالرغم من الهزيمة النكراء لم يطلّق كيرنسكي الأمل في إنقاذ جزء من سلطته . فقد جمع مجلس ضباطه وقال لهم :

– يجب ان نجري مفاوضات مع بتروغراد . إننا نقترح وقف الاقتتال فوراً بهدف تشكيل حكومة ائتلاف بين الاحزاب الاشتراكية والحكومة الحالية ولجنة السلامة والدوما البلدية . تلکم هي الفرصة الوحيدة لإنقاذ روسيا . ولكن رد البلاشفة على هذا الاقتراح جاء على لسان ستالين باتاً قاطعاً :

– اننا نريد التفاوض ، ولكن مع القوات لا مع القادة . فليسلمنا الجنود كيرنسكي وكراسنوف وسافنكوف ، ثم يصبح باب المفاوضات مفتوحاً ... والواقع ان رئيس الوزراء لم يعلل نفسه بالأوهام بصدد رد البلاشفة المحتمل . وفي الوقت الذي كان فيه ستالين يستمع الى الرسول الذي حمل اليه مقترحات تشكيل حكومة ائتلافية ، كان كيرنسكي يستقبل الجنرال الفرنسي ج. نيبسل ليتدارس معه امكانية تدخل خارجي أجنبي .

*

في موسكو ظلت الهدنة سارية المفعول في يوم ١٢ تشرين الثاني ، ولكن إطلاق النار استؤنف صباح ١٣ بينما كانت المدينة تسبح تحت وابل غزير . وسقط عشرات القتلى من الجانبين من غير ان يشتبك في أي معركة حاسمة

*

« ليس في شقتي التي كانت بالأمس تعج بالزوار من روح تخفق . إن صمت الموت مخيم حولي ، كما لو انني في مقبرة » .

هكذا وصف كيرنسكي نفسه صباح ١٣ تشرين الثاني وهو في مكتبه بقصر كاترين الكبرى الذي تحاصره قوات القوزاق المتبقية من معركة بولكوفو بحجة حمايته . وفي الساعة الثالثة صباحاً دخل القصر الجنرال كراسنوف الذي كان قد أرسل وفداً لمفاوضة البلاشفة والذي احتفظ بكيرنسكي كرهينة . وقال رئيس الوزراء :

– ايها الجنرال ، لقد خنتني ! إن خيالتك يتحدثون في أمر اعتقالي وتسليمي الى البحارة .

– بالفعل ، إنهم ليتحدثون عن ذلك ، ولا اکتتمك انك ممقوت من الجميع .

– أهذا هو ايضاً شعور الضباط ؟

– اجل ، لا سيما الضباط .

– ماذا يجب أن أفعل ؟ لم يبق أمامي إلا الانتحار !

– اذا كنت رجلاً شهماً ، فخير ما تفعله هو أن تذهب الى بتروغراد وفي يدك راية بيضاء وتمثل أمام اللجنة العسكرية الثورية لتتفاوض معها بوصفك رئيس الحكومة .

– حسناً ، هذا ما سأفعله .

– سأرسل معك خفراء لحراستك ، وسأطلب ان يرافقك بحار .

– لا ، لا أريد بحاراً . أتعلم ان دينكو هنا ؟

– لا أعلم من هو دينكو .

– انه عدوي .

– عليك انت ان تتحمل مسؤولياتك .

— سأرحل هذه الليلة .

— لمَ هذه الليلة ؟ سيبدو عليك وكأنك تريد الهرب . ارحل غداً صباحاً ،
بهدوء وعلناً ، حتى يرى الجميع أنك لا ترمع الهرب .

— هيء لي حراساً موثوقين .

— اتفقنا .

والواقع ان كراسنوف كذّب على كيرنسكي ، فهو يعلم من هو دينيكو ،
ويعلم ان اللجنة العسكرية الثورية قد سمته للقبض على كيرنسكي وللإستيلاء
على غاتشينا . وكيف لا يعلم به وهو الذي استقبل مساء رسله الحاملين اقتراح
المفاوضة ؟

ومن دينيكو كان « سمولي » ينتظر نبأ أسر رئيس الحكومة اليافع
السن ، بينما كانت سبائخ الثلج تنهال فوق بئروغراد الحمراء .

(٧١)

١٤ تشرين الثاني . الساعة ١٠ صباحاً . أسبوع كامل انصرم يوماً فيوماً
وساعة فساعة منذ أن غادر كيرنسكي قصر الشتاء ، وها هو الآن في قصر
غاتشينا يبحث عن وسيلة لاثقة لمغادرة مسرح التاريخ ، بينما يتداول في الطابق
الارضى وفدان حول مصيره : الوفد الأول مؤلف من كراسنوف ورئيس
هيئة أركانه بوبوف وضباط وجنود قوزاق ، والوفد الثاني مؤلف من دينيكو
الضخم الجثة يحيط به بحارة من كرونشتاد . أما الحرس المختلط من القوزاق
والبحارة ، المتمركز عند مدخل القصر فقد تلقى أمراً صارماً بعدم السماح
لكيرنسكي بالخروج لأي عذر كان .

ان كراسنوف يريد الحفاظ على حياته ، كما يريد الحرية لرجاله جميعاً .
أما دينيكو فقد قدم إلى قلب معسكر البيض حتى يتسلم كيرنسكي . والنقاش
بين الاثنين يدور حول شخص المواطن — الرئيس الذي صعد كراسنوف

لاستشارته في الساعة الحادية عشرة :

— ان ديننكو يقترح عليك ان تذهب الى بتروغراد لتقابل لينين شخصياً. وإذا قبلت ، فإن رجالي الذين حافظوا على ولائهم لك حتى اللحظة الأخيرة سينجون بجلودهم .

كان كيرنسكي يخشى هذه المقابلة . ففلاديمير ايليتش والكسنندر فيودوروفيتش لم يلتقيا غير مرة واحدة ، وذلك في سوفيت بتروغراد، منذ عهد سمبيرسك يوم كانت الصلات بين أسرتيهما على أوثق ما يمكن ان تكون الصلات . ومنذ ذلك العهد بقي الأول متمسكاً بصرامته وبفكرة العدالة التي آمن بها وبالأمل في إحراز نصر لا يستطيع اي انسان آخر ان يحققه محله ، بينما وقع الثاني رهينة اشتراكية في أيدي حكومة مؤلفة من عشرة من الارستقراطيين .

وفكر كيرنسكي بينه وبين نفسه بأن حياة القوزاق لها حسابها ، ولكن الشرعية والنضال ضد الغاصبين لهما أيضاً اعتبارهما . بيد أن كراسنوف أضاف :

— لقد ضاع كل شيء .

واضطر كيرنسكي الى التسليم بالأمر الواقع ، وطلب من حاشيته ان تتركه وحيداً مع مساعده الوفي ، الملازم فينسر الذي أسر اليه بقوله :

— لن يقبضوا علي حياً .

فأجاب فينسر :

— سأفعل مثلك .

وحشا الاثنان مسدسيهما ، عاقدين العزم على مقاومة البحارة الذين سيقدمون لاعتقالهما حتى النفس الأخير .

وفي الساعة ١٢،٣٠ أذن ديننكو الذي بات مستعداً من الآن فصاعداً لكل

التنازلات ، أذن لكراسنوف ورجاله بالقفول عائدتين الى بلاد الدون بكامل أسلحتهم وخيولهم .

وقرعت سرية من بحارة كرونشتاد باب شقة كيرنسكي ، ولكنها لم تتلق أي جواب . ولم يكن الباب مقفولاً فدفعه . ولكنهم لم يجدوا أحداً ، ف « الرهينة » قد اختفت .

وبدأت حملة تفتيش واسعة النطاق عنه ، وانطلقت سيارات عبر كل أرجاء المدينة ، ولكن بلا جدوى . ذلك أن رئيس الوزراء ومساعدته فوجئا في تمام الساعة ١٢ بينما هما يحشوان مسدسيهما برجلين مجهولين ، مدني وبحار ، يدلغان الى الشقة ويناولانها حزمة من الملابس ويهمسان :

— بسرعة يا الكسندر فيودوروفيتش ، ارتد هذه الملابس وانزل الى الباحة الخلفية حيث تنتظرك سيارة . ليس هناك وقت تضيعه ، فبعد نصف ساعة سيدهمك البحارة .

وتنكر كيرنسكي في زي بحار وهبط درجات القصر وخرج من بابه الرئيسي على مرأى من البحارة والقوزاق ، واستقلّ عربة أجرة قادمة الى باب المدينة الصيني حيث كانت تنتظره السيارة ، فصعد اليها وراحت تنهب به الارض نهياً على طريق لوغا . وبعد ساعتين توقفت عند تخوم غابة كبيرة ، وقال له سائقها ، الملازم بيلنسكي :

— انزل يا الكسندر فيودوروفيتش . إن فانيا سيشرح لك كل شيء .

وكان فانيا هو اسم البحار الذي رافقهما في رحلتها . وقد قال :

— إن عمي يمتلك بيتاً في الغابة ، وهو سعيد باستقبالك . انه يدعى

بولوتوف .

كان البيت أبعد على الراحة من كوخ رازليف ، ولكن العزلة هي مي وسط الأشجار الكبيرة التي سيجتاها بين الحين والآخر صديق وفي حاملاً

الصحف وأبناء بئروغراد .

— إنني لأحتقر كيرنسكي بعد هربه وبعد حنثه بوعدده . انه لجان وإنه لخائن .

بهذه العبارة أظهر كراسنوف ، الذي لم يكن له من دخل في هرب كيرنسكي ، حسن نيته امام دينكو . وقد أخذ هذا الأخير على نفسه مسؤولية عدم النكث بالتزاماته تجاه القوزاق . وسوف يقول مفوض الشعب عندما سيصل الى سمولني :

— لم أرَ من الضروري اعتقال راسنوف .

وتحرك القوزاق باتجاه الدون بعد ان قطعوا على انفسهم عهداً بالأا يشهروا سلاحهم ضد السلطة البلشفية .

(٧٢)

« لقد اطلعت من شهود عيان على ما جرى في موسكو . لانهم في سبيلهم الى هدم كنيسة القديس باسيل الطوباوي ، وهم يقصفون الكرملين بالمدافع ، وقد سقط الآلاف من الضحايا . إنه لتفض مضجعي افكار تدفع بي الى حافة الجنون . إنني ما عدت أحتمل المزيد . »

إن صرخة الاستغاثة هذه التي صدرت عن بلشفي مخضرم ، رفيق لينين ، ونشرتها الصحف في ١٥ تشرين الثاني ، قد زرعت البلبلة في عقول كثيرة وحركت ضمائر عديدة . ومطلقها هو مفوض الشعب للفنون الجميلة والتعليم العام ، اناتول لوناتشارسكي ، أديب الحزب المرفه الذي تنبأ له رومان رولان في عام ١٩١٥ بأنه سيصبح ذات يوم وزيراً للثقافة في الحكومة الروسية الثورية . وبلغ به الاستنكار حداً انه كتب الى لينين مقدماً استقالته . وفي اليوم نفسه أعاد اليه الطمأنينة مكسيم غوركي العائد من موسكو : فالأبناء قد وصلت اليه مضخمة الى حد مربع ، وكنيسة القديس باسيل لم تمس بأذى ،

والخسائر التي لحقت بالكرملين ليست ذات بال ، وعدد الضحايا بالآلاف .

وعدل لوناتشارسكي ، الذي يلقبه لينين ساخراً بأناتول الطوباوي ، عن استقالته . ولكن ندائه اليائس أتى ثماره . فقد صدر مرسوم بإنشاء لجنة لمقاومة أعمال الهدم والسلب ، وسرعان ما أصبحت هي اللجنة العليا : التشيكا الرهيبة بقيادة فيلكس الحديددي ، المعروف باسم دزرجنسكي .

*

إن موسكو ، المتزلمة بطبققتها الثلجية الاولى ، تعيش الآن في مأساة لا نهاية لها . فالبيض الذين تدهورت معنوياتهم ما يزالون صامدين في مواقعهم الرئيسية ، ولا سيما في الكرملين . وقد أعلن نيقولا دوخونين نفسه ، عندما علم باختفاء كيرنسكي ، قائداً أعلى لكل جيوش روسيا ، وأوقف كل قوافل الإمدادات الموالية ليجمعها حول القيادة العليا في موغيليف . وبالمقابل ، فإن النجذات ما ونت تتوالى على الحمرهم ايضاً . وقد قدم ميشيل فرونزي على رأس قوات جديدة ليمسك بمصير الثورة في موسكو بين يديه . ونفخ نيقولا بوخارين ، عضو اللجنة المركزية الذي يقال عنه انه اكثر تطرفاً الى اليسار من لينين ، روح الحماسة في الحرس الأحمر الذين انتقلوا الى الهجوم في جميع الأحياء . وقد سقط مركز الهاتف في ايديهم فجراً بعد قصفه بالهاون ، وطردهوا الجنكر من متحف الفنون المتعددة .

وتسلق أحد رجال الحرس عموداً في شارع بريتشستنكا وقذف بثلاثين قنبلة يدوية على مبنى قيادة أركان ريباتسيف . وبدأ الهجوم العام . ودوت أرجاء المدينة بأزيز الرصاص .

وفي السجون الغاصّة بمعتقلي ثورة آذار كان وزراء القيصر السابقون يتمنون هزيمة البلاشفة ، ولا سيما نيقولا ماكلاكوف الذي كان اخوه باسيل ،

سفير الحكومة المؤقتة في باريس ، قلقاً على مصيره (١) .

ولإزاء تلاشي كل أمل في النصر أو الصمود ، بدأ رودنيف وريابتسيف بالتفكير بالتسليم ، ولا سيما بعد تضيق خناق الحصار على الكرملين . ولكن البلاشفة لم يتركوا لهما الفرصة لا للتسليم ولا للمقاومة . فقد هاجمت أعداد كبيرة قصر الكرملين يوم ١٥ تشرين الثاني بعد قصفه بالمدفعية ، وتمكنوا من اختراق الأسوار ، وأصبحوا سادة العاصمة الثانية بعد أن سقط منهم خمسمئة جندي وعامل .

وفي اليوم التالي شيعت موسكو جنازة الشهداء الخمسمئة ، وأعلنت الحداد طوال اليوم . وتولى كل حي دفن أبنائه . ولم يحضر الكهنة مراسم الدفن ، فالكنائس مغلقة . ولكن الساحة الحمراء كانت قد استحالت الى خضم بشري هائل تتلاطم أمواجه من غير أن تحدها شواطئ .

(٧٣)

اعتقل الحرس الأحمر ، بدلاً من كيرنسكي ، زوجته أولغا التي كانت تجهل كل شيء عن مصير زوجها ، واقتادها الى بتروغراد مع ابنها أوليغ وغليب (٢) . ولكن سرعان ما أعيد إطلاق سراحها . أما الكسندر فيودوروفيتش فكانت الكوابيس تقض مضجعه ليلاً ويمضي ساعات النهار في جولات طويلة عبر أرجاء الغابة القريبة من غاتشينا . واذا كان لينين قد حلق لحيته يوم كان محتبباً مثله في الغابة حتى لا يتعرف أحد الى هويته ، فإن كيرنسكي قد أرسل على العكس ، وللسبب نفسه ، لحيته وشاربه وشعره . وعن طريق

(١) : أعدم نيقولا ماكلاكوف في ١٩ تشرين الاول ١٩١٨ . ومات أخوه الطبيب الكسيس في اليوم نفسه من شدة وقع الصدمة عليه . أما الأخ الثالث، باسيل، فقد بقي سفيراً في باريس بدون أوراق اعتماد حتى عام ١٩٢٤ ، يوم اعترف فرنسا بالحكومة السوفياتية .
(٢) : انها يعملان الآن مهندسين في انكلترا ، بينما يعيش والدهما في الولايات المتحدة .

الضباط الذين كانوا يأتون لزيارته في أوقات متباعدة ، عاود الاتصال بالمعارضة وحاول ان ينظم شبكة من أنصاره السياسيين . وكان قد عقد العزم على الاختباء حتى موعد انعقاد الجمعية التأسيسية المقرر افتتاحها في كانون الاول ليفاجيء النواب بحضوره في جلستهم الاولى . ولكن الأيام كانت تمر ، والسلطة تركز في ايدي البلاشفة واللجنة المركزية ، وسمولني يصبح المصدر الوحيد للحكم . وقد خصصت احدى غرف المعهد في الطابق الثاني للينين ، فصار يستقبل فيها عشرات الوفود يومياً ، ويعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم الواحد . ولم يكن هناك وقود للتدفئة . وكان على بول مالكوف الذي سمي قائداً للمعهد أن يقوم بمعجزات حقيقية لتأمين الطعام لزملاء سمولني . وقد صادر المواد التموينية المخزنة في المخازن ولدى الأفراد ، ووضعها في أقبية المعهد تحت حراسة عمال مسلحين . وقد فاجأ ذات يوم الحراس وهم يخبزون كعكاً لذيذاً شهياً في فرن صغير . فقالوا له :

— ايها الرفيق ، إننا جائعون . لقد أخذنا قليلاً من الطحين .

ولم يكن مالكوف يملك الشجاعة الكافية لإنزال العقوبة بهم ، فحاول المزاح :

— بالنسبة الى الطحين ، أنا أفهم ، ولكن أنى لكم الزيت ؟

— انه زيت مقدس ايها الرفيق ... لقد وجدناه في القناديل الموقودة امام أيقونات كاتدرائية سمولني . لقد كانت طافحة ، فأفرغناها .

فقال مالكوف :

— اذن ، فليس علي من تريب اذا اكلت أنا أيضاً من الكعك المقدس !

وعلى الرغم من سعة المعهد فقد بدا غاصاً بنزلاته . ذلك ان معظم مفوضي الشعب لم يستطيعوا دخول الوزارات القديمة . فقد أخذ لإضراب الموظفين الممول من قبل المصارف بشكل مقاومة غير معلنة . فرفض موظفو وزارة الخارجية الاعتراف بروتسكي وأخفوا مفاتيح الخزائن وحبسوا أنفسهم في

مكاتبهم عند وصوله . ولم يرجعوا عن قرارهم إلا بعد أن استقدم عمالاً لكسر الأقفال . وقد تبين آنذاك ان نيراتوف ، مساعد تيريشتشنكو ، قد ولى الأدبار مع المعاهدات السرية .

وفي وزارة العمل لم يقبل أحد بأن يدل شليابنيكوف الى مكتب الوزير . كذلك اضطرت الكسندرا كولونتاى ، التي حلت محل صوفيا بانينا في مديرية الشؤون الاجتماعية ، الى حبس المضربين في مكاتبهم الى أن سلموها مفاتيح الصناديق الحديدية التي تبين عند فتحها أخيراً أنها فارغة . فقد حملت الكونتيس أموال المساعدة الاجتماعية معها وادعت انها لن تسلمها إلا بناء على أمر من الجمعية التأسيسية .

ورفض مستخدمو المصارف دفع كل المبالغ التي طلبها سمولني . واضطر بياتاكواف ، الذي سمي مديراً لمصرف الدولة ، الى استحضار عمال لنسف الصناديق لكي يفتحها .

وسمولني هو ملجأ الجميع . فمفوضو الشعب وأعضاء اللجنة المركزية وسائر الهيئات الاشتراكية والنقابات لم يتركوا فيه مكاناً شاغراً .

وقد اعتكف ستالين في مكتب صغير في الطابق الثالث . وكانت كل عدته طاولة وكرسيين ، واحد له والآخر لسكرتيرته . ومفوض الشعب للقوميات قد رأى بعينه مولد مساعدته التي لها من العمر ١٧ عاماً وتصغره ٢١ عاماً . لقد استمعت ناديا آيلوئيف مئة مرة الى حكايات «العم جوزيف» الثورية . وانما عندما ولدت قال الأب آيلوئيف لهذا الأخير : لقد اصبحت شقتي أصغر مما ينبغي . فتدبر كامينيف آنذاك محباً لستالين لدى كيكي الجميلة المفجعة . ومع مر الزمن أضحت ناديا فتاة فاتنة . وبات ستالين يقدمها للناس على أنها خطيبته^(١) .

(١) : سوف تنتشر في عام ١٩٣٢ بعد أن أصبحت زوجته وبعد أن رجته مراراً بأن يضع حداً لنظامه الإرهابي .

لقد بدأ امتحان السلطة . وعرق الأطهار يواجه أضخم المسؤوليات .
فالثوريون المحترفون يحاولون أن يصبخوا سياسيين محترفين .

ولم يتحرج مكسيم غوركي ، الذي أذان أحداث تموز ثم الإعلان عن التمرد البلشفي ، لم يتحرج في الهجومات التي شنّها والتي لم يستثن منها أحداً :
« إن لينين ورفاقه قد تسمموا من الآن بسم السلطة اللزج وما لينين إلا مشعوذ بارد الأعصاب يسترخص شرف البروليتاريا وحياتها » .

وبرّر تروتسكي الصعوبات الناشئة : « إنكم لن تكتشفوا في التاريخ مثيلاً لمثل هذا المنعطف الوعر الذي سارت فيه أمة من مئة وخمسين مليون نسمة » .

وردّ لينين : « بعد ثورة ١٩٠٥ حكم مئة وثلاثون ألف مالك روسيا بعنف لا حد له ، ويريدون الآن أن يقنعونا بأن اربعمئة ألف بلشفي لن يستطيعوا الحكم لصالح الفقراء ضد الأغنياء ؟ » .

وقسم تنظيم السلطة للجنة المركزية . وطرح المناشفة والاشتراكيون - الثوريون علناً مسألة اشتراكهم في مجلس مفوضي الشعب . وأصرّ عمال السكك الحديدية ، الذين لا غنى للحكومة الفتية عنهم ، على المطالبة باشتراكية موحدة . واقترح كامينيف ، الذي ما يزال واقعاً تحت تأثير مواقفه المصالحة السابقة ، على لينين وصهره تروتسكي توسيع مجلس مفوضي الشعب سياسياً . وأيده في ذلك صديقه زينوفيف .

ولكن لينين لا يريد ان يقدم ثورة اكتوبر لقمة سائغة لأولئك الذين ضيعوا ثورة آذار . وانصبّ حنقه على كامينيف وزينوفيف ، وأدان أخطاءهما من غير ان يشكك في قيمتهما وحسن نيتهما . ولن يكون تاريخ الرجلين من الآن فضاعداً إلا سلسلة من الصعود والأفول حتى لحظة موتهما الفاجع .

وكل مساومة وكل مفاوضة سيكون لهما أفدح النتائج على وحدة الحزب وجذرية الاشتراكية . وما الهدف النهائي إلا بناء دولة جديدة لا سابق لها في

التاريخ . وهذه الدولة الجديدة تقتضي دكتاتورية البروليتاريا . وقد كتب لينين : « إن الحرية خدعة عندما تتناقض مع مصالح تحرر العمل والتحرر من نير الرأسمالية . والمساواة في اتجاه إلغاء الطبقات هي الهدف الأوحـد . والعدالة يجب ان تكون تابعة لمصالح تدمير الرأسمالية » .

أما المناشفة والاشتراكيون-الثوريون فلن يدخلوا الحكومة إلا يوم يعرفون بالعقيدة الاشتراكية القائمة ويقبلون بكل الوسائل القابلة لأن تنقل الانجيل البلشفي إلى حيز الواقع العملي . وبانتظار يوم الاشتراكية المآجد هذا ، فليس هناك غير الحزب البلشفي بقادر على ممارسة دكتاتورية البروليتاريا الضرورية لقلب الهرم الاجتماعي .

وأحدثت صرامة الزعيم هذه ذعراً جديداً لدى رفاقه ، فاستقال من مجلس مفوضي الشعب كل من ريكوف وميلوتين ونوغين وشليابنيكوف وتبودوروفيتش وريازانوف وإيورينيف . واقترح كل من تروتسكي وستالين وسفيردلوف وأوريتسكي وذرجنسكي وبوبنوف وإيوفي وسوكولنيكوف ، وكلهم من اللينيين اللامشروطين ، على إقالة كامينيف ، واصبح سفيردلوف رئيساً للتسيك بدلاً منه . وفي ١٥ تشرين الثاني استقال زينوفيف وكامينيف من اللجنة المركزية التي اعتبرتهما رسمياً متهمين من مسؤوليات الثورة .

ومع توطيد دعائم الحكم الداخلي ، والى لينين إصدار المراسيم السوفياتية . وكان يريد ، على عكس دعاة التسوية الذين طالبوا بإرجاء كل شيء الى يوم انعقاد الجمعية التأسيسية ، ان تكون كل التدابير قد اتخذت قبل انعقادها . وهكذا صدرت مراسيم التأمينات الاجتماعية وإلغاء الرتب ، ورقابة العمال على المصانع ، وإنشاء المحاكم الشعبية . وبتوقيع جوزيف ستالين ظهر بيان حقوق شعوب روسيا : المساواة بين الشعوب وسيادتها وحققها في تقرير مصرها ، والتطور الحر للحرريات القومية ، وإلغاء كل الامتيازات او التضييقات ذات الطابع القومي او الديني . وأعلنت اوكرانيا نفسها جمهورية مستقلة .

وتشكلت حكومات مستقلة في فنلندا وسيبيريا والقفقاس واستدعت بولونيا قواتها .

اجتاحت بتروغراد موجة من الفوضى ، وسادت المدينة أعمال السلب والنهب : فقد وجد سكان العاصمة طريقهم الى أقبية قصر الشتاء الامبراطورية . وعجبت الشوارع بجنود وحراس حمر يترنحون ثملاً . فأقبية القصر مليئة بعشرات الآلاف من زجاجات النبيذ الفاخر . وثار تائفة سمولي . ونشرت « البرافدا » مقالات تقريع . ولكن بلا جدوى . ولم يستطع جنود كتيبة بريوبراجنسكي الذين عهد لاليهم بحماية الأقبية ان يقاوموا الإغراء . وانتقلت العدوى الى جنود كتيبة بافلوفسكي بدورهم وصدر الأمر لرجال المطافئء بإغراق الأقبية . ولكنهم آثروا هم ايضاً ان يحتسوا بقايا آل رومانوف . ولم ينج من عدوى الوباء حتى جنود وحدة السيارات المصفحة . وقرر مجلس مفوضي الشعب الاستنجاد بالبحارة وأصدر لاليهم الأمر بإطلاق النار على كل من يحاول النهب . ودفع عدد من محبي الخمرة حياتهم ثمناً لرديلة السكر . وهاجم البحارة الأقبية وحطموا بالفووس البقية المتبقية من الدنان .

(٧٤)

في موغيليف ، التي أصبحت مركز المقاومة ضد البلاشفة ، استقبل نيقولا دوخونين ، الذي احاط مقر هيئة الأركان بآخر ما تبقى من القوات الموالية ، رجال السياسة من شتى الاتجاهات : سافنكوف وافكسانتييف وسكوييليف وغوتز وميلوكوف وتيريشتنكو ورودزيانكو . والواقع أن المعارضة ، التي هزمت في امتحان القوة ، باتت تفكر باللجوء الى وسائل اخرى . وقد قرر ممثلوها تشكيل حكومة مقاومة تحل شرعياً محل حكومة كيرنسكي المؤقتة . ونظراً إلى ان السيطرة في المدن هي للبلاشفة ، لذا فإن السلطة الجديدة ستعتمد على الحقول التي ما يزال الحزب الاشتراكي-الثوري سيدها ، باسطاً جناح نفوذه على روسيا بأسرها ، يميناً على الملاك ، ويساراً

على الفلاحين الفقراء . واصبح وزير الموجيك السابق ، فكتور تشيرنوف الذي حافظ على شعبية لا نقاش حولها ، أمل التجمع المضاد . وبه أنيطت مهمة تشكيل الحكومة المناوئة .

كان لينين يعي تمام الوعي الخطر الذي يحفّ بالثورة إذا لم تنضم الطبقة الفلاحية التي تمثل ٨٠٪ من سكان روسيا الى البلشفية . والحق ان السوفييتات الفلاحية كانت ما تزال بعيدة عن الثورة التي تولت سوفييتات العمال والجنود قيادتها وتنفيذها . وكان الهدف من مرسوم تأميم الارض ، الذي أصدر على جناح السرعة ، دفع الملاك الكبار والمتوسطين الى معسكر البورجوازية وإشراك غالبية البروليتاريا الزراعية في السلطة السوفياتية . والحال أن الاشتراكيين الثوريين رفضوا الاعتراف بهذا المرسوم . وقد بادر مجلس مفوضي الشعب من الساعات الأولى لوجوده الى دعوة السوفييتات الفلاحية الى عقد مؤتمر قومي ، الهدف منه تحرير الأرض من الرهن الاشتراكي – الثوري .

وما كادت قوقعة السلاح تخمد حتى دوى وقع الجزمات الفلاحية في بتروغراد . فقد وصل الى العاصمة اكثر من اربعمئة مندوب للمشاركة في مواجهة الكبرى . وقد تعالت الهتافات عندما دلف تشيرنوف الى قاعة الكسندر في الدوما البلدية حيث كان اكثر من نصف المندوبين ينتمون الى حزبه . ولم تكن نسبة تمثيل البلاشفة تتجاوز الخمس . وتعالت الهتافات مرة اخرى عندما افتتحت الجلسة ماريا سيريدونوفا الشجاعة الراسخة الشعبية التي وقع الاختيار عليها رئيسة للمؤتمر . وخطب احد المندوبين الاشتراكيين – الثوريين :

– انا لرفض ، نحن الاشتراكيين – الثوريين اليساريين ، الاعتراف بحكومة الشعب المزعومة هذه طالما أننا لم نمثل فيها . وفي الوقت الراهن ليس هناك سوى دكتاتورية واحدة هي دكتاتورية العمال . ونحن نصر على تشكيل حكومة تمثل فيها الديمقراطية قاطبة .

وكان البلاشفة قد بعثوا زينوفييف ليواجه الحملة اللاذعة . وقد ساد القاعة المهرج عندما حاول الكلام ، واضطر الى مغادرة المنصة بين قهقهة الحضور وسخريتهم . وانتقم البلاشفة له بمنعهم تشيرنوف ، بالطريقة نفسها من الكلام . وأرجئت المناقشات الى اليوم التالي . وامكن لتشيرنوف أخيراً أن يبرز أنيابه :

– لقد ارتكب البلاشفة خطيئة فادحة بحقهم الفلاحين على الاستيلاء على الارض بالقوة . فنقل ملكية الأرض يمكن أن يتم بصورة قانونية . ولكن مفوضي الشعب يريدون التعجيل بتسوية المشكلة الزراعية حتى لا تتدخل فيها الجمعية التأسيسية .

وعندئذ قدم لينين وهبط التسر الى الساحة . ولكن المندوبين صاحوا به .

– اخرج ! نحن لا نعرفك !

وساد المهرج من جديد . وبدا كأن لا نهاية له . ولكن ايليتش صمد ، وأمسك بالمنبر بكلتا يديه ، عاقداً العزم على الانتظار لتهدأ العاصفة مهما طال أمدها . ثم أبرز بطاقة :

– ايها الرفاق ، اني لست هنا بوصفي رئيس مجلس مفوضي الشعب ، وانما بوصفي مندوباً بلشفياً الى هذا المؤتمر . هوذا تفويضي .

وكما هي عادته أطلق العنان لفكرته حتى نهاية الشوط :

– إن الملاك يقاومون بكل بدهاء الفلاحين ، كما يقاوم الصناعيون العمال . فهل ستركون البروليتاريا تنقسم على نفسها ؟ الى أي جانب ستقفون ؟ اننا ، نحن البلاشفة ، حزب البروليتاريا ، وحماة السوفييتات العمالية والفلاحية على السواء . إننا نلام على انعزالنا ؟ ولكن على من تقع الخطيئة ؟ لقد طلبنا من الاشتراكيين – الثوريين اليساريين الدخول الى حكومتنا . ومن يحاول القضاء على السوفييتات يقترف فعلاً مضاداً للديموقراطية ، وإنني لأحذركم ، ايها الرفاق الاشتراكيون – الثوريون اليمينيون ، وأنتم ايها السادة الكاديت ،

أن الجمعية التأسيسية اذا ما حاولت المساس بالسوفييتات فلن تتمكنها من ذلك .
إن مصادر الاراضي لا تثير مقاومة الملاك العقارين الروس فحسب ، بل
ايضاً مقاومة الرأسمال الأجنبي الذي يرتبط به ملاك الأراضي عن طريق
المصارف . إن نظام الملكية يفسح المجال امام استغلال خالع العذار . وإنني
لأتوجه اليكم انتم ايها الاثراكيون - الثوريون اليساريون : إن مكانكم ليس
مع تشيرنوف ولا مع افكسانتييف . انفصلوا عن يميني حزبكم . إنني أطالبكم
بتأييد مرسوم الأرض .

وانتقل المؤتمر الى مدرسة الحقوق التي حوّلت الى مقر اللجنة التنفيذية
للسوفييتات الفلاحية . وتوصل لينين الى إقناع ماريا سيريدونوفا وناتانسون ،
زعيم اليساريين من الاثراكيين - الثوريين بالدخول الى التشكيلة الحاكمة .
وتمّ الاتفاق على الاعتراف بمرسوم الأرض وعلى دمج سوفييتات الفلاحين
وسوفييتات العمال والجنود في منظمة واحدة . ولذلك قبل تشيرنوف بالضحك
عندما قال في خطابه الأخير :

- ايها الفلاحون ، إنني لحريص على ان اقول لكم إن البلاشفة لن يقبلوا
مطالبكم أبداً....

ووضع سفير دلوف إكليل زواج السوفييتات :

- ايها الفلاحون ، إنني أدعوكم للحضور الى سمولني الذي هو من الآن
فصاعداً بيتكم ...

وأرخبى الليل سدوله على المدينة المتدثرة بالثلج . وتوارى الملاك العقاريون
عن الأنظار . وانتظم الموجيك في موكب . وصدحت الفرقة الموسيقية التابعة
لكتيبة بافلوفسكي بلحن المارسييز . وأشعلت المشاعل لإضاءة المسيرة نحو
مهد السلطة السوفياتية ، وخفقت اليافظات الحمر مع ريح البلطيق الباردة .
وعند درجات سمولني كان مئات العمال والجنود قد تجمعوا وهم يلوحون
بالرايات الحمر لاستقبال رفاق الارض . والتقى النهاران البشريان في فرح

العناق .

وحول لينين كان مفوضو الشعب ينتظرون في القاعة الكبرى التي اجتاحتها سيل الجماهير . وصاح تروتسكي :

— إنني أرحب بكم ايها الرفاق الفلاحون . فالיום ولدت بشرية جديدة .
وقال كريلنكو :

— ليعلم دوخونين^(١) أننا لن نكون رحماء .

وأعلن ديننكو :

— إن الأسطول كله يبحي اتحادنا .

وأعلن أحد ممثلي نقابة عمال السكك الحديدية :

— بعد ان تحقق الاندماج فإن جميع عمال السكك الحديدية يضعون أنفسهم تحت إمرة الديمقراطية الثورية .

وصرح ممثلو جناح مارتوف وغوركي الأممي :

— لن نترك بعد الآن لجنة السوفييت الموحد .

وتوجّج الشعب نفسه ، ودوى هتاف الظفر . ولكن الصمت سرعان ما ساد من جديد . ووقفت ماريا سيبريدونوفا حبيبة الشعب المظفر ، المناضلة التي استباحها القوزاق قبل خمسة عشر عاماً لأنها قتلت حاكم مسقط رأس جورج بليخانوف ، لتقول :

— أمام عمال روسيا تفتح آفاق لم يعرفها التاريخ . إن العالم القديم ينهار ليولد الجديد .

(١) بالرغم من تدخل كريلنكو الشخصي ، سوف يمزق دوخونين إرباً إرباً في ٣ كانون الاول ١٩١٧ على أيدي جنوده على رصيف محطة موغيليف .

الفهرست

(١) فجر السوفيات

- ١ - عالم ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ .
- ٢ - بتروغراد تتمرد - القيصر في المنفى .
- ٣ - ١٨٧٦ : جورج بليخانوف ، أبو الماركسية الروسية . الأرض والحرية . اغتيال الكسندر الثاني .
- ٤ - ١٨٨١ : الكسندر الثالث ، العاهل المطلق .
- ٥ - ١٨٨٧ : غوركي يحاول الانتحار . إعدام الكسندر اوليانوف . آل اوليانوف وآل كيرنسكي .
- ٦ - ١٨٩٤ : لينين يلتقي بكروبسكايا . تويج نيقولا الثاني .
- ٧ - ١٨٩٥ : لينين في جنيف لدى بليخانوف .
- ١٨٩٧ : لينين يتزوج في سيبيريا .
- ١٨٩٨ : ولادة الحزب الاشتراكي - الديمقراطي في مينسك .
- ٨ - ١٨٩٣ : ماركسيو تفليس : ستالين ، كراسين ، كامنيف ، آللوثيف .
- ١٩٠٠ : لينين يختار المهاجرة .
- ٩ - ١٩٠٠ : إصدار صحيفة « الشرارة » .
- ١٩٠٢ : تروتسكي يزور لينين في لندن .

- ١٠ - ١٩٠١ : إنشاء الحزب الاشتراكي - الثوري الفلاحي . عذابات ماريا سيريدونوفا .
- ١١ - ١٩٠٣ : انقسام الاشتراكيين - الديموقراطيين إلى بلاشفة ومناشفة .
- ١٢ - ١٩٠٣ - ١٩٠٤ : الشبكات الداخلية والاتحادات العمالية .
- ١٣ - شباط ١٩٠٤ : الهجوم على بور - آرثر . اغتيال بليخفي .
- كانون الاول ١٩٠٤ : لإضراب في باكو .
- ١٤ - ٢ كانون الثاني ١٩٠٤ : استسلام بور - آرثر .
- ٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ : الأحد الأحمر .
- ١٥ - ١٦ شباط ١٩٠٥ : اغتيال الدوق الكبير سيرج . غابوني في جنيف .
- ١٦ - ١٩٠٥ : اليابانيون يهزمون الروس . تأسيس السوفييت الأول . اوديسا وبوتسكين .
- ١٧ - ١٩٠٥ : بيان تشرين الأول . تروتسكي في سوفييت بترسبورغ . اعتقاله .
- كانون الأول ١٩٠٥ : لينين يعود إلى روسيا . موسكو تنمرد .
- ١٨ - ١٩٠٦ : راسبوتين في البلاط . قتل غابوني . المصادرات .
- الأول من ايار : اجتماع الدوما الاولى . بير ستوليبين ، رئيس مجلس الوزراء .
- ١٩ - ١٩٠٦ : الإرهاب اليميني . محاولة اغتيال ستوليبين . محاكمة تروتسكي .
- ٢٠ - ١٩٠٧ : الدوما الثانية . مؤتمر النبلاء . الدوما الثالثة .
- ٢١ - ١٩٠٨ : لينين في باريس . مدرستان للثورة . تروتسكي يصدر « البرافدا » في فيينا .
- ٢٢ - ١٤ أيلول ١٩١١ : اغتيال ستوليبين .
- ٢٣ - ١٩١٢ : « برافدا » بترسبورغ . مذبحه اللينا . لينين يقيم في كراكوفيا .
- ٢٤ - ايلول ١٩١٣ : الدوما الرابعة . اعتقال ستالين وسفيرد洛夫 .
- اليوبيل المئوي الثالث لآل رومانوف .
- ٢٥ - ١٩١٤ : الحرب . لينين يعلن في سويسرا فشل الأهمية .

(٢) يوم النداء الكبير

- ٢٦ - ١٩١٤ : الهجومات البطولية . لينين ضد بليخانوف . النواب البلشفيون المنفيون .
- ٢٧ - ١٩١٥ : الشبكات البلشفية في اوروبا المتحاربة . ياشكا الشجاعة . أسر كورنيلوف .
- ٢٨ - حزيران ١٩١٥ : لجنة الصناعات الحربية . ايلول : بيان زيمروالد المعادي للحرب . نيقولا الثاني كبيراً للجنرالات . تفسخ الجبهة .
- ٢٩ - شباط ١٩١٦ : إنتصار لارزيروم . حزيران : هجوم بروسيلوف . الفرار الجماعي .
- ٣٠ - تشرين الثاني ١٩١٦ : بوريشكيفيتش يهاجم القيصرة . مؤتمر النبلاء .
- ٣١ - ٢٩ كانون ١٩١٦ : اغتيال راسبوتين . وفاة والده لينين .
- ٣٢ - كانون الثاني ١٩١٧ : مؤتمر الحلفاء في بتروغراد . غولتزين رئيساً للوزراء . تظاهرات الشارع .
- ٣٣ - ٧ آذار ١٩١٧ : تعليق الدوما . عيد العاملة . تحذير رودزيانكو .
- ٣٤ - ١٠ آذار ١٩١٧ : تمرد حامية بتروغراد . معارك الشوارع . سوفيت العاصمة الجديد . كيرنسكي ، رجل الساعة . البورجوازية تستلم السلطة .
- ٣٥ - ١٣ آذار ١٩١٧ : ثنائية السلطة . كرونشتاد تتحرك . اعتقال وزراء القيصر .
- ٣٦ - ١٤ آذار ١٩١٧ : المرسوم رقم ١ . السوفييت يطالب بإلغاء الاوتوقراطية .
- ٣٧ - لينين وبليخانوف وتروتسكي يسمعون بنياً الثورة . ستالين وكامينيف يعودان من سيبيريا . تنازل نيقولا الثاني . كورنيلوف ، حاكم بتروغراد .
- ٣٨ - آذار ١٩١٧ : عودة الثوريين . وزارة لفوف الأولى . البلاشفة يحتلون قصر كشيسنسكايا . جنازة ساحة آذار .
- ٣٩ - نيسان ١٩١٧ : الولايات المتحدة تدخل الحرب . فيرا فغنز تجمع المؤتمر النسائي .

- ٤٠ - ١٣ نيسان ١٩١٧ : بليخانوف في بتروغراد . لينين يكتب « رسائل من بعيد » . ١٦ نيسان عودة لينين المظفرة : تروتسكي في هاليفاكس .
- ٤١ - لينين في السوفييت . الأول من أيار : مذكرة ميليوكوف الى الحلفاء تغضب البروليتاريا . وزارة لفوف الثانية . عودة تروتسكي وأنتونوف ولوناتفارسكي ومارتوف .
- ٤٢ - ايار - حزيران ١٩١٧ : مؤتمر السوفييتات الفلاحية والمؤتمر الأول لسوفييتات عموم روسيا .
- ٤٣ - حزيران : إنشاء الكتبية النسائية . هجوم كيرنسكي - انفصال اوكرانيا . مظاهرات الشارع الجديدة .
- ٤٤ - ١٦ تموز : لينين يتهم بالحيانة . مهاجمة « البرافدا » . الجنكر يطلقون النار على الجماهير . أيام تموز . مذكرة اعتقال بحق لينين . حكومة كيرنسكي الأولى .
- ٤٥ - ٢٤ تموز : هرب لينين . كورنيوف كبيراً للجزالات . السوفييت في سمولني . انتخاب اللجنة المركزية البلشفية للتمرد المسلح . تروتسكي ينضم الى البلاشفة . الأسرة الامبراطورية تنفى الى طوبولسك .
- ٤٦ - ٢٦ آب ١٩١٧ : مؤتمر موسكو . مؤامرة اليمين ضد كيرنسكي . افتتاح المجمع المقدس . لينين في فنلندا .
- ٤٧ - ٨ ايلول ١٩١٧ : انقلاب كورنيوف . انتحار كريموف . اعتقال كورنيوف .
- ٤٨ - ١٩ ايلول : حكومة مديري كيرنسكي . لينين يدعو إلى الثورة . تروتسكي رئيساً للسوفييت . ٢٠ تشرين الأول : افتتاح البرلمان التمهيدي . آخر رسالة للينين من بعيد .

(٣) هجوم المساء الأخير

- ٤٩ - تشرين الأول ١٩١٧ : نصائح الغائب : عودة لينين .
- ٥٠ - ٢١ تشرين الأول : سفيردولوف وستالين يلاقيان لينين . اجتماع ٢٣ تشرين الأول التاريخي .

- ٥١ - روسيا عشية المساء الكبير .
- ٥٢ - ٢٤ تشرين الأول : الغالبية للبلاشفة .
- ٥٣ - ٣٠ تشرين الأول : « خيانة » زينوفييف وكامينيف . تحديد موعد التمرد في يوم ٧ تشرين الثاني .
- ٥٤ - بليخانوف ضد التمرد . ٤ تشرين الثاني : قسم الشعب . تروتسكي في « بطرس وبولس » .
- ٥٥ - سمولني يتحول إلى قلعة . تنظيم الهجوم .
- ٥٦ - فجر ٦ تشرين الثاني : مهاجمة الصحف . حرب الإعلانات .
- ٥٧ - ٦ تشرين الثاني ، الساعة ١١ : كيرنسكي يطرح مسألة الثقة . الغالبية للبلاشفة في مؤتمر السوفييتات الثاني . تبشير نجاح التمرد .
- ٥٨ - مساء ٦ تشرين الثاني : « اورورا » امام قصر الشتاء. مسيرة لينين التاريخية .
- ٥٩ - منتصف ليل ٦ تشرين الثاني : كيرنسكي ما يزال في السلطة . لينين ينضم الى تروتسكي في سمولني . جلسة طارئة للسوفييتات .
- ٦٠ - فجر ٧ تشرين الثاني : وصول البحارة . احتلال البريد ومصرف الدولة .
- ٦١ - ٧ تشرين الثاني ، الساعة ١٠ : رحيل كيرنسكي . لينين يقبل الحكومة المؤقتة .
- ٦٢ - ٧ تشرين الثاني ، الساعة ١٢ : الدفاع عن قصر الشتاء . تشتيت البرلمان التمهيدي . الساعة ١٤ : وصول الأسطول . الساعة ١٥ : لينين امام سوفييت بتروغراد .
- ٦٣ - ٧ تشرين الثاني ، الساعة ١٨ : إنذار نهائي الى الحكومة المؤقتة . كيرنسكي يلحق بكراسنوف . الساعة ١٩ : احتلال هيئة الأركان . الساعة ٢١ : طلقة اورورا التهديدية .
- ٦٤ - ٧ تشرين الثاني ، الساعة ٢٢ : استسلام السرية النسائية . افتتاح مؤتمر سوفييتات عموم روسيا . ذعر اثناء تقديم « دون كارلوس » . قصف قصر الشتاء من « بطرس وبولس » .

- ٦٥ - ٨ تشرين الثاني ، الساعة ٢ : الهجوم على قصر الشتاء . اعتقال الحكومة المؤقتة .
- ٦٦ - ٨ تشرين الأول : أول حكومة بروليتارية . كيرنسكي وكراسنوف يستنفران « الفرقة المتوحشة » . أول مراسم لينين .
- ٦٧ - ٩ تشرين الثاني : الثورة المضادة تنظم نفسها . الجيش الأحمر الأول .
- ٦٨ - ٩ - ١٠ تشرين الثاني : فاجعة موسكو ، كيرنسكي يستعيد تساركوي - سيلو .
- ٦٩ - ١١ تشرين الثاني : الجنكر يشهرون السلاح من جديد . كراسنوف يسوّف . مأساة مدرسة الضباط التلامذة .
- ٧٠ - ١٢ تشرين الثاني : معركة بولكوفو . عزلة كيرنسكي .
- ٧١ - ١٤ تشرين الثاني : هرب كيرنسكي .
- ٧٢ - ١٥ - ١٦ تشرين الثاني : انتصار موسكو الدامي .
- ٧٣ - المنتصرون أمام امتحان الحكم .
- ٧٤ - عالم العمال والجنود والفلاحين الجديد .

كتب

من منشورات دار الآداب

ق.ل.

- هكذا انتصر الفيتكونغ ترجمة ريمون نشاطي ٢٥٠
الزراع السوفياتي الصيني جورج طرايشي ٥٠٠
كاسترو يتكلم ترجمة فكتور سحاب ٣٥٠
تجارب اشتراكية ترجمة جورج طرايشي ٤٠٠
المرأة والاشتراكية ترجمة جورج طرايشي ٤٠٠
حرب المقاومة الشعبية الجنرال جياب ٣٠٠
قصة المقاومة الفيتنامية الجنرال جياب وآخرون ٣٠٠
الكفاح المسلح دوغلاس هايد ٣٠٠
ماركسية القرن العشرين روجيه غارودي ٤٥٠
ثورة في الثورة ريجي دوبريه ٣٠٠
دفاعاً عن الثورة ريجي دوبريه ٣٠٠
القوة السوداء ستوكلي كارمايكل ٣٥٠
تشريح جثة الاستعمار غي دوبوشير ٦٠٠
مذكرات مالكولم × ترجمة ذوقان قرقوط ٥٥٠
الماركسية والمسألة القومية جورج طرايشي ٥٠٠